Daqqāq, 'Umar.

al-Ittijāh al-qawmī fī al-shi'r al-mu'āṣir.

عُمَر دَقّاق

ماجستير في الآداب

مفتش اللغة العربية وآدابها

الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث

دراسة تحليلية ترصد تيار القومية العربية وروافده
في الشعر العربي بين الحربين العالميتين .

الطبعة الثانية

نشر وتوزيع
مكتبة الشرق بحلب
عبد الشميع عفيش

حازت هذه الدراسة درجة الماجستير
بتقدير « ممتاز » من معهد
الدراسات العربية العالية التابع
لجامعة الدول العربية بالقاهرة

الطبعة الاولى : معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦١
الطبعة الثانية : مكتبة دار الشرق ، حلب ١٩٦٣

تقديم

الشعر من أعرق الموضوعات اتصالا بوجدان الامة التي تبدعه ، ومن ألصق الأمور بملامح شخصيتها ومنازعها في حياتها .

ومنذ القدم امتاز العرب من سائر الأمم بشغف بالأدب لاحد له حتى كانت معجزة الاسلام فيهم أدبية . فقد خالط الشعر حياتهم وكان دور الشاعر فيها بالاجمال كبيراً وطليعياً . وقد روى عن الرسول انه قال « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » وبحق ماقاله ابن خلدون من أن « الشعر ديوان العرب » .

لقد عاش العرب على أدبهم القديم أثناء عصور الظلام فكان خير زاد لهم في محنتهم ، وأثمن دخر قومي صان كيانهم وعصمهم من اليأس .

ولسنا نعرف امة تغلغل الشعر في حياتها تغلغله في العرب . ونظرة واحدة إلى تراثنا الأدبي تجعلنا نخال ان جميع العرب شعراء ، فمن لم يمتلك موهبة نظم الشعر لابد أن يتذوقه ويطرب له . وهكذا غـــدا الشعر ضمير الأمة العربية ، وسفر تاريخها ، ومجلي تفكيرها ومنازعها .

ثم ورث المحدثون عن أجدادهم شغفهم بالشعر وجنوحهم لأن يجعلوا منه عامل خير ورسالة تحرر في مجتمعهم الناهض . ولم يعد مفهوم الشعر لديهم في هذا العصر نزوعاً الى تجميل الأسلوب والتأنق في التعبير والعناية بضروب البديع ، بل غدا ملاءمـــة بين الجمال الفني الخالد الذي لا يختلف جوهره بين الشعر القديم والحديث وبين ذوق العصر النابع من واقع حياة الأمة وتفكيرها ومزاجها .

وتعد الفترة التي عاشها العالم جميعه والعالم العربي بوجه خاص بين الحربين العالميتين من أحفل الحقب وأثقلها بالأحداث . ففي خلالها انهارت نظم ودالت دول وقامت انتفاضات ونشبت ثورات . وكان أثر ذلك كبيراً في المجتمع العربي اهتزت له أعماقه اهتزازاً سياسياً واجتماعياً وثقافياً كبيراً .

ولم يعد المجتمع الحديث بجيله الثائر يرضى للشعر أن يكون كالآنية المرصعة تسر الناظرين برونقها وتثير إعجابهم بعجيب صنعها . فالعربي اليوم بما اتسم به ذوقه وتفكيره من معالم الأصالة والوعي يطمح إلى ان يجد في الأدب صدى وجدانه وحياته وواقعه ، ويأمل أن يقع في الفن على ما يغذي روحه ويتجاوب مع أفكاره ومنازعه ، ومع آلامه وآماله باعتباره إنساناً قبل كل شيء ومواطناً ينتسب إلى شعب هو منه كالخلية من الجسم . كما لم يعد بوسع الأدب العربي أن يستمر في عزلته المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه دون أن يساير الحياة وأن يؤثر فيها ويتأثر بها .

وهكذا استجاب الأدب العربي الحديث على اختلاف فنونه لهذا التطور الخلاق في النفس العربية النزاعة إلى الواقع ، فكان شعر اجتماعي وقومي يشكل ابرز ظاهرة فنية في نتاجنا الأدبي الحديث .

وبذلك غدا لزاماً على كل من يؤرخ الحقبة الحديثة من تاريخ العرب الحافل ويتصدى لرصد وجدانهم الجماعي أن يلجأ إلى الأدب . فالفنون ، والشعر بوجه خاص ، مرآة صافية تنعكس على وجهها الصقيل صور نابضة من حياة الأمة وكفاحها وآلامها وآمالها . وان مافاضت به قرائح الشعراء وما دبجته أقلام الكتاب ليس في جوهره إلا روح الأمة وسفر نضالها .

وبوحي من ذلك كله نشطت البحوث والدراسات الحديثة تولي المنازع الأدبية والفكرية والاجتماعية في حياة العرب اهتمامها . وكان معهد الدراسات العربية العالية في طليعة المؤسسات الثقافية التي نذرت نفسها لهذه الغاية ، ويعد إنشاؤه من أجل ماقامت به جامعة الدول العربية .

وما فكرة هذه الرسالة في الأصل الا من وحي رسالة هذا المعهد العتيد الذي يستمد نسغ الحياة من المنازع الحية المتطورة في المجتمع العربي المعاصر ويشق طريقه قدما في ارساء دعائم الدراسات القومية الحديثة على أساس من التجرد العلمي والبحث المنزه بعد ان خالطتها العاطفة وافسدها الهوى . ونحن احوج ما نكون في دراساتنا القومية والفنية الى نور العقل نكشف به عن الحقيقة لنجعل من ذلك منطلقا ركيناً لحياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية .

وهذا بحث عرضت فيه لمعالجة غرض بارز من اغراض شعرنا الحديث وهو الشعر القومي . وقد حرصت خلاله على تتبع مضمون هذا اللون من الشعر ورصد اتجاهه وما علق به من افكار وما اختلط به من مفاهيم وما رفده من روافد

وقد رأيت ان يشمل بحثي هذا ظاهرة الاتجاه القومي في الشعر الذي صدر عن شعراء الشرق العربي وبخاصة في مصر والشام والعراق . فقد وجدت ان هذه الاقطار ارض النضال ومبعث الحركة الفكرية والأدبية ، وموئل الشعر القومي . ولم اشأ ان يمتد بحثي الى انحاء الشرق العربي كالسودان وربوع الجزيرة العربية املا في لملمة اطراف البحث من جهة ، ولأن مادة المصادر فيها ما تزال غير متوافرة ، عدا ان النتاج الأدبي في هذه البلاد لا يكاد يختلف في جملته - كما بدا لي - عما ذكرنا من ادب الأقطار الأخرى . كما انني رأيت ان الشطر الآخر من العالم العربي المعروف بالشمال الأفريقي او المغرب العربي يحتاج الى دراسات جدية كاملة تكشف عما كان لظروفه ومعضلاته من اثر في منازعه الفكرية والأدبية التي بقيت امداً طويلاً معزولة عن سائر العالم العربي .

ولم اجد بداً من جهة اخرى من ربط ما قاله الشعراء العرب في مهجرهم بما صدر عن اخوانهم في الوطن بعد ان تبين ان شعرهم في هذا المجال كان امتداداً لشعر المشارقة يعالج قضاياهم ويتحسس بمشاعرهم ويتجاوب مع آلامهم وآمالهم ويؤلف معهم وحدة ثقافية وفكرية .

وقد بدا لي اول الأمر ان الرقعة المكانية التي آثرتها بالدراسة شديدة الاتساع وانه من الخير ان اقتصر على دراسة الشعر القومي في سورية او مصر

او الشام لأكون اقدر على تعمق البحث ورصد دقائق الاتجاهات والمنازع ، إلا ان الاستاذ الكبير ساطع الحصري اشار علي بحق بأن هذا الاجتزاء ليس محمودا في الدراسات القومية التي تعد الوحدة الثقافية والفكرية والاجتماعية من مقوماتها .

اما حدود الفترة الزمانية التي رأيت ان يبقى بحثي ضمنها فهي بين الحربين العالميتين ، ولم اجد من المعالم والأحداث ما يضارع هذين الحدثين اهمية وشمولا ، عدا ان الفترة بينهما تعد مرحلة متميزة من المراحل الحاسمة في حياة العرب اتفقت في ابتدائها وانتهائها مع حدثين قوميين شاملين هما قيام الثورة العربية الكبرى إبان الحرب الأولى وانبثاق جامعة الدول العربية في اواخر الحرب الثانية . فضلا عن انها الفترة الحاسمة من حياة العرب الحديثة التي شهدت مد الاحتلال والحضارة .

ومن جهة اخرى رأيت ان اقف في بحثي عند هذا الحد من الزمن دون ان أعدوه الى فترة ما بعد الحرب الثانية التي نعيشها اليوم . فقد تبين لي ان هذه الحقبة المعاصرة مرحلة جديدة اتسمت فيها الحياة الأدبية والسياسية بطابع انقلابي ثائر ، وهي لذلك جديرة بأن تفرد في بحث مستقل ، بالاضافة الى ما بدا لي من ان دراسة هذه الفترة ستكون ناقصة من وجوه كثيرة ما دام لهيب النضال مستعراً وغبار الجهاد ثائراً ولا بد قبل كل شيء من ان تهدأ الخواطر وتتضح الملامح وتقر المنازع .

ولما كان من العسير حصر الاتجاهات الفكرية والتيارات الأدبية حصراً تاما في حدود زمانية معينة لما لها من جذور سابقة وذيول لاحقة رأيتني في بعض الأحيان مضطرا الى تخطي هذا الحد كأن اعود الى ما لا بد من التمهيد به في سبيل رصد الاتجاه وتتبع تطوره .

وليس بخاف ما يتعرض له كل من يتصدى للدراسات المعاصرة من صعاب ومزالق نظراً لعدم استقرار الرأي حولها ، ولاتصال الدراسة ببعض الاحياء من الشعراء او الحكام مما قد يؤخذ مأخذ المحاباة او التحامل او التجاهل ، إلا أن

رائدي كان في ذلك الحق والتجرد . وقد حرصت على ان أكون خلال بحثي موضوعياً بعيداً عن الهوى والعاطفة والتعصب ولو كان ذلك في المجال القومي . وما جدوى ايمان اعمى كأيمان العجائز قد ينطوي على مفسدة للبحث وتجن على الحقيقة .

اما المنهج الذي آثرته في هذه الدراسة فهو انني عددت تيار القوميـــة العربية اصلا فجعلته في باب ، كما وجدت له من الروافد والنوازع الهامة التي صحبته وأثرت في سيره وتكوينه مما يستقل بباب آخر ، وكان الباب الثالث ينطوي اخيراً على الموضوعات البارزة التي كانت محور المضمون القـــومي في الشعر الحديث .

وكان طبيعياً ان اتخذ من الطريقة التاريخية الى جانب الطريقة التحليلية منهجاً لي في البحث،وان اجعل من الأحداث التي أنطقت الشعراء وأثرت في الأدب او تأثرت به إطاراً لمراحل دراستي ، اذ لا سبيل الى رصد الاتجاه القومي وتفهم تطوره خلال سيره مواكبا التيارات الاجتماعية والسياسية والنفسية دون الاهتداء بمعالم التاريخ واحداثه . والشعر القومي وثيق الصلة بالمجتمع بل مظهر رفيع من مظاهر نشاطه الحيوي . والأمر كما يراه « لسنج » في ان للمصور لحة في المكان وللشاعر لمحات تتوالى في الزمان ، اي ان الشاعر يصور الحركة والحدث في الكون والحياة وفي الطبيعة والمجتمع . ودراسة التطور اي رصد انتقال الأفكار والتيارات والاتجاهات من طور الى طور انما يعني تتبعها عبر الزمان وهذا هو مجال التاريخ الأدبي .

وقد انهمكت اول الأمر شهوراً مديدة في جمع النصوص واستقصائها ، ثم تنسيقها وترتيب الأشباه والنظائر منها ، واستقراء محتواها ، وملاحظة اثر البيئة والأحداث فيها ، ثم الموازنة بينها ، واخيراً الانتهاء الى استجلاء التيار الغالب والاتجاه السائد من خلالها .

ولم أغفل في الوقت نفسه الكشف عن النواحي الفنية الوثيقة الصلة بالموضوع . إذ لم يغب عن خاطري لحظة ان ما كنت بصدد دراسته

شعر قبل كل شيء .

وبوحي من هذه الطريقة اوليت اهتمامي التيار الشامل قبل الشاعر ، والنزعة السائدة قبل الحادث العارض . ولم اعرض لشعر او شاعر الا من حيث إفصاحه عن اتجاه او إبانته عن منزع ، وحرصت على وضع كل شاعر في الاطار الذي عاش فيه ، ولم انظر الى ما يصدر عنه من شعر منبتاً عما حوله من الظروف والملابسات . ولهذا جعلت رائدي في الحكم له او عليه ملاحظة ما كان فيه هو ومجتمعه لا ما نحن فيه اليوم .

كذلك لم انصب من نفسي ترجماناً لحياة الشعراء وإنما كانت غايتي متابعة التطور القومي في الشعر الحديث بوصفه اداة معبرة عن حياة امة ، وتتبع اتجاهه وهو يسير وئيداً ومتعثراً وغامضاً ، او يهب جلياً ناشطاً . او ثائراً جارفاً كالاعصار .

اما الشعر السياسي المحض الذي يدور في فلك الحياة اليومية العابرة والمجالات المحدودة الضيقة فقد استبعدته من دائرة اهتمامي لأن رائحة النضال لا تعبق منه ، إلا ما بدا لي ضروريا في مقارنته بالشعر القومي وايضاحه حقيقة المنازع الفكرية والفنية .

وقد يبدو غريباً ان يصلح الأدب مادة اساسية يوثق بها ويعتمد عليها في تاريخ الاتجاه القومي لدى جيل من الأجيال في حين علك التاريخ من الوثائق والمستندات ما لا تملكه الشعر الذي يقيم للعاطفة الشخصية والمشاعر الذاتية شأناً كبيراً !!

والواقع انه علينا ان ندرك قبل كل شيء ان الفن ليس انفعالا جارفا لا علاقة للارادة فيه ، ولكنه انفعال منظم يتم وفقاً لارادة صاحبه ويأتلف مع تفكيره . والقصيد الفني خلق جديد يبدعه الشاعر نتيجة عملية شعورية يشارك العقل في اخراجها الى النور . والفكر ردف للفن يغذيه ويلونه ويوسع امامه الآفاق ، وإن بين جنبي كل شاعر كبير عقلا كبيراً يحمل موهبته وعبقريته .

فالانفعال يختلط بالذهن في العمل الأدبي ولا يمكن فصل احدهما عن الآخر سواء في الانسان نفسه ام في الاثر الفني ، فهما متداخلان يؤثر كل منهما في الآخر . وعند ذلك تغدو الفكرة نفسها مزجاة بعاطفة الشاعر بعد ان تلفحها حرارة انفاسه .

والواقع ان الشعر والفن بصورة عامة اصدق تعبيراً عن طبيعة الانسان وتصويراً لمنازعه . ومن هنا ايضاً كان الشعر القومي ادل على حقيقة الوجدان الجماعي وتصوير اتجاهات الشعوب العربية ومنازعها برغم انه قد لا يجاري التاريخ في مدى احاطته ، ودقة تسجيله ورصده لأحداث المجتمع ؛ ومبلغ تقيده بالواقع المحسوس . الا ان الفن وحده هو القادر بأداته المعبرة عن التجربة الانسانية الداخلية ان يسبر غور النفس وينقل انطباعاتها وتأثراتها بالعالم الخارجي بعد ان تتفاعل معه . ومن هنا كنت حريصاً على رصد الوجدان القومي في نفوس العرب من خلال أشعار تلك الصفوة الممتازة التي كانت الطليعة الواعية للأمة ولسانها الناطق وقلبها الخافق .

وهذا هو ايضا من اسباب عدم اكتفاء الناقد بما تنقله قصيدة واحدة تصدر عن مؤثر خارجي في نفس الشاعر ، لان الخبر المنقول وحده ليس عمدة في ذلك ، فضلا عن انه في التاريخ اكثر ضبطاً ودقة . والشأن هو في الانفعال وتلون المشاعر واختلاف الانطباعات برغم كون المؤثر واحداً .

وهذه الخاصة هي من سمات الفن الذي يباين العلم ، لأن للعنصر الذاتي شأناً كبيراً في تكوينه . وهذا ما دعانا بالتالي الى ايراد نماذج متعددة لجملة من الشعراء خلال بحثنا ، في سبيل تبين حقيقة الانطباعات التي كانت ترتسم في وجدان زمرة من الأمة او في ضمير صفوة منها وهم الشعراء نتيجة لحدث معين ضمن نطاق محدد من الزمان والمكان . لأن مدى التأثر ونوعه تجاه مشهد او حادث او قطعة موسيقية او لوحة او قصيدة قد يختلف بين النفوس الانسانية ، كما ان طريقة التعبير عن هذا الأثر او الانفعال تختلف اختلاف معالم الوجه ولون العيون ونبرات

الصوت وبصمات الاصابع . وان التفرد والتميز والذاتية من سمات الأدب ومقومات الفن ، والتشابه التام بين عملين ادبيين اصيلين لا وجود له .

★ ★ ★

ولا بد لي هنا من إيضاح بعض المصطلحات التي يتردد ذكرها في ثنايا هذه الرسالة مثل لفظ الشعب والامة والوطنية والقومية (١)

فالشعب جزء من الأمة وفي اساس البلاغة « العرب شعوب » كأن تقول شعب العراق وشعب فلسطين او شعب بيروت او شعب القاهرة وهذا ما يقابل كلمة Peuple فالأمة العربية جماع الشعوب العربية ، وقد تستعمل لفظة الشعب بمعنى الامة كأن تقول : الشعب العربي او الشعب الفرنسي .

« والأمة ، وتقابل كلمة Nation جماعة من الناس يقطنون بقعة من الأرض معلومة ، ولهم لغة واحدة في الأعم واخلاق متشابهة وماض مشترك في الامجاد والآلام ، وحاضر مشترك في التفكير والمصالح » .

والوطن Patrie في الاصطلاح الحديث « البلد او القطر الذي ينسب اليه المرء من حيث جنسيته او تابعيته خلافا لما جاء في المعجمات ، والوطنية حب الوطن والعمل في خيره ، وهي لغوياً مصدر صناعي مشتق حديثاً بزيادة ياء النسب والتاء على كلمة الوطن مثل قول القدماء عروبية وجاهلية وكيفية وكمية ، ومن قرارات مجمع اللغة العربية اعتبار هذا الاشتقاق قياسياً . وكلمة الوطن تعني القطر الذي ينتسب المرء اليه ويقطنه شعب من الشعوب . وقد يستعمل بمدلول اوسع فيراد به الوطن الكبير الذي تعيش الأمة فوق ربوعه .

والقوم في اللغة الجماعة من الرجال والنساء جميعاً . ويذكر ويؤنث مثل رهط ونفر وكل ما كان للآدميين من اسماء الجموع التي لا واحد لها ، ونحن في الاصطلاح الحديث نستعمل لفظة القوم بمعنى الأمة .

---

(١) اعتمدنا في تعريف هذه الإصطلاحات على ما اورده الأمير مصطفى الشهابي في كتابه « محاضرات في القومية العربية » ص ٣-٥

وقد اشتققنا من القوم مصدراً صناعياً هو القومية Nationalité وكان من الواجب ان نشتق من الأمة مصدراً كهذا المصدر وهو (الأمية) ولكن لهذه الكلمة في اللغة معنى آخر مشهوراً ، تخوف الالتباس حملنا على العدول عنه . »

فالشعر الوطني ما تعلق بقضية الوطن او الشعب الذي يقطن قطراً معينا وهو اضيق من مدلول الشعر القومي الذي يتسع ليشمل الأمة اي مجموعة الشعوب الشقيقة .

واذا كان الوطن في معجماتنا المنزل الذي يقيم فيه المرء فان الوطنيه تبدأ بحب المنزل ومسقط الرأس ، وان كان القوم هم الأسرة والاقارب فان القومية تبدأ بحب الاهل .

★ ★ ★

ويجدر بي القول الآن انني في سبيل استكمال عناصر هذه الرسالة كان لا بد لي من ان اعتمد على مقدار كبير من الدواوين والمجموعات الشعرية اربت على المائة عدداً ، خلا كثير مما تصفحته ولم اجد فيه ما نشدته ، وان اطالع قدراً محدوداً من الصحف والمجلات استمد النصوص الملائمة للموضوع ، وكان جل اعتمادي على المطبوع من هذه النصوص الا فيما ندر . وقد وجدت ضالتي في مكتبات حلب ودمشق وبيروت والقاهرة وبخاصة ما كانت تحتويه مكتبة معهد الدراسات العربية العالية من مصادر شعر الاقطار العربية . ولولاها لما جاء البحث على هذا الشكل من الاحاطه والشمول . ومن هنا ايضا انطوت هذه الدراسة على مجموعة مختارة وافية من الشعر القومي الحديث قل ان اجتمع مثلها في كتاب .

كما انني وقفت على عدد من الدراسات القيمة التي كان لها فضل السبق وشق الطريق ، في مقدمتها كتاب الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور م محمد حسين ، والاتجاهات الأدبية الحديثة للاستاذ انيس المقدسي ، وكلاهما اتخذ من الشعر والنثر مادة له ، ثم كتاب شعر الحماسة والعروبة للدكتور امجد الطرابلسي

وقد اقتصر على بحث هذا الموضوع في بلاد الشام . ولقد افدت من جهود هؤلاء الاجلاء ، كما افدت من جهود الكثيرين سواهم فيما دبجته اقلامهم من بحوث وما القوه من كتب ، وكان الى جانب ذلك جهدي واجتهادي .

واني ارجو ان يكون في رسالتي هذه وما لقيت في اعدادها على هذا الشكل من عناء مرضاة للحقيقة ولضميري ولأمتي ، وانا اول من يعترف بما قد يكون فيها من نقائص وعيوب ، كما اقر مع العماد الاصفهاني رحمه الله بأنه « لا يكتب انسان كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان احسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان افضل ، ولو ترك هذا لكان اجمل . وهذا من اعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على البشر »

★ ★ ★

وبعد ، لقد انقضى زهاء عامين على نشر الطبعة الأولى من هذه الدراسة التي صدرت في القاهرة سنة ١٩٦١ في سلسلة منشورات معهد الدراسات العربية العالية بقرار كريم من مجلس القسم فيه وبتوصية كريمة من لجنة المناقشة التي اولتني شرف المثول امام اعضائها : الدكتورة سهير القلماوي والدكتور اسحق موسى الحسيني والأستاذ محمد خلف الله احمد ؛ ويسعدني اليوم ان تجدد هذه الدراسة شبابها في طبعتها الثانية المنقحة لتطلع مرة اخرى على قومي العرب الذين سيكون من مفاخر جيلهم - فيما يقول التاريخ - ان ينتهي الاستعمار على ايديهم ، فقد كان تجاوبهم مع الكتاب في طبعته الأولى الحافز الأول على المضي قدماً في هذا المضمار من الدراسات المنهجية . وعزمي بعون الله بات وطيداً في ان أتبع هذا الكتاب كتاباً آخر اضع فيه هذا « الشعر القومي في الميزان » ميزان النقد والتحليل ، وأعرض فيه بالدراسة والمقارنة لأساليبه وتياراته ومدى علاقته بمناحي الفن ودواعي السياسة ، وذلك في حلقة اخرى جديدة ارجو بها ان تتكامل مراحل دراسة هذا الجانب الاساسي من حياتنا الادبية والقومية والله الموفق .

حلب : ايلول ١٩٦٢

عمر دقاق

المدخل

بواكير الشعر القومي

كان القرن الثامن عشر آخر حلقة من سلسلة عصور الركود والجهل والفساد في الشرق العربي ، فقد كانت هذه البلاد في حوزة الدولة العثمانية ، وطال أمد خضوعها لاستبداد المماليك والترك .

ومع هذا التأخر الذي ساد اقطار العرب خلال تلك العهود فان بصيصاً من نور أخذ يلوح ضئيلا في بعض مدن الشام في القرن السابع عشر (١) ففي حلب ترجم الانجيل عن السريانية ، وعرفت اول مطبعة في الشرق وتأسس اول مجمع علمي ، كما ظهر في بلاد اخرى وخاصة في لبنان بعض رجال الأدب والعلم واكثرهم من الاكليروس حيث أخذت تنشأ المدارس الدينية والمؤسسات الثقافية بتأثير البعثات التبشيرية التي كانت تفد الى البلاد .

وكان كل ذلك من بوادر اليقظة المرتقبة وايذاناً بانبثاق عهد جديد . وما إن أهل القرن التاسع عشر ، واشتد الاحتكاك بالغرب وتنبه النيام على اصوات مدافع نابليون تقرع أذن أبي الهول حتى أخذ شعاع النهضة يبدد سريعاً ظلمات العهود السابقة بفضل تلك الشعلة المباركة التي طلعت من الشام ومصر وامتدت منهما الى سائر اطراف العالم العربي .

لقد كانت الترك فادحة صنعتها عهود مديدة من الذل والانحطاط والجهل والتأخر ، خرج منها العرب كمن يتخلص من كابوس وينفض عنه غبار السنين..

(١) انظر جرجي زيدان : التاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ٧

ولولا أصالة جعلها الله في نفوس العرب مكنتهم من الاحتفاظ بمقوماتهم في لغتهم وقوميتهم وعقيدتهم التي صانها رجال الازهر والزيتونة والنجف وسواهم في القرون الماضية المظلمة لما قيض لهذه الامة ان تقف على قدميها من جديد .

ان آفات الفقر والجهل والمرض التي نابت العرب لم تبق في مصر حتى فجر النهضة سوى ثلاثة ملايين من الناس [1] . وقد قدم الاتراك ارض الكنانة المنكوبة هدية باردة لطموح نابليون الذي لا يحد ... بينما تمكنوا الى حين من الاحتفاظ بسائر الشرق العربي بسبب من ضعفه لا من قوتهم .

وتغيرت حال مصر منذ ذلك الحين ، بعد ان تسلم محمد علي زمام الامور وأخذ يمد يده الى اوربا يروم الاستفادة من خبرتها وتقدمها .

على ان الحركة الادبية لم تنشط في بادىء الامر نظراً لان اهتمام محمد علي اقتصر على تشجيع العلوم وتقوية الجيش ، ولم تكن المطابع قد قذفت بعد بالكتب .

أما السنوات الثلاث التي قضاها جيش نابليون في مصر فقد « كانت جميعها جهاداً عنيفاً وصراعاً مريراً قاسياً بين الشعب المصري والمعتدين ... وكان لهذه المقاومة الباسلة وهذا الكفاح المرير أثرهما في نشأة الشعور القومي عند المصريين ، واحساسهم العميق بحقوقهم الشرعية في حكم بلادهم [2] » .

ولعل من أقدم مظاهر هذا الشعور ما بدا « من سياسة ابراهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة العثمانية وتأسيس مملكة عربية كبيرة » [3] ، وكان يعد نفسه عربياً ويحب أن يعده الناس كذلك [4] .

---

(١) المصدر السابق ٤ : ٧

(٢) الدكتور شوقي ضيف : الادب العربي المعاصر ٣

(٣) أنيس المقدسي : الاتجاهات الادبية ١ : ١١

(٤) جورج انطونيوس : يقظة العرب ١٨

ومن مظاهر ذلك الشعور العربي الذي تملكه ما تفوه به في قولته المشهورة : « ما أنا بتركي ، بل أنا ابن مصر ، ان شمسها قد غيرت دمي فجعلتني عربياً قحاً » . ومع إقرارنا باحتمال وجود دوافع توسعية في نفس ابراهيم باشا كانت تشوب نزعته العربية ، فاننا نجد في عبارته تلك ما يؤكد عروبة مصر وأبنائها ويشير الى عزم ذلك القائد على إقامة دولة حديثة على أسس جديدة قومية وليست دينية . « ان ابراهيم لم يخف ما كان يرمي اليه من العمل على بعث الوعي القومي في العرب واعادة بناء القومية العربية ، وايجاد شعور بالوطنية صحيح عند العرب واشراكهم في حكم امبراطورية المستقبل اشراكا تاما ، كما انه يصرح بانه بعد أفكار أبيه ضيقة ولا تعدو ان تكون أفكاراً استعمارية (١) .

ويمكن ان نعتبر التفاف الشاميين وبخاصة النصارى حول ابراهيم باشا حين فتح سوريا ، تأكيداً لهذه الروح القومية الجديدة التي اخذت تظهر في الشرق العربي منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر .

ولا ريب في ان تراجع الجيش المصري بعد ذلك الى ما وراء حدوده قد جمد الفكرة القومية في النفوس وعاق انطلاقها الى حين ، وهي بعد وليدة لا تعدو ان تكون مفهوما غائما عن العروبة في أذهان الناس . ومنذ ذلك الوقت باعدت الظروف بين مصر وبين أقطار الشرق العربي وبخاصة في أعقاب ثورة عرابي والاحتلال الانجليزي .

وهذا الشعور القومي المبكر الذي ظهرت بوادره في مصر قبل ان تظهر في سائر الشرق العربي أخذ يجد صداه في الأدب ويثير النزعة الوطنية في نفوس الشعراء والخطباء والكتاب . ويقرن عبدالرحمن الرافعي ظهور الروح الوطنية في الشعر المصري بظهور الحركة الوطنية نفسها في أوائل القرن التاسع عشر ، ويرى ان أول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوي (٢) أما عباس محمود العقاد فيرى ان طلائع النهضة الشعرية أخذت تظهر في مصر بظهور طلائع الثورة التي

---

(١) المرجع السابق ٨ - ١٩
(٢) شعراء الوطنية ٦

عرفت بعد باسم الثورة العرابية إذ « دبت في نفوس المصريين أريحية الشعور الوطني وثقة العارف بحقه ، المنكر لما هو فيه من بخس وإهمال (١) .

وفي الشام اخذت طلائع اليقظة القومية بالظهور خلال هذه الفترة نفسها او بعدها بسنوات وبخاصة في أثناء حكم الوالي مدحت باشا في ولاية الشام عام ١٨٧٧

أما في العراق فكانت النهضة الأدبية تسير ببطء الى الامام لان احتكاك هذا القطر بالغرب كاد يكون منعدما نظراً لوضعه الجغرافي الداخلي ، ولندرة المطابع وضآلة المدارس ، ومع ذلك ظهر في العراق عدد من الادباء الشعراء أمثال ابن الصباغ والشهاب الألوسي ثم محمود شكري الألوسي وعبد الغفار الاخرس وسواهم ، في حين كان في الشام من أمثال هؤلاء الشيخ ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم والشيخ أمين الجندي ثم فرنسيس المراش وإبراهيم الأحدب ، والشيخ نجيب الحداد وجبرائيل دلال . وأما في مصر فقد برز أعلام في الادب بعضهم مارس الشعر وبعضهم اقتصر عليه وكان منهم محمود صفوت الساعاتي وصالح مجدي ، وعبدالله فكري وعلي الليثي ومحمود سامي البارودي .

ولم يكن الشعر القومي أو الوطني غرضاً مألوفا لدى الشعراء حتى القرن التاسع عشر ، إذ أن مفهوم الشعر لم يكن يعدو في ذهنهم ما توارثوه من الاغراض التقليدية ، التي يشوبها غير قليل من آثار الضعف الفني المتبقي من عهود الانحطاط إلا ان عدداً من هؤلاء الشعراء في مصر والشام والعراق كان يمارس نمطاً من الشعر القومي أشبه شيء بالشعر الحماسي الذي عرفه العرب في عصورهم الغابرة .

والواقع ان الظروف السياسية التي كانت تحياها مصر في ظل الاحتلال الانكليزي كانت تختلف عنها في الشام والعراق الداخلين في نطاق الدولة العثمانية . فقد كان وجود الأجنبي فوق أرض الوطن حافزاً قوياً للمشاعر القومية لم يكن في الشام والعراق ما يضارعه قوة وتأثيراً ، بينما لم ينظر إلى الحكم التركي بهذا المنظار تبعاً لاشتراك الترك وغالبية العرب في الشعور الديني . ومن هنا كان

«١» العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ٨ - ١٢

الانتقاض على العثمانيين يقتضي طرح العامل الديني جانباً والاعتماد على العنصر القومي وحده وهذا لم يتيسر للعرب إلا في فترة متأخرة نسبياً حين ثاروا على الترك ابان الحرب العالمية الاولى وبعد ان نضجت مشاعرهم القومية ووعيهم السياسي الى حد كبير، في حين استدعى الامر في مصر الاعتماد على العامل الديني باعتباره عنصراً فعالا في مقاومة الاحتلال الانكليزي .. وقد تجلى كل ذلك في الشعر الحديث فكان شعراء مصر اكثر تمسكا بالجامعة الاسلامية، يضاف الى هذا اسباب اخرى منها عطف المصريين على الترك وعلى نظام الخلافة بسبب انحسار الحكم العثماني عنهم في وقت مبكر وبالتالي عدم شعورهم بالنقمة التي كان يشعر بها الشاميون والعراقيون تجاه مظالم الترك .

وعلى هذا فان بواكير الشعر القومي بنزعته العربية الصافية لا نجدها الا في الشام والعراق والمهجر وبخاصة لدى عدد من الشعراء العرب المسيحيين الذين لم يستشعروا بحكم عقيدتهم اية صلة - دينية او قومية - تربطهم بالترك وتجعلهم يستمرون في الخضوع لهم . ولذلك كانت طائفة منهم اسبق من سائر المواطنين العرب الى التحسس بالمشاعر القومية العربية .

« ومن اقدم ما نجده من الشعر في هذا الاتجاه الابيات التالية للشيخ امين بن خالد الجندي الشاعر الحمصي المعروف المتوفى سنة ١٨٤١ م، الذي عاصر حملة ابراهيم باشا، وهي تمثل صرخة من اقدم الصرخات التي اطلقها شعراء الشام تذمراً من جور الاتراك ومظالمهم (١) وقد صادق ابراهيم باشا وصحبه في غزواته وبعد ذلك قبض عليه الاتراك وسجنوه في الاصطبل عام ١٨٣٠ (٢) ومما قاله (٣) :

سلبوا البلاد من العباد فلا ترى	في حكمهم ذا نعمة متمولا
والملك ملك الله يؤتيه لمن	قد شاء لا هو بالوراثة والولا
من مخبر الاتراك ان جيوشهم	هزمت وان (حسينهم) ولي الى

«١» الدكتور احمد الطرابيسي : شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ١١

«٢» جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ٢١١

«٣» ادهم الجندي : اعلام الادب والفن ٢٧

فالشاعر لا يستطيع ان يخفي فرحته بانتصار جيش مصر العربي على جيش الترك .

كما نجد ابياتا اخرى في المناسبة نفسها للمعلم بطرس كرامة يهنىء فيها ابراهيم باشا بفتح عكا

ومن العجيب ان يكون ابراهيم اليازجي ذلك اللغوي المحقق والعالم الباحث قد نظم اروع الشعر القومي آنذاك ومنذ عام ١٨٦٨ حين كان في العشرين من عمره يتأجج حماسة (١) . وقد غدا « عضو الجمعية العلمية الوطنية التي تشكلت سنة ١٨٧٥ وكان تأسيسها اول ظاهرة من ظواهر الوعي القومي » (٢) وقصائده الثلاث ، الميمية والبائية والسينية اشهر من ان نذكرها في هذه العجالة ولكننا نجتزىء بعض ابياتها ، فالميمية مطلعها (٣) :

سلام ايها العرب الكرام   وجاد ربوع قطركم الغمام

وفيها يقول :

وما العرب الكرام سوى نصال   لها في اجفن العليا مقام
ونحن اولو المآثر من قديم   وان جحدت مآثرنا اللئام

اما البائية وقد طارت شهرتها فمطلعها (٤) :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب   فقد طمى السيل حتى غاصت الركب

وفيها يقول :

فيم التعلل بالآمال تخدعكم   وانتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم   تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

«١» انظر انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية ١ ، ٨٠ .

«٢» جورج انطونيوس ، يقظة العرب ٤٨

«٣» لويس شيخو ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ٢ ، ٤٠

«٤» نشرت القصيدة في جريدة لشير بالعدد ٨٠ ، ٢٥ ابريل ١٨٩٦ س ٦٧١ وتبلغ ٤٨ بيتا مهد لها الشاعر بكلمة نثريه ولم يفصح عن اسمه والمشهور أنها له وقد نشرت كاملة في ديوان « العقد » لابراهيم اليازجي ص ٥٦ وهو يشير الى ان سنة نظمها كانت عام ١٨٨٣

لا دولة لـــكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

وأما السينية فهي تضارع سابقتها في شهرتها ومنها قوله (١) :

دع مجلس الغيـــد الأوانس وهوى لواحظهـا النواعس
أي النعيم لمن يبيت — على بساط الذل جالس
ولمن تباع حقوقـــه ودماؤه بيع الخسائس
الترك قوم لا يفوز لديهم إلا المشاكس

« إن عدداً من هذه الأشعار ألقاها ابراهيم اليازجي بصوت هامس أمام ثمانية من الأعضاء الذين وحدتهم الفكرة المشتركة » (٢) لقد كانت هذه القصائد وأمثالها صيحات مدوية جلجلت أصداؤها في أرجاء الشام وسارت في الآفاق حتى غدت على كل لسان . « وان السبب لانتشارها يعود الى انها رددت صدى الشعور الذي كان كامناً في نفوس من وجهت اليهم الخطاب فايقظت فيهم صادق العواطف » (٣) وكانت من اسباب نقمة السلطان على مدحت باشا والي الشام ، اذ ان اقدم النشرات السرية التي كانت تلصق على جدران بيروت عام ١٨٨٠ اختتمت بمقطعات من تلك الاشعار (٤) واهمية هذه الابيات تبدو في كونها اقدم شعر قومي عربي النزعة في النهضة الحديثة ، فقد تجلت من خلالها الفكرة القومية المشبعة بروح الثوره على الاستبداد والتمرد على الحكم الاجنبي ، واستمدت عناصرها من ماضي العرب المجيد وواقعهم الاليم . والحق ان ما اوردناه لليازجي من قصائد ، على قلته ، استطاع ان يجعل منه بحق شاعرا قومياً بل رائداً من رواد الشعر القومي في ادبنا العربي الحديث .

---

(١) القصيدة كاملة في ، العقد ، ص ٩٥ ونظمت ايضا عام ١٨٨٣ وتقع في ٦٠ بيتا
(٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب ٤٩
(٣) المرجع السابق
(٤) المرجع السابق ٨٥

كما ان بوادر التمرد على الحكم العثماني ظهرت قوية ايضاً لدى رزق الله حسون الحلبي رائد الصحافة ، فهو في ابياته التالية التي تعتبر في طليعة بواكير الشعر القومي لم يستطع كتمان فرحته بانكسار الترك في الحرب الروسية العثمانية ۱۸۷۸ حيث يقول (۱) :

كم حروب للروس دارت على الترك رحاها فغادرتها طحينا
هكذا هكذا تدور على الباغي الليـــالي ويهلك المجرمونا

وفي ديوانه (النفثات) نمط جديد من الشعر القومي يشير إلى تأثر عدد من مثقفي تلك الفترة بالآداب الأجنبية كالقصص الروسي وسواه « ويظهر ان الأدب الرمزي الذي اعتمده بعض ادباء الروس في نقد أساليب الحكم القيصري قد صادف هوى في نفس رزق الله حسون، فنقل تلك القصص ليشير إلى فساد الحكم في العهد العثماني، فالقصائد العربية تصور لنا فساد الحكم على ألسنة الحيوانات وتشير الى صلف الحكام وقسوتهم ، وترينا تحكم الأقوياء في الضعفاء » (۲)، وهذا النمط من الشعر الرمزي يعتمد على التلميح حين يتعذر التصريح .

ومن الشعراء المتطرفين الذين لم يجدوا حلاً ناجعاً لدولة الرجل المريض سوى هدم كيانه ، قول سليم سركيس صاحب جريدة المشير (۳) :

يا أهل سوريا القساور من كل مفخور وفاخر
أفترتضون صـــغارة لم يرضها في الناس صاغر

ومن مشهور أبياته (٤) :

زجو صلاح الترك قد خابت أمانينا الكواذب

---

(۱) نشرت الابيات في جريدة المشير العدد ۲۱ ، انظر ايضا المقدسي ۱ ـ ۲۳
(۲) سامي الكيالي ـ الحركة الادبية في حلب ٤٤
(۳) المشير ۱۱ مايو ۱۸۹٥
(٤) المشير ۲۱ أبريل ۱۸۹۷ المقدسي ـ ۱ ـ ۱۷

هي دولة ظلمت وليس ـ العدل عن ظلم بذاهب
ليس العجيبة فقدها … بل عيشها إحدى العجائب

وفي هذه الأبيات نفحة من روح اليازجي وثورته .

ومن هذا الاتجاه المنيف الثائر قصيدة (العرش والهيكل) لجبرائيل دلال الحلبي وهي تمتاز بجرأتها وصراحتها ، وكان الشاعر قد نظمها في باريس حيث عبر بحرية عن آرائه في جور السلطان وشعوذة الكهنوت ، ومما قاله فيها منددا بالاستبداد الحميدي (١) .

فلم الخضوع لذى البغاة ومالها … عجباً تتيه بتاجها وقضيبها
هل انها إلا أناس مثلنا … وبنا ومنا العزم في تغليبها
فالجيش من أولادنا لقتالها … والبذخ من أموالنا لمعيبها

ثم يحض الدلال قومه العرب على الثورة بقوله :

يا غافلين تنبهوا من رقدة … طالت لسعد الوحش في تأديبها
هيا انهضوا وبطردها اجتهدوا فقد … ساد الدمار وعم من تخريبها
حتى يرى كل الورى فوق الثرى … بالأمن يرعى شاتها مع ذيبها

على ان ثمن هذه الجرأة كان غالياً ، إذ غيب صاحبها في أعماق السجن حيث قضى لوعة وأسى (٢) :

وكان الشيخ نجيب الحداد من رواد الشعر القومي الحديث الذين تحلوا بنضج الوعي القومي ، ومن أقدم ما قيل في تصوير أمل العرب في التحرر والوحدة قوله (٣) :

إنما نحن هيكل واختلاف ـ الاسم وهم فكلنا أعضاء

---

١ سامي الكيالي ـ الحركة الادبية في حلب ٧٨ ـ ٨٥
٢ المرجع السابق ٧٣
٣ ديوانه تذكار الصبا ٥ ـ ٧

وكان مما قاله أيضاً وتجلت فيه الروح القومية الثورية (١) :

آن الأوان لأن أخاطر بالدم ... من لم يخاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي أحببتها ... كم من أكف قد رمتك بأسهم
لعبت أكف الترك فيك وغادروا ... في كل قطر منك نهراً من دم

ولا ريب في أن هاتين القطوعتين نمط جديد من أنماط الشعر القومي عبر الشاعر فيهما عن تجاوب العربي مع إخوانه في الأقطار الأخرى وعن النزوع المبكر نحو الوحدة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وكان أديب إسحق من كبار رجال الفكر والأدب ، وقد سار البيتان الرائعان اللذان ينسبان إليه على كل لسان (٢) :

قتل امرىء في غابة ... جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن ... مسألة فيها نظر

وقد تجلت خلال هذه الفترة نفسها ومضات رائعة لدى عدد من الشعراء المصريين وفي مقدمتهم محمود سامي البارودي الذي جعل من نفسه ومن شعره على السواء وقوداً للحركة الوطنية . فقد أخذ الشعور بالسخط على الحكام وفساد الأحوال يتبلور في أذهان الشعراء ومنهم صالح مجدي الذي توفي قبيل الثورة العرابية ، وبدأت تظهر في شعرهم المطالبة بالحقوق السليبة ، والحد من تسلط الترك . والتنديد بالظلم والاستبداد . ومن أبرز ما قيل في هذا الصدد أبيات للبارودي نظمها في منفاه حيث قال (٣) :

أبى الدهر إلا ان يسود وضيعه ... ويملك أعناق المطالب وغده
اذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت ... عليه، فلا يأسف إذا ضاع مجده
وأقتل داء رؤية العين ظالماً ... يسيء ويتلى في المحافل حمده

---

(١) المقدسي - ١ - ٨٥ ولم ترد الابيات في ديوانه
(٢) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ١ - ٨٢
(٣) ديوانه ١ - ١٣

علام يعيش المرء في الدهر خاملا　　أيفرح في الدنيا بيوم يعده
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه　　كذى جرب يلتذ بالحك جلده

لقد كان البارودي شاعر الثورة العرابية كما كان عبدالله نديم خطيبها ،وهما مثال حي لاشتراك الاديب العربي في النضال القومي ، وفي طليعـــة رواد الادباء المجاهدين في فجر النهضة .

ثم بدأ الشعراء ينظمون القصائد تترى في الشعر القومي ، ولم تكد شمس القرن التاسع عشر تؤذن بالمغيب حتى اخذت جذور الوعي القومي تعمق في النفوس وكانت طبقة اخرى من الشعراء قد تسلمت راية الشعر القومي واخذت تبشر دون هوادة بالتحرر والاستقلال . ومنذ ذلك الحين يتبوأ الشعراء العراقيون وفي مقدمتهم معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وعبدالمحسن الكاظمي مكانة مرموقة في الشعر الحديث بصورة عامة وفي الشعر القومي بصورة خاصة . وتلتقي هذه القصائد الثائرة مع صيحات الاحرار في مصر والشام وتغدو حربا على الاستبداد الحميـدي . ومما يقوله الزهاوي في ذلك منددا بالحكومة العثمانية (١) :

وما هي الا دولة مستبدة　　تسوس بما يقضي هواها ويعمل
فترفع بالاعزاز من كان جاهلا　　وتخفض بالاذلال من كان يعقل
وقد عبثت بالشعب اطماع ظالم　　يحمله من جوره مـا يحمل
فتعسا لقوم فوضوا امر نفسهم　　الى ملك عن فعله ليس يسأل
فيا ملكا في ظلمه ظل مسرفا　　فلا الامن موفور ولا هو يعدل
تمهل قليلا لا تغظ أمة إذا　　تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تغترر بها　　فان يد الايام منهن اطول

بهذه الجرأة انذر الزهاوي الطغاة فكان مصيره السجن والابعاد .

وكما سمى الزهاوي قصيدته هذه « ختام تغفل » اطلق الرصافي على ابياته التالية « تنبيه النيام » وعلى ابيات اخرى « ايقاظ الرقود » وهذه عناوين شاعت في

«١» اللباب ١٢

دواوين الشعراء خلال تلك المرحلة من نضال العرب القومي، اذ ان اولى مراحل الثورة على الظلم الشعور به، ومما يقوله الرصافي في هذه القصيدة (١) :

اما آن أن يغشى البلاد سعودها ... ويذهب عن هذي النيام هجودها
أما أسد يحمي البلاد غضنفر ... وقد عاث فيها بالمظالم سيدها
عجبت لقوم يخضعون لدولة ... يسوسهم بالموبقات عميدها
واعجب من ذا أنهم يرهبونها ... وأموالها منهم ومنهم جنودها

وعلى هذا المنوال نسج ولي الدين يكن قوله وكان من ابرز من ندد بالاستبداد من الشعراء (٢) :

صحا كل شعب فاسترد حقوقه ... فيا ليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم ... وليس له فيمن تولوه خادم
يقلب من عهد لعهد على الاذى ... إذا زال عنه غاشم جد غاشم

ودأبت هذه الاصوات الحرة على حمل رسالة الحق والحرية حتى اضطرت عبدالحميد الى نشر دستور البلاد بعد طيه اكثر من ثلاثين عاما. وكان هذا الحدث كبيرا اشاع الفرح في قلوب المواطنين جميعا على اختلاف دياناتهم وقومياتهم. وملأ نفوسهم املا واستبشاراً، ومن العسير ان نجد في ذلك الحين شاعـــراً او ناثراً او خطيباً لم يستخفه الطرب، «الا ان الحماس التحرري الداعي الى تمرد العرب على الترك والانفصال عنهم قد فتر في فورة هذه الفرحة الدستورية لان الانفصال لم يعد له في الظاهر ما يسوغه بعد ان جاء الدستور يطمئن المواطنين على حرياتهم ويعلن المساواة التامة بينهم على اختلاف مذاهبهم واجناسهم ولغاتهم (٣) »

وقد بدا للجميع ان الاماني قد تحققت وانه ما بعد الدستور زيادة لمستزيد ولا مطلب لطالب، اذ عم التسامح وامحت الضغائن وتآخى الترك والعرب ورفرفت

---

(١) ديوانه ١٠٣

(٢) ديوانه ١٩

(٣) الدكتور احمد الطرابلسي، شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٢٠

الوية المساواة والعدالة والحرية ، واذا الدستور رمز نسجت حوله هالة كبري من الآمال . ومع ان هذا الدستور لم يحقق شيئاً للعرب الا ان اعلانه احدث هـــزة في النفوس فقفزت بالوعي الى الامام ، كما ادى الي انطلاق اغاريد الشعراء لاهجة بالحرية التي طال احتباسها . ومع ان جميع شعراء العرب في شتى اقطارهم ومهاجرهم هللوا لاعلان الدستور الجديد فان هذا التهليل لم يبلغ لدي شعراء مصر المدى الذي بلغه في سائر البلاد ، وما ذلك الا لان مصر كانت غير خاضعة للحكم العثماني المباشر ، ويبدو هذا الفارق بشكل اوضح فيما نظم من قصائد إثر سقوط عبدالحميد . وإذا استثنينا ولى الدين يكن الذي عانى اهوال الاستبداد فان اكثر شعراء مصر ومنهم اسماعيل صبري وحافظ ابراهيم واحمد شوقي ومحمد عبدالمطلب واحمد محرم اظهروا عطفاً بالغــاً على السلطان المخلوع . وهم في ذلك إنما كانوا يتجاوبون مع مشاعر المصريين الذين مازالوا حتى ذلك الحين يرجون خيراً في نظام الخلافة والجامعة الاسلامية ، ومن ناحيـــة اخرى فان المصريين لم يكونوا يعانون شيئاً من مظالم العثمانيين بعد انحسار نفوذهم عن مصر ، وإنما كانوا يرزحون تحت وطأة المحتلين الانكليز ، ولهذا لم يشعروا بشيء من النقمة التي كان يشعر بها أهل الشام والعراق في المهجر تجاه تسلط الترك على العرب وطغيانهم على قوميتهم .

على ان شعور العطف على السلطان اخذ يتضاءل عند اولئك الشعراء حتى كاد ينقلب احيانا الى تشف وعداء ، ونلمس ذلك التحول بوضوح فيما نظمه حافظ وشوقي فيما بعد من قصائد .

وبالرغم من سخط شعوب الدولة العثمانية وقومياتها على عبدالحميد واستبداده بما فيهم الترك انفسهم فان مشاعر العرب بصورة عامة ، باستثناء المتطرفين منهم ، ظلت على ولائها للدولة العثمانية بدافع العاطفة الدينية المشتركة ، فاكتفت بما كانت تلح على المطالبة به من تحقيق العدالة بينهم وبين الترك في الوظائف والتمثيل النيابي ، ومن الاحتفاظ بشخصيتهم العربية ولغتهم وحقوقهم المشروعة ، والأخذ بنظـام الحكم اللامركزي ضمن نطاق الدولة العثمانية . وبرغم شعور التذمر الذي ساد العرب من جراء معاملة الترك لهم فقد كانوا اول الأمر ابعد ما يكونون عن القيام باية ثـــورة

ضدهم . ومما يؤكد ذلك ان الشيخ فؤاد الخطيب الذي غدا بعد ذلك شاعر الثورة العربية الكبرى التي قامت ضد حكم الآستانة هو نفسه الذي كان يخاطب الترك بقوله (١) :

أإخواننا الأتراك مدوا لنا يدا ... من الود إنا قد مددنا لكم يدا
وما نتقاضى ثـــورة دموية ... فلسنا عطاشا نطلب الدم موردا
ولكننا نرجو إخاء موطدا ... يعز علينا أن يكون مبددا

ولكن النكسة سرعان ما حلت ، والناس مازالوا في عـــرس فيبست الزغاريد في الحلوق وجمدت الابتسامات على الثغور ، فلقد تبين العرب ان الدستور لم يكن الا سرابا من حيث ظنوه ماء زلالا ، اذ كان من المؤمل ان تتماسك القوميات المتعددة في جبهة عثمانية واحدة تثبت امام الخطوب الخارجية لولا استئثار جماعة من غلاة الترك بالحكم وتنكرهم للعرب . فهؤلاء ـ وقد عرفوا بالاتحاديين ـ اتخذوا من القومية التركية الضيقة مبدأ لها ، وبدت سياستهم (الطورانية) العنصرية في ابشع مظاهرها تجاه القوميات الأخرى المحكومة . وقد عبر الشعراء عن خيبـــة الأمل المريرة التي اصابت العرب نتيجة غدر الترك وتنكرهم للدستور . ولكن انى لعجلة الزمان ان تعود الى الوراء ، وكيف يرضى العرب بان تهدر حقوقهم بعد ان نعموا بالحرية وتنشقوا بملء رئاتهم نسيمها .

وكان لا بد من صراع قومي خفي حينا وسافر احيانا بين قوتين رئيسيتين في الدولة العثمانية هما القومية العربية والقومية التركية ، ودخل نضال العـــرب في مرحلة جديدة ضد التبعية التركية كان من مظاهره تلك الجمعيات العديـــدة السرية والعلنية التي اخذت على عاتقها عبء العمل ونشر الوعي وتعبئة الشعور القومي

وقد حافظ العرب على الأناة وتذرعوا بالصبر في علاقاتهم مع حكومـــة الاتحاديين التركية وغدا الأمل في تقويم الاعوجاج كبيرا ، ولاسيما ان فريقا من الترك وقف الى جانب مطالب العرب .

«١» ـ ديوانه ٣٣

وحين وقعت حروب البلقان عام ١٩١٣ التف الرأي العام العربي حول الدولة العثمانية شأنه في جميع الحروب التي خاضتها من قبل ، كحربها مع الروس ومع اليونان ثم مع الطليان واخيراً مع شعوب البلقان . وقد تجلى ذلك في مواقف الشعراء العرب الذين انتصروا بقصائد حارة للعثمانيين وللشرق والاسلام .

غير ان شيئاً مذهلا قد وقع آنذاك ، اذ شبت فجأة نيران حرب عالمية كبرى . عزم الاتحاديون على خوض غمارها بما يشبه مغامرة اليائس فمدوا السنة القتال الضاري الى الشرق العربي وجعلوا الدولة العثمانية طرفاً في النزاع بين كتلتين جبارتين متناطحتين .

اما العرب فقد اصبحوا يواجهون حربا ضروسا لا جدوى لهم فيها، ووجد احرارهم والمتطرفون منهم ان هذه الحرب مجازفة كبرى ستطيح بالدولة نفسها وسيتحمل العرب انفسهم نتائج غرور الترك . ومع ذلك بدا لغالبيتهم ان عليهم واجب الدفاع عن دولتهم وتناسي خلافاتهم مع الاتحاديين وما كانوا فيه من اخذ ورد ، حتى إن عددا من اشد شعراء العرب عداوة للترك ولتسلطهم واستبداد سلاطينهم ، دعوا الى حمل السلاح الى جانب القوات التركية دفاعا عن كيان الدولة نذكر منهم الرصافي إذ قال يومئذ (١):

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطنا

فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا

كما ان الشهيد محمداً المحمصاني احد احرار العرب ومن اركان (الجمعية العربية الفتاة) أسرع بالعودة الى بلده من مصر إثر سماعه بقيام الحرب ليكون جنديا في صفوف الجيش العثماني (١) ،

---

(١) - ديوانه ٩١ ،

وبقيام الحرب العالمية الأولى وما رافقها من احداث بطش وإرهاب ومجاعة في بلاد الشام والعراق واعلان الحماية الانكليزية والادارة العرفية في مصر .. يدخل نضال العرب مرحلة جديدة حاسمة ، والحرب ولود للثورات

هكذا كان حال الشرق العربي منذ نهضته في القرن التاسع عشر . فالشعور القومي كان يذكو حينا ويخبو أحياناً ، وما زال كذلك حتى أخذت شعلته في التوهج وقد انعكس كل ذلك على الشعر العربي الحديث فكانت فئة من الشعراء ممن ذكرنا اتسم شعورها القومي بالقوة والصفاء والجرأة ووضعت في بواكيرها تلك ، أساساً وطيداً للشعر القومي . وكانت فئة أخرى معتدلة في شعورها هذا تحاول التوفيق بين الطرفين وتتخذ موقفاً وسطاً ، ومن هؤلاء شبلي الملاط وعبدالحميد الرافعي وخليل مطران وجميل صدقي الزهاوي وسواهم .. وكانت فئة ثالثة موالية للدولة العثمانية ومتجاهلة في الوقت نفسه شعور القوميين العرب مع اختلاف في الدافع، فهو إما شعور ديني صادق وغيرة على الدولة الاسلامية من أن تعصف بها مطامع الغرب وإما رياء ونفاق لجلب منافع وتحقيق مآرب ، وإما خوف ورهبة من بطش حاكم واستبداد ظالم .

وهذا الشعر الموالي للدولة يمكن أن نطلق عليه اسم الشعر الرسمي كما أسماه أمجد الطرابلسي ، ومن أصحابه أحمد شوقي ومحمد عبدالمطلب وأحمد محرم وأمين ناصر الدين وشكيب أرسلان وبدر الدين النعساني .

وسنرصد خلال الفصول التالية هذه المشاعر القومية في الشعر الحديث ونتتبعها في قوتها وضعفها ، واندفاعها وجمودها ، وازدهارها وانتكاسها .

ومن اليسير على الناقد أن يتبين فيما بين يديه من بواكير الشعر القومي شيئاً من الضعف الفني ، إذ لم يقيض للأدب العربي الحديث في تلك الفترة ظهور شعراء كبار ملكوا ناصية فنهم ومن أوتي ذلك كالبارودي لم يكن مضمونه الشعري في كثير من قصائده يبلغ مستوى أدائه . فالمعوّل على ما أوردنا من شواهد كان على المضمون قبل الشكل ، والمعنى قبل اللفظ ، والشعور قبل الشعر .

---

(١) - مصطفى الشهابي : محاضرات في القومية العربية ١٠٦

ومما تجدر ملاحظته أن أكثر ما قيل من هذا الشعر لم يجرؤ أصحابه على الجهر به إلا بعيداً عن سلطة الدولة العثمانية في مصر أو في باريس أو في غيرهما . وما قيل منه في ربوع الوطن أوذي صاحبه أوحالفه الحظ فأفلت ونجا .

وجملة القول إن أصحاب البواكير الذين أشرنا إليهم هم رواد الشعر القومي الأوائل في القرن التاسع عشر ، وكان لهم فضل السبق وميزة البـــدء ، وهم الفجر الصادق الذي لاح في دنيا العرب حاملا رسالة التحرر ومبشراً بيوم أغر . ولم تكن أشعارهم تلك على قلة ما نظموه في هذا الموضوع سوى القطر الذي يسبق انهار الغيث والصيحة المدوية تجاوبت مع تعاليم جمال الدين الأفغاني وعبدالرحمن الكواكبي وأديب اسحق ، وكانت أشبه بنفخات الصور نبهت العرب من غفلتهم بعد ان ران عليهم الجمود قرونا .

الباب الاول

روافد التيار القومي

الفصل الأول : الجامعة الاسلامية

الفصل الثاني : الرابطة الشرقية

الفصل الثالث : النزعات الاقليمية

الفصل الرابع : العاطفة الانسانية

الفصل الأول

١

الجامعة الاسلامية

إن البحث في أصل الشعور القومي عند العرب المعاصرين، يرجع بنا إلى جذور له عميقة تمتد في الماضي ما يقرب من أربعة عشر قرنا حين شعر العرب بكيانهم الموحد وشخصيتهم المتميزة لأول مرة على أثر ظهور الاسلام. وهكذا عرف الشعور القومي الكامن في نفوس قبائل العرب طريقه إلى التبلور بسرعة منذ ذلك الحين، وارتبط المفهوم القومي بالاسلام طيلة عصور مديدة، وما يزال كذلك حتى اليوم في أذهان الكثيرين من العرب. ومما ساعد على هذا الالتصاق الشديد بين المفهومين كون الرسول صاحب الدين الجديد عربياً، وأن الذين نشروا رسالة الاسلام في الأرض كانوا عرباً، وأن التراث الاسلامي لا يمكن فصله إطلاقا عن تاريخ العرب والثقافة العربية.

ومع هذا كله « لا يمكن تحديد العرب على وجه الضبط بالاسلام وذلك لأسباب ثلاثة: أولها أن امتداد الاسلام تجاوز العالم العربي بكثير، وثانيها أن الشعوب العربية فيها عدد كبير من المسيحيين وسواهم من العرب غير المسلمين، وثالثها أن المسلمين اليوم يضعون لأنفسهم قواعد جديدة للتوفيق بين روح العصر ومعضلات التقيد بمناهج السلف. إلا أن انتشار الاسلام ذلك الانتشار الساحق هو الذي أوجد الدولة العربية التاريخية وطبعها كلها الى يومنا هذا بطابعه وروح حضارته (١)».

---

(١) إرنست هوكنج في مقدمته لكتاب العالم العربي تأليف نجلاء عز الدين

وتبعاً لذلك ونظراً لأن المقام الأول في القرون الوسطى كان للعامل الديني، لم يكن ثمة فارق كبير وحدود واضحة بين مفهوم الوطنية ومفهوم الدين، وإن قصائد الشعراء في العصر الأموي ثم العباسي تعبر عن هذه الظاهرة بوضوح، من ذلك مثلا بائية أبي تمام في المعتصم وقصائد المتنبي في سيف الدولة؛ فهي تصور المعارك التي خاضها الأجداد على أنها صراع بين العرب والروم وبين الاسلام والمسيحية في الوقت نفسه. وقد أحكم هذا الربط بين الدين والقومية إلى حد كبير خلال الحروب الصليبية التي خاضها العرب على أنها حروب قومية وجهاد مقدس معاً.

ثم قام الحكم العثماني أيضاً على هذا الأساس من عدم التمييز؛ فكانت سلطتا الدين والدولة متداخلتين في نظام الخلافة. بل إن ادعاء سلاطين الترك أنهم ورثة الخلافة العباسية مكنهم برغم كونهم ليسوا من العرب من أن يحكموا هذه البلاد قروناً طويلة متخذين من الدين درعاً واقية.

والحق أن اقتران الحكم العثماني بالاسلام ثم عدم تمييز غالبية المسلمين بين خليفة مسلم عادل يحكم على أساس من الشورى وبين سلطان تركي متربع على عرش في الآستانة، قد أساء إلى حركة العرب التحررية. فالاسلام الموروث لدى الترك مزيج من رواسب مختلف العصور انقلبت فيه القيم وتغيرت النسب وتشوهت المعالم.. وهو مختلف اختلافاً كبيراً عن الاسلام الأصيل الذي خرج به إلى العالم حيوية متدفقة، وانسانية سامية، وروحانية ايجابية، وعدالة مناضلة، وايماناً فعالاً، وأخوة انسانية بين البشر والديانات. ان الاسلام الموروث المشوه كان مقترناً مع كيان الدولة العثمانية معاصراً لها منسجما معها»(١)

وقد اضطر المسلمون العرب - عن وعي أو عن غير وعي - تحت وطأة الأحداث السياسية وتكالب الغرب على بلادهم الى أن يحكموا الأواصر بين العثمانية والاسلام كيلا يتيحوا له فرصة النفاذ الى وطنهم. ومن هنا كانت الصفة الغالبة على الشعر العربي الحديث حتى اوائل القرن العشرين هي المزج بين الدين والقومية واعتبار السلطان التركي خليفة للمسلمين، والدولة العثمانية دولة الاسلام.

---

(١) محمد المبارك - الأمة العربية في معركة تحقيق الذات ٦٠

ومنذ اخفاق ثورة عرابي يشير البارودي الى هذا المفهوم المزدوج بقوله (١):

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان بـه ظلما واغترب

وقد كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي يفهمون الوطنية على أساس ديني . ومثل هذا الشعور دفع بالامام محمد عبده إلى أن يقول « إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين » (٢) كما كان عبدالله نديم وتوفيق البكري ومصطفى كامل الذين أيقظوا الروح الوطنية في مصر من ذوي الاتجاه العثماني أيضاً يرون العثمانية والمصرية من معدن واحد هو الاسلام ولا تنفصم الواحدة عن الأخرى .

وبقي الشعراء في مصر بصورة خاصة ينهلون من معين تلك المبادىء التي صدر عنها هؤلاء الاعلام والتي بقي صداها ماثلا في الأذهان إلى ما بعد الحرب الكبرى ، وكان شعراء الجامعة الاسلامية حريصين على دوام الصلة الدينية والسياسية مع العثمانيين وفي مقدمتهم أحمد محرم الذي يقول (٣) :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأي شعب يساوي الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده علماً لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهبا

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً حافظ إبراهيم الذي يترفق في مخاطبة العثمانيين ولا يعدو في أبياته التي يشير فيها إلى تغاضيهم عن احتلال الانكليز لمصر حد العتاب (٤) :

يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا ونحن في الله اخوان وفي الكتب
تركتمونا لأقوام تخالفنا في الدين والفضل والأخلاق والأدب

(١) ديوانه ١ - ٣٧
(٢) تاريخ الاستاذ الامام ١ - ٩٠٩ .
(٣) ديوانه ٢ - ٤ .
(٤) ديوانه ٢ - ١٨ .

ولقد اثار خلع السلطان عبدالحميد نقمة بعض الشعراء فراحوا يبكونــــه ويترحمون على عهده وبخاصة في مصر التي كانت في منجاة من ظلمه واستبداده ،وذلك واضح في قصائد احمد شوقي ومحمد عبدالمطلب وسواهما ، ممن اعتقدوا في هــذا الامر مساساً بالاسلام وقدسية الخلافة ، وتقويضاً لأبرز اركان الجامعة الاسلامية

وبدافع من ذلك الشعور المشترك بالرابطة الدينية والحذر من الغرب المسيحي وقف الرأي العام العربي الى جانب الدولة العثمانية في صراعها مع الدول الاجنبيــة الاخرى ، وقد تجلى ذلك على السنة الشعراء العرب بوضوح كما تشير قصائد كثيرة لشوقي وحافظ والرصافي ومحرم وعبدالمطلب والكاشف والزهاوي والكاظمــي وعبدالحميد الرافعي وشكيب ارسلان وفؤاد الخطيب .. وغيرهم ممن كان شعرهم صريحاً في مواجهة اعداء العثمانيين في اثناء حروبهم مع الروس واليونان ودول البلقان ، وحين ثار الصرب واليونان والبلغار على الدولة العثمانية ينشدون التحرر وخلع الربقة التركية من اعناقهم بلغ الرصافي في حقده وغضبه عليهم حد الشتم المقذع إذ خاطبهم بقوله (١) :

يا علوج الصرب والبلغار اولاد الزواني

وهذا يشير الى عدم تميز الفكرة القومية في اذهان الشعراء حتى ذلك الحين فالدولة التي كان يعيش الرصافي في كنفها عثمانية اسلامية وهو يرى في انتفاض شعوب البلقان عليها إضعافا لكيانها ، وان هذه الشعوب يجب ان تظل محكومة ، ولم يكن الكثيرون يدركون يومذاك ان هذه الشعوب لا تربطها اية رابطة قومية او سواهــا بالترك . ومما يؤكد اثر العقيدة الدينية في موقف الرصافي وسواه من هذه الحركات القومية ان بعض الشعراء من غير المسلمين نظروا الى هذه الحركات بمنظار آخــر مضاد على نحو ما وجدنا عند إيليا ابي ماضي الذي دعا العرب ـ كما سيمر بنا ـ إلى ان يأخذوا مثالتهم عن البلقان وان يتشبهوا بالصرب واليونان وانكر عليهــم خضوعهم لابناء جنكزخان (٢)

(١) ديوانه ٤٩٦
(٢) انظر زهير ميرزا : أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ص ١٣٥، ١٨٧

لقد كان كل تقلص لظل الامبراطورية العثمانية يعتبره انصار الجامعة الاسلامية تقلصا لظل الاسلام ويذكر الشعراء بماضيهم في الاندلس . كما كان كل نصر او تقدم يحرزه العثمانيون يعتبره هؤلاء الشعراء نصراً للاسلام سواء في المجال العسكري او في المجالات الاخرى . وقد هلل الشعراء قبيل الحرب الاولى وبخاصة في مصر لأول طيار عثماني ورأوا في نجاحه ذلك نجاحا للمسلمين قاطبة ، ومما قاله حافظ يومئذ (١) :

أهلا بأول مسلم في المشرقين علا وطار
النيل والبسفور فيك تجاذبا ذيل الفخار

وبالرغم من ان هذه الرابطة الدينية اخذت تتضاءل في نفوس العرب قبيل الحرب الكبرى لتفسح المجال امام المشاعر القومية والمطالب الوطنية فقد وقف كثير من شعراء العرب ايضاً مع الدولة العثمانية في قتالها ضد الحلفاء عندما نشبت تلك الحرب مدفوعين بعاطفتهم الدينية قبل كل شيء سواها ، وقد انعكست هذه المؤازرة في القصائد الكثيرة التي نظمت آنئذ ، من ذلك ما قاله معروف الرصافي الذي يمكن اعتباره من شعراء الجامعة الاسلامية برغم حملته الشعواء على عبدالحميد واستبداده (٢)

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطنا
فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنهضوا يا بني الاسلام قاطبة من يسكن البدو والأرياف والمدنا
عار على المسلمين اليوم أنهم لم ينقذوا مصر او لم ينقذوا عدنا
لا زلت يا وطن الاسلام منتصرا بالجيش يزحف من أبنائك الأمنا

ومما كان يدعو الكثيرين من الشعراء والكتاب والزعماء الى التمسك بفكرة الجامعة الاسلامية ، ما لمسوه لدى عدد من مفكري الغرب وصحفه وساسته من تنديد بالاسلام وتحفز للاجهاز على اقطاره ، ولعل ابيات الرصافي

(١) ديوانه : ٧٦
(٢) ديوانه : ٤٩٢

الأخرى التي نظمها خلال تلك الحرب الأولى خير ما يصور اهمية الرابطة الدينية آنذاك (١) :

وبك ان الاسلام أوجد فينا	وحدة مثل وحدة الرحمن
فاعتصمنا منها بحبل وثيق	هو حبل الاخاء والايمان
ليس معنى توحيدنا الله في الملة	- إلا اتحادنا في الكيان
وحدة جاءنا من الله فيها	مرسل بالكتاب والفرقان
ما نرى سلطة علينا لخلق	غير سلطان خالق الأكوان

ولكن فظائع جمال باشا في دمشق وبيروت إبان الحرب العالمية الاولى وبطشه باحرار العرب جعلت الكثيرين من الشعراء يتحولون عن شعور الولاء للدولة العثمانية وبالتالي للجامعة الاسلامية ، ويفكرون جديا بالاستقلال ، ومنهم عبدالحميد الرافعي وفؤاد الخطيب . اما الشعراء الشبان في ذلك الحين فقد كانوا بصورة عامة اشد شعوراً بوطأة الحكم التركي واكثر تمييزاً بين شؤون السياسة والدين ، وقد عبر خليل مردم إثر انتهاء الحرب الأولى عن هذا الشعور بقصيدة مطولة تشيع فيها روح الاغتباط بطرد الترك من بلاد الشام ، ومما قاله يومذاك متحدثاً عن قومه العرب (٢) :

أحلت ذراهم واستبيح حماهم	وسيموا هوانا سادة ومواليا
يساقون باسم الدين للموت عنوة	وهل كان إلا منهم الموت ناشيا
لوت منهم الأسباب أسباب صلبهم	رؤوساً من العلياء كانت دوانيا

ولا ريب ان يقظة الشعور القومي كانت الدافع الأول إلى نظم مثل هذه الآراء وذيوعها . فقد غدا العرب منذ ذلك الحين يأبون ان يسخروا لمآرب الترك ويساقون كالقطعان الى مذبح تلك الحرب الضروس باسم الاسلام وتحت راية

---

(١) ديوانه ٤٧٦

(٢) ديوانه ٨٧-

الدين ، ثم يعلق احرارهم على اعواد المشانق ، وبلسانهم نزل الوحي ومنهم كان الرسول وبهم انتشر الاسلام.

ومع ذلك ظل بعض الشعراء مثل شكيب ارسلان وبدرالدين النعساني واحمد محرم واحمد الكاشف وسواهم .. على ولائهم لحكام الترك واشفقوا على هذه الرابطة الدينية ان تنفصم عراها ، وقد وقف شكيب ارسلان ضد بني قومه من احرار العرب في استانبول حين دعوا الى الانسلاخ عن العثمانيين واعترف انه سيكون في الصف المقاوم للحسين بن علي ، وانه ينتقد سياسة الخروج على دولة الخلافة (١) وكان من مظاهر ولائه للعثمانيين اندفاعه في إطرائهم والتسبيح بحمدهم ، ودماء الاحرار الذين علقهم جمال باشا على الاعواد لم تطل ، فما قاله يومذاك مخاطبا الأتراك العثمانيين (٢) :

احبكم حب من يدري مواقفكم	في خدمة الدين والاسلام والحسب
مهما يكن من هنات بيننا فلنا	معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى الشهادة فيما بيننا نسبا	إن لم تكن جمعتنا وحدة النسب
مجدي بعثمان حامي ملتي وأنا	لم أنس قحطان أصلي في الورى وابي

فالشاعر في ابياته هذه يغتفر كل إساءة مهما تكن بالغة إذا صدرت عن الترك ولا يرى فيها سوى هنات ، وان العهد القديم لا يمكن ان ينقضب ، وانه إذا لم تجمع بين العرب والترك وحدة النسب والاصل فكفاهم الدين الواحد والعقيدة المشتركة ، بل ذهب عبدالحليم المصري إلى ابعد من ذلك حين قال :

إن قيل في مصر إن الترك قد ظلموا	فمر ظلمهم أحلى من الضرب
ما أعذب القتل من سيف الصديق وما	امره إن يكن من غير مصطحب

ولكن سائر العرب في بلاد الشام والعراق كانوا يعانون الوان الظلم من قبل الترك ، لا كما يسمع به الشاعر المصري فيظنه - وبعض الظن إثم - أحلى من

(١) الدكتور سامي الدهان ، محاضرات عن الامير شكيب ارسلان ص ١٥-١٦
(٢) ديوانه ١٢٩

العسل ، بل على العكس من ذلك كان لسان حالهم يردد بمرارة مع الشاعر الجاهلي :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

وإذا كان الترك مسلمين ، فانهم في نظر الكثيرين قد انحرفوا عن الاسلام حين استحلوا دماء إخوانهم في الدين ، وكان لا بد للعرب ان يثوروا اخيراً . وكأنهم دفعوا الى الثورة دفعاً بعد ما بلغ السيل الزبى .

وبرغم اننا اليوم قد لا نستسيغ كثيراً هذا الولاء المفرط للعثمانيين في شعر شكيب ارسلان واحمد شوقي وعبدالحليم المصري وسواهم إلا اننا يجب ان ننظر الى الموضوع من خلال الظروف والملابسات التي كانت تسم العالم العربي آنذاك وتجعل هذا الاتجاه العثماني الاسلامي وجهة نظر منطقية ومقبولة في ذلك الحين لدى الكثيرين من العرب الذين فهموا الوطنية على اساس من الدين ، فقد رأوا المستعمر الغربي المسيحي يحدد نحوهم انياباً صليبية ، ولم يكن امامهم بد من تكتلهم وتدعيم وحدتهم الكبرى في سبيل مقاومته ، ولكن الواقع ان هذا التكتل بين القوميتين الكبريين في الدولة العثمانية لم يكن يشتد امره ويتجلى قوياً في الشعر إلا تجاه المحن والأزمات فكان العرب والترك يتحدون مؤقتاً حين يهاجمهم أقوام آخرون من ديانات وقوميات أخرى ، وعلى هذا الضوء نستطيع ان نفسر مؤازرة عدد من شعراء العرب للدولة العثمانية عندما كانت تواجهها المحن ، وتغدو مهددة من قبل الغرب . في حين ان هؤلاء الشعراء أنفسهم كانوا من أشد المعادين لمسالك الحكام الترك في داخل البلاد .

ومع ان كثيرا من الشعراء كانوا يدركون مدى الضعف الذي بلغته الدولة وآلت اليه الخلافة ، فانهم تمسكوا بالوضع الراهن آنذاك وحاولوا دعمه بكل قوتهم وقنعوا من الخليفة ان يكون رمزاً يلتفون حوله ويكيلون له الثناء لأنه كان في نظرهم البقية الباقية من مظاهر السلف

ولا ريب ان الترك الذين احسنوا استغلال هذه العاطفة الدينية لدى العرب

طيلة قرون مديدة لضمان استمرار حكمهم لبلادهم ساروا في هذه السياسة نفسها ايضاً عندما خاضوا غمار الحرب العالمية الأولى واستطاعوا ان يكونوا لأنفسهم بطانة من الشعراء والكتاب تسبح بحمدهم وتعتبرهم حماة الاسلام. وفي كتاب (البعثة الاسلامية إلى دار الخلافة العثمانية) الذي الفه محمد كرد علي ونفر من صحبه بايعاز من جمال باشا عام ١٩١٦ قصائد كثيرة تنطق بهذا الاتجاه الرسمي. ومنها ما هو صادر عن رجال الدين كالشيخ بدر الدين النعساني المغالي في عثمانيته وفي مديحه لجمال باشا، عدا ما في هذا الكتاب من شعر طافح بالاستخذاء المجوج.

وقد حاول الترك أن يضفوا على خصومتهم مع الحلفاء صفة الحرب المقدسة فراحوا يستنفرون العرب للجهاد برغم أنهم كانوا متحالفين مع الألمان. وبهذا السلاح المعنوي حاربوا الثورة العربية ووصموا رجالها بالكفر والمروق من الدين، بل إن الكثيرين من العرب وبخاصة في مصر التي لم تطلها مظالم العثمانيين الترك، استنكروا من تلقاء أنفسهم ما قام به اخوانهم في الشام والحجاز ضد الخلافة وتحالفهم مع الغرب المسيحي في سبيل تقويض أركان الجامعة الاسلامية. وبنتيجة هذه الدوافع انبرى أحمد محرم يندد بزعيم الثورة العربية الشريف حسين لثورته على الخليفة وكان مما قاله (١):

نبئت ما زعم الشريف وقومه   فسمعت ما لم تسمع الأذنان
ياذا الجلالة لا سعدت بتاجه   ملكا سواك به السعيد الهاني
الترك جند الله لولا بأسهم   لم يبق في الدنيا مقيم أذان

وكأن محرم في بيته الأخير يعلق بقاء الاسلام على بقاء الدولة العثمانية ويخشى أن يكون في زوالها زواله.

وكان إلى جانب أحمد محرم وعدد من شعراء مصر، طائفة أخرى من شعراء الشام والعراق لم يرق لهم ما قام به العرب بزعامة الحسين. وقد اشار معروف

(١) الدكتور محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٢ - ١٩٦ ع ن ديوانه المخطوط.

الرصافي فيما بعد الى تلك الثورة فقال يمن على الخلفاء بالنصر (١) :

لقد قادت الأعراب نحو عدوكم ... خيولا لها في حومة الحرب تجوال
وقامت لهم منكم بمكة رايـــة ... لـكم فتحت فيها من القدس أقفـال
لقد أغضبوا البيت الحرام وربه ... وهم بمقام البيت لا شك جهال
ولو أن عهد المسلمين كعهدهم ... قديما لحالت دون ذا النصر أهوال
ولـكنهم باعوا الديانـة بالدنى ... فحالت لعمري منهم اليوم أحوال

ولكن هذا العامل الديني الذي كان يؤلف بين العرب والترك في الدولة العثمانية هو الذي أخذ يباعد بينهما ، فمن الواضح أن شريف مكة الحسين بن علي قائد الثورة العربية نفسه كان يفهم القومية فهما دينياً كما يبدو من منشور الثورة ، (٢) إذ وجهه « إلى جميع إخوانه المسلمين » وأحل فيه خلع الطاعة عن حـــكام الدولة لانحرافهم عن فهم الدين القويم ، كما دعا إلى استخلاص الخلافة من الترك وإعادتها إلى العرب . وفي بعض فقراته إشارات إلى تصرفات الاتحاديين الطائشة الـــتي مست الاسلام وكان لها صدى بالغ لدى مسلمي العرب مما أدى إلى نفورهم من الـــترك وإعراضهم عن شعور الولاء نحوهم والعطف عليهم ، وبخاصة بعد لجوئهم الى سياسة التتريك ومحاولة محو اللغة العربية لغة القرآن والرسول ، وتنكر بعض صحف الترك للاسلام ، ورفع أسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع ، واستبدال أسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك بها . وقد أثار كل ذلك بالاضافة الى اضطهاد الترك للعرب وتنكيلهم بأحرارهم حفيظة عدد من الشعراء الذين يحلون الدين في المقام الأول ، وإن الدوافع الدينية التي أثارت مشاعر عبدالمطلب ضد الحسين هي نفسها التي أثارت مشاعر شعراء الشام وحولتهم عن مناصرة الترك بعد أن طفح الكيل ، فالشاعر عبدالحميـد

---

(١) ديوانه ٤١٣ .
(٢) أنظر نص المنشور في ثورة العرب طبعة المقطم - ٢٣١ : والثورة العربية الكبرى لامين سعيد ١ - ١٤٩ .

الرافعي الطرابلسي الذي كان من أنصار الجامعة العثمانية والعاطفين على الترك انقلب ثائراً على الاتحاديين غيرة على دينه وعروبته معا وشرع يقول :

طلبتم الاصلاح من عصبة   توتر بالافساد أقواسها
تزعم حب الدين لكن كما   يروج السلعة دلاسها
لو تألف القرآن ما حاربت   لسانه حتى التوى فاسها

وقد عبر محمد الهاشمي أحد شعراء العراق عن هذا الاتجاه الديني الممتزج بالروح القومية حين قال في أواخر الحرب الكبرى إثر اندلاع الثورة العربية من الحجاز (١) :

بني جنكيز إن الظلم عار   وأمر لا يقر به قرار
ألا من غائر منكم يغار   على قوم بنوا للدين سداً
هم نشروه في شرق وغرب   وفي فرس وفي روم وعرب
وفازوا من نبيهم بقرب

بني جنكيز إن الدين يشقى   بحكمكم وإن الشرق يبقى
ويعلو في بلادكم ويرقى

لقد قامت على الدين القيامة   وبدلت الخلافة والإمامة
فما للدين عندكم كرامة

ألم تكن الخلافة في قريش   تولوها باصلاح وريش
وأنتم قد توليتم بطيش

توليتم بلاد المسلمينا   فعثتم في البلاد مخربينا
قيام الحاكمين الظالمينا

أرى لغة النبوة والكتاب   تضاع فيا لذلك من عقاب
لدين محمد وأبى تراب

---

(١) ديوانه ، عبرات الغريب ٧٠

ولهذه الابيات أهمية خاصة لانها تصور لنا بوضوح حقيقة المشاعر الدينية والقومية التي دفعت العرب الى ثورتهم على الترك ، وهي تعبر بجلاء عن شعورهم بان الخلافة كانت فيهم وانها ينبغي ان تعود اليهم .

والمعروف ان عبدالرحمن الكواكبي كان اول من نادى بجعل الخلافة في العرب في كتابه المشهور « أم القرى » وهذه الفكرة في الواقع فكرة ثورية تجاوبت مع نفوس العرب الى حد كبير وكانت تقض مضاجع السلطان عبدالحميد الذي كان شديد الحرص على ان يستبقى في الآستانة بعض افراد الاسرة الهاشمية من أنجال الحسين كرهائن لديه حيطة منه تجاه كل حركة قد يقوم بها العرب في الحجاز او غيرها لاسترجاع الخلافة منه ..

ولقد كان الشعراء بالأجمال يعبرون عن حنينهم الى ماضي الخلافة العربية ويتوقون الى استعادة عهودها الزاهرة ومنهم ابو الفضل الوليد الذي يقول (١) :

بغداد يا ثكلى الخلافة رجعي ... نوحا له تتفتت الأكباد
أتعود فيك خلافة قرشية ... كانت بياضاً والشعار سواد

٢

ثم تفاقمت الأمور وقطع العرب ذلك الخيط المشترك الذي كان يشدهم إلى الترك طيلة عهود مديدة حين قاموا بثورتهم الكبرى التي تعد انتفاضة فكرية واجتماعية وقومية قبل ان تكون ثورة سياسية مسلحة .

وبتأثير هذا العامل الديني ايضا ازداد الشعور القومي انطلاقاً وأخذ العرب المسلمون يقابلون عنجهية الترك وتشدق صحفهم المتطرفة بان راحوا يعتزون بعنصرهم العربي الذي كرمه الله حين جعل الرسالة الحنيفة فيه ، واختار منه محمداً

---

(١) نفحات الصور ٦٨

نبياً للمسلمين وأنزل القرآن بلسانه المبين ، وقد اشار الحوماني الى ذلك إذ قال (١) :

كفى العرب فخراً أن منهم محمداً وان له الشأو الذي ليس يلحق

وإذا كان هذا شعور المسلمين الجديد الذي اخذ يتعاظم بتأثير مظالم الترك إبان الحرب الأولى ، فكيف حال شعور المسيحيين من العرب الذين كانوا يلاقون الويلات من التعصب الديني آنذاك ، واية رابطة كان بوسعها أن تشدهم الى الترك وتشعرهم بالولاء نحوهم سواء أكانت هذه الرابطة دينية ام قومية . حتى ان عدداً من الأدباء المسيحيين كانوا يلقون على الترك تبعات تأخر المسلمين وهدم امجادهم على نحو ما نجده في عبارة جبران خليل جبران (٢) « أو لم تنته المدنية الاسلامية بـبـدء الفتوحات العثمانية ، او لم يتقهقر امراء العرب بظهور سلاطين المغول ؟ » ونحن نقع على هذه الفكرة ايضاً في شعر إيليا ابي ماضي إذ قال (٣) :

جريتم بالهلال إلى محاق ولولا جهلكم بلـغ التماما

والشاعر نفسه يحمل الترك وفساد حكمهم تبعة ما آل اليـه العرب من ضعف :

أثرتم بيننـا الأحقاد حتى ليقتل بعضنا بعضا خصاما

ثم يشير الى اتحاد المسلمين والمسيحيين بعد انصهرتهم نيران التعصب والارهاب فاذا هم يدينون بقومية واحدة :

وشاء الله كيدهم فبتنا كمثل المـاء والخمر التئاما
وقالوا نحن للاسلام سور وأن بنا الخلافة والاماما
فبل في دين أحمد ان يجوروا وهل في دين احمد أن نضـاما
إلى كم يحصرون الحكم فيهم وكم ذا يبتغون بنـا احتكاما

---

(١) ديوانه ٢٠٠

(٢) مجلة الفنون سنة ١٩١٣ عدد ٨ ص ٣٧

(٣) أنظر زهير ميرزا : ايليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ،

ولا ريب ان شعور النقمة عند ابي ماضي نسج من خيوط البواعث الدينية والقومية معاً . فقد ادى فقدان التسامح في سياسة العثمانيين وما سببه من مجازر ومآس الى ازدياد نفور المسيحيين الذين كانوا يحتملون عبء الضحايا في اغلب الأحيان فراحوا يرقبون يوم الخلاص بلهفة . وكان هذا الأمر شديد البروز في لبنان حتى انه دفع بعضهم الى التعصب والتطرف كرد فعل مضاد في نفوسهم عندما اخذوا يسعون الى الارتماء في احضان الدول المستعمرة لاشتراكهم معها في العقيدة الدينية ايضاً ، املا في حمايتها لهم وعيشهم برعايتها في ظل الأمن والسلام . وللسبب نفسه كانت دعوة الشعراء الى قيام نظام حكم اسلامي في بلاد العرب تبعث في تلك الظروف على الحذر والريب .

وحين سقطت الآستانة في يد الحلفاء واصبح الخليفة سجيناً او كالسجين ، وجم الكثيرون ممن يؤيدون الجامعة الاسلامية حزنا على معقل الخلافة ودولة الاسلام وكان هذا الشعور اشد وضوحا لدى الشعراء في مصر بصورة عامة عبر عنه حافظ ابراهيم الذي لم ير في ذلك الاحتلال سوى جانبه الديني (١)

أيا صوفيا حان التفرق فاذكري عهود كرام فيك صلوا وسلموا
إذا عدت يوماً للصليب وأهله وحلى نواصيك المسيح ومريم
ودقت نواقيس وقام مزمر من الروم في محرابه يترنم
فلا تنكري عهد المآذن انه على الله من عهد النواقيس اكرم

ونجد ما يماثل هذه العاطفة الدينية الحادة عند شاعر آخر عرف بقوة عقيدته الاسلامية وتحمسه لنظام الخلافة وهو شاعر المهجر أبو الفضل الوليد الذي كان قد اعتنق الاسلام (٢) . فقد أثار انتصار الغرب على العثمانيين واحتلالهم بلاد العرب حميته الدينية فراح يستنهض قومه لاستعادة مجد الخلافة وطرد المستعمرين وذلك في قوله (٣) :

---

(١) ديوانه ٢ ، ٨٨
(٢) انظر جورج صيدح ، أدبنا وادباؤنا في المهاجر ٤٠٧
(٣) نفحات الصور ٣٢

أغيروا كلكم عربا وغاروا | على الدين الحنيف الأحمدي
أمور المسلمين إلي ضياع | بحكم المستبد العيسوي
صلاح الدين مات فهل سمي | لقاهرهم له بأس السمي
فيغدو الشرق حراً مستقلا | فتجمعه الخلافة من حري

وواضح ان لهفته على زعيم يماثل صلاح الدين، ويرد كيد الاستعمار، عن وطنه، تتضمن نظرته إلى ان جيوش الغرب الزاحفة الى بلاد العرب لا تختلف في شيء عن الجيوش الصليبية التي اجتاحت الشرق العربي قبل بضعة قرون.

إلا ان أبا الفضل الوليد لم يقتصر على هذه النظرة الدينية البحتة بل نظر إلى جوهر الموضوع في علاقة الخلافة بالعرب والوضع الجديد الذي آلوا اليه بنتيجة نزول قوات الاحتلال في وطنهم وكان مما قاله آنذاك إثر انتهاء الحرب (١):

الشام يقهر والعراق يضام | فاليوم لا عرب ولا إسلام
أين العروبة والخلافة منهما | والمسلمون بلادهم أقسام
لبني أمية أو بني العباس في | تلك الربوع امانة وذمام
هل بعد غزوتها ونكبة اهلها | للمسلمين سلامة وسلام
او هل تصح خلافة وامامة | حيث الفرنجة واليهود قيام

هذه هي حقيقة شعور الفئة النيرة من المسلمين التي كانت تحبذ مبدأ الخلافة ونظامها في الحكم ولكنها لم تعد تفهم معنى لهذا الوضع الشاذ الذي تجلى في وجود خليفة ليس له من الأمر إلا اللقب في حين غدا المسلمون في الشرق العربي يخضعون بالفعل لسلطة الاستعمار الأجنبية.

ثم كانت انتفاضة اتاتورك ضد الحلفاء وجنود اليونان في أعقاب الحرب الأولى بلسما لجراح المسلمين الذين أحزنهم سقوط عاصمة الخلافة، وكأنهم وجدوا في

(١) نفحات الصور ١٠٩

انتصاراته على دول الغرب ادراكا لثأر المسلمين ، واستعادة لهيبة الخلافة المتداعية . وقد هلل الشعراء للبطل الجديد وراحوا يعلقون عليه أوسع الآمال ، وهذا هو الرصافي يشيد به ويتفاءل باسمه (١) :

سمي المصطفى لا زالت تعلو   إلى أوج يطاول كل أوج

وكانت فرحة عبدالمطلب وهو من أبرز شعراء الجامعة الاسلامية كبيرة إذ انتشى بهذا الظفر ووجد فيه نصراً مبيناً للمسلمين (٢) :

هذا مقامك شاعر الاسلام   فقف القريض على أجل مقام
عادت صوارمنا إلى أغمادها   من بعد ما ظفرت بخير مرام
هذا الحنيف يسير تحت ظلالها   فخم الجلالة سامي الأعلام
ضحك الهلال لها الغداة وربما   أجرى مدامعه شؤون غمام

ولعل قصيدة شوقي أشهر ما قيل في ذلك الحدث وفيها يقول (٣) :

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب
ولا أزيدك بالاسلام معرفة   كل المروءة في الاسلام والحسب
للترك ساعات صبر يوم نكبتهم   كتبن في صحف الأخلاق بالذهب
خيل الرسول من الفولاذ معدنها   وسائر الخيل من لحم ومن عصب
يوم كبدر فخيل الحق راقصة   على الصعيد وخيل الله في السحب
هزت دمشق بني أيوب فانتبهوا   يهنئون بني حمدان في حلب
ومسلمو الهند والهندوس في جذل   ومسلمو مصر والأقباط في طرب

ان افتتاح شوقي قصيدته بعبارة الله اكبر ، وتشبيهه أتاتورك بخالد بن الوليد ، وقرنه معركته بمعركة بدر ، ثم تعبيره عن فرحة مسلمي الأرض بذلك النصر ، كل ذلك ينم بوضوح عن ذلك الشعور الديني نحو الترك الذي كان امتداداً لشعور شوقي نحو العثمانيين من قبل ومظهراً جلياً لايمان الشاعر في كلا الحالين بالجامعة الاسلامية .

---

(١) ـ ديوانه ٤٤٠   (٢) ـ ديوانه ١٥٣   (٣) ـ الشوقيات ١ ـ ٦١ .

ولقد غاب عن هؤلاء الشعراء في الواقع جوهر حركة أتاتورك القومية فلم ينظروا إليها إلا بذلك المنظار الديني الذي كان أتاتورك أبعد الناس عنه، وكان مما يعزز هذا الاتجاه في نفس شوقي اتصال نسبه بالترك. فقد لاحظ محمد حسين هيكل حين قدم لديوان شوقي الأول أن ما قاله أمير الشعراء في ذلك الجزء عن العرب وما يتصل بهم يشتمل ثلاث قصائد، وما قاله عن الخلافة وعن الترك يشتمل ثماني عشرة قصيدة. إذ كان أمير الشعراء على حد تعبير هيكل (١)« المعبر عن الميول والآمال الكمينة في نفوس المسلمين جميعاً لا في نفوس المصريين وحدهم، وحرصهم على وحدتهم، وعلى كيانهم بازاء الأمم الغربية التي كانت تنظر إليهم بعين صليبية بحتة».

وينبغي ان نلاحظ أن ما نظمه الشعراء من شعر موال للعثمانيين لم يصدر جميعه بدافع الايمان بالجامعة الاسلامية، فقد كان منه شعر رسمي ينطق بلسان الحكام ويسبح بحمدهم، طمعاً في بلوغ مآرب وأملا في تحقيق مكاسب، وكان بعضه يقال عن تقية إيثاراً للسلامة وتجنباً للارهاب وبخاصة في الشام إبان العهد التركي.

على أن ما حدث بعد ذلك خيب آمال أنصار الجامعة الاسلامية إذ لم يلبث أتاتورك حتى أطاح بالخليفة العثماني وقضى على نظام الخلافة الاسلامي. وكانت هذه الحالة من أخطر ما واجه المسلمون في تاريخهم الحديث، فللمرة الأولى في حياتهم سقطت الخلافة بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن، تنقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الاسلامية المختلفة ولكنه ظل في كل الأحوال رمزاً للرابطة التي تجمع بين المسلمين في شتى بقاع الأرض (٢) وكانت الصدمة كبيرة في نفوس شعراء الجامعة الاسلامية إذ شعروا بفراغ لا يحد تجاه ذلك الحدث. وقد عبر شوقي عن شعور الخيبة المرير بعد ما علقه من آمال على أتاتورك في بعث الخلافة، وإعادة أمجادها حين رثاها بقوله (٣):

---

(١) أنظر مقدمة الجزء الاول ص ١٣.

(٢) الدكتور محمد حسين ـ الاتجاهات الوطنية انظر صفحة ٢٨ فما يلي.

(٣) الشوقيات ـ ١ ـ ١١٤.

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الاصباح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة تبكي عليك بدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الارض الخلافة ماح
وعلاقة فصمت عرا أسبابها كانت أبر علائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم في كل غدوة جيئة ورواح
ياللرجال لحرة موءودة قتلت بغير جريرة وجناح

« ولم يكن أحمد محرم اقل من شوقي حزناً وصدق عاطفة في القصيدة التي كتبها بهذه المناسبة والتي يقول فيها » (١) :

أعن خطب الخلافة تسألينا أجيبي يا فروق فتى حزينا
لقد فجع المروءة فيك دهر أصابك في ذويك الأولينا

ثم استمرت معركة الخلافة على الصعيد الفكري وانقسم الناس بين محبذ لها وراغب عنها ، ولكن الكثيرين اخذوا يتبينون ما آل اليه امر المسلمين آخر الأمر في ظلها ، وجعلوا ينفضون أيديهم من نظامها بعد ما صارت الى شبح هزيل ، ووجد عدد ممن عرفوا بقوة عقائدهم الدينية في خطوة اتاتورك خيراً للمسلمين ، ورأوا في الحكم الجمهوري عوداً الى نظام الشورى في الاسلام (٢) ، ومن هؤلاء الشاعر محرم نفسه الذي يتعزى بزوال الخلافة المتداعية على الرغم من حزنه لسقوطها ويقول (٢) :

وما نفع الخلافة حين تمسى حديث خرافة للهازلينا
ثوت تتجرع الآلام شتى على أيدي الدهاة الماكرينا

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٠ والابيات اختارها المؤلف من ديوان مخطوط للشاعر
(٢) أنظر محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٢٤ - ٤٥

وقد ظل بعض دعاة الجامعة الاسلامية يمنون أنفسهم بعودة نظام الخلافة ويأملون في توحيد شمل مسلمي الارض ، فاخذوا يتنادون لعقد مؤتمر اسلامي عام يهدف الى بحث الأمور والتداول في امر ترشيح خليفة آخر للمسلمين ، إذ لا يصح ان يكون هذا المنصب الأكبر شاغراً ، وقد كانت مصر مركزاً لهذا النشاط ، وقام الأزهريون بدور فعال في سبيل عقده .

وحين أتت الوفود من اقطار المسلمين تبين ان اكثرها كان يبيت امر استخلاص الخلافة لبلده ، وان السياسة سخرت المؤتمرين لمآربها ، فكان أمان الله خان ملك الافغان طامعاً في الخلافة ، وكان الملك فؤاد يعمل في الخفاء لهذا الهدف ، عدا تطلع الشريف حسين المبكر اليها منذ اعلن ثورته ، ولم يسفر المؤتمر عن شيء بسبب تعارض الأهواء (١) . اما الحسين فقد اعلن نفسه خليفة على العرب في هذا الجو من الانقسام وبايعه عدد من مسلمي الشام وبخاصة في شرق الأردن وفلسطين ، وقد نظم عدد من الشعراء في الشام قصائد حول هذه البيعة التي تمت عام ١٩٢٩ من ذلك من قاله بدر الدين الحامد احد شعراء سوريا (٢) :

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي
يا بني هاشم خلافتكم زنتموها بالحق والقضب
يا ربوع الحجاز طبت ثرى فيك مجدي وفيك خير نبي

وفي ذلك يقول ايضاً محمد كامل شعيب العاملي من ربوع لبنان مبايعاً الحسين بالخلافة (٣) :

اليك مليك العرب مني بيعة مباركة عن أهل صيدا وعامل
أجل بايعتك اليوم فهر وهاشم وجاراها آساد حرب ووائل
أبت ان ترى إلاك للعرب ملجأ وأعظم حام للخلافة كافل

غير ان معظم هذه القصائد التي قيلت حول موضوع بيعة الحسين كانت

---

(١) انظر تفصيل هذه الأمور في محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٩-٤٥
(٢) ديوانه ١٤٧
(٣) الحماسيات في النهضة العربية ١٨

تفتقر الى الحماسة ، ولعل مرد ذلك الى الفترة غير المناسبة التي اعلن فيها الحسين نفسه خليفة ، حتى إن بعضهم استنكر سعي الحسين الى الخلافة مع ان عهدها ولى منذ ان اطاح بها الاتراك قبل قرون ، والي ذلك يقصد الزركلي حين انتقد الحسين (١) :

عجباً لمن طلب الخلافة والخلافة في النجوم
أين الخلافة لا خلافة في الحديث ولا القديم
تلك التي ذهبت مع الأيام قبل ذوي (سليم)

وواضح ان الشاعر لا يقر الحسين على مطالبته بالخلافة ، كما انه من جهة اخرى لا يعتبر سلاطين آل عثمان خلفاء اي انه كان يرى حكمهم للعرب غير شرعي وان الخلافة لم يعد لها معنى بعد ان خرجت من ايدي العرب العباسيين

والواقع ان العرب قد نفضوا ايديهم من نظام الخلافة وبخاصة بعد ان شاركوا هم انفسهم في تقويض اركانها في ثورتهم الكبرى ، بل ان الشكوك والريب اخذت تساورهم تجاه الحسين نفسه بعد ان تبين لهم ضعفه امام الانكليز . وبنتيجة فتور الجماهير تجاه هذه البيعة ولانها كبا في مقاومة العدو الاستعماري الجديد تقلص نفوذ الحسين واكتفى بان يعلن نفسه خليفة على الحجاز فحسب تحت ضغط بريطانيا لأسباب اهمها رغبة الحلفاء في حصر نفوذه هذا في بقعة محدودة ، واخلاء الجو لهم ليطلقوا يدهم في اجزاء الشام الأربعة .

وحين توفي الحسين بن علي بكاه الشعراء وندبوا حظه وحظ العرب والمسلمين ، ولكن قلة منهم في الشام والعراق ومصر اشارت الى تلك البيعة ، إذ تجاهل اكثرهم ما كان من امرها بعد ان انطوى الحديث عنها وعن موضوع الخلافة نفسه .

والواقع انه منذ سقط الخليفة العثماني طرأ على مضمون الشعر القومي الحديث

---

(١) ديوانه ٧١

تطور كبير ، واخذ يعبر عن شعور قومي متعاظم بعيداً عن نظام الامبراطوريات . وادرك العرب ان عهد الخلافة قد ولى ، وان إثارة موضوعها من جديد لم يجلب لهم إلا الشقاق فجنحوا لرفض مبدأ الخلافة جملة ، وبخاصة بعد ظهور المفاهيم الحديثة القومية وفصل عدد كبير من الدول بين الدين والقومية في مجال السياسة والحكم . وقد انعكس هذا الاتجاه لدى اكثر الشعراء والكتاب في السنوات التي اعقبت الحرب الأولى .

وإذا كان صوت دعاة الجامعة الاسلامية قد خفت بعد ذلك في الشعر والنثر وتحول الى دعم جامعة العروبة بصورة عامة ، فقد ظل عدد من الشعراء يفتقدون الخلافة ونظامها بشيء من الحسرة ويرون فيها صورة من الماضي الزاهر وبقية من المجد الغابر .

٣

على ان ثمة ظاهرة هامة في الشعر القومي الحديث تتجلى واضحة لدى كثير من الشعراء في مزج الدين بالقومية او بتعبير ادق عدم التمييز بين العروبة وبين الاسلام ، وغير خاف ان هذه النظرة تختلف عن الدعوة الى الجامعة الاسلامية التي كانت غالبة على الأذهان حتى انتهاء الحرب الاولى ، والتي يمكن عدها دعوة سياسية عرضت في ظروف معينة وعاشت خلال فترة محدودة .

اما التلازم بين مفهومي العروبة والاسلام في الشعر القومي بل في سائر فنون القول ومجالي التفكير العربي فهوامر طبيعي بل ضروري في كثير من الاحيان وربما كان من افضل ما يوضح العلاقة الوثقى بينهما في التاريخ قول محمد المبارك (١) :
« لئن كان الاسلام عقيدة عامة في الحياة ورسالة انسانية ذات مبادىء عامة فان العرب كانوا هم اول من تلقاها وتبلغها ، وهم اول من وعاها وتمثلها ونفذها . منهم خرج

---

(١) الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٠٥

صاحب الرسالة وبلغتهم نزل الكتاب ، وإياهم خاطب اول ما خاطب وإياهم كلف بالتبليغ اولا ومنهم كان صحابة الرسول ﷺ الناقلون للاسلام والشارحون لمبادئه. ولهم كان الوعد اولا بالنصر والتمكين في الأرض وارتفاع الذكر ، وهم الذين استلموا قيادته الفكرية واعين مبلغين ، وقيادته السياسية حماة حاكمين ، وعن طريقه امتدت الشخصية العربية عبر الزمان والمكان وامتدت في العالم متغلغلة بين الشعوب والأقوام ثقافة وتفكيراً وسلوكاً وخلال العصور والأحقاب وهو الذي نقلهم – بعد ان وحد مفاهيمهم في الحياة في جميع نواحي الحياة وآفاقها – من افق القبيلة والصحراء الى الصعيد الانساني حيث اصبحوا حداة القافلة الانسانية واول من قدم النموذج العملي الأول لها. وبه اصبحوا نواة لعالم كبير يحيط بهم كالهالة » ومع ان الاسلام عم شعوباً واثماً كثيرة في الارض فانه لا يذكر إلا ذكرت الامة العربية ، وقد اشار المفكر الهندي ابو الحسن الندوي (١) الى « ان المسلم ينظر الى العالم العربي كمهد للاسلام ومشرق نوره ومعقل للانسانية وموضع القيادة العالمية » وفي ذلك يقول الفيلسوف محمد إقبال (٢) :

أنا اعجمي الدن لكن خمرتي   صنع الحجاز وروضها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم   لكن هذا الصوت من عدنان

وإذا درسنا الأسباب العميقة للثورات القومية التي اندلعت في العالم العربي منذ قيام الحرب الأولى ضد المستعمرين تبين لنا الأثر الفعال للمشاعر الدينية ومدى معانقتها الحارة للعواطف القومية. كان للازهريين في ثورة مصر عام ١٩١٩ ولعلماء النجف في ثورة العراق الأولى ولسائر رجال الدين في ثورات فلسطين وليبيا واقطار المغرب العربي يد مباركة على الحركات الوطنية. ولم يكن الشعور الديني الا رافداً كبيراً للمنازع الوطنية المتعاظمة باطراد في نفوس العرب الذين لم تستسغ شعوبهم

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٤٥ والمرجع السابق ١٦٠

(٢) انظر الابيات في كتاب محمد المبارك : الامة العربية ، وقد عربها الصاوي الشعلان ٢٠٣

ـ وأكثرهم من المسلمين ـ ان يتحكم فيها الغرب المسيحي [1] . وهذا الشعور لم يكن يختلف في جوهره عما كان عليه ابان الغزو الصليبي قبل قرون . ولقد كان الشعر خير مجلى لهذه الظاهرة .

فحين قامت ثورة العراق ضد الاحتلال البريطاني كان العامل الديني من اهم مقوماتها نظراً لأن الشعور القومي لم يكتمل نضجه حتى ذلك الحين لدى الشعب العراقي ، وقد كان كثير من زعماء الثورة من رجال الدين وعلى رأسهم قائدها الروحي الامام محمد تقي الشيرازي الذي كان لفتاواه باعلان الجهاد المقدس ضد الاجنبي المحتل وتحريم طاعته اثر كبير في إلهاب المشاعر الوطنية وإيقاد نار الثورة ، كما ان عدداً من شعراء تلك الثورة كانوا من رجال الدين والأدب ايضاً وكثير منهم من الشيعة القاطنين في الحلة والنجف الأشرف مثل محمد رضا الشبيبي ومحمد باقر الشبيبي وعبدالغني الخضري ومحمد مهدي البصير وعبدالحسين الأزرى وعلي الشرقي وسواهم ، وهذا الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء يقول [2] :

كم نكبة تحطم الاسلام فيها والعرب
والانكليز أهلها فتش تجدهم السبب

وحين خرج محمد سعيد الحبوبي رائد الشعر العراقي الحديث من الضريح العلوي في النجف يريد قتال الانكليز إبان الحرب الأولى كان مدفوعاً بشعور ديني جارف . وقد ارسل اليه محمد القزويني هذين البيتين اللذين يؤكدان هذه الظاهرة لدى الشاعر المجاهد [3] :

---

(١) ومما يؤكد اثر العامل الديني في هذا المجال ان المسيحيين بالمقابل وخاصة في لبنان لم يكونوا يشعرون مثلا تجاه الفرنسيين الذين كانوا من الكاثوليك بنبوة كبيرة لاشتراكهم معهم في العقيدة الدينية . كما كان شأن المسلمين مع الترك من قبل . لقد كان الكاتب المهجري وليم كاتسفليس في جملة الداعين بحرارة الى قبول انتداب فرنسا ويستغرب من السوريين موقفهم تجاه من تعد ارقى الامم ، وهو يعلل ذلك بان اكثريتهم من المحمديين وهي ليست على مذهبهم

(٢) انظر عبدالكريم الدجيلي : محاضرات في الشعر العراقي الحديث ٦٤ من مجموعة مخطوطة الشاعر

(٣) المصدر السابق ٣٣ من مجموعة مخطوطة ايضا

نحن بني العرب ليوث الورى   دين الهدى فينا قوي عزيز
لا بد ان نزحف في جحفل   نبيد فيه جحفل الانكليز

ولئن تردد كثير من السوريين في الالتحاق بالثورة العربية الكبرى التي نشبت ضد الحكم العثماني عام ١٩١٦ وذلك اشفاقاً منهم على نظام الخلافة واشهار السلاح في وجه اخوتهم المسلمين والترك لقد اجمعوا امرهم بعد ذلك وبادروا الى قتال الفرنسيين. وقد تجلت هذه المشاعر الدينية ملتئمة مع العواطف القومية بشكل بارز في اكثر ما قيل يومئذ من شعر وطني، من ذلك ما قاله خليل مردم بك (١) :

كم مسجد حرقوا وكم من راكع   سالت دماؤهم به ضحضاحا
أضحى كتاب الله وهو ممزق   أرجوا (٢) اليه أسنة وصفاحا
يا غيرة الله اغضبي لكتابه   إن قومه لم يبذلوا الأرواحا

وحين نشبت الثوره السورية عام ١٩٢٥ كانت النفوس مفعمة بالشعور القومي المتأجج، ومع ذلك كان للشعور الديني اثره الكبير في رفد التيار الوطني وتغذية حركة النضال القومي ضد المحتلين. ولهذا اختلط مفهوم الدين والوطن في قصائد كثيرة. وهذا الشاعر محمد علي الحوماني يصدر عن ذلك الاتجاه بقوله (٣) :

مجد العروبة أقفرت عرصاته   والضيم حل به فاين أباته
الله للاسلام هدم صرحه   والى الحضيض تساقطت شرفاته

ومن ذلك ايضاً ما قاله شوقي في قصيدته المشهوره دمشق (٤) :

الست دمشق للاسلام ظئراً   ومرضعة الأبوة لا تعق

كما عبر من مصر احمد زكي ابو شادي عن هذا الجانب الديني

---

(١) ديوانه ١٥٧
(٢) أرجوا : خاطوا
(٣) ديوانه ٩ .
(٤) الشوقيات ٢ : ٨٨

تجاه الثورة فقال (١) :

ريعت لنكبة مجدك الأحلام وبكاك باسم فخاره الاسلام
حرب الصليب رددتها في أسهم شرفاً فعادوا ينقمون فهاموا

وقد استيقظت الحمية الدينية قوية في نفوس كثير من الشعراء عندما اخذ الفاشيست من الطليان ينكلون باحرار العرب في طرابلس الغرب ، إذ ارتكب المستعمرون هناك فظائع رهيبة تجاه المسلمين في تلك البقعة العربية وعبثوا بمساجدهم وكان ما ابدوه من ضروب التعصب الأعمى جديراً بان يستفز مشاعر العرب والمسلمين بل البشر كافة ، وقد أثارت الأحداث المؤلمة عام ١٩٣١ التي انتهت بقتل عمر المختار قرائح شعراء العرب على اختلاف ديارهم ، من اشهرها ما نظمه امير الشعراء شوقي مستنكراً شنق شيخ بلغ السبعين من السنين ولم تكن جريرته الا الذود عن وطنه وقد اشار شوقي الى فقد الاسلام له بقوله (٢) :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء
المسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عزاء

كما عبر احمد محرم عن تلك الغضبة التي شملت العرب والمسلمين على السواء فقال (٣) :

ذعر (الحطيم) وراع (يثرب) عاصف
للموت ضج لهوله الحرمان
سهم أصاب المسلمين وجال في كبد الهدى وحشاشة الأيمان
وارحمتا للمسلمين تفرقوا وتباعدوا في الارض بعدثوان

وهذه القصائد تذكرنا بحروب مماثلة جرت بين الطليان ايضاً وبين العثمانيين فوق تلك الارض نفسها قبيل نشوب الحرب العالمية الاولى وكيف تطوع

---

(١) ديوان الثورة ٨٨
(٢) الشوقيات ٣—١٧
(٣) الدكتور محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ٢ ، ١٠٤ عن ديوان مخطوط للشاعر

آنذاك آلاف العرب الى جانب الترك لطرد الدخيل من طرابلس ممـــا اثار قرائح الشعراء على نطاق واسع . ولا ريب ان ما نظمه الشعراء في رثاء المختار كان يستدعي هذا الاهتمام بالجانب الديني في شخصية الفقيد الكبير فهو رأس الاسرة السنوسية ذات النفوذ الروحي البارز والمكانة الدينية السامية ، وكان نضاله المستميت ضد الاستعمار نموذجا لالتقاء العقيدة الدينية والقومية . والى ذلك اشار اكـثر الذين رثوه من الشعراء .

والواقع ان الشعور الديني لم يتجل قويا في الشعر القومي الحديث الا من خلال ما نظمه الشعراء من قصائد حول احداث فلسطين منذ ان وضعت الحـــرب الأولى اوزارها . فقد تميزت القضية الفلسطينية بطابـــع قومي وديني معاً نظراً لوقوع احداثهـا في الأرض المقدسة مهد عيسى ، ومسرى محمـــد ، ومهبط سائر الرسل .

وبالاضافة الى العرب اهتم مسلمو الأرض قاطبة بما يجري حول المسجـــد الأقصى من مآس كان وقودها اخوانهم في الاسلام . ويعتبر انعقاد المؤتمر الاسلامي العام في القدس دليلا على اهتمام مسلمي العالم بما يحدث في الديار المقدسة . ومن هذ الزاوية ايضاً نظر كثير من الشعراء العرب الى نضال الشعب في فلسطين على انه جهاد مقدس يقوم به المؤمنون دفاعاً عـــن عقيدتهم ومنافحة عن ارضهم الطاهرة ، ولذلك كان للعامل الديني اثره في الهاب المشاعر ضـــد الصيهونية ، وقد عبر الشاعر العراقي محمد علي اليعقوبي عن هذا الشعور مخاطبا زعماء المسلمـــين في مؤتمر بقوله (١) :

صونوا حمى الدين الحنيفي من ... تلاعب الشرك وأيدي الغير
والبيت والأرض التي شرفت ... بالمصطفى والطيبين الغرر
والمسجد الأقصى الذي قد سرى ... منه لأعلى العرش خير البشر
فاغتنموها إنها فرصـــة ... اتاحها للمسلمـــين القدر

---

(١) الفلسطينيات ١٦

ومن هذا القبيل ما قاله ابو الفضل الوليد :

قد أذلوا العربي المسلما ايهودي زنيم شرس
ضامه في المسجد الأقصى كما
ضام عيسى وسط بيت المقدس

ويقسم احمد محرم بمجرى الوحي : (١)

لا ومجرى الوحي من مقدسها لن تروها ايهود مطلعا

كما نستشف هذه النظرة الاسلامية تجاه ارض فلسطين المقدسة لدى عمر بهاء الأميري إذ يقول : (٢)

يا فلسطين يا تراث النبوة يا لسان المجد الأثيل المفوه
الأباة الكماة تهتز ثأراً كلما معرج الرسول تأوه

اما محمد عبدالغني حسن فيشير الى تلك الرابطة الدينية التي تربط المصريين باخوتهم في فلسطين ويقول (٣) :

نحن في الهم اخوة جمعتنا فكرة حرة وقربى ودين

وهكذا حقق ذلك الالتقاء الرائع بين المشاعر الدينية والقومية بعد الحرب العالمية الأولى انتصارات باهرة للحركات الثورية في البلاد العربية إذ استمر صوت الدين عالياً في الشعر القومي يؤدي دوره الفعال في مقاومة الاستعمار ويرفد الشعور القومي الجارف في نفوس العرب

---

(١) الدكتور محمد حسين ، لاتجاهات الوطنية ٢ ، ٥٥ عن ديوان مخطوط للشاعر
(٢) من ديوانه المخطوط
(٣) من نبع الحياة ٩٨

٤

ولكن الروح الوطنية والمشاعر القومية اخذت تنمو باطراد على حساب الجامعة الاسلامية التي كان لها شأن كبير قبل الحرب العالمية الأولى وفي اثنائها. وذلك بفعل الثورات القومية المتوالية في العالم العربي التي ابتدأت حلقاتها بالثورة العربية الكبرى ثم ثورة مصر عام ١٩١٩ فثورة العراق والثورة السورية واخيراً ثورات فلسطين المتعددة. ففي مصر تحول الشعراء ومعهم الرأي العام عن فكرة تأييد تركي يتربع فوق عرش في الآستانة الى الالتفاف حول الوطن المصري ودعم كيانه، ونرى مثالا لهذا التحول في احمد شوقي بعد نفيه الى الأندلس، فهو يقول قبيل عودته الى وطنه معارضاً سينية البحتري (١) :

وطني ، لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

وما يكاد يحط اقدامه في بلده وتكتحل عيونه بمرآه بعد اغتراب دام نحواً من خمس سنين حتى اخذ لسانه يلهج بمحبة وطنه دون سواه (٢) :

أدير اليك قبل البيت وجهي
إذا فهت الشهادة والمتابا
ولو اني دعيت لكنت ديني
عليه اقابل الحتم المجابا

وهكذا اخذ العنصر الديني بالتضاؤل في المجال القومي ليفسح المجال امام المشاعر الوطنية.

اما في العراق وفي الشام التي تضم سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن فقد اخذ الشعور القومي بالتعاظم منذ ان ثار اهل تلك المناطق على الخلافة العثمانية والنفوذ التركي. وكانت العروبة هي السمة البارزة لدى شعرائهم الذين عزفوا الالحان القوميه على وترين اثنين هما تحرر العرب ووحدتهم في حين اقتصر شعراء مصر

(١) الشوقيات ٢ : ٥٣
(٢) الشوقيات ١ : ٥٦

على العنصر الوطني والجامعة المصرية وحدها اي على التحرر فحسب دون اي شيء آخر .

وهذا الأمر جدير بان يستوقفنا ويقودنا الى اكتناهه وتتبع آثاره في الشعر فالواقع ان انفراد مصر بالاحتلال البريطاني في وقت مبكر وقبل ان تبتلى بمثله سائر اقطار الشرق العربي وضع المصريين في وضع معين جعل قضيتهم تختلف عن سائر قضايا الشام والعراق التي بقيت خاضعة للحكم العثماني المباشر سنوات طويلة اخرى . ثم نما هذا الحاجز ولم يعد المصريون بعد ذلك يتجاوبون مع قضية انفصال العرب عن الترك وبالتالي لم يتحمسوا لثورتهم إبان الحرب بل استنكروها ايضا . ولم ينته امر هذا الافتراق إلا بعد ان وحدت الاحداث بينهما عندما شمل الاستعمار بلاد الشام والعراق منذ انتهت الحرب الأولى ، ومنذ ذلك الحين اصبح العدو مشتركا وبدأت الفكرة العربية تنمو على ضفاف النيل وتنطلق من مكامنها ولذلك وجدنا مفهوم العروبة يتلفع لدى اكثر الكتاب والشعراء في مصر بثوب إسلامي واضح المعالم ، كما ان المفهوم القومي بدا غائما فيما نظم من الشعر اول الأمر ، ومن مظاهر هذه الروح القومية التي بعثت مجدداً في مصر وارتدت ذلك الطابع الاسلامي أبيات لحافظ ابراهيم في (تحية الشام) يقول فيها : (١)

(النيل) وهو الى (الأردن) في شغف
يهدي الى (بردى) أشواق ولهان
وفي (العراق) به وجد (بدجلته)
(وبالفرات) وتحنان (لسيحان)

فعلى الرغم من بروز الفكرة العربيه في بيتي حافظ يستوقفنا ورود كلمة سيحان فيها . وسيحان هذا أو سيحون نهر في آسيا الوسطي الروسيه يصب في بحر آرال ، وقد ذكره الشاعر في عداد مناطق العرب نتيجة لفهمه الخاص للوحدة العربية وعدم تمييزه بينها وبين الوحدة الاسلامية ، إلا اذا كانت القافية اضطرته الى ذلك وهذا ما لا نرجحه لدى شاعر كبير مثل حافظ ابراهيم.

---

(٣) ديوانه – ١٣٩

وقد نظم محمود ابو الوفا قصيدة مطولة اسماها (اذاعة إسلامية) ذكر في تقديمه لها (١) انه راح يفكر في حال البلاد « العربية الاسلامية » وينتقل بخياله من تونس الى طرابلس الى جاوه الى حضرموت ثم الى العراق وأخيرا يعود الى مصر. وقد خص الشاعر كل بلد من هذه البلاد بابيات تحدث فيها عن شؤونها وشجونها، ونحن نلاحظ ان جميع ما ذكره كان عربيا باستثناء جاوه، وهذا شبيه بما وجدناه آنفا لدى حافظ حين حشر سيحان في جملة البلاد العربية على صعيد واحد. وربما يرجع اقتصار ابي الوفا على ذكر جاوه المسلمة دون ان يردفها بايران وتركيا والأفغان وسواها من الاقطار الاسلامية، الى ما كانت تعانيه هذه الجزيرة وأخواتها من المناطق الأندونوسية آنذاك من وطأة الاستعمار الهولندي. ولكن الغريب ان يبلغ الشاعر هذه الأرض من الشرق الأقصى ولا يرد في اذاعته الاسلامية ذكر للشام او لسورية التي كانت تغلي كالبركان في ظل الحكم الفرنسي. ومع ذلك استأثرت بلاد العرب وقضاياهم باكبر اهتمام الشاعر في اذاعته الاسلامية

ولعل من ابرز ما يشير الى هذه الظاهرة قصيدة لشاعر مصري آخر هو محمود غنيم نظمها عام ١٩٣٥ اي في فترة متأخرة نسبياً، ومع ذلك فان الفكرة العربية لم تبد جلية خلالها بل كانت متداخلة في الفكرة الاسلامية أيضاً (٢) :

ما بال شمل شعوب الضاد منصدعا	رباه أدرك شعوب الضاد رباه
عهد الخلافة في البسفور قد درست	آثاره طيب الرحمن مثواه
اني لأعتبر الاسلام جامعة	للشرق لا محض دين سنه الله
سل المعالي عنا إننا عرب	شعارنا المجد يهوانا ونهواه

وتسير سائر الأبيات على هذا النحو من الازدواج بين العروبة والاسلام. وكما هو جلي تبدو الجامعة الاسلامية اكثر بروزاً لدى الشاعر غنيم الذي يضطرب في فهمه للعروبة ويرى انها تعني الشرق والضاد والاسلام.

١ أشواق ١٠٧
٢ ديوانه ٧٨

وما أكثر ما نصادف في دواوين الشعراء من عناوين لقصائد او عبارات في الأبيات نفسها تشير الى عدم التمييز بين العروبة والاسلام ، وثمة مثل نورده في قصيدة لشاعر مصري اخر هو علي الجندي نظمها بمناسبة وفاة فيصل الاول ، واطلق عليها اسم (مأتم العروبة والاسلام) وهي تصور إلى حد بعيد قوة الاتجاه الاسلامي وطغيانه على الفكرة القومية ، وإذا كان في العنوان ذكر للعروبة فليس في القصيدة كلها ذكر لها او للعرب او حتى للثورة العربية التي كان فيصل بطلها الاول . وكل ما وجده الشاعر في الفقيد انه وريث هاشم وسليل سبط الرسول ، فهو يعزى عنه آل البيت دون ان يرى فيه أكثر من شخصية دينية فحسب ، في حين ان فيصل يعتبر رائد الزعماء العرب الذين فهموا القومية العربية بعيدة عن الاسلام ، واتجهوا الى فصل الدين عن الدولة على اساس قومي محض . وثمة قصيدة اخرى للشاعر نفسه يرثي فيها احمد زكي باشا ويجعل عنوانها (شيخ العروبة) ولكنها برغم هذا العنوان المستمد من لقب الفقيد لا تكاد تشير الى العرب والعروبة إلا في بيتين من خمسين بيتاً . ولعل من اهم اسباب هذا التصور الديني المحض للمسائل القومية عند الشاعر الجندي وعند محمود غنيم انهما نشأا نشأة إسلامية وتخرجا في كلية دار العلوم .

وكذلك يمكن ان نعتبر ارجوزة شوقي المطولة (دول العرب وعظماء الاسلام) التي نشرت في ديوان مستقل من اهم الامثلة على اختلاط المفهومين العربي والاسلامي وتداخلهما في اذهان الكثيرين من الشعراء ، وهذه الملازمة بين المفهومين التي تطالعنا في عنوان الارجوزة نفسه مردها في الواقع الى هذا التداخل الكبير بين التراث العربي والاسلامي وتاريخهما بحيث يبلغان درجة التوحد في كثير من الاحيان وإلى ذلك يشير شوقي حين يتحدث عن اللغة العربية ويعتبرها الأساس الأول في كيان العرب وصرح الاسلام ، كما تتجلى هذه الظاهرة في سائر اجزاء الأرجوزة التي نظمها خلال اقامته في الأندلس منفياً ، ومن ذلك مثلا قوله في امجاد الراشدين (١) :

---

(١) دول العرب وعظماء الاسلام ٥٣

قد فتحوا قبرص للامام بالسفن المزجاة كالغمام
فاصبح القاصي من البر اقترب وصار بحر الروم لجة العرب
وخفقت كتائب الاسلام في البحر اعلاما على اعلام

ولا ريب في ان قوة العاطفة الدينية لدى امير الشعراء كانت الباعث الاول على نظم الأرجوزة المطولة وكثير من قصائده ، ومن هنا برز الاتجاه الاسلامي في معظم شعره

على ان بروز هذا المنزع لدى شعراء مصر لأسباب تاريخية واجتماعية لا يعني تلاشيه لدى شعراء الأقطار الأخرى العربية كالشام والعراق ، فتشابك تراث العرب والمسلمين ووحدة تاريخهم جعل الأمر ظاهرة عامة لدى الشعراء في كل مكان . وهذا شاعر دمشق خليل مردم بك يعبر عن مدى هذا التلازم بين المفهومين بشكل عفوي فيقول (١) :

كم ذا اجمجم داء كاد يقتلني والداء أقتله ما كان محتجبا
أعلم أنت من أبكي وأندبه فانني أندب الاسلام والعربا

والأمثلة على هذا التلازم تبلغ حداً من الكثرة بحيث تكفي الاشارة اليها واكثر ما يتجلى ذلك في القصائد التي نظمت في الرسول محمد عليه السلام بمناسبة ذكرى مولده او هجرته او غزواته ونحو ذلك مما تطفح به دواوين الشعراء .

على ان مفهوم العروبة اخذ يتسم على مرور الايام والأحداث بمعالم خاصة وإن لم يستقل عن مفهوم الاسلام في كثير من الأحيان ، وذلك بتأثير واقع العالم العربي الذي اخذ ينفرد شيئاً بعد شيء عن كثير من قضايا سائر المسلمين في الشرق . ويعد احمد محرم ـ وهو في رأس الشعراء الذين اتحد لديهم المفهوم العربي الاسلامي ـ مثالا بارزاً لتحول انصار الجامعة الاسلامية الى الجامعة العربية ، برغم

(١) ديوانه ٢٤٣

عدم اتضاح الفكرة القومية لديه ايضاً ، فهو يقول إبان الحرب العالمية الثانية حين بدأت الباحثات لتأسيس جامعة للدول العربية (١) :

أمم العروبة جاء يومك فاعملي — والى مكانك فانهضي وتقدمي
هذا زمان ليس يفهم اهله — إلا حديث النار او لغة الدم
أمم العروبة جد جدك فانظمي — من عقدك المنثور ما لم ينظم

فنلاحظ ان الشاعر يعتبر شعوب الأقطار العربية أمما شتى تريد اليوم ان تتحد ، قبل ان يرى فيها امة جزأتها الغير وانها تنزع الى استعادة سالف عهدها (٢) .

وكذلك بدأ هذا التحول الى الاتجاه العربي لدى شوقي الذي « لم يكن يذكر العروبة قبل الحرب الأولى إلا على هامش مدائحه في الترك او في الرسول الكريم » (٣) .

ومما لا ريب فيه ان الروح القومية اخذت تسري سريعا بعد ذلك في شعر المصريين ونثرهم بفضل وحدة القضية ووحدة الآمال والآلام والمصير بين الشعوب العربية التي صهرتها الأحداث والفت بين قلوب ابنائها .. والحق ان احتضان بعض المؤسسات الدينية في مصر كالأزهر وجمعية الاخوان المسلمين والشبان المسلمين للدعوة العربية كان له تأثير بالغ في دفع الحركة القومية الى الامام ، اذ التقى دعاة

---

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ٢ : ١٠٧ عن ديوان مخطوط للشاعر

(٢) كان عبدالرحمن عزام اول امين عام لجامعة الدول العربية يفهم العروبة على اساس ديني اسلامي وهذا واضح في كتابه « الرسالة الخالدة » فهو يمجد العنصر الديني والروحي في اقامة الاوطان ، بل ينتقد القومية والوطنية ويلتمس الدولة والعلاقات الدولية في تعاليم الأديان السماوية

(٣) الدكتور شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٥٦

الجامعة الاسلامية بدعاة العروبة على صعيد التحرر الكامل ، ووجدوا في الوحدة العربية مرحلة كبيرة نحو الوحدة الاسلامية المنشودة [1] يضاف الى ذلك مركز مصر العريق في صون الثقافة العربية والتراث الاسلامي على مر العصور ، وكونها بؤرة النهضة الادبية الحديثة ، ومن هنا تتضح لنا ايضا بعض اسباب اختلاط مفهوم العروبة والاسلام لدى كثير من شعراء مصر .

ولعل مؤتمر ادباء العرب الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٥٨ واقتصرت ابحاثه على الأدب والقومية العربية . خير دليل على استمرار صفة التلازم بين المفهومين العربي والاسلامي الذي لم تنفصم عراه في نفوس بعض وفود العالم العربي من خلال ما القوه من كلمات وتعليقات وقصائد . وذلك على الرغم من ان الفكرة القومية قد تغلغلت في نفوس العرب وتجلت في الشعر المعاصر الى حد لا مثيل له من قبل .

وهكذا كان التلازم بين مفهومي العروبة والاسلام قويا في الشعر القومي يستمد جذوره من طبيعة تاريخنا المديد الذي تداخل فيه تراث العروبة والاسلام تداخلا كبيراً لا انفصام له .

وعلى الرغم من سطوع هذه الحقيقة ثمة ظاهرة يمكن ان تعد منافية لها اخذت تتجلى قوية مع تتالي الايام ، تلك هي عزوف الشعراء المطرد عن ابراز هذا التلازم او التداخل وحرصهم الدائب على معالجة الشؤون القومية في قصائدهم بمعزل عن الاعتبارات الدينية ، حتى ان هذا الحذر كان يؤول لدى بعضهم الى تحرج فلا يدير كلمة الاسلام على لسانه وكأن ذلك يلصق به تهمة او يصمه برجعية . ومرد ذلك في رأينا الى اسباب كثيرة منها ضعف الاواصر بصورة عامة بين الدين وبين

---

(١) انظر تفصيلات هذه العلاقة لدى الدكتور اسحق موسى الحسيني في كتابه «الاخوان المسلمون» وقد جاء في مقال لعيسى البندك نشر في ملحق السياسة الادبي في نوفمبر ١٩٣٢ : «لم تكن الوحدة العربية فكرة اليوم فهي ربيبة الدعوة المباركة للجامعة الاسلامية او قل انها جزء لا يتجزأ منها ، بل لا نكون مغالين اذا اعتبرناها حجر الزاوية في بناء تلك الجامعة العتيدة»

القومية في المجتمعات البشرية ، والحاح النظريات الاجتماعية الحديثة على استقلال كل من العنصرين عن الآخر وقيامه بنفسه ، ومنها ايضا ان كثيراً من الأقطار في الغرب فصل الدين عن الدولة ، ومنها اخيراً الاحساس الحاد لدى الشاعر العربي المعاصر بمرارة الذكريات التي خلفها التعصب الطائفي الذميم وبخاصة ما كان نتيجة التجربة القاسية ابان الحكم العثماني .

وغير خاف ما في هذا المنزع من اهدار لتراث الاسلام العظيم وماله من اثر كبير في بناء كياننا القومي ، مقابل توهم او توجس من رواسب احداث موقوتة عابرة ، فالاسلام من الزاوية القومية تراث مشترك للعرب جميعاً بالاضافة الى كونه ديناً سماوياً . وهذا التمييز الدقيق لا بد له من ان يقوم في ذهن الشاعر العربي حتى يؤدي رسالته القومية كاملة .

واذا كان هذا الادراك متوقعاً ومألوفا من قبل شاعر عربي يدين بالاسلام فهو مدعاة للتقدير تجاه عدد من الشعراء العرب الذين يدينون بالعقيدة المسيحية ، وقد كان رشيد سليم الخوري (القروي) - شاعر القومية العربية الأول - رائد ذوي الادراك السليم والفهم القويم بفضل جرأته الأدبية وتحرره الفكري ومما قاله في هذا الصدد :

عش للعروبة شائقاً	بحياتهـــا ودوامهـا
أنظر الى آثارهـــا	تنبئك عن ايامهـا
هـــذا التراث يمت	معظمه الى إسلامهـا

ومن هذا القبيل قوله ايضا (١) :

أتجف اوراق العروبة في ربا	لبنان وهي نضيرة في (يذبل)
أتريد أعظم من ابي بكر ومن	عمر إذا انتسب الكرام ومن علي

(١) ديوانه ٤٥١

أو قوله :

أنا العروبة لي في كل مملكة — انجيل حب ولي قرآن إنعام
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت — عروبتي مثلي الأعلى وإسلامي

★ ★ ★

وبعد فقد اكتفينا بتتبع العامل الديني في الشعر القومي الحديث دون ان نعنى بالشعر الديني المحض الذي نجد نموذجا منه في « الالياذة الاسلامية » لأحمد محرم ، ففيها يؤرخ الشاعر لغزوات الرسول في قصيدة مطولة شبيهة بشعر الملاحم ، أو في علوية عبدالمطلب وفي عدد من أماديح الشعراء في الرسول عليه السلام ، وكثير مما نظمه الشعراء الشيعة العراقيون في علي والحسين رضي الله عنهما .

ومن حسن الحظ أن تحول الكثيرين من أنصار الجامعة الاسلامية إلى دعاة متحمسين للعروبة جاء في الوقت الذي أخذت فيه الدعوات الاقليمية الضيقة تستشري في نفوس فئات من المصريين واللبنانيين وتنعكس في قصائد الشعراء .

ومن كل ما سبق ومن خلال رصدنا للاتجاه الاسلامي في الشعر القومي الحديث نستطيع القول ان العاطفة الدينية كان لها منذ عصر الرسول المقام الأول في نفوس الشعراء واستمر شأنها كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وحين بدأت بوادر الشعور القومي تتسرب إلى نفوس العرب نتيجة لعوامل سياسية واجتماعية وتأثيرات فكرية خارجية انعكس كل ذلك في الشعر وأخذت الفكرة العربية الشاملة أو الفكرة الوطنية المحلية تنافس الجامعة الاسلامية الكبرى برغم ان كلتا الجامعتين العربية والاسلامية كانت في جوهرها حركة بعث وإحياء تهدف إلى استعادة الأمجاد الماضية ، ولم شعث الشعوب المتآخية التي فرقها الدهر ، ومزقتها الغير والأحداث . إلا أن الوحدة الاسلامية غدت مثلا أعلى ينشده الشعراء وسائر الناس في غير أوانه . ولئن اشتدت الدعوة إليها في بعض الأحيان

فانما حدث ذلك في أحوال طارئة نجمت عن استفزازات الغرب المسيحي . والواقع أن هـذه الدعـــوة لم تفلح حتى في العهود الماضية في تكتيل ملايين المسلمين المنتشرين في أقطار متباعدة من آسية وأفريقية تفصل بينهم أراض شاسعة ، وثقافات مختلفة ، ولغات متعددة ، واتجاهات متباينة ، لقد استطاع الاسلام أن يوحد عقيدة عدد من الأمم ، ولكنه لم يستطع أن يقضي على قومياتها أو يوحـــدها فبقيت فرساً وأتراكاً وهنوداً وعرباً ...

ويمكننا أخيراً أن نخلص من خلال هذا الفصل إلى الأمور التالية :

١ ــ كانت البواعث الدينية غالبة على الشعر القومي حتى الحرب العـالمية الأولى ، نتيجة ظروف تاريخية واجتماعية عميقة الجذور .

٢ ــ ازداد تمسك الشعراء بفكرة الجامعة الاسلامية برغم تداعي نظام الخلافـــة ، حرصاً على مجابهة الغرب الذي كان ينظر إلى العرب والمسلمين بعين صليبية .

٣ ــ ظل الشعراء يترنمون بنغمة الخلافة ويتوقون الى إعادتهـا برغم انهيـارها ، يدفعهم الى ذلك حنينهم إلى الأمجاد السـالفة في ظل خلفاء بني أميـــة اوبني العباس .

٤ ــ كان الشعراء الذين هاجموا المستعمر بعنف ، وبخاصة في مصر هم بالاجمال من الذين اعتنقوا العقيدة الاسلامية واستلهموا صراحة العرب وإباءهم .

٥ ــ كان لشعراء الجامعة الاسلامية فضل كبير في الوقوف ضد النزعات الوطنية الضيقة وخاصة في مصر .

٦ ــ ظل العنصر الديني كسباً كبيراً للنضال القومي ، إذ أمده بنار جديدة ضد المستعمرين كان الشعر القومي يفتقر الى مثلها في معركته ضد الأتراك

العثمانيين .

٧ ــ تحول أكثر شعراء الجامعة الاسلامية ودعتها وبخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية إلى دعم الاتجاه العربي وذلك بالسعي لاعادة الخلافة الى العرب أول الأمر . ثم خطوا خطوة أخرى في الدعوة إلى رابطة العروبة باعتبار عدم التنافي بينهما .

٨ ــ أخذت الروح القومية تنافس العامل الديني باطراد وتنمو على حساب الجامعة الاسلامية في الشعر المعاصر منذ الحرب العالمية الأولى .

٩ ــ اختلاط الدين بالقومية كان أحياناً سلاحاً ذا حدين فهو من جهة زاد النضال القومي قوة ولكنه من جهة أخرى أوجد الحذر في نفوس المسيحيين من طغيان الأكثرية المسلمة عليهم مما أفسح المجال لأحابيل المستعمر والنزوات الاقليمية المنحرفة .

١٠ ــ ظل عدد من الشعراء يحوك قصائده القومية نسيجاً سداه الاسلام ولحمته العروبة دون أن يستطيعوا التمييز الدقيق بينهما في شعرهم ، وذلك نتيجة لعمق جذور الاسلام في النفوس ، وتشابك تراث العرب والمسلمين .

الفصل الثاني

الرابطة الشرقية

١

لعل إطلاق كلمتي الشرق والغرب كان يعني منذ القرون الوسطى شطري العالم القديم شطر آسية وأفريقية وشطر أوربة .

ويبدو أن بوادر الرابطة الشرقية أخذت في البروز منذ الحرب الصليبية التي كانت في جوهرها استعماراً أوربياً تجلبب بالدين، إذ أن الحماسة الدينيـة كانت الحـافز الوحيد الذي استطاع آنذاك سوق الجحـافل الجرارة إلى الشرق تحت لواء الكنيسة بحجـة تخليص الأراضي المقدسة من ايـدي المسلمين ، وهكذا ارتبطت تلك الحملات الغربية بالتعصب الديني في أذهان الشرقيين .

غير أن الروح الشرقية أخذت تستيقظ مجدداً في العصر الحـــديث وعلى نطـاق شامل بشـكل شعور غامض بالتعاطف بين بلاد متعددة ، وذلك كرد فعل للتوسع الاستعماري وغزو الشرق . وغدا أكثر أجزاء آسية وإفريقية فريسة في قبضة بضع دول أوربية . ومن ذلك يتضح ان هذه العاطفة المشتركة بين الشرقيين تكونت نتيجة ظروف بعينها وإزاء خطر مشترك طاريء ، فهي أبعد ما تكون عن قوة الرابطة الحقيقية التي نجدها في الدين أو في القومية أو الروابط الأخرى .

والواقع أنه منذ عصر التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر أخذت الهوة تتسع بين شطرى العالم القديم حتى انقلب هذا الشعور إلى عداء متبادل بين الشرق والغرب. وقد دأب بعض المفكرين في أوربة على تعميق هذه الهوة ووضع فلسفات ونظريات تجعل هذين الشطرين على طرفي نقيض، وكان من أشهرهم الشاعر الاستعماري (رديارد كبلنغ) الذي قال جملته المشهورة (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا)، بالاضافة إلى النظريات العنصرية التي قامت على أساس من ازدراء شعوب الشرق وتبرير استعمار الغرب لها.

إن وثبة الغرب الحضارية قد هزت كيان الشرق وأيقظته من سباته، فأخذ يتطلع مبهوراً إلى التقدم المادي الرائع. وكان رد الفعل في باديء الأمر لدى شعوب الشرق «ضرباً من الدهشة والذهول أمام لغز لا يحل وقفوا تجاهه على اختلاف قومياتهم موقف المستشعر بضعفه.. وكان التفكير يدور حول (أسباب تأخر الشرق) و (تقدم الغرب) في سلسلة من الموازنات والمقارنات في شتى نواحي الحياة»[1] وأكثر ما دبجته الأقلام من مقالات وبحوث كان يجعل الشرق موطن الروح ومبعث النبوات، والغرب موطن المادة ومصدر الثروات؛ وقد دأب عدد من الكتاب العرب من امثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأمين الريحاني ومي زيادة وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وعباس محمود العقاد على معالجة هذه الموضوعات واستجلاء المفارقات والمميزات في كل من الشرق والغرب، وقدرأينا العقاد يستخف في فصوله بمدنية الغرب ويشيد بكون الشرق منبت الانبياء وان الغرب ما زال عالةعلى الشرق فيما يدين به وأنه يكفي ان أوربة لم تنبت نبياً. كما رأينا ميخائيل نعيمة الذي ينكر كل حد بين البلاد ولا يقبل مبدأ القومية وكيانات الشعوب، يقيم بين الشرق والغرب حدودا، ويسم كلا منهما بسمات مميزة بحيث يجعل منهما عالمين منفصلين، ويعد الشرق قلب البشرية والغرب عقلها؛ كما يرى ان الشرق بصير والغرب مبصر، وان الغرب يغرب والشرق يشرق[2].

---

(١) محمد المبارك: الامة العربية ٥٠.
(٢) انظر عبدالكريم الأشتر: النثر وفنونه في المهجر الشمالي ١: ١٧٢ ، ت ١٨

وعلى الرغم من أن هـــذا التفريق القاطع والتمييز المطلق بين المجتمعات البشرية ليس طبيعياً ولا يمكن قبوله جملة وبخاصة في عصر حطمت فيه المواصلات ومنجزات العلم الباهرة الفوارق والسدود بين الأقطار ، إلا أن ذلك ينم عما استقر في نفوس العرب وسائر الشعوب حـــولهم من شعور حاد بشرقيتهم تحت وطأة رواسب الماضي والأحداث السياسية العنيفة التي عصفت بالشرق نتيجـــة الحروب الكبيرة والغزو الاستعماري الطاغي . وطبيعي أن يترك ذلك كله صدى في الشعر القومي والاجتماعي وأن يستشعر الشاعر العربي في هذا الخضم بشرقيته الى جانب اعتداده بدينه وقوميته .

من ذلك ما عبر عنه أديب التقي في قصيدة اسمها (بين الشرق والغرب) نظمها على أثر زيارة شاعر الهند طاغور لمدينة دمشق عام ١٩٢١ ، وقـــد تجلت فيهـــا نفحة إنسانية وادعة كأنما سرت إليها من روح الشاعر الهندي العظيم(١) :

حنانك عبد الشرق هل أنت راجع	بما ينبغي أم ليس تحناننا يقضى
أأحرار أهل الغرب أموا بلادنا	تروا كراما لا نسر لكم بغضا
تعالوا إلينا لا لفتح وغارة	لتستعبدوا حراً وتستعمروا أرضاً
ولكن لترتادوا حقائق شرقنا	وتستمعوا للقلب عن كثب نبضا
حملتم إلى الشرق الاسار وجئتم	تراضونه والشرق بالأسر لا يرضى

وتعتبر قصيدة (الشرق والغرب) للصافي النجفي — وقد نظمها في أواخر الحرب العالمية الثانية — من أجمل ما قيل في تصوير مادية الغرب وفلسفته وفيها يقول(٢) :

جئناك يا غرب بالأديان والحكم	وجئت للشرق باستعمارك النهم

(١) ديوانه ١٠١ .

(٢) ألحان اللهيب ٨٣ .

ما الغرب إلا كيان لا فؤاد له يحيا كآلاته بالغاز والفحم
زفيره من دخان نافث نقما وقلبه نابض بالنار والحمم

وكان حسن البحيري واضحاً وصريحاً حين أخذ يخاطب (كبلنغ) الأديب الامبراطوري مباهياً إياه بحضارة الشرق ومشيراً إلى عبارته المأثورة التي تقرر تحكم الغرب القوي في الشرق الضعيف الى الأبد ، وذلك في قصيدة له عنوانها (الشرق) وفيها يقول (١) :

« رديارد » هذا الدهر سله من ابتنى الهرمين سله من اعتلى الايوانا
الشرق شرق عزة ومهابة والغرب غرب خسة وهوانا
إنا أرنا غربكم بضيائنا أيام كنتم في الورى قطعانا

أما الصافي النجفي فقد استوحى عبارة (كبلنغ) وكأنه يرد بها عليه (٢) :

الشرق لا يلتقي بالغرب في زمن وهل ترى تلتقي الأنوار بالظلم

ومما زاد العاطفة الشرقية رسوخاً في نفوس الشعراء العرب يقينهم أن أصل البلاء واحد شمل العرب المسلمين وسواهم ، وأن دول أوربة اتفقت جميعاً على اقتسام هذا الشطر الكبير من العالم واستثماره ارضاء لجشعها ، فكأن الغرب أخطبوط هائل ليست أطرافه الممتدة نحو الشرق سوى انكلترا وفرنسة وإيطاليا واسبانيا وهولندة .

وقد برزت النزعة الشرقية بوضوح في الشعر القومي الحديث في أعقاب الحروب التي وقعت بين الدولة العثمانية وبعض الدول الغربية مثل حرب الروس (١٨٧٨) ثم حرب اليونان (١٨٩٧) ثم حرب طرابلس ضد الطليان (١٩١١)

---

(١) ابتسام الضحى ٢٧ .
(٢) ألحان اللهيب ٨١ .

وأخيراً حروب البلقان (١٩١٣) .

وكان نضال العرب والمسلمين عامة جزءاً من نضال الشرقيين ضد الغرب المستعمر . ومن هنا أصبح مفهوم الشرق رجراجا ، وكثر استعماله في الشعر والنثر والصحافة ، فتارة يقصد به الجامعة الاسلامية ، وتارة أخرى يراد به العالم العربي وأحيانا كان يشمل الشرق بأجمعه . أما الغرب فقد ارتبط في أذهان هذه الشعوب بالجشع والغزو والاستعمار منذ عهد الصليبيين وقد أشار علي الجندي إلى ذلك حين قارن بين صلاح الدين بطل الشرق وبين ريتشارد قلب الأسد قائد الغرب بقوله (١) :

حامي القدس أين ريتشارد لا أين ... قضى (انيث) وانطوى حلفاؤه
فارس (الغرب) راعه فارس الشرق ... ويدري فضل الفتى أكفاؤه

ومن هنا أيضا كان التعميم في مدلول كلمة الشرق واطلاق الشعراء لمعناه يقابل حقيقة المعضلة المشتركة التي تتركز في الجشع الاستعماري ضد البلاد الآمنة . وقد أخذ الشعراء على عاتقهم أن يشعروا برسالتهم ويبصروا شعوبهم بما يحوكه الغرب ضدهم من ذلك مثلا ما نظمه معروف الرصافي من أبيات أشار فيها إلى ضحك الحق تجاه ما يدعيه الغرب من رعاية لمبادىء العدالة والحرية والمساواة وشر البلية ما يضحك (٢) :

وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي ... بأشياء من بطلانها ضحك الحق
فهم منعوا رق الأسير وإنما ... أجازوا لهم أن يشمل الأمم الرق

وقد نسج جميل الزهاوي أبياته من شعور الحذر والمقت تجاه الغرب الكائد (٣) :

الغرب يلقاك من مكره بوجه طليق

(١) أغاريد السحر ٧٨ (٢) ديوانه ١٥ ؛
(٣) رباعيات الزهاوي ٨٠

يا شرق لا تأمنه فالغرب غـــير صديق

وكذلك يحذر إلياس قنصل أمته من أحابيل الغرب الماكر(١):

أيادي الغرب تسعى فاحذروها   فقد تخذت أديم اللطف مكراً
تصافحكم ولكن عن رياء   وتشعل من هشيم الخلف جمرا

ويصور الشيخ فؤاد الخطيب علاقـــة الشرق المغبون بالغرب العاتي فيقول(٢) :

أيها الشرق أنت في خدمة الغرب   كما يخـدم اليتيم الوصيا
فهو يمتص من دمائك ما شـاء   وقد عز أن تراه رضيا

وقد دأب الشعراء على حث الشرق السادر الغافل على النهوض وحضه على الثورة ، وبخاصة في فترات الركود والاستسلام لمشيئة الأجنبي . وهـذا ولي الدين يكن من مصر يهيب بالشرق أن يثب فيقول(٣) :

يا شرق لج بك العداة هوى   يا شرق أغراهم بك الطمع

أو يقول :

فلينهض الشرق أهل بجدتـه   قـد آن أن ينهضوا وأن يثبـوا

وبهـذه الروح يخاطب مصطفى الغلاييني من لبنان أبناء الشرق وفيهـم قومه(٤) :

بني الشرق طال النوم فيكم فأيقظوا   رقوداً نشاوى غفلة وسبات

---

(١) السهام ٤١

(٢) ديوانه ٥٥

(٣) ديوانه ١٤

(٤) ديوانه ١٥٠

بني الغرب رفقا بالضعيف فقد كفى ... بني الشرق مايلقون من ضربات
دعوا الشرق يحيا وحده في اعتزاله ... فما يبتغي منكم لهي وهبات

وكذلك يحث شفيق جبري من دمشق هذا الشرق على الوثوب ضد ذئاب الغرب بقوله (١) :

يا شرق مالك لا تفيـــق ... وقد بدت منـــك المقاتل
والغـرب قـد نصب الحبـا ... ئل في الخـارج والداخـــل

كما يتـــدد إلياس قنصل بخنوع الشرق واستسلامه تجـاه المستعمر الغربي ويقول (٢) :

يا أيها الشرق التعيس إلى متى ... تلقـى أمر الاضطهـاد وتخنـع
وإلى متى تشكو وما من راحم ... يرثي لدى الشكوى ومامن يسمع

لقد كان هذا الشرق نائما والغرب يعيث في أرجائه فسادا ، والشعراء دائبون على قرع أسماعه برنين قوافيهم وناقوس قصائدهم .

والملاحظ أن صوت دعاة الرابطة الشرقية قد خفت خلال أعـوام الحرب العالمية الأولى وكاد هذا الشعور بالتعاطف يتجمد في العالم العربي نتيجة ما حدث من تغيرات سياسية آنذاك . إذ تحالفت الدولة العثمانية مع المانية ، وتحالف العرب (باستثناء المصريين) مع بريطانية وفرنسة ، وبذلك لم يعد الصراع خلال تلك الحرب حاسما بين الشرق والغرب ، بـــل اتخذ طابعا آخر نتيجة ظهور مبدأ القوميات في الشرق .

---

(١) المختار من الشعر في سورية ، اصبري الاشتر ٤
(٢) على مذبح الوطنية ٦٢

ومن هنا نلاحظ أن أكثر القصائد التي نظمت في الثورة العربية الكبرى لا تلح على هذه الرابطة الشرقية، خلافاً لما كانت الحال عليه من قبل خلال الحروب التي على خاضتها الدولة العثمانية ضد دول الغرب .

أما في مصر فقد كانت المعضلة مستمرة وجنود الاحتلال ما زالوا يجثمون فوق البلاد ، ولهذا استمر شعراء مصر بالمقابل في حذرهم من الغرب المستعمر وفي خشيتهم على الامبراطورية العثمانية هذه الدولة الاسلامية الشرقية الكبرى التي كانت بمثابة السد الذي يحول دون تدفق المستعمرين ، والصخرة التي تتحطم عليها مطامعهم . وقد ندد عدد من الشعراء وفيهم أحمد محرم بزعيم الثورة العربية الذي استسلم لأكثر دول الغرب جشعاً فقال (١) :

نبئت ما زعم الشريف وقومه فسمعت ما لم تسمع الأذنان
خدعوه إذ ضاق السبيل بمكرهم ورموا بآمال إليه حسان
ياذا الجلالة لاسعدت بتاجه ملكاً سواك به السعيد الهاني

وحين تكشفت الحرب الكبرى عن نيات الحلفاء الغادرة انفجر الشرق العربي غاضباً ، وبرزت الروح الشرقية من جديد تعبر عن شعور المرارة بعد ما أبداه الشرق من سذاجة وثقة تجاه الغرب الماكر ، ولم تكن ثورة ١٩١٩ في مصر إلا جزءاً من انتفاضة الشرق المتوثب ضد الغرب المستعمر . وقد عبر محمد الأسمر عن هذه الظاهرة وأشار إلى تقلبات الدهر على الشرق والغرب بقوله (٢) :

رجعنا كما كانوا وصاروا كما كنا كذاك الليالي لا تديم لها خدنا

ثم يخاطب سعد زغلول زعيم مصر وقائد ثورتها :

---

(١) الدكتور محمد حسين : الإتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ٢ : ١٩٦ عن ديوان مخطوط للشاعر .
(٢) تغريدات الصباح ٢٠

فتى الشرق إن الغرب أدلى بمخلب وناب ، فلا تهتز بينهما جبنا

ووجد الشعراء في ثوره مصر ثورة الشرق ، كما وجدوا في سعد زغلول زعيماً شرقياً استطاع بعزيمته أن يتصدى للغرب ، وفي ذلك يقول حافظ ابراهيم (١) :

لك وقفة في الشرق تعرفها العلا ويحفها التكبير والتهليل
زلزل بها في الغرب كل مكابر ليرى ويعلم ما حواه الغيل

وحين توفي سعد افتقده الشعراء العرب ورثوه بحرارة ، وهم لم يجدوا فيه زعيماً مصرياً فحسب بل زعيماً للعرب وللشرق ، وهذا حليم دموس يناجيه من لبنان بقوله (٢) :

زعيم الشرق وهو نداء حق لمثلك لم يقم في الشرق ند
وكذلك يناجيه محمد الفراتي من سورية بقوله (٣) :

للشرق يا زغلول ما شيدته عجزت بناة المجد عن تشييده

وتتجلى هذه العاطفة الشرقية بشكل بارز أيضاً في الشعر الحديث تجاه زعيم شرقي آخر هو مصطفى كمال أتاتورك الذي انتصر على اليونان إحدى الدول الغربية المتحالفة ، وبهر انتصاره ذاك ، الشرق والغرب على السواء . وقد هاج هذا الظفر المبين قريحة الرصافي ، فأملت على قلمه قصيدة رفعها (إلى بطل الشرق الأكبر) كما نعته في عنوانها ، ومما قالة فيها (٤) :

نصرت على بني يونان نصراً أقام الغرب في هرج ومرج

---

(١) ديوانه ١ : ١٢ .
(٢) ديوانه ٢ : ١٣٤ .
(٣) ديوانه ١٧٧ .
(٤) - ديوانه ٤٤ .

كما أشار إلياس فرحات إلى هذه الظاهرة الشرقيـة أيضاً في حركة أتاتورك وانتفاضته في وجه الغرب ووجد ذلك بشيراً بانطلاق الشرق وتحرره[1]:

أرى في العالم الشرقي ناراً   جذوعَ الغرب تأكل والغصونا
سلوا عن حرها الغازي (كمالا)   يخبركم بمـا لا تعلمونـا

وشبيه بهذا الاستبشار والتهليل ما نجده في بائية أحمد شوقي بهذه المناسبة وفيما نظمه عدد آخر من الشعراء .

وبنتيجة الشعور المعادي لدول الغرب الذي بلغ في نفوس العرب حـداً كبيراً ، تطورت النزعة الشرقية في النفوس وخرجت من نـداءات التنبيه والتحذير إلى مرحلة التهديد والوعيد ، وذلك بعد أن وعى المغلوبون على أمرهم جوهر قضاياهم وعانوا بأنفسهم من مرارة العبودية ، وهذا مصطفى الغلاييني يتصدى للغرب محذرا إياه من غضبة الشرق المرتقبة فيقول[2] :

أرى أن أهل الشرق قد ضاق ذرعهم   بكم فاحذروا من دائم الوثبات
أثرتم دفين الحقد في الشرق كله   إلا فارقبـوا من أسده الهجمات

وكذلك يشير أبو الأقبال اليعقوبي إلى أن ساعة الخلاص قد اقتربت وينذر الظالمين بويل شديد[3] :

ولكم في العرب من باغ غشوم   ولو ان العرب من أهل الكتاب
ولسوف الشرق يودي بالظلوم   ويريه كيف يأتيـه العذاب

وقد شبه الزهاوي في رباعياته بلاد الشرق ببركان تغتلي في جوفه الحمم

---

(١) ديوانه ١٧١ .
(٣) النظرات السبع ١٢
(٢) ديوانه ١٥

ولا بد من أن تنفجر في وجه الغرب عاجلا أو آجلا (١) :

الشرق يشبه بركاناً به حمم | أخاف من أنه ياغرب ينفجر

وحين تفجرت الثورات القومية في أرجاء الشرق عامة وفي العالم العربي بوجه خاص بعد الحرب الأولى استبشر الشعراء بهذه الانتفاضات وأملوا من ورائها الخير للشعوب المستعمرة ، وقد عبر الزهاوي عن هذا الشعور بقوله (٢) :

قد ثار في الشرق الخلــق | واقــترب الوعــد الحق
ما كان الغـرب بـذى ظن | أن سوف يحاسبــه الشرق

ولم تكد ثورة مصر تنطلق في أعقاب الحرب الأولى حتى تكاثر شرر الانتفاضات في أنحاء الشرق العربي ، فقد قامت ثورة العراق اللاهبة ضد الاحتلال البريطاني في عام ١٩٢٠ ، وأخذت تتجلى على ألسنة شعراء العراق أعمق العواطف الوطنية متسمة بصفات قومية ودينية وشرقيه معاً ، ومما يمثل تلك العاطفة الشرقية أبيات لخيري الهنداوي يقول فيها (٣) :

أيها الشرق هل فقدت الشروقا | فأضل الأقوام فيك الطريقا
بيتوا أمرهم بليـل وجـاؤوك | جميعـاً يتلو فريق فريقــا
حاولوا لا أبالهم ان يكون | الشرق كالعبد مستضاما رقيقا

وثمة أبيات للرصافي في هذا الصدد يصور فيها ببراعة ، علاقــة العراق

---

(١) رباعيات الزهاوي ١٢٦

(٢) رباعيات الزهاوي ١٣٨

(٣) رفائيل بطي : الشعر العصري في العراق العربي ١٦٦

بالاستعمار من خلال نظرته الشاملة إلى الغرب والشرق . وذلك في قوله (١) :

إن هذا الشرق والغرب لمغبون وغابن
فترى الشرق تجاه الغرب يسعى سعي ماهن
وترى الغرب عليه ، واقفاً موقف خائن
فهو يمتص دماء الشرق في كل الأماكن
إن في الشرق تجاه الغرب نيراناً كوامن
وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي الضرع غربي الملابن

وكما كانت العاطفة الدينية تسير أحياناً إلى جانب الشعور القومي ، كانت النزعة الشرقية أيضاً تبرز أحياناً أخرى من خلال تلك القصائد ، وحين نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ نظم أمير الشعراء شوقي قصيدة قومية رائعة عبر فيها عن هذا الاعتزاز الشرقي تجاه الغرب حين أشاد ببني أمية قائلا (٢) :

كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم　　فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

ورأى محمد سعيد العامودي في انتفاضة السوريين ضد احدى دول الغرب العاتية مفخرة للشرق إذ قال (٣) :

يا شام حسبك مفخراً في الشرق أن ــ　　بنيك قد نهضوا وقد أرضوك
اليوم أظهرت الفخار مجدداً　　لزعانف الغرب الألى جهلوك
اليوم يا حرية قد حق أن　　تأتي فأهل الشرق قد نشدوك

كما يخاطب محمد الشريقي الشرق كله من خلال مخاطبته لسورية الثائرة فيقول (٤) :

---

(١) ديوانه ٤٣٨
(٢) الشوقيات ٢ ــ ١٢٢
(٣) ديوان الثورة ٩٨
(٤) ديوان الثورة ٤٠

يا أيها الشرق إن الغرب مؤتمر | والحق للسيف والمغلوب مهتضم
حرية الشعب أولى ما تقدسه | وخير دين به الشرقي يعتصم

أما أحداث فلسطين فقد كانت انصع دليل على تآمر الغرب ضد شعوب الشرق . وقد حفل الشعر القومي الذي نظم فيها ببواعث شتى قومية ودينية وشرقية وإنسانية معاً التقت جميعها على صعيد واحد تندد بالاستعمار الغربي ، وقد أشار الشاعر العراقي على البازي إلى الباعث الشرقي في تلك القضية بقوله (١) :

يا بني الشرق لقد عاثت بكم | أمم الغرب وأنتم هجد

كما عبر محمد على اليعقوبي من العراق أيضاً عن تجاوب أقطار الشرق مع فلسطين ومشاركتها إياها في البلاء (٢) :

فمصر والصين وإيرانها | وجاراتها والعراق الأغر
والمغرب الأقصى ومن حوله | من دول للشرق أضحت عبر
إن أججت نار الوغى بيننا | فان زند الغرب يرمي بالشرر
ما أسلف الغرب عهوداً ولا | مواعداً للشرق إلا غدر

ومن كل ذلك يتضح مدى الانسجام الذى انعكست آثاره في الشعر الحديث . بين العاطفة الشرقيه وبين الأماني القومية في كثير من الأحداث السياسية التي عرفها العرب خلال هذه الفترة من تاريخهم الحديث . لقد كانت العاطفة الشرقية قوة دافعة أخرى من بين القوى التحررية المتعددة انطلقت تجابه الشر والعدوان والاستعمار ، ورافداً فعالا كان له أثره البالغ في تعزيز الحركات الوطنية والشعور القومي في نفوس الشعوب العربية .

---

(١) الفلسطينيات ٤٨
(٢) الفلسطينيات ١٦

٢

والسؤال الآن ، ماذا كان الشعراء المعاصرون يقصدون من معنى على وجه التحديد من وراء استعمالهم لفظة « الشرق » في قصائدهم وماذا كانت تعني هذه الكلمة في أذهانهم ؟

لقد سبق أن أشرنا إلى مدى الاضطراب في مفهوم (الشرق) لدى الشعراء والكتاب واختلافهم حوله اتساعاً وضيقاً ، وإطلاقاً وتقييداً . ونحن نتبين ثلاثة مدلولات رئيسية لهذه الكلمة من خلال ما بين أيدينا من الشعر المعاصر :

الأول : ورود كلمة الشرق مطلقة في الشعر بمدلولها الواسع لأمم الشرق قاطبة بحسب المصطلح الجغرافي الشامل .

والثاني : يريد به الشعراء الأمم الاسلامية وفي جملتها العرب .
والثالث : كانوا يريدون به الشرق العربي أو الشعوب العربية وحدها .

ولا ريب أن كل مدلول من هذه المدلولات يعكس تيارات سياسية واجتماعية كانت تمر بالشرق ، وتخلق ظروفاً وافكاراً تؤثر في نفوس العرب وتتجلى آثارها في قصائد الشعراء .

وحين يطلق الشعراء لفظ الشرق بمعناه الأول فانهم يريدون به في الغالب جميع أقطار الشرق وشعوبه على اختلاف أديانهم وقومياتهم من عرب وترك وهنود وصينيين ، ومن مسلمين ونصارى وبوذيين ويهود وسواهم .. وهذا المفهوم الشامل مطابق لواقع الرقعة الجغرافية الواسعة التي تشمل ما نعنيه اليوم بالشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى .

وقد أشار الشعراء المعاصرون مراراً إلى كفاح هذه الأمم مقروناً بكفاح العرب ضد العدو المشترك في ذلك الشرق الكبير ، وكان انتصار اليابان على الروس عام ١٩٠٤ في نظر هؤلاء الشعراء ظفراً للشرق المهيض الجناح على الغرب العاتي ، ترك أثراً بالغاً في ضمير الشعوب المستضعفة ، وبعث في

نفوسها الثقة والآمال التي افتقدتها أمداً طويلا . وكم من قصيدة هللت لهذا النصر المبين ووجدت فيه بشيراً بانتفاضة العرب والمسلمين . واعتبر حافظ إبراهيم سباقاً إلى التغني بانتفاضة اليابان والاشادة بنهضتها ، كما نجد في ذلك قصائد متعددة لمصطفى صادق الرافعي وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وأمين ناصر الدين وفؤاد الخطيب وغيرهم من الشعراء . وأكثر ما نظم في هذا الشأن كان قبل الحرب العالمية الأولى مما لا يدخل في نطاق بحثنا هذا ، كما كان طابعه بالاجمال الحث والاستنهاض .

ومع ذلك فان الحرب العالمية الأولى تنتهي ونهضة اليابان ما تزال ملء الأسماع وتعتبر المثل الأعلى عند عدد من الشعراء ، حتى إن أبا الفضل الوليد اعتبرها ربة الشرق الأقصى وتحدث عنها بزهو واعتداد وذلك في قصيدة له أسماها (الشرقية) قال فيها (١) :

ألا فرج لأهل الشرق يرجى	بنجدة ربة الشرق القصي
هي اليابان تطلع للمعالي	بمطلع راية الشمس السني
فهب الشرق بعد خمول دهر	لصرخة ذلك الشعب النخي
وحار الغرب في نصر مبين	على الجيش اللهام العبقري

وواضح أن الشاعر يعتز بهذا النصر ويشيد به معتبراً إياه دعماً وسنداً لكفاح قومه ، وكأنه يرجو لهم مثله ضد الغرب ذلك العدو المشترك . ويبدو أن وثبة اليابان هزت الشرق وشعوبه وبقي صداها في نفوسهم عشرات السنين ، وهذا محمد شعيب العاملي من لبنان يضرب باليابان مثلا للعرب ويحثهم على النهوض بقوله (٢) :

يا بني الشرق ويحكم كيف نبقى	أبد الدهر عرضة الشنآن

(١) نفحات الصور ٣٢
(٢) ديوانه ٥٢

حبذا الشرق ناهضاً لمراقي ـ المجـــد والسعي نهضـة اليابان

بل إننا نجد هذا المثل الأعلى ما زال يتردد خلال الحرب العـالمية الثانيـة في ذهن الصافي النجفي (١) :

يا أمة العرب لا تنسوا رسالتكم	فانكم قد خلقتم قادة الأمم
وصيروا أمة اليابان قدوتكم	في العلم والخلق والاقدام والعظم
لاتستنيروا بنور الغرب فهو دجى	مبطن بلصوص أو بسفك دم

فالصافي حين يدعو قومه إلى الاقتداء باليابان يعبر عن تلك النزعة الشرقية التي تقوم على الحذر تجاه كل ما هو غربي ، والتي وجدت ضالتها في النهضـــة اليابانية . ولا يخفى أن هـذه القصائد التي أشادت بانتصارات اليابان وتقـــدمها الحضاري إنما كانت تعبر ايضاً عن ظاهرة نفسية في نفوس العرب الذين وجدوا في ذلك الموضوع ما يطرد عنهم شعور اليأس الذي ران عليهم زمناً طويلا ، وما يكون بلسما لجراحهم ومتنفساً لرغباتهم في التحرر والنهوض ، بالاضافـــة إلى ما كانوا يجدونه في تصدي اليابان للغرب من ثأر لهم وانتقام لكرامتهم المهدرة . وقد تجدد هذا الشعور بالتعاطف نحو اليابان على أثر انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، حـــين قذف الغرب بعض جزرها بالقنابل الذرية فدمرهـا وأباد سكانها ، ووضع بذلك الدمار الرهيب حداً لتلك الحرب الضروس . واتسع هذا التعاطف حتى شمـــل العالم واتسم بطابع إنساني ألهم الشعر بأروع الاحساسات وأنبلها .

وكان كفاح الهند المستميت في سبيل تحررها مثار اهتمام الشعراء العـرب الذين وجدوا في نضالها ما يعزز نضالهم ضد العدو المشترك ، وقـــد وجد الاستعمار في تلك البلاد بقرة حلوبا أنشب فيهـا أظفاره واستنزف خيراتهـا

---

(١) الحان اللهيب ٨٣

وسلبها كنوزها الدفينة . وهذا « إلياس قنصل » يلقي بنظره من العالم الجديد نحو هذا الشرق المكافح فيرى بلاد العرب والهند من معدن واحد تعاني الأهوال من الاحتلال الأجنبي ويجمع بينهما ابتلاؤهما بمحنة واحدة (١) :

يا شرق جزاك الغريب فلم تعد إلا دويلات تذل وتخضع
فالشام تأبى أن تلين وتنثني وحقوقها كادت هناك تضيع
والهند قائمة هناك بثورة فتصيبر كن الانكليز وتصدع

كما نرى الشاعر نفسه يجمع بين نضال عدد من الأمم الشرقية على صعيد واحد في إحدى قصائده فيتحدث عن الثورة السورية وبطش فرنسة بدمشق وعن نضال فلسطين والارهاب الصهيوني وينتقل في القصيدة نفسها الى كفاح الهند وزعيمها الكبير بوحي من الشعور بوحدة القضية المشتركة (٢) :

وما (غندى) الضعيف سوى نبي شبيه الأنبياء المرسلينا

فقد كان غاندي قبلة أنظار العرب يكنون له من الاحترام والتقديس مالا يقل عما يكنه له الهنود . ولذلك نرى الشاعر القروي يضعه أيضاً في مصاف الأنبياء ويرجو للعرب مثل وثبته بقومه (٣) :

من شط (بحر الغنج) زأر غضنفر أشجى لسمعي من هديل حمام
صوت يردده مسيح الهند في دلهي لتسمع يا مسيح الشام

كما يشير القروي أيضاً إلى نضال غاندي السلبي حين قاوم الاحتلال مع شعبه باعلان الصوم ومقاطعة بضائع المستعمر . ويتمنى على المسلمين في بلاد العرب أن يضايقوا المحتل بمثل ذلك (٤) :

---

(١) على مذبح الوطنية ٥٥
(٢) علي مذبح الوطنية ٦٩
(٣) ديوانه ٣٧٥
(٤) ديوانه ٣١٤

لقد صام هندي فجوع دولة فهل ضار علجا صوم مليون مسلم
أهاب بآلات الحديد فعطلت مصانع كانت جنة المتنعم
وشل دواليب الرخاء بصرخة أدارت دواليب القضاء المحتم
كساها نسيج العنكبوت وكم كست جسوم البرايا القشيب المنمنم

أما عمر يحيى الذي الذي ساقه اضطهاد الانكليز إلى الهند منفياً فقد ابتأس لما رآه في هذه البلاد من تأخر وجهل يعوقان نهضتها وتحررها من قبضة المستعمر وهو يقول (١) :

أنا في الهند أرى الشرق وما في حناياه من الداء الدفين
ضاق صدر الشرق عن أبنائه وحوى من قادة الغرب مئين
ليس بدعا أن ترانا عندهم في زوايا دارنا مستعبدين
فلكم تضحك لما أن ترى بقرا ترعى وأقواما تهون

فلم تكن نظرة الشاعر إلى تلك البلاد نظرة المتفرج العابر ، فقد عز عليه أن يرى بلداً شرقياً كبيراً يمكن للمستعمر في أرضه ويبيح له خيراته . ومن الملاحظ أيضاً أن الشاعر يتحدث عن العرب والهنود والشرقيين جميعاً بصيغة المتكلم على أنهم بمثابة أسرة واحدة مستعبدة أنهض الجرح بين قلوب أبنائها فتعاطفوا .

وقد سبقت الاشارة إلى اثر تعاليم جمال الدين الأفغاني في زيادة اهتمام العرب والمسلمين بالروح الشرقية الشاملة من نحو قولته المشهورة عن الهند : « لو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحراراً » ولا ريب أن مثل هذه الآراء للافغاني ومحمد عبده وشكيب أرسلان

---

(١) البراعم ١١٨

ورشيد رضا وسواهم من أعلام الفكر والأدب الذين اولوا بلاد الشرق عنايتهم في تعاليمهم ومؤلفاتهم ، كان لها صدى في الشعر الحديث استمر أمداً غير قصير ، حتى إن الشاعر المهجري أبا الفضل الوليد استمد مضمون أبياته من هذة العبارة الشعرية الطريفة للأفغاني وصاغ من وحيها قوله (١) :

فلو أن الهنود مشوا جميعاً ... إلى يوم أغر عرمرمي
لطاح الانكليز به وآلت ... ركائبه إلى شد المطي

وثمة قصيدة للرصافي يرمز فيها إلى الهند والعراق بالفيل والحمل ، كما يرمز للمحتل الانكليزي عدوهما المشترك بالذئب فيقول (٢) :

إذا ما سمعت الحق في قول قائل ... تخيلت فيلا بالحديد مكبلا
فلو قام هذا الفيل واستجمع القوى ... لهز بها شم الجبال وقلقلا
لنا حمل وهو العراق نظنه ... غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا
فإن ينج هذا الفيل من قيد أسره ... نجونا وإلا أصبح الأمر معضلا

من خلال هذه الأبيات تتضح الآلام المشتركة التي آخت بين بلدين شرقيين ، وربطت بينهما في مصير واحد ، والرصافي لا يرجو خلاصاً للعراق إلا بعد تحرر الهند وهكذا كان .

وكانت هذه النظرة الشاملة إلى العرب وسائر الشرقيين رائد كثيرين من الشعراء المعاصرين . فالشاعر القروي لا يفرق بين زعماء الشرق الذين ثاروا في وجه الغرب المستعمر من أجل تحرير شعوبهم حين رجا للشام واحداً من مثلهم يقود أمته في انتفاضتها كما ثارت الهند ومصر وتركيا والمغرب وذلك في قوله (٣) :

أين غندي وأين زغلول منا ... أين عبد الكريم أين كمال

(١) نفحات الصور ٣٢
(٢) ديوانه ٤٥٣ .
(٣) ديوانه ٣٣٩

وقد عبر إلياس فرحات من مهجره القصي عن استبشاره بانتفاضات أمم الشرق المتلاحقة في سبيل تحررها فقال (١) :

الشرق فتح ناظريه فهاله	مرأى ذئاب الغرب في وثباتها
الصين ناهضة إلى أعدائها	والهند نافضة غبار سباتها
والريف مقتحم عباب عجاجة	كلف بوجه الشمس من ذراتها
والشام بعض الشام هب محاولا	فك القيود محطما حلقاتها

فظاهرة النضال واحدة بين أمم عديدة استشعرت وطأة الاحتلال فهبت تذود عن حياضها .

وكأنما أدرك الشعراء أن تحرر الشرقيين من قبضة الأجنبي رهن بذلك النضال المشترك وأن آمالهم بالاستقلال لن تتحقق إلا إذا تخلصوا من ادواء التفرقة والتعصب. وقد أشار حافظ ابراهيم الى أهمية هذا التسامح والوئام في قصيدة ألقاها في جامعة بيروت الأميركية عام ١٩١٩ وقال فيها (٢) :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده	عن مطمح الغرب فيه غير وسنان
لا فرق ما بين بوذي يعيش به	ومسلم ويهودي ونصراني

وهذان البيتان نموذج لغلبة المفهوم الشرقي على جانب من الشعر القومي واشتمال هذا المفهوم على أديان الشرق المتعددة وقومياته المتباينة .

وهكذا عبر طرف من الشعر القومي المعاصر عن تلك العاطفة الشرقية الشاملة التي وسعت نضال أمم شتى ، قربت بينها الغير والأحداث ووحدت كفاحها مآسي الاستعمار . ولم يكن تجاوب الشعراء مع وثبات هذه الامم الشرقية

---

(١) ديوانه ٢٦٠
(٢) ديوانه ١٣٣

من قبيل فضول النظم والتحدث بشؤون دول غربية أو أجنبية ، فقد كانوا يعكسون في قصائدهم مشاعر العرب ، وتطلعهم الي جيرانهم بعين الأمل الكبير في أن يكلل ذلك الكفاح المرير بغار النصر ، لأن كل ظفر يحرزه أولئك كان يشد من أزر العرب ، ولم يكن تهليل الشعراء لتلك الانتفاضات التي كانت تنبعث من الشرق سوى تعبير غير مباشر عما في نفوس الأمة العربية من نزوع نحو التحرر المنشود .

٣

وإذا ما حاولنا اكتناه مفهوم الشرق في أذهان الشعراء المعاصرين من ناحية أخرى وجدنا أن اضطرابهم في اطلاق ذلك المفهوم يرجع في الواقع الى تضييق دلالته الواسعة الشاملة واقتصارهم فيها على الشرق الاسلامي في أغلب الأحيان ، وعلى الشرق العربي أحياناً أخرى ، وهذا الفهم المترجرج كان يؤثر في المفهوم القومي ذاته لدى الشعراء ، ويصيب معنى العروبة في الشعر المعاصر بكثير من الغموض والاضطراب .

ونظرا لأن العاطفة الشرقية سبقت في ظهورها الروح القومية فقد طبعت في معظم الأحيان بالطابع الاسلامي وبخاصة في عهود قوة أنصار الجامعة الاسلامية ، وفي ظل الخلافة العثمانية ، ولعل أبرز ما يشير الي ذلك تأسيس (جمعية الرابطة الاسلامية) في مصر عام ١٩٢٢ وإصدارها مجلة الرابطة الشرقية التي كان من أركان تحريرها عدد من أعلام الاسلام مثل محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية ، وأحمدزكي باشا الذي كان يلقب بشيخ العروبة والشيخ محمد بخيت شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد المحسن الكاظمي الشاعر العراقي (١) ، وأن فاتحة المجلة لم تكن تميز بين العرب والمسلمين والشرقيين وكان

---

(١) انظر محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٠٢

حديثها في العدد الأول عاما يشمل طرابلس وتركيا وأفغانستان والصين ومصر والهند والملايو، دون أن يرد لليابان ذكر لأنها غير مسلمة .

وثمة دلائل كثيرة تفيد أن عدداً من الكتاب والشعراء يستعملون (الشرق) بمعنى الاسلام، من ذلك مثلا ماقاله أحمد شوقي مخاطباً السلطان عبد الحميد (١) :

وضع الشرق في يديك يديه   وأتت من حماته الأقسام

وواضح أنه بالشرق هنا الشرق الاسلامي إذ أن معظم المسلمين يقطنون في الشرق . وكذلك كان الشأن فيما نظمه أمير الشعراء بعد ذلك تحية لانتصار أتاتورك، فالمعركة الظافرة شبيهة بمعركة بدر والانتصار فيها انتصار للاسلام، وأتاتورك في الترك كخالد في العرب، ثم نقرأ في القصيدة نفسها قوله أيضاً (٢) :

هزت (دمشق) بني (أيوب) فانتبهوا   يهنئون (بني حمدان) في (حلب)
ومسلمو الهند والهندوس في جذل   ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الاسلام في رحم   وشيجة وحواها الشرق في نسب

فهذه البلاد على حد تعبير شوقي ممالك ضمها الاسلام في رحم وحواها الشرق في نسب، والشاعر اذ يذكر الهندوس، والأقباط فانما يفعل ذلك مدفوعاً بعاطفته الشرقية الشاملة من جهة، وروح التسامح الديني التي عرف بها من جهة اخرى، ولسنا نرى في بيت شوقي الأخير سوى تعبير عن معني واحد في كلام الشطرين فالترادف ظاهر بين الفاظها ويعنى لديه أن الشرق هو الاسلام .

---

(١) الشوقيات ١ : ٢٨٤، والاقسام : الايمان جمع قسم
(٢) الشوقيات ١ : ٦٦

وتبلغ هذه المفاهيم حد الاضطراب والغموض في مثل قول شوقي أيضاً وهو يحيي تركيا [1] :

فنحن إن بعدت دار وإن قربت ... جاران في الضاد أو في البيت والحرم
ناهيك بالسبب الشرقي من نسب ... وحبذا سبب الاسلام من رحم

فمع أن البيت الثاني لا يخرج في معناه عن البيت الذي أوردناه آنفا :

ممالك ضمها الاسلام في رحم ... وشيجة وحواها الشرق في نسب

فاننا نتساءل عما يريده شوقي حين يجعل العرب والترك جارين في الضاد ، فهل يقصد اللغة العربية ، مع أنها أبرز ما يميز بين العرب والترك ، أو أنه يقصد القرآن باعتباره كتاباً للمسلمين ، في حين أنه أورد ذكر الرابطة الدينية في قوله « البيت والحرم » عدا أن العطف (بأو) يوحي بأن الشاعر يعني بالضاد غير ما يعنيه بالبيت والحرم .

ويتجلى هذا الفهم المترجرج لمدلولات (العرب والشرقيين والمسلمين) معاً في قول محمود غنيم [2] :

أنى اتجهت إلى الاسلام في بلد ... تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها ... فأصبحت تتوارى في زواياه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن ... شكا فرددت الأهرام شكواه
سل المعالي عنا اننا عرب ... شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هي العروبة لفظ إن نطقت به ... فالشرق والضاد والاسلام معناه

---

(١) الشوقيات ١ : ٢٦٨
(٢) ديوانه ٧٨

وبيت القصيد عندنا ما جعل فيه العروبة لفظاً معناه الشرق والضاد والاسلام . والواقع أن تسرب مفهوم العروبة الى الشعر العربي الحديث ومزاحمته المفاهيم الأخرى التي من أهمها الرابطة الشرقية والجامعة الاسلامية هو الذي ولد اضطراب هذه المفاهيم واختلاط بعضها ببعض بسبب عدم تبلور كل منها في نفوس الشعراء .

هذا التصور الاسلامى المحض للعاطفة الشرقية يعتبر استمراراً للتصور الذي كان يغلب على الشعر القومي قبل الحرب الكبرى ، ولكن الأمر أخذ في التبدل خلال الأحداث والثورات القومية التي عرفها العالم العربي بعد تلك الحرب وإثر انهيار نظام الخلافة العثماني واضمحلال فكرة الجامعة الاسلامية .

واذا علمنا ان كثيراً من دعاة الجامعة الاسلامية تحولوا بعد الحرب الكبرى الى دعاة للجامعة العربية كما تبين لنا ذلك في الفصل السابق أدركنا مدى اختلاط هذه المفاهيم بعضها ببعض بحيث كانت العاطفة الشرقية تعني في الشعر القومي العروبة حيناً والاسلام حيناً آخر ، وتعنيهما كليهما معاً في معظم الأحيان .

على أن مفهوم العروبة في الشعر الحديث أخذ يتسم بالوضوح شيئاً بعد شيء ويخرج من تلك الضبابية التي لفته بها مفهومات الشرق والاسلام . ولعل أحمد شوقي خير مثال على هذا التطور فيما نظمه من قصائد قومية منذ عام ١٩٢٥ ونشوب الثورة السورية . فقد قويت في نفس هذا الشاعر ولدى كثير من الشعراء منذ ذلك الحين منازع العروبة نتيجة العوامل السياسية والاجتماعية والفكرية التي أثرت في المجتمع العربي ، إلا أن مفهوم الشرق والشرقيين ظل لاصقا بشوقي وحافظ وعلى الجارم وسواهم من الشعراء بسبب طول عهدهم باستعماله وكثرة تردده على الألسن والصحف برغم حرصهم على الباس قصائدهم ثوب

العروبة . ومن بوادر هذا التحول الجديد عند أمير الشعراء قـــوله في نكبة دمشق (١) :

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ... ونحن في الجرح والآلام إخوان

كما يقول في مهرجان تكريمه عندما بويع بامارة الشعر (٢) :
يا عـكاظاً تألف الشرق فيـه ... من فلسطينـه الى بغـدانه
كلـما أن بالعـراق جريـح ... لمس الشرق جنبه في عمـانه

وأغلب الظن أن شوقي في كلا الحالين هنا يقصد بالشرق رابطة العروبة، ومما يؤكد ذلك اقتران الشرق بالفصحى وكون القصيدة تدور حول دمشق العربية ، والبيتان الأخيران يشيران بوضوح إلى تطور مفهوم الشرق عند شوقي وسواه من الشعراء في هذه المرحلة من ازدياد الوعي القومي .

وقد طبعت العروبة مفهوم الشرق أيضاً في أبيات ألقاها حافظ ابراهيم في هذه الفترة نفسها بمناسبة مهرجان تكريم شوقي أيضاً وذلك في قوله مخاطباً أمير الشعراء (٣) :

فقف ربوع النيل واعطف بنظرة ... على ساكني النهرين واصدح وأبدع
وحي ذرا لبنان واجعل لتونس ... نصيباً من السلوى وقسم ووزع
فنبه عقولا طـال عهد رقادهـا ... وافئدة شدت إليهـا بأنسـع
فقد غمرتهـا محنة فوق محنـة ... وأنت لهـا يا شاعر الشرق فادفع

فبالرغم من أن القصيدة اتخذت عنواناً لها (نهضة الشرق) فان أبياتها

---

(١) الشوقيات ٢ : ١٢٥
(٢) الشوقيات ٢: ٢٤٠
(٣) ديوانه ١ : ١١١

كأبيات شوقي في الرد عليها لا تشير الى أي قطر شرقي غير بلاد العرب ، أو شعب غير عربي ، ومانعت الشاعر لشوقي بأنه شاعر الشرق إلا من هذا القبيل أيضاً أي شاعر العرب أو من قبيل اطلاق الكل على الجزء .

والملاحظ هنا أن هذه الأبيات وما سبقها من أبيات شوقي تحمل روحاً واحدة ، وتعلو فيها نغمة العروبة الواضحة على نغمة الشرق الخافتة ، وتفسير ذلك بالنسبة الى شاعرين عرفا ببعدهما عن تيار العروبة الصافي وانشغالهما بالتعبير عن العواطف الاسلامية أو الشرقية أو المحلية إنما يعني أنهما وسواهما من الشعراء أخذوا يتأثرون بالمد القومي الجديد ويعكسونه جلياً في شعرهم . ولقد بدا جو تكريم شوقي مشحوناً بمشاعر العروبة ؛ فالوفود تمثل أقطار العرب وكان التقاؤها حدثاً قومياً ، كما كان بين الحضور عدد من زعماء الثورة السورية التي كان لها تأثير فعال في نفوس سائر العرب وصدى بعيد لدى معظم الشعراء .

ويمكن القول إن ردة فعل ظهرت على نطاق محدود تجاه العاطفة الشرقية الفضفاضة التي كان عدد من شعراء مصر يتغنون بها ، وثمة قصيدة للشاعر السوداني حسين المنصور يوجه فيها الى أحمد شوقي نقداً لاذعاً بسبب نزعته الشرقية (١) :

قد عشت يا شوقي لساناً هادئاً … متخوفاً من لفظة الثوران
العرب تبغي شاعراً متنمراً … يزجي القريض الثائر الوجداني
دع عنك ذكر الشرق واحفز يعربا … واخصص بشعرك ثائر العربان
ماذا يهم العرب زلزال سرى … في الهند أو في الصين واليابان
أو ليس في تلك البلاد شويعر … أو شاعر يبكي على الأوطان

---

(١) الشاطىء الصخري ١٥٠

والحق أننا لا نكاد نجد شاعراً آخر تصدى بمثل هذه الصراحة للتنديد بالعاطفة الشرقية باعتبارها نزعة واسعة الشمول تبدد طاقة الشاعر في شؤون أقطار أخرى وتصرفه عن معالجة قضية بلده التي ينبغي أن تكون مبعث اهتمامه الأول. ولا ندري إذا كان الشاعر السوداني يخفي شيئاً من العداء الشخصي نحو أمير الشعراء وراء هذه الحملة، إلا أننا نرى في هذه الأبيات ما يتجاوب مع عواطف العرب الذين كانوا منذ أواخر العهد العثماني وفترة تأسيس الجمعيات العربية قبيل الحرب الأولى، يتطلعون الى شعراء مصر البارزين ويأملون منهم عزف ألحان العروبة، حتى إن عدداً من أحرار العرب بادروا إلى لقاء شوقي حين زار بلاد الشام وحدثوه في هذا الشأن بمكنون نفوسهم وأنهم يتلهفون على قصائده الرائعة التي تذكي في نفوس العرب روح النضال ضد الاحتلال.

ولا ريب أن السبب في عدم تنديد الشعراء بالعاطفة الشرقية أو في عدم تعصبهم لها، أنها لم تكن رابطة بالمعنى الصحيح ولأنها من جهة أخرى دعوة واسعة للتعاطف لم تكن لتتعارض مع الدعوات القومية الأخرى.

إن العاطفة الشرقية التي ظلت لدى شعراء مصر عامة، وحتى فترة متأخرة نسبياً، متشحة بالاسلام كانت لدى أكثر شعراء الشام والعراق موسومة بطابع العروبة في أكثر الأحيان، وهذا محمد رضا الشبيبي أحد أدباء العراق يقول في قصيدة أسماها (الشرق الناهض) إثر نكبة دمشق بقذائف الفرنسيين عام ١٩٢٥ (١):

صلة الشرقي بالماضي اسلمي لا تعودي سنداً منقطعا
جاهدي يا أمم الشرق الألى قتلونا جاهديهم أجمعا

(١) ديوان الثورة ٤٤

واذكري ما فعل الغرب بن … هذبوه واصنعي ما صنعا
وثب الريف من الغرب بهم … فأثار الشرق والغرب معا
وتعالى في العراقين صدى … من بني الأطرش حتى أسمعا
مدن لو تركت لا تصلت … جزأوها ليسودوا قطعا

وغدا الشرق في ذهن حسن البحيري من شعراء فلسطين يعني العرب أيضاً ، وذلك في قصيدة أطلق عليها اسم (الشرق) وقال فيها (١) :

لا تستهن يا غرب إنا أمة … كتب اسمها لذرا العلا عنوانا
من شرقنا شمس الهداية أشرقت … فأنارت الآباد والأزمانا
فسل الفرات عن الذين تبوأوه - … فقد وعى ما شنف الآذانا
سل عنهم اليرموك سل بردى وسل … نيل الكنانة أو سل الأوقيانا

ونحن نجد هذا الاتجاه - أي مطابقة الشرق للعرب - لدى بعض الذين مارسوا القضية العربية ومنهم عبد الرحمن الشهبندر أحد الزعماء الثائرين في سورية ، فهو يحاول في مقال له أن يحدد معنى الشرق فيقول (٢) : « ان المقصود به ليس هو مجد الحيثيين والفراعنة والآشوريين والبابليين والفينيقيين ومن حذا حذوهم وكلهم أمم قد خلت وزالت لغاتها فأصبحت حشو لفائف البردى . وليس المقصود مجد التبت وكوريا والصين فهذه أمم بعيدة عنا .. » وهكذا ينتهي الكاتب إلى أن يقصر مدلول الشرق على بلاد العرب فحسب . وهذا الاتجاه لدى الشهبندر وأمثاله في فهمهم للشرق يقابل الفهم الاسلامي لدى مصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا وشكيب أرسلان وأمثالهم .

أما المسيحيون العرب وبخاصة في الشام والمهجر الأمريكي فقد كانوا بحكم دينهم بعيدين عن أن يفهموا العاطفة الشرقية فهماً إسلامياً ، ولذلك

(١) ابتسام الضحى ٢٧
(٢) مجلة الهلال نوفمبر ٩٢٣

اتسمت لديهم هذه العاطفة بالروح الشرقية العامة أو بالطابع القومي العربي .

وقد أدى تأسيس جامعة الدول العربية في مصر عام ١٩٤٤ الى دفع الشعور القومي بقوة الى الامام ، وبخاصة في هذا البلد العربي الكبير الذي كان بؤرة للاشعاع الفكري والاجتماعي والثقافي في العالم العربي ، ومصطرعا لأفكار ونزعات ونزوات شتى كالجامعة الاسلامية والجامعة العربية والرابطة الشرقية ، والدعوة الفرعونية والنزعة الغربية .. وكان من نتائج ذلك أن ارتدت العاطفة الشرقية التي ما زالت جذورها حتى ذلك الحين ممتدة في نفوس الشعراء – كما كان شأن الجامعة الاسلامية أيضاً – رداء ناصعاً من العروبة لدى عدد من الشعراء تمثل لهم بعلي الجارم الذي كان في معظم شعره بعيداً عن هذه الروح القومية الجديدة ، ونستطيع أن نختار من قصيدته « الجامعة العربية » قوله (١) :

سنا الشرق من أي الفراديس تنبع ... ومن أي آفاق النبوة تلمع
صحا البرق وانجاب الكرى عن عيونه ... وليس لمن رام الكواكب مضجع
لقد كان حلماً أن نرى الشرق وحدة ... ولكن من الأحلام ما يتوقع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا ... لنا الشرق حد والعروبة موقع
تذوب حشاشات العواصم حسرة ... إذا دميت من كف بغداد أصبع
ولو بردى أنت لخطب مياهه ... لسالت بوادي النيل للنيل أدمع
ولو صدعت في سفح لبنان صخرة ... لدك ذرا الأهرام هذا التصدع
فيا زعماء الشرق والشرق أمة ... على الدهر لا تفنى ولا تتضعضع
هنا علم الشرق الذي في يمينكم ... ستعنو له الأيام والدهر أجمع

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر لم يستطع أن يمد عن لسانه لفظ الشرق

---

(١) ديوانه ١٣٣

الذي ألفه طويلا ، فهو يردده ويترنم به في كل بيت تقريباً ، كما أن لفظي العرب والعروبة قلما يردان في القصيدة ، عدا استعمال الشاعر بعض العبارات الغامضة مثل اعتباره الشرق أمة في البيت الذي يسبق الأخير ، ومن المرجح أنه يريد به العرب . ومع ذلك فروح القصيدة تنم عن نزعة عربية شديدة ، وتشير الى التأثير الفعال الذي بدأت تحدثه الأحداث القومية في نفوس الشعراء .

وهكذا تقلص مفهوم الشرق في هذه المرحلة المتأخرة من حياة الشعر الحديث ، وأخذ يعني العروبة في أكثر الأحيان ، ولم يكن ذلك التطور سوى انعكاس لاهتمام الشعراء المتزايد بمعالجة قضايا العرب نتيجة لتعاظم الشعور القومي . والواقع أن مفهوم الشرق في أذهان الشعراء والكتاب كان بين مد وجذر يلبس لكل حال لبوسها ، تبعا للظروف الاجتماعية والسياسية ؛ ففي عهد ازدهار الجامعة الاسلامية كان يفيد الشرق الاسلامي ثم انحسر عن ذلك أيضا ليطابق الشرق العربي .

ثم أخذ هذا المفهوم يكتسب وضوحا ودقة في الأذهان ويعود الى ما وضع له بعد أن أخذت المفاهيم الأخرى التي كانت تختلط به تتسم بالتحديد وتستعمل فيما وضعت له أيضاً مثل الجامعة الاسلامية أو القومية العربية ، وبذلك نأى الشعراء بعض الشيء عن استعمال لفظ الشرق في شعرهم القومي ، وأصبح وروده يعني في الغالب مطابقته المدلول الجغرافي لامتداد الأقطار الشرقية التي تشمل الشرق الأقصى والأدنى والأوسط ، كما يعني أيضاً في الشعر الحديث بصورة عامة الجمع بين العرب وسواهم من القوميات الاخرى المناضلة في هذا الشرق الكبير .

على أن العاطفة الشرقية لم تخف حدتها في الشعر العربي المعاصر عبر السنين برغم تبدل مفهومها ضيقاً واتساعاً وطغيان الروح القومية عليه ،

ولعل السبب في ذلك يعود الى استمرار النظام الاستعماري الذي لم يحد الغرب عن فرضه بالقسر والاكراه على دول الشرق ؛ فقد ظل الشعراء يندون بالغرب ودوله كلما ألقي الى قومهم بشر جديد . وكان هذا الالتقاء الفعال بين النزعة القومية والعاطفة الشرقية ـ كما كان الامر بين هذه وبين العاطفة الدينية ـ كسباً كبيراً للحركات التحررية في العالم العربي . وكيف بقيت الهوة على اتساعها بين الشرق والغرب في الشعر العربي الحديث . وقد ظلت عبارة (كبلنغ) السائرة التي تقول « ان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » حقيقة مؤسفة لم يعمل الغرب من جهته على تلافي أمرها ، وستبقى وصمة في جبين الغرب والانسانية كلها طالما بقي الغرب مصراً على جشعه تجاه الشعوب المستضعفة .

أما هذه الافكار التي كانت تتصاحب أو تتفارق في الشعر الحديث من عاطفة شرقية أو جامعة إسلامية أو نزعة عربية .. فقد كانت كل واحدة منها تعزز الاخرى ، ولم تكن تنافيها . وقد أفاد منها جميعاً الفكر العربي الحديث كما أفادت الحركات التحررية .. وكل ذلك وجد صداه الأمين في الشعر الحديث .

إن العاطفة الشرقية في حقيقتها لم تكن رابطة قومية بالمعنى الصحيح ترتكز الى أسس سياسية أو اجتماعية أو فكرية متينة ، ولكنها دعوة واسعة للتعاطف لم تكن تتعارض مع الاتجاه القومي أو لتتنافى مع الوحدة الاسلامية والوحدة العربية . لقد كانت جميع هذه الدعوات والنزعات تلتقي معاً على صعيد التحرر القومي . ولعل أصدق تعبير عن كنه الرابطة الشرقية ما ورد في بيت أحمد شوقي إذ قال (١) :

وما الشرق إلا أسرة أو عشيرة … تلم بنيها عند كل مصاب

---

(١) الشوقيات ٣ ـ ٣١

ومن ذلك نخلص الى القول إن الرابطة الشرقية في الشعر الحديث كانت رافداً كبيراً للتيار القومي يسايره أو يختلط به أو يجانبه ولكنه لم يكن في أي حال يعترض تدفقه .

وإذا ما نظرنا الى الموضوع من جهة أخرى نجد أن فكرة العروبة التي أطلت برأسها في الشعر العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر ثم ازداد شأنها بعد الحرب العالمية الأولى ، كادت تضيع في زحمة دعوات أخرى أكثر شمولا واتساعا كالدعوة الى الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية .. ولكنها استطاعت بفضل جذورها العميقة الكامنة في النفوس أن تشق طريقها من خلال هذه النمرات شيئاً فشيئاً متساوقة مع اتضاح المشاعر القومية في المجتمع العربي .

ولعل من أسباب قوة هذه العاطفة الشرقية في الشعر الحديث برغم افتقارها الى الأسس الواقعية التي تمكنها من أن تكون رابطة بالمعنى الصحيح تؤلف بين أمم شتى تسلط الغرب المستعمر على الشعوب الشرقية مما ولد في نفوسها شعوراً قوياً بالتعاطف الذي خلقته محنة الاستعمار المشتركة . لقد أصبح نضال العرب خاصة والمسلمين كافة جزءاً فعالا من نضال الشرقيين ضد الغرب المغتصب . بل إن هذا الشعور بالتعاطف أخذ بالاتساع نحو آفاق الانسانية الشاملة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وراح يشمل جميع الشعوب المغلوبة على أمرها في أية بقعة من الأرض ، إذ لم يعد الصراع العالمي مجرد صراع بين الشرق والغرب بل غدا نضالا مريراً بين التحرر والاستعمار .

الفصل الثالث

النزعات الوطنية الاقليمية

الفرعونية - الفينيقية - الآشورية

عندما انحلت عرى الرابطة الاسلامية في اعقاب الحرب الكبرى الأولى على أثر انفراط عقد الامبراطورية العثمانية وانهيار نظام الخلافة ، نشطت في الشرق العربي الدعوات القومية التي حاولت أن تملأ الفراغ وأخذت تقوم على دعائم جديدة بعيدة عن الأسس الدينية . وكانت دعوة القومية العربية أقوى هذه الدعوات ، اتخذت مظهراً حاسما لها في « الثورة العربية الكبرى » وشملت بلاد الشام والعراق منذ العهد الفيصلي .

وقد قوي الاتجاه في فترة النهوض القومي الى بعث الصفحات الرائعة من الماضي العريق ، وذلك باستيحاء أمجاد العرب أو أمجاد من سبقهم من فراعنة وفينيقيين وآشوريين وسواهم ، وكانت قد ظهرت قبل ذلك الدعوة الطورانية في تركيا(١) وهي أسبق تلك الدعوات القومية ولكنها لم تلبث أن استحالت الى عصبية عنصرية ضيقه ، ثم انزلقت الوطنية المصرية فيما يقارب هذا الاتجاه ، كما ظهرت بوادر من هذا القبيل في الساحل السوري وفي العراق . وكانت

---

(١) انظر حاضر العالم الاسلامي للامير شكيب أرسلان في وصف هذه الحركة .

جميع هذه النزعات المتطرفة في تلك الأقطار تحاول أن تثبت لنفسها كياناً سابقاً على الاسلام بعد أن وجدت في تراثه قاسما مشتركا بينها جميعاً ليس بوسعه وحده أن يؤكد ذواتها المستقلة ، أو يسم كل شعب فيها بخصائص ومميزات ينفرد بها على الصعيد القومي .

أما الاستعمار الذى تنفس الصعداء بعد أن استطاع تفتيت الامبراطورية العثمانية ، ورأى انهيار الجامعة الاسلامية باعتبارها كانت تضم كتلة كبرى لمجموعة من الشعوب المناهضة له ، فقد هاله انبثاق القومية العربية قوية في أعقاب الحرب الكبرى وهو الذي أسهم بنفسه في تحريضها ضد الدولة العثمانية ، فراح يعمل بدأب من جديد على تفتيتها ، وذلك بتشجيعه قيام القوميات الضيقة فى كيان الأمة العربية ، وسعيه لايجاد كيانات صغيرة متعددة في قلب العالم العربي ، وخلق أوطان متميزة تتسم حدودها بالقداسة .

وكان أبعد هذه النزعات خطرا النزعة الفرعونية في مصر . وثمة دعوة مماثلة عرفها لبنان وكانت تدعو الى الفينيقية ، كما عرف العراق دعوة ثالثة كانت تنادي بالآشورية .

١

كانت مصر طيلة عهود مديدة تؤلف مع بلاد العرب وحدة سياسية ودينية وثقافية ، وتتسم بالطابع العربي الأصيل الشامل ، كما كانت الحصن المنيع للثقافة العربية والتراث الاسلامي . إلا أنها تفردت خلال العصور الحديثة بأحداث معينة جعلتها تسير حيناً من الدهر في اتجاه خاص يتفق مع الظروف التي استجدت فيها آنذاك ، فقد استقلت عن السلطنة العثمانية على يد محمد علي دون سائر البلاد العربية ، ثم ابتليت بعد ذلك بالاستعمار قبل كثير من

البلدان العربية الأخرى . وتجلى هذا الافتراق في قضية مصر عن سائر قضايا العرب في الثورة العربية الكبرى التي قام بها عرب الحجاز والشام والعراق متحالفين مع انكلترا وفرنسا ضد الحكم التركي ؛ فقد استنكر كثير من المصريين ثورة العرب ضد الخلافه الاسلامية وبخاصة تحالفهم مع الدولة التي تحتل مصر وتذل شعبها .

ورسخ في الاذهان منذ ذلك الحين أن شؤون مصر تفترق عن شؤون بلاد العرب الاخرى وأن هدفها الاول يجب أن يتركز في إجلاء المستعمر واستخلاص (مصر للمصريين) ، ولما كانت الجامعة الدينية هي الآصرة البارزة التي كان يشعر بها المصريون تجاه اخوانهم العرب والمسلمين قبل انهيار الخلافة وبروز التيار القومي ، فقد انقلبت موجة الوطنية المتطرفة التي غمرت مصر بعد الحرب الكبرى الأولى الى رد فعل قوي تجاه الجامعة الاسلامية قوامه الانفصال والاستقلال عن تركيا وعن كل الأقطار التي كانت تابعة لها ، والتي كانت تشكل معها الامبراطورية العثمانية .

لقد بدا المصريون عقب انفراط عقد الدولة العثمانية وكأنهم يفتقدون ذاتهم تجاه الفراغ الذي حدث بانهيار نظام الخلافة فراحوا يتلمسون هذه الذات المتميزة في تاريخهم الغابر . وسرعان ما وجدوا في ماضيهم العريق السابق على الاسلام والمسيحية ما يشيع الزهو ويبعث على الثقة في النفوس ، « وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ ـ شعره ونثره ـ من أقوى الأدوات في استنهاض الأمم وبث الأمل ومحاربة اليأس ورد الثقة الى نفوس تمكن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح »[1] وبانهيار الجامعة الاسلامية ، وفصل الدين عن شؤون الحكم من جهة ، وقيام الثورة العربية بدون اشتراك مصر فيها من جهة أخرى ، أصيبت الرابطة الدينية

---

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ١ : ٩٩

والرابطة العربية على السواء بنكسة في مصر واصبح المجال مفتوحاً أمام دعاة الاقليمية والاعراض عن الشرق العربي ، وغدت التربة صالحة لبذر بذور الفرعونية والقومية المصرية المتميزة والأفكار المسمومة التي اخذت تلقى في الأذهان بأن مصالح مصر تتعارض مع مصالح العرب .

ويمكن ان نرد بذور النزعة الفرعونية الى عهد الحملة الفرنسية على مصر منذ أن كشف شامبليون عن سر الهيرو غليفية وحل طلاسم حجر رشيد . فقد بدت بوادر هذا الاتجاه في شعر محمود سامي البارودي إذ قال (١) :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر | لعلك تدري غيب مالم تكن تدري
بناءان ردا صولة الدهر عنهما | ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر

ومما ساعد على تعاظم هذا الشعور في مصر نشاط الحفريات وظهور المكتشفات الأثرية الفرعونية واهتمام الصحف بها والتحدث عنها بكثير من الزهو والاعتداد ، وقد استبشر الشعراء بهذه المظاهر الجديدة وسرهم أن يروا ماضيهم الدفين يبعث أمام عيونهم من مراقده ، فراحوا يتغنون بمصريتهم وأجدادهم بنشوة بالغة . ولم يكن هذا الشعور بدعاً لدى المصريين إذا عرفنا أن الاعجاب بحضارتهم تعداهم الى الأقوام الاخرى وبخاصة في بريطانية وفرنسة (٢) ، « فقد سحر بمصر أيضاً أقطاب شعراء الحركة الرومانتيكية أمثال

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٩

(٢) ذكر الدكتور محمد رشاد رشدي في « المجلة » عدد فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان (مصر في الشعر الانكليزي) : « أنه كانت كل شحنة جديدة من الاثار تفد الى لندن تثير اهتمام العامة والخاصة حتى باتت جميع المجلات الادبية والفنية بلا استثناء تقريباً تتنافس في أن تنشر آخر أنباء الاستكشافات المصرية ، وفي عقد الفصول الطوال عن الفن الفرعوني والدين والحياة العامة في مصر القديمة . لقد سحر الناس في انكلترا بحضارة الفراعنة حتى أصبح الطابع الفرعوني في قطع الاثاث وأدوات الزينة شائعاً » .

شالي وكيتس وبايرون . . . وكان الحافز باعثاً رومانتيكياً في أغلب الأحيان باعث نزعة وحنين الى هذه الحضارة التي تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الأوروبية ، والى هذه البلاد التي احتفظت بآثار الماضي فبقيت فيها البقاع التي جاء ذكرها في الانجيل وما زال الناس يعيشون فيها على الحالة التي وصفتهم بها التوراة ، وأكثر من ذلك فانها البلاد التي شهدت مولد الرومان [1] .

لقد برزت الموضوعات الفرعونية في مصر في الصحف والمقالات والقصائد بشكل يكاد يكون مفاجئاً وطاغياً ، وسرعان ما استجاب الشعراء الى هذه الدواعي الباهرة في حياة مصر الحديثة الناهضة . وكان أحمد شوقي في طليعة هؤلاء الشعراء استجابة لهذا الاتجاه الجديد ، ومن طبيعة شوقي سرعة التجاوب مع مجتمعه وحرصه على تصوير نزعاته ومشاعره . وقصيدته « كبار الحوادث في وادي النيل » التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤ وهو شاب في السادسة والعشرين [2] تعد البادرة الأولى لديه في إبراز الجانب الفرعوني من تاريخ مصر وتراثها ، وفيها اشادة برمسيس ومناجاة لسيزوستريس وإعظام لآمون وازيس وأوزيريس وآبيس (العجل) . على أن شوقي لم يقتصر في مطولته هذه على الفخر بالفراعنة وعهودهم بل جمع بين أمجادهم وأمجاد العرب بعدهم على صعيد واحد . ولا ريب في أن شعور الاعتزاز بماضي مصر على اختلاف عصورها وحضاراتها كان الباعث الاول في شعره .

---

(١) المرجع السابق ١١٢ وفيه أيضاً « أن كيتس يستمير الكثير من اوصافه في قصيدته الكبرى (هيبرين) من المعابد والاثار الفرعونية التي رآها في لندن أو قرأ عنها في كتب الرحالة . ونجد بايرون يكتب الى اصدقائه فيقول : لاجل أن نثير خيال الشعراء ونستولي على اهتمامهم يجب أن نتجه في الشعر الى الجنوب الى بلد مثل مصر) ويتردد ذكر مصر في شعر شيلي في أكثر من مناسبة خلال قصيدته « أوزيمندس » أي رأس رمسيس ، وقصيدته « الاستر » حتى إن الامر بلغ حد التنافس والتحدي بين عدد من الشعراء الانكليز في نظم مقطوعات من نوع البالاد Ballad عن النيل ، على نحو ما نجده لشالي وكيتس ولي هنت . وقد زار مصر عدد كبير من الكتاب الفرنسيين والانكليز أمثال فلوبير وثاكري ومس هاريت مارتينو وكنجلاك ولورد لندري وغيرهم .

(٢) أنظر الشوقيات ١ : ١٧

الا أن اهتمام شوقي وعدد من شعراء مصر بالجانب الغابر من تاريخهم أخذ يزداد على أثر اشتداد النزعة الفرعونية لدى عدد من رجـــال السياسة والادب والتاريخ والصحافة ممن غلوا في ذلك الى حد قولهم بتميز مصر وشخصيتها ، وانكار الصلات الواشجة بينها وبين أخواتها العربيات (١) . ومما ساعد على استفحال هذه النعرة انزواء أنصار الجامعة الاسلامية بعد انهيار خلافتهم ، وخيبة أمل دعاة العروبة تجاه زعماء الثورة العربية الذين اسلسوا قيادهم للانكليز عدو مصر اللدود .

وكان نشاط الحفريات ، وظهور المكتشفات الاثرية الهامة يدغدغ مشاعر كل مصري ويبعث في نفسه الزهو حتى ان « اكتشاف قبر توت عنخ آمون أحدث دوياً كبيراً وكأنه نصر مبين ، وبلغ من انشغال الرأي العام بتوت عنخ آمون أن شوقي نظم فيه وحده في هذه المناسبة أربع قصائد أولاها قصيدة « توت عنخ آمون » نظمها على أثر اكتشاف المقبرة وهي أكثرها ذيوعا ، (٢) وقد استهلها بقوله (٣) :

قفي يا أخت يوشع خبرينا   أحاديث القرون الأولينا

وكانت الثانية على أثر وفاة مكتشف القبر كارنارفون من آثار لسعة بعوضة قبل أن يتم كشفه وقد كثرت الاراجيف وقتذاك عما سموه لعنة الفراعنة (٤)

---

(١) ورد في ملحق السياسة الادبي ١٤ اكتوبر ١٩٣٢ قول محمد عبدالله عنان ، فكرة الجامعة العربية في نظرنا أمنية خيالية لا تقوم على أية أسس أو تقديرات عملية . بل إن التعلق بها ضار .. ومن الخطأ البين أن تنظم مصر في سلك البلاد العربية إذا تعلق الامر بالناحية القومية ، فالقوميــة المصرية قومية أثيلة ولم تفقد خواص الوحدة والتجانس منذ ايام الفراعنة .

(٢) أنظر الدكتور محمد حسين الاتجاهات الوطنية ٣ : ١٤٠ — ١٤١

(٣) الشوقيات ١ : ٣١٣

(٤) محمد حسين ٢ : ١٤٢

في الموت ما أعيا وفي أسبابه كل امرىء رهن بطي كتابه

أما الثالثة وهي « توت عنخ والبرلمان » فنظمها بمناسبة افتتاح أول برلمان في مصر عام ١٩٢٤ وقد بدأها بخطاب توت عنخ آمون قائلا(١) :

قم سابق الساعة واسبق وعدها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها

وأما الرابعة « توت عنخ آمون وحضارة عصره » فمطلعها (٢) :

درجت على الكنز القرون وأتت على الـدن السنون

وبرغم اهتمام شوقي البالغ بهذا الموضوع فهو بصورة عامة لم يبلغ حد التطرف الذي وجدناه لدى بعض الكتاب آنذاك ؛ إذ ظل بعيداً عن التعصب الأعمى للفراعنة ، ولا ريب في أن قوة عاطفته الاسلامية كانت خير عاصم له من التعصب والهوى ، ولذلك نراه يعرض بفرعون وعصره فيقول (٣) :

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

كما يشيد بنظام الشورى ويعرض باستبداد الفراعنة بقوله (٤) :

روح الزمان ونظمه وسبيله في الآخرين
ان الزمان وأهله فرغا من الفرد الامين

وهكذا يرى شوقي في الفرعونية نزعة رجعية لا تلائم روح العصر الحديث وحضارته . والواقع أن اكثر ما نظمه أمير الشعراء حول الفراعنة

---

(١) الشوقيات ٢ : ١٩٧
(٢) الشوقيات ٢ : ١١٦
(٣) الشوقيات ١ : ٣١٣
(٤) الشوقيات ٢ : ١٩٧

يتسم بالعبرة والموعظة واستخلاص المغزى من الماضي والتاريخ . وتبرز هذه الظاهرة لديه في قصائده المتعلقة بالتاريخ الفرعوني أو العربي على حد سواء فهو يقول مثلا تجاه قصر الحمراء الأندلسي (١) :

وعظ البحتري إيوان كسرى وشفتني القصور من عبد شمس

ويصدر عن هذه الروح نفسها تجاه معبد أنس الوجود حيث يقول (٢) :

أين فرعون في المواكب تترى يركض المالكين كالخيل ركضا
أين ايزيس تحتها النيل يجري حكمت فيه شاطئين وعرضا

على أن شوقي ينساق مع روح تلك الفترة المتطرفة في بعض شعره فيشيد بحضارة مصر القديمة وآثارها ويزهى بها على الحضارات الأخرى ، ولا يفوته أن يبرز الروح الفرعونية حتى في صدد حديثه عن حضارة العرب في الأندلس فيقول مستوحياً قافية ابن زيدون (٣) :

وهذه الأرض من سهل ومن جبل قبل (القياصر) دناها فراعينا
ولم يضع حجرا بان على حجر في الأرض إلا على آثار بانينا

وحين يتحدث عن آثار مصر في قصيدته « أيها النيل » يقول مباهياً (٤) :

لا (الفرس) أوتوا مثله يوما ولا بغداد في ظل الرشيد وجلق
كم موكب تتخايل الدنيا به يجلى كما تجلى النجوم وينسق

---

(١) الشوقيات ٢ : ٥٧
(٢) الشوقيات ٢ : ٦٨
(٣) الشوقيات ٢ : ١٢٧
(٤) الشوقيات ٢ : ١٢٧

تعنو لعزته الوجوه ووجهه   للشمس في الآفاق عان مطرق
ومشى الملوك مصفدين خدودهم   نعل لفرعون العظيم ونمرق
مملوكة أعناقهم ليمينه   يأبى فيضرب أو يمن فيعتق

وعلى هذا المنوال من روح الاستعلاء ينسج شوقي أبياته ويفاخر بأمجاد الفراعنة بما يقرب من خمسين بيتاً. ومع أنه لم يتحدث في هذه القصيدة عن العرب والاسلام الا بأبيات قليلة، وأن ما قاله هنا يعتبر من أكثر قصائده تطرفا نحو الفرعونية، فان الطابع الذي يميزها يتفق مع سائر قصائده الأخرى أيضاً في هذه النظرة الشاملة لتراث مصر وحضارتها واعتبار ذلك الماضي بوجهيه الفرعوني والعربي وحدة متكاملة يؤلفان معاً تاريخ مصر وشخصيتها.

وقد تناول محمود عماد أيضاً موضوع ذلك الاكتشاف الأثري وذهب إلى أبعد مما ذهب إليه شوقي بمراحل حين اعتبر توت عنخ آمون جده، بل إنه أضفى عليه صفة النبوة لأن جسمه لم يدركه الفناء بفضل التحنيط (١):

يا توت معذرة الحفيد لجده   إن لم تكن منا حقرت حفيدا
لم يفن جسمك بعد دفنك آدهراً   إن النبوة لا تروم مزيداً

وقد حشر الشاعر في هذه القصيدة أسماء فرعونية كثيرة مثل هاتور وآمون وايزيس وأوزيريس وسيتي ورمسيس وغيرهم.

وتعتبر قصيدة «مصر» لحافظ إبراهيم من أبرز ما قيل أيضاً في هذا الاتجاه. وتحدث مصر عن نفسها مفعم بروح الزهو والاعتداد بنتيجة الشعور الوطني الجارف الذي تدفق في أعقاب ثورة ١٩١٩ وعمق شعور مصر بشخصيتها

(١) ديوانه ٣٠٣

وتبدو النزعة الفرعونية في هذه القصيدة ركناً هاماً من التفاخر بأمجاد مصر التي تتحدث عن نفسها بقولها (١) :

هل رأيتم تلك النقوش اللواتي	أعجزت طوق صنعة المتحدي
هل فهمتم أسرار ما كان عندي	من علوم مخبوءة طي بردي
ذاك فن التحنيط قد غلب الدهر -	وأبلى البلى وأعجز ندي
أنا أم التشريع قد أخذ الرومان -	عني الأصول في كل حد
ورصدت النجوم منذ أضاءت	في سماء الدجى فأحكمت رصدي
وشدا (بنتؤور) فوق ربوعي	قبل عهد اليونان أو عهد نجد

وإذا كان شوقي حريصا على إيجاد التوازن بين عناصر الشخصية المصرية حين يشيد بالفراعنة دون أن ينسى العرب أو المسلمين فان حافظاً في هذه القصيدة قصر افتخاره على الفراعنة وحدهم دون ان يشير ببيت واحد إلى تراث العرب الزاهي في مصر . وواضح أن فكرة الأسبقية والامتياز في حضارة مصر القديمة حيث النقوش والتحنيط والتشريع والفلك والشعر هي التي استولت على ذهن حافظ وأملت عليه هذا الاتجاه في قصيدته ، إذ ان حضارة العرب جاءت متأخرة في الزمن عن حضارة مصر القديمة وهذا ما جعل الشاعر يباهي بالشاعر الفرعوني (بنتؤور) دون الشعراء العرب ومفكريهم . ومع ذلك فان « حافظ » لم يكن مولعاً كشوقي في طرق هذا الجانب القديم من تاريخ مصر والاكثار من نظم القصائد فيه . ومما يؤكد أن الباعث على مثل هذا النزوع الفرعوني لدى شعراء مصر كان قبل كل شيء تأجج العواطف الوطنية في نفوس المصريين وشعورهم المتنامي بشخصيتهم تجاه المحتل المتحضر قول حافظ في القصيدة نفسها :

قبل أسطول (نلسن) كان أسطو	لى سريعاً وطالعي غير نكد

(١) ديوانه ٢ : ٨٩

وواضح أن الشاعر يحاول أن يبذ المحتلين الذين يتيهون بأساطيلهم بأن المصريين سبقوهم الى ذلك قبل آلاف السنين .

ثم طاب لشعراء مصر العزف على هذه القيثارة الفرعونية بكثير من الحماسة حتى كأنهم لم يعودوا يرون سواها . وهذا أحمد زكي أبو شادي يخاطب مصر بقوله (١) :

يا قبلة (ايزيس) تركع نحوها   شكراً لمنصفها على الآباد
هل أنت إلا مجد (منف) تقمصت   آياته بجنانك الوقاد

وهو حين يخاطب مصر ثانية يردد ما كانت تداوله الصحف من أن المصريين أحفاد الفراعنة (٢) :

رمسيس لم يدفن بأرضك روحه   إلا ليلحظها تغير ثريك
والتابعون من الفراعنة الألى   أحيوك لم يبنوا لغير بنيك

وقد سلك محمد الأسمر نفسه في جملة الداعين الى خلق أدب محلي ، متميز بالطابع المصري مستقل عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد (٣) وكان في طليعة المزهوين بأمجاد الفراعنة ، ومما قاله مفتخراً (٤) :

خلت من بني فرعون ثم المنازل   ولم تخل إلا من رجال بواسل
مضوا ومضت أيامهم غير أنهم   لهم في المعالي كوكب غير زائل

---

(١) مصريات ٥٦
(٢) مصريات ٥٩
(٣) أنظر الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٣٧
(٤) تغريدات الصباح ٢٦

ورثناهم أما العروش فقوضت   وأما المواضي فهي دون الحمائل

وهو يترحم على تلك العهود الغابرة بقوله (١) :

ألا رحم الله الزمان الذي مضى   فالله من عصر ولله من عهد
بنى فيه خوفو الراسيات على الثرى   فأعجب به يبني الرواسي بالأيدي

ويصور لنا الأسمر تلك النشوة البالغة التي كان يشعر بها عدد من الكتاب والشعراء تجاه الفراعنة فيهتزون لذكرهم طربا فيقول (٢) :

لنا وطن للضيف بين رحابه   قصور وللأعداء فيه قبور
تحيط به أبناء فرعون أنهم   يسيرون حيث المكرمات تشير
يحدثني التاريخ عنهم فأنثني   وبي صلف من قوله وغرور

وكثير مما نظمه عباس محمود العقاد وبخاصة في سعد زغلول يسير في هذا الاتجاه ؛ ففي إحدى قصائده التي نظمها على أثر نقل رفات سعد إلى ضريحه المقام على النمط الفرعوني يقول (٣) :

الفراعين الألى أجليتهم   لتمنوا لو أجازوك الطريق
أنت أضفيت على أوطانهم   سعة وهي من الأسر تضيق
أنت أيقظت لهم تاريخهم   وهو في نومته لا يستفيق
فضلك اللاحق أحيا فضلهم   فاستوى منه طريف وعريق

---

(١) تغريدات الصباح ٢٧
(٢) تغريدات الصباح ٢٨.
(٣) عابر سبيل ٥٨

وفي قصيدة أخرى للعقاد اسمها «تمثال رمسيس» اشادة بسطوة فرعون مصر وجحافله التي بلغت الشام وبابل ونينوى، واعتداد بآمون وبتئوور.. وشبيه بذلك ايضاً قصيدته المسماة «هيكل الكرنك»(١) فهو في أكثر هذه القصائد وأمثالها لم يكن ليشير إلى أية أمجاد عربية على النحو الذي وجدناه لدى شوقي.

وبالرغم من أن الشاميين والعراقيين كانوا يجدون في سعد زغلول زعيما للعرب وللشرق لا زعيما لمصر وحدها فان العقاد في مراثيه المتعددة لزعيم مصر لم يشر الى شيء من ذلك وإنما كان سعد في نظره حفيد الفراعنة فحسب. ففي قصيدته المطولة «ذكرى الأربعين» التي يصف فيها تشييع جثمان الزعيم الراحل يقول(٢):

موكب رمسيس لم يظفر به وهو مولى الخلق من بيض وجون

إذ لم يذكره سعد إلا برمسيس. وكان بوسعه أن يقرنه أيضاً بأبطال عظام من التاريخ الاسلامي والعربي الحافل، بل ان المتوقع من العقاد وغيره ممن نظموا في سعد زغلول أن يذكرهم اسمه في بعض الأحيان بسعد آخر هو ابن أبي وقاص أحد كبار الصحابة ومن اعلام العرب والاسلام، في حين وجدنا الكثيرين ممن تناولوا مصطفى كمال أتاتورك في شعرهم فطنوا الى هذا الأمر برغم تركية اتاتورك؛ فقد رأى فيه شوقي ملامح من ابن الوليد ونعته بخالد الترك في قصيدته البائية، كما خاطبه معروف الرصافي ناعتاً إياه بسمي المصطفى...

والواقع ان انقطاعاً نفسياً بين عدد من شعراء مصر وبين امجاد العرب

---

(١) ديوانه ٢٦٨
(٢) ديوان العقاد ٢٨٧

كاد يحدث بسبب طغيان التيار الفرعوني في ارض الكنانة ، وهذا محمود عماد يرحب في قصيدة له بالملك السابق فاروق فيشبهه بآمون مع ان اسمه من اسم عمر بن الخطاب (١) :

آمون اشرق يوم عيد الوادي ام ذاك فاروق المنار الهادي ..

وحين تزوج فاروق ملك مصر اشاد بهذه المناسبة عدد كبير من الشعراء واستبشروا بعدها خيراً لمصر ، ومنهم من جنح لخلق هالة من جو الفراعنة حول ذلك الملك على نحو ما نظمه ابراهيم مأمون إذ قال (٢) :

مهرجان على المشارق موف يحشد الدهر رائعاً يتجمهر
خف في قدسه فراعنة الوا دي نشاوى الخطا تدل وتفخر
وكأن الوفود من « عين شمس » ومن « الكرنك » الخالد تخطر
وكأن الزفاف في طيبة المجد » وحشد الجموع حول « الأقصر »
فانظر النيل والمواخر فيه تلق دنيا من الزمان تنشر
تلق عرش الجلال من آل خوفو ضاحي الحشد بين جند وعسكر
وتجد «إحمس» الجريء يزجي سفن المجد تستزيد وتكثر
انظر السفن في الوشائع تترى ان فيها «تحتمس» النيل يزأر

وهكذا نجد أن هذا التيار الجديد الطاغي قد غمر اكثر شعراء مصر آنذاك فأقبلوا عليه يغترفون من معينه بشغف ، ويصوغون من مفاخره ونصبه القصائد المطولة يشيدون فيها بتلك العهود الغابرة بكثير من الزهو والاعتداد .

---

(١) ديوانه ٣٥
(٢) انظر (صحيفة دار العلوم) عدد خاص بالزفاف الملكي ، مارس ١٩٣٨ ص ٢١

ويبدو أن الفترة التي عاشتها مصر آنذاك جعلت آمون ورمسيس وخوفو وبتؤور ورع وإيزيس أشد لصوقاً بنفوس عدد من الشعراء وأكثر استهواء لمشاعرهم من ابن الوليد والمأمون والرشيد والمتنبي وصلاح الدين وابن خلدون .. ويبدو ان هذه النغمات الجديدة لدى شعراء مصر كانت صدى لانتشار تلك النزعة على ضفاف النيل تستمد العزة من ماضيه العريق . ولسنا هنا بصدد الآراء المتطرفة التي كانت تصدر عن بعض الصحف والمحافل في أرض الكنانة وتزعم أن وجود العرب في مصر لم يتعد كونه حقبة طارئة أضيفت الى سلسلة طويلة من حلقات التاريخ المصرى ، « وان مصر تعرضت لغزوات الفاتحين من احباش ويونان وفرس ورومان وعرب وترك وإفرنج ولكنها احتفظت بشخصيتها المصرية ، وأنه مضى على مصر أكثر من ألفين وثلاثمائة سنة منذ ما فقدت استقلالها بانتهاء حكم الفراعنه » (١) . أو كما يدعي آخر (٢) « أنه من الخطأ البين ان تنظم مصر في سلك البلاد العربية إذا تعلق الأمر بالناحية القومية ، انها ورثت الاسلام واللغة من غزاتها ولكنها لم تكن عربية قط !! .. »

فالحق ان الشعراء في مصر نحوا بصورة عامة من هذه المزالق ولم يبلغوا هذا الحد من التطرف والأخذ بالنعرات الانطوائية ، إلا ان ظلا من تلك الآراء بدا في بعض ما نظموه من شعر على نحو ما نجده لدى محمد الأسمر او لدى أحمد زكي أبي شادى الذي يقول مخاطباً مصر (٣) :

الفرس والرومان والعرب اكتفوا   لسمو دولتهم بأن عرفوك

---

(١) من محاضرة لمرقص باشا ، انظر المقتطف مارس ٩٢٦ ، وانظر محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ٢ ، ١٣٠

(٢) عبدالله عنان ، انظر ملحق السياسة الادبي ١٤ أكتوبر ١٩٣٢

(٣) مصريات ٥٩

فهو يسلك العرب مع الفرس والرومان وأنهم جميعاً غزوا مصر ، وكأني بالشاعر يعتقد ضمنا أن العرب شيء والمصريين شيء آخر .

لقد كانت الدعوة الى خلق (أدب قومي مصري) تصادف هـوى في نفوس الكتاب والشعراء ، وهي تطالـب بأن تقوم نهضة مصر على بعث المجد الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث المجد اليوناني واللاتيني (١) دون أن يتناول هذا الأدب المصري الجديد حياة الشرق العربي أو البلاد الشقيقة المجاورة . وبلغ الامر ببعضهم حد المطالبة بفصم عرا الجامعة اللغوية والاعتماد على اللهجات المحلية لأن العربية سائرة الى الانقراض ولا تصلح لغة للحياة ، كما آلت إليه حال اللاتينية ، وأن على كل قطر أن يقوي لهجته المحلية لتكون لغته القومية كما صنعت فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ...

وقد كادت النزعة الفرعونية تبلغ لدى بعض الشعراء حد الالتزام بفضل الجهود الدائبة التي بذلها عدد من الكتاب والصحفيين والمحاضرين والخطباء حتى بلغت آثارها جهاز الدولة الرسمي فيما بدا من مياسم فرعونية على منشآتها ونقودها وطوابع بريدها ونصبها . إذ لم يكن يخلـو ديوان شاعر من التفاخر بأمجاد الفراعنة وآثارهم . وقد أصدر أحمد زكي ابو شادي ديواناً خاصاً عام ١٩٣٤ اسماه « وطن الفراعنة » ويقصد به مصر . اهداه « الى القومية المصرية وحماتها » وهو يشتمل على بضع عشرة قصيدة تدور جميعها حول التاريخ المصري القديم وتستمد مادتها منه باستثناء قصيدة واحدة من التاريخ العربي وصف فيها قلعة صلاح الدين . وفي هذا الديوان إشادة بالغة بالأهرام وبناتها ، وابى الهول ووادي الملوك ومعبد حاتسو والكرنك الخ ... وبالاضافة الى ان القصائد المذكورة تبدو عليها وطأة النظم ويبدو خيالها محدوداً ، فانها

---

(١) السياسة الاسبوعية ، ١٧ ديسمبر ١٩٢٧ ، والاتجاهات الوطنية ٢ ، ١٣٦

محشوة بالأسماء الفرعونية الغريبة على اللغة العربية ، وهي في الواقع إحدى ثمار التأثير البالغ لتلك النعرة القومية المتطرفة ، ويحسن بنا ان نستمع الى رأي ابي شادي نفسه في ديوانه هذا حيث يقول (١) : « اجتهدت في اختيار مواضيع متنوعة مرتبطة بتاريخ مصر القديم وبحياتها الاجتماعية ، وبنهضتها الحديثة ، فمن حق الأدب القومي ان نحفل بالمواضيع القومية الصحيحة . ومهما كانت عنايتنا بتاريخ العرب فان ابلغ حفاوتنا بالادب المصري من حق وطننا علينا ، فلا خير في قصر عناية الطالب المصري على بغداد ودمشق وقرطبة وطليطلة او في إغفاله وادي الملوك ومعبد حاتاسو وبقايا العظمة المدهشة لمصر القديمة »

وعلى هذا النحو بعثت روح مصر القديمة بوجهها الفرعوني في مختلف مظاهر النشاط المعاري والفني . ولم ينج من هذا التيار شاعر سوري اقام في مصر هو خليل مطران الذي نظم في الموضوع عدة قصائد منها « نشيد عنخ آمون » وفيه يقول (٢) :

انا (فرعون) ، انا (توتانمون)   صاحب التاجين من ابناء (را)

كما اشاد مطران ايضا بتمثال نهضة مصر وتغنى بالهرم في ابيات وقصائد اخرى .

وبوسعنا بعد ذلك ان نحكم على ضوء ما تقدم من شواهد في هذا المجال بقولنا إن النزعة الفرعونية لم تكن لتبلغ في قصائد الشعراء بصورة عامة حد التبشير المذهبي بالنعرة الانفصالية المتطرفة ، بل كانت لا تعدو حدود التفاخر بالماضي العريق في مرحلة من تكوين شخصية مصر القومية التي بهرتها المكتشفات

---

(١) ص ٧٦
(٢) ديوان ١٦٦

الرائعة واعادت إليها ثقتها بنفسها وقوت قدرتها على شق طريقها في الحياة .

على اننا لا نكاد نجد لدى شعراء مصر في مقابل ذلك — وإن كنا نجد لدى بعض كتابها (١) — تنديدا قويا بهذه النعرة الفرعونية المتطرفة نحو قطع الصلة بالعروبة ومحاولة تغيير وجه مصر الحقيقي . وثمة ابيات قليلة نظمها الشاعر السوداني حسين المنصور في معرض تنديده باتجاه أحمد شوقي في قصائده الوطنية يقول فيها (٢) :

العرب تبغي شاعراً متنمراً يزجي القريض الثائر الوجداني
أيصح مدحك فترة وثنيـة وإشـادة بهياكل ومباني
ماتوت عنخ وغيره ، ودماؤهم ان تبغها لم تبـق في شريان

والواقع أن التنديد بالنعرة الفرعونية لم يصدر عن شعراء مصر وإنما صدر عن شعراء الشام والعراق بالدرجة الأولى إذ أنهم أدركوا خطر تلك الدعوة المنحرفة التي كانت ترمي الى إبعاد مصر عن شقيقاتها ؛ فقـد كانت أرض الكنانة معقد رجائهم وقبلة أمانيهم ، وهذا معروف الرصافي يؤكـد عروبة مصر بقوله (٣) :

إني أرى مصر والتاريـخ يشهد لي تحيا بعرق بها من ضئضئ العرب
وليس فرعونها ممن يشط بـه بعد عن العرب العرباء في النسب

(١) كان محمد علي علوبة وعبد الرحمن عزام وعلي الغاياتي في طليعة دعاة الجامعة العربية ومناوئي الدعوة الفرعونية . وقد التقوا في ذلك مع دعاة الجامعة الاسلامية أمثال محمد عبده ومحمد رشيد رضا وشكيب أرسلان وسواهم .

(٢) الشاطيء الصخري ١٥٠

(٣) انظر الابيات في كتاب « معروف الرصافي » لمصطفى علي ص ١٢٩ ، ولم ترد في الديوان .

يمت للعرب ماضيها وحاضرهـــا   بنسبة غضة في المجد والحسب

وعندما استفحل أمر الدعوة الى « ضرورة خلق أدب قومي يكـون مستقلا عن آداب الشعوب الشرقية الاخرى الناطقة بالضاد معـــبراً عن نفسية المصريين وشعورهم ، تصدى الرصافي لأولئك الدعاة في قصيـدة أسماها « التعصب الوطني للأدب » وقال فيها (١) :

من جور مصر على العروبة أنها   تتعمـــد التمصير في آدابها
من أين كانت مصر في أقباطهـا   كمواطن الأعـراب في أعرابها
أبت العروبة أن يفوق هزارها   صرد زقى في مصر زقي غرابها

وقد دأب شعراء الشام وخطباؤها وزعماؤها على إثارة الموضوع كلما سنحت لهم الفرص ، من ذلك ما فعله شفيق جبري في قصيدته عندما زار أمير الشعراء دمشق عام ١٩٢٥ ، إذ أشار فيها الى انحراف عدد من رجال مصر عن العروبة وناشدهم التمسك بحبالها (٢) :

كيفمان تضطرب العروبـة فيها   حتى تجول على السنين مجالهـا
لو تشتكي مصر أذى بشمالهـا   بترت ربوع الغوطتين شمالهـا
بالله بالقرآن بالبيت الذي   قذفت اليــه جرهم أبطالها
لا تقطعوا صلة العروبة بيننـا   حتى تدل على الغنى إدلالهـا
ماذا بمصر وكلنا ظمىء الى   مصر يناجي أهلها ورجالهـا

وقد جدد شفيق جبري القول في عروبة مصر بعبارات أشد وطـأة على

(١) ديوانه ١٧٢
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق م ٥ ، ج ٨ ، ص ٣٨٨

أثر زيارة حافظ إبراهيم لدمشق عام ١٩٢٩ فقال في حفلة تكريمه (١) :

إذا بكت جنبات النيل من ألم — بكت دمشق بدمع منه هتان
أواصر بيبان العرب محكمة — النيل والشام في الآلام صنوان
أرى رجالا على الأهرام ديدنهم — حل الأواصر من طي وشيبان
تنكبوا عن صميم العرب واعتصموا — بحبل رمسيس أحداثا بأحدان
لكن مصر وإن هشت وإن عبثت — ركن العروبة للقاصي والداني

وقد أزرى إيليا أبو ماضي ببناة الأهرام من حيث كان ذلك مبعث افتخار لا حد له عند المصريين فقال (٢) :

بنى الأهرام (فرعون) فدامت — لتخبر كيف كان الظالمونا

وهذه النظرة من أبي ماضي ربما كان مردها الى منزع الشاعر الانساني ونفوره من العنف والاستبداد والسخرة ، وهي من ناحية اخرى تماثل ما كان يصدر عن إبراهيم عبد القادر المازني واحمد حسن الزيات وعدد من كتاب مصر في هذا الصدد نحو آثار الفراعنة وما توحيه من جبروت .

والواقع ان هذه القصائد وامثالها لم تكن سوى رد فعل معتدل تجاه بعض دعاة الفرعونية الذين تطرفوا في دعوتهم الى حد انكار كل صلة لمصر بالعروبة حتى كادوا على حد قول احمد حسن الزيات « يجعلون المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة » واعتقدوا ان الرابطة المكانية او رابطة الأرض وحدها تكفي لايجاد صلة بين الشعوب .

---

(١) ذكرى الشاعرين ١٩١
(٢) الخمائل ١٢٣

وكما كانت طائفة من الكتاب ترى ان مصر الحديثة اقرب الى مصر الفرعونية منها الى جاراتها العربيات ، كانت طائفة اخرى تعتقد ان مصر اقرب الى اليونان ، وكانت طائفة ثالثة تعتبرها ألصق بأوربا ، وقد التقوا جميعاً في ابعاد الطابع العربي عن مصر (١) .

ومن الحق ان نقول إن الشعراء في مصر لم يبلغوا في نزعتهم الفرعونية المدى الذي بلغه كتابها في تطرفهم ، ومعظمهم اشاد بها باعتبارها تراثاً وعصراً وحقبة من التاريخ لا على انها جنس او قومية ، وربما كانت طبيعة الشعر وقوالبه وقوافيه من جهة ، وعمق جذور الثقافة العربية في نفوس الشعراء من جهة اخرى خير ما عصم الشعر في مصر من الانزلاق البعيد نحو تلك الآراء المتطرفة وجعله يتسم في معظم الأحيان بالمحافظة والاتزان ، ولا يفسح صدره النعرات المحلية والدعوات الغربية الا بصعوبة وبمقدار .

وكان لشعراء الجامعة الاسلامية فضل كبير في حصر تيار الفرعونية وعدم استفحال امره في الشعر (٢) ، صحيح انهم لم يتصدوا للتنديد به كما كان متوقعاً منهم ، وذلك لأن الرياح لم تكن آنذاك تهب معهم ، الا انهم بنتيجة انزوائهم في هذه الفترة بعد ان فقدوا خلافتهم ، ظلوا معصومين من الانجراف في هذا التيار الذي وجدوا فيه تعلقاً بوثنية عريقة تغاير عقيدتهم الاسلامية السامية ، وكان من ابرزهم احمد محرم ومحمد عبد المطلب . وكذلك فان الذين تخرجوا في دار العلوم عصمتهم ثقافتهم العربية والاسلامية بصورة عامة من الانزلاق نحو الفرعونية المتطرفة ، ومن هؤلاء محمود غنيم وعلي الجندي وغيرهما .

---

(١) الملاحظ أن الدعوة الى الفرعونية تبناها حزب الاحرار الدستوريين وعلي الاصح بعض أعضاء هذا الحزب وكانت جريدة السياسة منبراً لآرائهم .

(٢) كان لصحيفة المنار لمحمد رشيد رضا ورفاقه من حملة الفكرة الاسلامية أثر فعال في مناهضة النعرات الانطوائية .

وقد وجدنا بين شعراء مصر من اتسم باعتدال نظرته الى ماضي مصر وتاريخها فاعتز بالعرب والفراعنة على السواء دون ان يصدر في ذلك عن دعوة مذهبية معينة ، وقد عبر على الجندي عن هذا الاتجاه في بعض ابياته فقال (١) :

نحن جند النيل ابناء الفدا ورجال الحرب أبطال الكفاح
من فراعين ومن عرب كرام يومىء الناس إليهم بالسجود

وصدر عن الاتجاه نفسه على أحمد باكثير بتفهم ووعي لمعضلة الازدواج في تراث مصر الحضاري فقال على لسان أحد شخوص مسرحياته (٢) :

أبوكم أبي يوم التفاخر يعرب وجدكم فرعون أضحى بكم جدي

وهكذا نرى عزوف عدد من الشعراء عن حدة الدعوات المذهبية وتعارف النعرات الانفصالية وحرصهم على المؤاخاة بين هذين العنصرين العريقين في تراث مصر العربي والفرعوني والتأليف بينهما في وحدة متماسكة منسجمة. ومما نلاحظه في هذا الصدد أن الكثيرين من الشعراء الذين افتتنوا بالفرعونية كانوا هم أنفسهم — شأن كثير من الكتاب أيضاً — في طليعة المبشرين بالعروبة، نذكر منهم أحمد شوقي وحافظاً وأبا شادي .. مما يدل على الصفة العارضة للدعوة الفرعونية التي ازدهرت على ضفاف النيل في وقت من الأوقات .

وجملة القول إن الشعر العربي في مصر ظل عربي اللسان والهوى ، وقد علقت به بعض الشوائب الى حين ، ولكنه بفضل ما اتسم به من أصالة استطاع أن يتخلص منها بعد ذلك ويسير قدماً في الاتجاه العربي السليم .

---

(١) ألحان الأصيل ٥ ؛
(٢) أنظر في المسرحية ٢ ؛

٢

ان النزعة الفرعونية لم تكن النزعة الوحيدة من نوعها في العالم العربي بل كانت الى جانبها نزعات أخرى كالدعوة الفينيقية التي قامت في لبنان والدعوة الآشورية في العراق . وقد ظهرت هذه الدعوات في فترات متقاربة بعد انتهاء الحرب الأولى ووقوع بلاد العرب في قبضة المستعمرين الذين شجعوا هذا الاتجاه الجديد وحرصوا على دعمه بستار من الابحاث العلمية والمكتشفات الاثرية أملا في تفتيت وحدة العرب عن طريق خلق كيانات منفصلة متميزة في الوطن العربي .

والواقع أن جميع هذه النزعات كانت من طبيعة واحدة تعبر عن اتجاه فكري واحد وتستلهم مقوماتها من معين واحد هو ذلك الماضي السحيق السابق لوجود الكيان العربي . ويؤيد ذلك ما كتبه محمد حسين هيكل بعنوان « حاضر لا ماضي له ، لا مستقبل له » (١) إذ قال إنه حين يدعو المصريين الى هذا الاتجاه انما يراه واجباً قومياً يجب أداؤه في البلاد المختلفة بالدعوة الى مثله ، وأضاف قوله « .. إن تطبيق هذه الفكرة في بلاد الشرق العربي يؤدي الى نتيجة هي خير النتائج ، وبودي أن يصل أهل الشام حاضرهم بماضيهم منذ عهد الفينيقيين ، والى أن يصل أهل العراق حاضرهم بماضيهم الى عهد آشور وبابل » .

( ) انظر ملحق السياسة الاسبوعية ٢٩ سبتمبر ٩٣٣

وكان منطلق هذه النزعة في الساحل السوري ذلك الشعار البراق « سورية للسوريين » كما كان منطلق الفرعونية في أرض الكنانة الشعار المماثل « مصر للمصريين » على أن السوريين في نظر دعاة الفينيقية وفيهم جماعة الحزب القومي الاجتماعي – انما هم أمة متميزة تغاير الامة العربية وأنهم بالتالي ليسوا جزءاً منها ، لانهم كما يزعمون يرجعون بنسبهم الى السوريين القدماء ويعنون الفينيقيين . وكان طبيعياً ان تستهوي الدعوة الفينيقية (١) بعض اللبنانيين بعد أن وجدت الظروف مواتية لها في هذا البلد الصغير الذي كان عرضة لمجازر طائفية منذ مأساة ١٨٦٠ في ظل حكم عثماني فاسد كان قوامه التعصب والبؤس ، مما سمح للمستعمرين بدس أنوفهم في شؤونه . وقد دأب الفرنسيون على بعث الماضي الفينيقي والحيثي في بلاد الشام عن طريق كتابة تاريخ جديد لها والكشف عن آثارها الدفينة أسوة بما فعله الانكليز في مصر (٢) . واستطاعت فرنسا أن تستغل مشاعر اللبنانيين عن طريق الطائفية المستحكمة بينهم بايهامهم الموارنة بأنهم ليسوا من العرب وإنما هم احفاد المردة القدماء وأن لبنان من أرومة فينيقية ، وأن القومية العربية فكرة إسلامية ترمي الى التسلط على المسيحيين .. (٣) حتى خيل الى بعض اللبنانيين أن العروبة دعوة رجعية قوامها العودة الى الصحراء ، وأن مصلحة لبنان هي في الاتجاه نحو الغرب الاوربي وقطع صلته بكل ما هو عربي . ونجم عن ذلك قيام منظمات آمن بعضها بالكيان اللبناني الخاص وشخصيته المتميزة ، وخشي عليه أن يذوب في كيانات اخرى أكثر اتساعاً كالكيان العربي أو الاسلامي كما آمن بعضها الآخر بالكيان السوري بشطريه الساحلي والداخلي لاحتوائه أمة متميزة .

---

(١) ذكر عبد الله نحاس في كتابه (الفينيقيون) أن فينيقية لفظ أطلقه اليونان على هذه البقعة الضيقة من ارض الكنعانيين الواقعة عند سفح جبال لبنان على ساحل البحر وهي التي كانت لسفنها مملكة البحار ألوفاً من السنين قبل التاريخ الميلادي ، والفينيقيون خليط من الكنعانيين والآراميين

(٢) انظر محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٢٦

(٣) انظر الامير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ١٥٨

في المهجر الامريكي الشمالي تألفت جماعة من الادباء المغتربين أسمت نفسها (لجنة تحرير سورية ولبنان) وكان جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة من أبرز أعضائها ، وكان من مبادئها قيام حكومات محلية في سورية تحت رعاية فرنسة وحمايتها (١) ، وأصدرت هذه اللجنة لتأييد اتجاهها بحثاً تاريخياً يثبت أن السوريين هم من أصل سرياني فينيقي مع خليط يوناني وروماني وعربي » (٢) وقد رفعت اللجنة التي شكلها أولئك الأدباء مذكرة الى مؤتمر الصلح جاء فيها (٣) « أن السوريين ليسوا بعرب ، واللغة العربية التي يتكلمون بها اضطرهم الفاتحون الى استعمالها بدلا من اللغتين الآرامية الوطنية واليونانية اللتين كانتا اللسان الشائع في البلاد السورية ».

ومن أبرز مظاهر تلك النعرة أيضاً ما نجده في مقال نشره شكري غانم وهو في باريس تبرأ فيه من العروبة كما برأ اللبنانيين من الأمة العربية وقال (٤) : « إننا معاشر السوريين أو اللبنانيين لسنا بعرب وإن تكلمنا بالعربية وانما نحن فينيقيون » وكان ذلك منه على أثر قيام أول حكومة عربية في الشام بعد جلاء العثمانيين . وقريب من ذلك ما كان يصدر عن أقلام كتاب آخرين ، فقد كانت العروبة غثة عند جبران وضائعة في الشرقية ، ومن قوله (٥) « علينا أن نحافظ على صبغتنا السورية » ..

واذا رحنا نتتبع اصداء هذه الوطنية المحلية في الشعر بعد أن آلت في كثير من الأحيان الى نعرة انفصالية ضيقة لم نكد نجد أكثر من شذرات متفرقة . ومرد ذلك فيما يبدو الى غلبة طابع السياسة والجدل على هذه الآراء . ولنشوء

(١) انظر عبدالكريم الاشتر : النثر وفنونه في المهجر الشمالي ١ : ١٥٣
(٢) انظر ذلك مفصلا في المرجع السابق ١ : ١٥٠ ـ ١٥٧
(٣) انظر المرجع السابق نقلا عن السائح عدد ٣ تموز ١٩١٩
(٤) انظر ديوان معروف الرصافي ، الهامش ١٧ :
(٥) الهلال سنة ١٩٣٤ عدد مارس ١ : ٥

هذه النعرات بصورة عامة في بلاد نائية عن الوطن العربي . ولعل معروف الرصافي الذي دأب على العمل السياسي في تلك الحقبة من حياته في طليعة المتربصين بما يحاك حول القضية العربية ، ومن قبل سلق مؤتمر باريس الذي عقده لفيف من رجالات العرب قبيل الحرب الأولى بلسان حديد لاحتوائه عناصر لا يوثق بوطنيتها ولاختياره العمل في عاصمة دولة أجنبية لا تخفى مطامعها في بلاد الشام على أحد . وقد تصدى من جديد لمقالة شكري غانم آنفة الذكر ـ وكان هذا أحد أعضاء المؤتمر البارزين ـ بقصيدة أسماها (صبح الأماني) فند فيها دعواه كما نافح عن العهد الجديد في دمشق . وكان مما قاله معرضاً بأولئك المارقين من عروبتهم (١) :

وهل حسبوا أن العروبة في الورى   من العرّ حتى أنكروا ذلك العرا

ومن الملاحظ أن الدعوة الفينيقية بحكم طبيعتها المحلية ــ شأن الدعوة الفرعونية ــ انحصر أمرها في لبنان دون أن تقيم وزنا للروابط الواشجة بينها وبين سائر الأقطار العربية ، فلم تكن هذه الروابط في اعتقادها تعدو رابطة الجوار . أما الأمة فليست مقوما قوميـاً بالضرورة . ومن هنا كان القوميون العرب يجدون في أمثال هذه الدعوات خطراً على كيانهم لأن أصحابها لا يعدون أنفسهم عرباً . وقد وجد خليل مردم بك في أمثال هذه الدعوات حرباً على العروبة ، ولا تختلف في جوهرها عن مؤامرة التتريك التي حاول حزب الاتحاد والترقي التركي فرضها على العرب قبيل الحرب الأولى وإبانها . وفي ذلك يقول مخاطباً دمشق مشيداً برسوخ عروبتها تجاه كل هذه الأخطار :

وظللت خالصة العروبة حينما   أخذت بنوك بمحنة التتريك
وتطهرت أنساب من قطنوك من   دعوى أخي السريان والفينيكي

---

(١) ديوانه ٤١٧ ، والعر : مرض الجرب يصيب الإبل

ولقد بلغ الأمر بخير الدين الزركلي حداً جعله يربط بين هذه النعرة وبين الخيانة في معرض تنديده بفرقة (القناصة) التي جندها الفرنسيون من بعض المرتزقة في لبنان لقمع الحركات الوطنية فقال(١) :

قناصة الشؤم ماذا في كنائنها ... لبئس ما ادخرت في الروع من باس
ما إن رأيت سلوقيين قبلهم ... هيجوا فهاجوا على آساد أخياس
دعاهم فعصوا داعي مواطنهم ... وساقهم فمضوا مهماز نخاس
الله يعلم أنا كلنا عرب ... وإن أبيتم فما في الأمر من باس
كونوا سلائل (فينيق) أو انتسبوا ... إلى عناصر لم تخلق وأجناس

وهكذا نتبين من خلال أبيات مردم ثم الزركلي مبلغ الحساسية الشديدة لدى شعراء دمشق تجاه الدعوة الفينيقية، كما لمسنا ذلك لديهم من قبل تجاه الدعوة الفرعونية. وهذا يعكس بوضوح مشاعر السوريين بصورة عامة تجاه كل نعرة لا تتفق والعروبة. يضاف الى ذلك أن لبنان كان في جميع العهود شطراً من سورية، فكل ازدهار للطائفية أو الفينيقية فيه يعني الابتعاد عن حظيرة العرب والتقاطع بين هذين التوءمين، وفي ذلك أكبر خطر يهدم دعائم الوحدة العربية المنشودة التي كان السوريون في طلائع دعاتها.

أما عوامل ظهور هذا التيار الوطني في لبنان الذي انقلب سريعاً الى نعرة هدامة وعدم تسربه الى سائر أجزاء الشام فهي أن سفوح جبال لبنان وسواحله كانت موطن الفينيقيين قديماً ومنطلقهم نحو الغرب عبر البحار. والعامل الآخر نجم عن ضعف إيمان عدد من الموارنة اللبنانيين بالعروبة وشكوكهم في أن تكون قناعاً للجامعة الاسلامية التي لقي لبنان من جرائها الأمرين في العهد

(١) ديوان الثورة ١٠٨

العثماني . وهكذا كانت الفينيقية صنو الطائفية ترتكز إليها وتتسع باتساعها وكان المهجر — وهو امتداد ثقافي وفكري واجتماعي للبنان — الموئل الآخر لهذه النعرات التي انتقلت مع أبنائه الى العالم الجديد واستشرت فيه .

ويعد إلياس فرحات ورشيد سليم الخوري من شعراء المهجر في مقدمة من ذادوا عن الاتجاه القومي السليم ونددوا بتلك الآراء المنحرفة ؛ فقد ألمح الشاعر القروي في مقدمة ديوانه الكبير الى خطر تلك النعرة الاقليمية الضيقة فقال (١) : « يا فتيان العرب ، لقد كثر بينكم قادة عمه يوقعون في قلوبكم أنكم لستم عرباً فيضلونكم عن أنفسكم ، ويتعسفون بكم كل طامساء ؛ إن عروبتكم لن تجحد فضل أقاليمكم ولكن أقلمتكم تخسركم عز العروبة وأيدها وغنمها » .

وفى موشح « تحية إلي الاندلس » لالياس فرحات غمزة خاطفة بدعاة الفينيقية حيث يقول (٢) :

يا ابنة الزهراء يا أندلسية　　إن من اجدادك العرب بقية
لم تزل شامخة الرأس أبية　　لم تفرقها مساع أجنبية
لم (تفينقها) دواع مذهبية

فهو يقرن الفينيقية مع المحاولات الاستعمارية ، ويرى فيها جميعا خطراً على العروبة . ونستنتج من قصيدة أخرى لفرحات أيضا وجهها « الى عرب سان باولو » أن عددا من دعاة الفينيقية قد بلغوا المهجر ونشطوا في نفث سموم دعوتهم هناك ، وها هو ذا يحذر من الخطر الماحق فيقول (٣) :

---

(١) المقدمة ط ن
(٢) ديوانه ٢١٠
(٣) ديوانه ١٢٢

بني بلد البن اللذيذ شرابه ويا من رأوا نور العروبة ساطعاً
سمعت بأن الارقم الصل زاركم لينفث سماً بين شدقيه ناقعاً
وان جراثيم (التفينق) أوشكت تمد إليكم في الظلام الاصابعا
حذار فهذا الداء صعب شفاؤه ولا تحوجوني أن أعد المباضعا

وتعتبر قصيدة « حيرام حيرام » لفرحات أقوى ما قاله شاعر عربي في التصدي للدعوة الفينيقية وتفنيدها بعد أن اشتد ساعد أنصارها في لبنان أملا في اضفاء صفة القداسة على حدوده المصطنعة مع جيرانه العرب والتمهيد لسلخه عن عروبته . ومن هذه الابيات قوله (١) :

قوم لقد انكروا جهلا أرومتهم مستمسكين بقوم ما لهم أثر
لولا التعصب كانوا كلهم عربا فلتهنأ العرب لم يعلق بها الوضر
هذا التفينق للتفريق أوجده عات بيغضه بالوحدة الحذر
وكيف لا يحذر الباغي إذا اجتمعت تحت البيارق بدو العرب والحضر
فليعلم النفر الغاوون أنهم ضلوا السبيل الى العلياء فانحدروا
ما كل من حملت أرض ذوى رحم لبنان ينبت فيه الارز والجزر

والطريف في هذه القصيدة أن الشاعر نفسه يفتخر فيما يلي من أبياتها بأمجاد الفينيقيين على أنها جزء من التراث الكبير الذي آل الى لبنان ولكنه يربأ بهذه الامجاد أن يستغلها ويدنسها أناس تحوم حول وطنيتهم الريب والشكوك :

إنا نضن بمجد السابقين الى نشر الحضارة يغشى صفوه الكدر
الراكبين فحول الموج مزبدة ايام لم يك يعلو ظهرها بشر

(١) ديوانه ٢٠٧

ما ذنبهم وهم الاحرار يكسبهم دعوى العبيد هوانا بعدما اندثروا
حيرام حيرام والأيام عادلة لو كنت حياً لكنت اليوم تنتحر
بغى الدعي المعالي وهي شاهدة إن الدعي على اضلاعها حجر

وبالاجمال فقد رأى الشعراء وبخاصة في سورية أن الدعوة الفينيقية التي كانت تلقى التأييد من فرنسة خطر يهدد العرب ويزيدهم انقساماً .

ولهذا كان معظم ما مر بنا آنفاً من الأشعار حول هذا الموضوع يتسم بطابع السلبية والعنف الذي بدا في استنكار هذا الاتجاه الاقليمي الضيق والتصدي لدعاته .

على أنه لا بد من القول ان الساحل اللبناني كان محط هجرات عديدة منذ ما قبل التاريخ . وفي ذلك يقول الدكتور قسطنطين زريق (١) : «لقد تتابعت بعدئذ هذه الموجات خلال العصور التاريخية القديمة والوسطى وكان مهدها جميعاً — من فينيقية وسواها — الجزيرة العربية . وهذه حقيقة يجب ان نذكرها ونتدبر معناها . ان تسرب العنصر العربي الى لبنان لم ينقطع منذ ما قبل الاسلام ، فقد نزحت الى لبنان قبائل عربية معروفة كعاملة في الجنوب وتيم الله بن ثعلبة في وادي التيم وتنوخ في الشمال . وقد جاء في كتاب البلدان لليعقوبي ان لبنان المجاور لصيداء كان يسكنه قوم من قريش ومن أهل اليمن»

وعلى ذلك لا مجال لوسم الفترة الفينيقية من تاريخ هذا البلد بأنها منافية في طبيعتها للعروبة وجعلها نزعة مقابلة لها متعارضة معها . كما لم يكن ثمة سبب منطقي يضفي على الحقبة الفرعونية من تاريخ مصر هذا الطابع المذهبي الذي

(١) الوعي القومي ١٠٢

ابتدعه بعض الباحثين او السياسيين عن قصد او دونما قصد ، فكلتا الحقبتين ذات تراث أصيل ومجد مؤثل ابتنته هذه الأرض الطيبة وتوارثه اهلهـــا العرب جيلا بعد جيل .

« والواقع ان الفينيقيين الذين كانوا اول المستوطنين لساحل اللبنـــاني ، حيث بنوا حضارة مزدهرة مؤسسة على التجارة البحرية ، زالوا وزالت معهـــم لغتهم وحضارتهم قبل العصر المسيحي . وقد خلقت خرافة الفينيقية لمواجهة الاتجاه نحو الوحدة العربية . ولكن لما كانت فكرة مصطنعـــة فانها سرعان ما تلاشت » (١)

وقد دأب عدد من الباحثين والأدباء على إبراز الشخصية اللبنانية أو الشخصية السورية بشكل متميز ومن أولئك انطون سعادة وسعيد عقل الذي يعتبر (٢) « أن شخصية لبنان من مجموعة أربع بؤر عقلية : من صيدون الموغلة في القدم ، والتي تعاصر موسى والفراعنة ، الى المقدس حيث اشعـــاع يسوع ، فأنطاكية حضارة اليونان والرومان ، حتى عهد دمشق ودخول العرب باب التاريخ » .

وكما كانت الحفريات تمد دعاة الفرعونية بنسغ الحياة من حين الى آخر كذلك كان الشأن في لبنان وسورية ، إذ كان لمكتشفات رأس شمرة وسواها أثر بالغ في تعزيز النظرية القومية السورية ، وفي ذلك يقول زعيم الحزب القومي السوري الاجتماعي أنطون سعادة (٣) « ما يعنينا في هذا الموضوع من اكتشافات رأس شمرا هو القصائد والملاحم الرائعة التي تثبت بـدون شك أن الشعر الـكلاسيـكي ابتدأ في سورية وعنه نقل الأغريق الذين

---

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربي ٥٧ ؛
(٢) قدموس (المقدمة)
(٣) الصراع الفكري في الادب السوري ٨٢

تعاونوا هم والرومان على غمط سورية حقها في الابداع الفني وقيادة الفكر الانساني ».

ويحاول سعادة وضع أسس أدب سوري جديد على نمط المحاولات التي دعا اليها بعض المصريين فيهيب بالشعراء أن يطلعوا على هذه الكنوز الروحية الثمينة ليزدادوا يقيناً بحقيقة نظرتهم الى أن يقول (١) : « الآن أخاطب أنا جميع شعراء سورية قائلا تعالوا نأخذ بنظرة الى الحياة والكون والفن نقدر على ضوئها أن نبعث حقيقتنا الجميلة العظيمة من مرقدها . لقد نتج عن هذه النظرات الجديدة في سورية مجرى حياة جديد لتيارات النفس السورية التي كانت مكبوتة ومحجوزة ، فهل يتنبه لهذه الحقيقة أدباء سورية وخصوصاً شعراؤها ويلبون الدعوة .. »

وقد آتت هذه النداءات اكلها فظهرت بوادر الاستجابة لدى عدد ضئيل من الأدباء الذين فزعوا الى تلك العهود الغابرة يستمدون من اساطيرها ادبا جديداً متميزاً وفي مقدمتهم سعيد عقل الذي اصدر مسرحيتين في هذا المجال هما : « بنت يفتاح » و « قدموس » . وقد بلغت منه نزعة الاستعلاء حداً جعلته يصف رسالة لبنان بأنها « رسالة فذة تحولنا لبننة العالم » (٢) .

ومع ذلك لم تبلغ النعرة الفينيقية لدى الشعراء في لبنان ما بلغته لدى بعض ساستها وكتابها من التطرف . لقد تجرأ مثلا شكري غانم وأمثاله على القول بأنهم فينيقيون وليسوا بعرب ، وردد جماعة من قادة الحزب القومي الاجتماعي أو الحزب القومي السوري كما كان يسمي نفسه في العديد من صحفهم ومحافلهم بأن السوريين أمة متميزة وأن العروبة مرض نفسي شوه العقل

---

(١) الصراع الفكري في الادب السوري ٨٦
(٢) مقدمة قدموس ٢٢

السوري ودعوة رجعية مرادفة للبداوة والعودة للصحراء وأنهـا قناع يتستر به دعاة الطائفية الاسلامية ، وان الوحدة العربيـة ليست سوى هذيان من العروبيين » (١) إلا أن الشعـر كما كان شأنه في مصر أيضاً لم يفتح صدره لمثل هذه الآراء الهدامة .

ومما تجدر ملاحظته أن ماسبق من القصائد والمقطوعات يكاد يكون جل ما نظمه الشعراء بصدد هذا المذهب السياسي الذي لم يكن يتفق في دعوته والاتجاه العربي السائد . ولكن الاعتماد على الغابر الفينيقي وربط حاضر الأمة وشخصيتها به ، وجعل ذلك قومية متميزة أمر يختلف كثيراً عن النظرة إلى ذلك الغابر من حيث أنه تراث عريق فحسب يضـاف الى سفر الأمجاد الحافل الذي آل إلى العرب المعاصرين ، وعندئذ تغدو الفينيقية والفرعونيـة وسواهما كسباً للكيان العربي الراهن ورافداً قومياً عريقاً يسهم بصورة فعالة في توضيح معالم الشخصية العربية وتوكيد أصالتها .

وعلى هذا السبيل مضى أكثر ما نظمه الشعراء في ذلك الموضوع ، وهو على قلته لم يكن يعدو في غالب الأحيان نطاق التفاخر ، من ذلك ما نجده في قول إيليا أبي ماضي إذ يبرر هجرته وإخوانه من لبنان (٢):

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم ركبوا إلى العلياء كل سفين
ورثوا اقتحام البحر عن فينيقيا أم الثقافة مصدر التمدين

---

(١) انظر كتاب : المالكي — رجل وقضية ٨٧
(٢) الخمائل ١٠٥

فالاشادة بعظمة الفينيقيين كانت محور تفاخر الشعراء [1] وأكثر ما انصب هذا التفاخر على أمرين : عظمة دولتهم البحرية وأسبقيتهم الى ابتكار حـــروف الهجاء . وقد أشاد شكرالله الجر بهاتين الصفتين البارزتين فقال [2] :

وشطوط نسج السحر لهـــا ... من شعاع البدر والشمس كساء
عمرت في سالف الدهر بنـــا ... يوم كانت من بني الدنيا عفـاء
في غزاة من بني فينيقيـــا ... لا يبـالون مـــع الفتح بلاء
روضوا البحر وشادوا فوقه ... منشآت كن للمجد وطـــاء
خلفـــوا في كل أرض أثراً ... صانه التخليد في حرف الهجاء

ومما قاله الشاعر نفسه مشيداً بتلك الأمجاد السالفـة ، قصيدتـــه « على خرائب بيبلس » وهي مدينة جبيل الفينيقية على الساحل اللبناني [3] :

أي شعب كشعبك الجبار ... خالد في جلائـل الآثار
ضاربأفي جوانب الأرض زهوا ... عابثا بالخطوب والأخطار
ناشراً في بحارها منشآت ... هازئات بالموج والاعصار
أعجز الأرض كلها ما بناه ... من حصون وشاده من ديار

( ) أنظر تفاصيل تاريخ الفينيقيين ودورهم الحضاري في كتاب « فينيقية » للاستاذ فاك وقد ترجمته بنت بطوطة سنة ١٣٦٥ هـ وطبع بدمنهور ، وأنظر أيضاً (الفينيقيون) لعبدالله يوسف نحاس ط جريدة الصبر سنة ١٩٤٣ ، ص ٩ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٩٤ ففيه أنهم أول من أثبت أن إفريقية شبه جزيرة ، وقد أشار الى ذلك هيرودوت ، وأنهم عرفوا أميركا بعد أن اوغلوا في البحار ؛ كما عرفوا كروية الارض والمد والجزر والفلك. كما ينسب اليهم اكتشاف الصبغة الارجوانية وحجر المغناطيس واحتكار التجارة ، وممارسة النظام الديمقراطي في قرطاجة التي عرفت مجلساً للشيوخ ، وكان لها دستور انفردت به وأبدى أرسطو إعجابه به .

(٢) الروافد ٤١

(٣) الروافد ١٥

وتماثيل للجمال أجادت ... تحت أجزائها يد الحفار
عرف الموج حسنها فترامى ... فوق أقدامها عديم القرار

ولا ريب أن أبياتاً كهذه لا تخرج عن تصوير روعة تلك الآثار الفينيقية التي لا تعدو نظرة الشاعر اليها الناحية الفنية ، ويتابع الشاعر نفسه قوله في القصيدة نفسها :

أمة شرد الزمان بنيها ... فذراهم على متون البحار
حدث الناس أيها الشط عمن ... حكموا في أعنة الأقدار
خبر الكون عن عظائم شتى ... كان ملء الأسماع والأبصار
إن أجدادنا وما أحرزوه ... كان بالجد من غنى وفخار
فانهجوا نهجهم وكونوا كباراً ... يرحب الكون للرجال الكبار

فالأبيات لا تخرج عن نطاق التفاخر على الرغم من اعتبارها اللبنانيين أحفاداً للفينيقيين . وهذا النسب الذي أشار إليه الشاعر نسب معنوي والاشادة به أمر طبيعي بل أن التفريط به لا يعد طبيعياً . وهدف الشاعر من حث قومه واستنهاضهم واضح يذكرنا بطريقة شوقي في فرعونياته . ومع ذلك يعد شكر الله الجر في رأس الشعراء الذين اشبعت قريحتهم بالروح الفينيقية وتطرفوا في الاعتزاز بها .

وقد تغنى عقل الجر بالعهد الفينيقي وزهي به في نشوة بالغة فقال (١) :

ألم نكن وعيون الشرق شاخصة ... شعباً على صغره فاق الملايينا
الم نكن لبني الدنيا أساتذة ... حتى حروف الهجا من صنع أيدينا

(١) انظر الابيات في جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ٣٩٤

ألم نكن وبحار الكون مسرحنا | نلقي على أيها شئنا مراسينا
انا ثبتنا ثبات الأرز في جبل | قد جاور الله في أعلى أعالينا
وارى الزمان شعوباً في غياهبه | وقصرت يده عن أن تواريينا

والملاحظ ان الشاعر بالتزامه ضمير المتكلم في ابياته جميعاً يحرص على اعتبار نفسه من حمدة اولئك الفينيقيين ، وهذه الروح روح الاعتداد والزهو بذلك الماضي الغابر تماثل ما وجدناه لدى عدد من شعراء مصر كحافظ إبراهيم في قصيدته « مصر تتحدث عن نفسها » ومحمد الأسمر في عدد من قصائده ، فهناك بناة الأهرام وام التشريع ورصد النجوم وفن التحنيط ، وهنا سادة البحار واساتذة العالم ومبدعو حروف الهجاء ..

ولم يكن اطلاق اسم (النادي الفينيقي) على إحدى الحلقات الأدبية في المهجر البرازيلي إلا مظهراً من روح الاعتداد والتفاخر عند عدد من اللبنانيين الذين كانوا يحرصون على توكيد شخصيتهم القومية في تلك البلاد النائية ويجدون في مثل هذه المظاهر ما يرضي ذاتهم الطامحة . والنادي الفينيقي نفسه لم يكن لديه من الفينيقية سوى الاسم ، حتى إن النشيد الذي نظمه عقل الجر لهذا النادي لا يحمل من الفينيقية سوى العنوان فلغته مضرية ومعانيه عربية ، حتى إن الاعتزاز بالعروبة جاء في صلب هذا « النشيد الفينيقي » (١)

ايه اشبال الاسود | انتم خير الامم
فاقتفوا إثر الجدود | واملأوا الدنيا عظم
وابعثوا فينيقيا
حسبكم نادي الادب | وعكاظ المهجر

---

(١) انظر وديع ديب : الشعر العربي في المهجر الامريكي ٨٧

محييا مجد العرب من بطون الاعصر
ناشرا ما طويا

ويبلغ هذا الزهو أقصاه لدى رشدي المعلوف الشاعر اللبناني في قصيدته « بلادي » ومنها قوله (١) :

أهلت ذروة الدنيا غداة الصخد في صور
ويوم البحر للعالم ـ أغمار من النور
وجئنا الشمس بالنار

ولم تدري

ومنا كان طاليس وإن زوّر من بعد
وغنينا وهوميروس ـ لم يحلم به مهد
وكان الجن في اليم

فلم نرهب

وعمّدنا من المغرب ـ والتاريخ عطشان
وعلمناه ان يحمل ـ بالمنة والقربى
فلا لوم على الام

إذا اذنب

بلادي واحة التاريخ ـ والتاريخ عطشان
بلادي موئل الناس إذا روع إنسان

(١) ديوانه اون الربيع ١٨ ـ ٢٣

فالشاعر يغني هذا النشيد على اجنحة الماضي البعيد مأخوذاً بنشوة الذكريات الباهرة . إنه يزهى بأجداده الذين شهدوا مولد العصور وكان على يدهم انبثاق الحضارة ، ويعد الفينيقيين سباقين الى المعرفة ، عرفوا الفلسفة قبل ان يعرفها الاغريق وابدعوا الملاحم قبل عهود اليونان برغم ما دأب عليه الجاحدون في طمس هذه الحقيقة . كما شقوا عباب البحار منذ فجر التاريخ ونقلوا تجارتهم الى اوربا التي قبست من نورهم ثم عقتهم وجحدت فضلهم ، وتسير سائر اجزاء النشيد على هذا المنوال من الزهو بالامجاد الغابرة وعد المناقب الباهرة . والملاحظ في هذه القصيدة وبعض القصائد التي تعزف على الوتر نفسه ان روح الفخر والزهو مشوبة بالمرارة والاسى لهذا الغبن الفادح الذي تلقاه منجزات النبوغ الفينيقي باستمرار حتى كادت تمحى معالمه في الاذهان باستثناء نفر من العارفين ، وهذا الاتجاه في حقيقته صدى لآراء وبحوث صدرت عن بعض ادباء لبنان ومفكريه (١) وكان بمثابة ثلمة تحز في نفوس المعتدين بالكيان اللبناني الأصيل .

وثمة اخيراً قصيدة للشاعر البرازيلي (اولافو بيلاك) نظمها بالبرتغالية واسماها « الفينيقيون » وقد عربها فوزي المعلوف . وهي لا تكاد تخرج عما سبق ان ورداه لسائر الشعراء إلا بكثرة ما تضمنته من اسماء فينيقية خلال ابياتها من ذلك قوله (٢) :

لله صور وهي تسبح في الضيا　　　والبحر يلمع وجه البسام

---

(١) كتب سعيد عقل عددا من المقالات ومقدمات مسرحياته في هذا الصدد ، ومنها مقدمته لديوان الشاعر رشدي المعلوف آنف الذكر ، وانظر أيضا ما ورد في كتاب (الصراع الفكري في الادب السوري) وبخاصة تعليق مؤلفه أنطون سعادة على مكتشفات شيفر في رأس شمرة التي دلت نقوشها على معرفة الاقدمين في هذه البقعة بفن الملاحم وغيره من أوجه النشاط الانساني ارفيع .

(٢) انظر ديوان فوزي المعلوف ٣٣

سفن من الارز المتين يعدها — مستعرضاً أحمالها(حيرام) (١)
سيروا (فملخار) يبارك من جلوا — والشوق خلف والرجاء أمام
من أرض صيداء ومن أنتردس — وجبيل قد شدوا الجبال وقاموا
ليوسعوا سبل الحياة وينشروا — علم الحضارة والشعوب نيام

وقصيدة (بيلاك)هذه تنم عن طابع الحنين الذي ساد فئة من الشعراء الغربيين نحو حضارات الشرق القديمة وكان في حقيقته مظهراً من مظاهر النزوع الرومانسي الذي رأينا مثيلا له لدى عدد من الشعراء الذين أخذهم سحر الشرق وعراقته في المعرفة ، فتغنوا به وناجوه بلهفة ، وشد بعضهم الرحال لزيارته والعيش فترة بين ربوعه . وقد أشرنا من قبل الى ما كان من أمر شاتي وبايرون وكيتس ولي هنت وثاكري وفلوبير ولامارتين (٢) وسواهم من افتتانهم بمصر ولبنان .

وهكذا فان نزعة الاعجاب بالعهود السحيقة التي طغت حيناً من الدهر على اللبنانيين وعلى سواهم من الاقوام الاخرى كانت الباعث الاول على نظم هذه القصائد . وهذه النزعة إنما تنم في الواقع عن تعطش كبير لكل ما يغذي روح شعب خضع للاستبداد قروناً حتى كاد يفقد ثقته بنفسه . ومثل ذلك الشعور مألوف ومنتظر لدى شعب ينزع الى النهوض ويبحث عن بعض معالم شخصيته الضائعة في ثنايا ماض عريق منسي ، فهو يتمسك بغبطة ونشوة بكل ما يرفد حاضره ويعينه على استعادة مكانته بين الامم .

---

(١) حيرام ملك فينيقي كبير عاصر سليمان ملك إسرائيل ، وذلك قبل الميلاد بنحو ألفي عام ، وملخار ملك فينيقي آخر .
(٢) زار لامارتين لبنان ومكث في ربوعه حيناً .

على أن الشعر الحديث والمعاصر في سورية ولبنان لم يكن تواقاً الى اقتحام هذا المجال الفينيقي بتلك الحماسة التي وجدناها لدى بعض الشعراء في مصر، وما ذلك إلا لان الدعوة الفينيقية في الاصل لم تلق الرواج الذي لقيته الفرعونية في مصر. ولعل من أسباب ذلك ضآلة الآثار الفينيقية الماثلة أمام اللبنانيين خلافاً لما كان عليه الحال في مصر من قيام الاهرام وأبي الهول ووادي الملوك والكرنك وموميات الفراعنة ومعابدهم وسواها من مظاهر الجبروت، ولهذا لم ينفعل الشعراء في لبنان بعظمة الفينيقيين الا قليلا. لقد فخروا بماضيهم الغابر وحق لهم ذلك لانه جزء من تراثهم الذي آل اليهم من تلك العهود السحيقة، وبقيت الحماسة للفينيقيين ضمن حدود المباهاة والافتخار دون أن تؤول في الشعر الى دعوة مذهبية، ولم يشأ شعراء لبنان بصورة عامة أن يتعلقوا بسراب بعيد والماء الزلال يترقرق عند أقدامهم. بل ان ظاهرة التفاخر نفسها برزت على نطاق ضيق بحيث لم تجر الالفاظ الفينيقية على ألسن الشعراء في لبنان كما جرت نظائرها الفرعونية على ألسن الشعراء في مصر. وربما كان مرد ذلك الى أن الصحافة اللبنانية لم تول المظاهر الفينيقية اهتماماً كبيراً، خلافاً لما كان يحدث في مصر من نشر أنباء المكتشفات وصورها وتدبيج المقالات المستفيضة في تأييد الدعوة الفرعونية أو في تفنيدها، حتى ان ما مر بنا من ألفاظ فينيقية في قصيدة الشاعر البرازيلي (أولافو بيلاك) المعربة عن البرتغالية لا نكاد نجد نظيراً لكثرته فيما نظمه الشعراء العرب انفسهم، وهذا الامر يجعلنا نعتقد ان شعراء لبنان كانوا يجهلون دقائق ذلك الماضي الفينيقي وتفصيلاته بحيث كان بعض الشعراء الاجانب يفوقونهم في هذا المضمار.

والواقع ان النزوع الى امجاد الفينيقيين الغابرة كاد يقتصر على المهجريين من شعراء لبنان كما تدل الشواهد التي مرت بنا آنفاً. ولم تكن هذه الظاهرة على الأرجح إلا نتيجة لأزمة نفسية لا بد ان يمر بها المغترب فيما يبدو حين يطأ تلك الأرض الغريبة النائية فيشعر وكأنه فقد ذاته في هذا الخضم

المضطرب من الأقوام المتباينة في مللها ونحلها وألسنتها، ولذلك كان المهاجر يحرص على توكيد هذه الذات، وبلورة شخصيته عن طريق مباهاته أولئك الغرباء بعراقة أصله وانتمائه الى شعب مجيد كان شأنه نابهاً منذ فجر التاريخ.

وجملة القول أن الدعوة الى الفينيقية أو الى الكيان السوري طغت الى حين ولكنها لم تلبث أن انحسرت تاركة في الشعر صدى باهتاً خافتاً. وقد ظل الشعر في لبنان مضري الألفاظ عربي الروح بفضل تأصل العروبة في هذه البقعة التي انبثق منها فجر النهضة الأدبية الحديثة وغمرت أنوارها العالم العربي.

٣

ونأتي الآن الى دعوة ثالثة أطلت برأسها في العراق ولكنها ولدت هزيلة لم تلبث أن اضمحلت وماتت، تلك هي الدعوة الآشورية التي حاولت خلق قومية في العراق تقوم على صلة النسب مع الآشوريين والبابليين الذين كانت لهم حضارة عريقة في هذه البقاع قبل بضعة آلاف من السنين.

والواقع أن هذه الدعوة اقتصرت على فئة ضئيلة من العراقيين ولم تكن تعدو نطاق بعض الأقليات من بقايا الآشوريين. وقد كان الاجنبي المحتل يقوم بدور فعال في دعمها وتحريضها كما كان شأنه في مصر ولبنان، والى ذلك أشار الشاعر القروي ممهداً لاحدى قصائده بقوله (١) «كانت انكلترا خلال حكمها للعراق تكرم الملك فيصل وتقيم له المهرجانات في لندن وتتظاهر بصداقته، في حين كانت باليد الأخرى تمد الآشوريين بالمال والعتاد ليثوروا على حكم الأسرة

(١) ديوانه ٣:٢٠٣

الهاشمية . من ذلك ما قام به (مار شمعون) الآشوري حين أعلن الثورة ، ثم يورد قصيدته التي يقول فيها :

يمدون للتسليم في (لندن) يدا ويخفون للتسليح في (نينوى) يدا
لأمر يلاقيك الفرنجي باسما فزد حذراً ما زاد ذئب توددا
تراه صحيح الود وهو سقيمه كما تكسب الحمى الخدود توردا
وهز (لشلما نصر) سيف هاشم وكال (لمر شمعون) كيلا ملبدا

وقد أشار عدد من شعراء العرب الى محاولة بقايا الآشوريين تغيير وجه العراق العربي وإقامة دولة آشورية بمساعدة المستعمر . ومما قاله عمر أبو ريشة في صدد تأبين غازي [1] :

ليس يطوى التاريخ صفحة مجد أنت سطرتها بأسنى مداد
يوم هزت آشور في وجهك الطلق ـ رماحاً رعافة الأحقاد

أما خيرالدين الزركلي وهو في طليعة الشعراء الذين عرفوا بنضج شعورهم القومي وأصالته فقد ضاق ذرعاً بالسياسة الجائرة التي كان يتبعها المستعمر في بلاد العرب من تقسيم وتجزئة ، ورأى في مثل هذه الدعوات الاقليميه ضغثاً على إبالة فهو يتحدث عن حالة قومه والأسى يملأ قلبه [2] :

تجهمت النكوب لهم فباتوا أسارى في العراق وفي الشآ
وقسمت البلاد بهم فراحوا ووحدتهم تصير الى انجذام
أمنتسب لآشور وماض بنسبته الى إرم بن سام
ومنقطع تردد بين بين فحار فحاد عن طرق الزحام

(١) ديوانه ١٢٥
(٢) ديوانه ٤٩

وكانوا أمة سادت وشادت موحـــدة المنابت والمنامى
فبت الحبل وانقسموا شعوباً فـلا قربى ولا صلة اعتزام

على أن هذه الدعوة الآشورية التي اصطبغت بصبغة سياسية أكثر منها اجتماعية لم تؤثر كثيراً في مجرى التيارات الفكرية والأدبية في العـــراق ، إذ لم يشعر العراقيون بأية رابطة أو آصرة تشدهم الى أجداد بابليين أو آشوريـــين لا يكادون يعرفون عنهم إلا اليسير مما تناثر في الكتب أو المتاحف ، كما أن طبيعة العراق ومنـاخها وقلة الصخور فيها لم تساعد آثار تلك الأمم الغابرة على أن تعمر أحقاباً مديدة خلافاً لما كان عليه الحال في مصر . ومن جهة أخرى فان ضعف الصحافة العراقية وقلة انتشارها آنذاك ، لم يتح لهذه الآراء أن تتخـــذ الصحف منبراً لها ، بالاضافة الى أن قوة العقيدة الدينية لدى الشيعـة وسائر المسلمين في العراق كانت درعا واقية لمثل هـــذه النعرات التي ترتبط بماض عريق بالوثنية .

ومن هنا ندرك ضآلة تسرب الآراء الاقليمية الى أدباء العراق ، إذ ما كان لأمجاد بابل أو نينوى في نفوس الشعب مكانة بغداد والبصرة والكوفـة والموصل ، كما لم تستطع عظمة بختنصر ونبوخذ نصر وسميراميس أن تضارع عظمة المأمون والرشيد والجاحظ الذين ما زال ذكرهم يرن في أرجاء العراق وسائر العالم العربي .

والواقع أننا لا نكاد نجد في دواوين شعراء العراق أي صدى لدعـــوة إقليمية ضيقة ، بل إن الشعر في العراق لم يفتح صدره حتى للمفاخرة بأمجاد الماضي الغابر كما كان الشأن عليه في مصر ولبنان . فقد كان الزهاوي والرصافي والكاظمي والجواهري وبحر العلوم والهنداوي والشبيبي واليعقوبي وسائر الشعراء في العراق أبعد ما يكونون عن التجاوب مع تلك النزعات القومية الضيقة ، حتى إن ما نظمه

الشعراء في موضوع البابليين والآشوريين على قلته لا يعدو نطاق التفاخر والاعتداد بالحضارات العريقة التي عرفتها أرض الرافدين. من ذلك ما قاله علي الشرقي مناجياً مدينة بابل ومشيداً بحضارتها وعظمتها [1]:

بابل يا بلد السحر سلام ... يا سرير المجد والمجد غلام
السرايا لك (والبرج) لواء ... والصفايا لك والبرج رغام
ولد الفن على عتبتها ... حوله الطفلان عم ونظام
تصف الهيكل والأرض دمى ... هيبة الهيكل والأرض ركام
هذه الابنة في معجزها ... (لحمورابي) حلال وحرام
قد شجاني أسد في بابل ... رابض ليس له عنق وهام
ضاع - لما ضيعت آثارنا - ... مجدنا الغالي وأجداد عظام
بابل ما أنا إلا حالم ... بك يصبيه انطباع وارتسام
نشأ الملك بواديك له ... من جلال المثل العليا وسام
والفرات الرهو في أريافه ... المعزان يراع وحسام
خاضه الاسكندر المغرور في ... عزمه فاعتاقه الموت الزؤام
ورأى (كورش) فيه أمة ... للعلا فيه عرام وغرام
وثوى (مردوخ) في فرضته ... حانقاً يملأ جنبيه احتدام
و(نبوخذ نصر) في شاطئه ... زاحف يتبعه جيش لهام
بين (نيبور) و(ركا) جيشه ... وله في (أورشليم) قتام
والفراتيون إذا حفزتهم ... الملمات دروع وسهام

فالقصيدة على ندرة أمثالها لدى شعراء العراق من حيث اهتمامها بهذا الموضوع، لا تمتاز بمقومات فنية تذكر عدا ضعف نسجها، والشاعر

---

(1) عواطف وعواصف ١٣٢

يسرد فيها بعض آثار بابل ومعالمها ثم يعتز بتلك الانتصارات الغابرة التي حققها البابليون ضد قدماء الفرس والمصريين ، وهي من حيث اتجاهها لا تختلف عما انطوت عليه مثيلاتها من مباهاة بالماضي الغابر . مع ضآلة ما يجد الشاعر في وصفه من الآثار الماثلة التي لا تعدو لبنة قديمة وأسداً أطاح الدهر برأسه .

أما ما عدا ذلك من الشعر الذي يجري على هذا النمط من الافتخار بالأمجاد السابقة على العرب والاسلام فلا نكاد نجد نظائر له تذكر لدى شعراء العراق انفسهم . وثمة قصيدة نظمها شاعر مهجري هو ابو الفضل الوليد اسماها (العراقيه) وقال فيها (١) :

لدجلة (نينوى) ام حصان   و (بابل) بعدها ام الفرات
(فبابل) اي مملكة حوتها   وقد جاءت بكل المعجزات
بأسوار تنوء بها الرواسي   وجنات تلوح معلقات
وأملاك لهم ملك فخيم   بناه (بختنصر) بالغلبات
واما (نينوى) فلها حديث   شجي بالعظائم والعظات
مليكتها (سميرة) ثم كانت   أشد من الملوك على العداة

ومع أن الشاعر لا يزيد في أبياته هذه على ان يقف وقفة الفنان تجاه روائع الماضي كحدائق بابل المعلقة او دهاء سميراميس وجمالها ، فانه يؤكد في القصيدة نفسها رسوخ العروبة في العراق برغم تعاقب الأمم على أرضه إذ يقول :

فكم دول توالت ثم دالت   وكم امم توارت بائدات

---

(١) نفحات الصور ٦٢

سوى عربية ثبتت لفضل   وليس لغيرها فضل الثبات

وثمة آثار ادبية ظهرت في العراق واستوحت تاريخ الآشوريين والبابليين كأوبريت « بابلون » الشعرية (١) وهي شبيهة بقدموس ، وبنت يفتاح لسعد عقل وكمسرحية شعرية اخرى اسمها (شمسو) واخيرة عنوانها « الأسوار » (٢) . كما أكثر الأدباء في قصائدهم الغنائية واوبراتهم واقاصيصهم من معالجة موضوع سميراميس الأميرة الآشورية . إلا ان هذه الآثار ومثيلاتها المستوحاة من عهود الفراعنة والفينيقيين والتي ارتدت في الغالب الثوب الشعرى والقصصي لم تكن تعدو الجو الأسطوري والخيالي فظلت بعيدة عن النطاق الواقعي للامة ضئيلة الأثر في حياتها القومية .

ونحن نقع على آثار ادبية متعددة تحمل اسم (بابل) من ذلك مثلا مجموعة مختارة من الشعر العراقي القديم والحديث اخرجها محمد علي اليعقوبي باسم « البابليات » . وثمة مجموعة شعرية اخرى تحمل اسم (البابليات » ايضاً لمحمد مهدي البصير وهي تحوي في جملتها شيئاً من شعره الى جانب بعض محفوظه . كما اطلق علي الخاقاني على كتابه الكبير اسم « البابليات » او شعراء الحلة ، وقد آثر جعفر الحلي ان يطلق على ديوانه الشعري عنوان « سحر بابل وسجع البلابل » الخ ... كل هذه الاسماء التي تشير الى بابل لا تعدو في الواقع الغلاف الذي ارتسمت حروفها عليه فوق ما ذكرنا من كتب ومجموعات شعرية ودواوين ، وليس وراءها ما يمت بأي صلة او اشارة الى البابليين ابعد من ذلك . ولا ريب ان صفة القدم واصالة الحضارة في العراق جعلت عدداً من الادباء يجدون في كلمة (بابل) رمزاً عريقاً لارض الرافدين .

---

(١) اصداء الحيدري ، وبابلون أميرة بابلية تقع في حب أخيها

(٢) المسرحيتان لخالد الشواف

أما سورية فقد نجت تقريبا من وجود نزعات اقليمية مماثلة برغم محاولات المحتلين ، وقد انعكس هذا الصفاء في الشعر فكان ناصعاً في عروبته . ويعتبر العهدالفيصلي في دمشق على قصره «نموذجاً للحكم العربي السمح » فرئيس الدولة كان حجازياً ، ومدير العدل لبنانياً ، ومدير المالية لبنانياً متمصراً ، ومدير المعارف سورياً من حلب ، ومدير الشرطة فلسطينيا من نابلس ورئيس أركان الجيش عراقياً وهكذا ... » (١) وقد اشار ساطع الحصري (٢) الى ان سورية اعرق الاقطار العربية في الشعور بالقومية العربية واكثرها تجرداً عن النزعات الاقليمية ، فقد كان تيار العروبة من القوة والصفاء بحيث لم يسمح لاية نعرة منحرفة ان تطل برأسها وذلك برغم أن سورية كانت مسرحاً لحضارات الآراميين والحيثيين العريقة ...

★ ★ ★

وإذا ما رصدنا مسار هذه "النعرات" الاقليمية المنحرفة من خلال الشعر الحديث ، نجد انها كانت ترتكز بالاجمال الى اهداف سياسية وقومية متطرفة بدأت أول الامر باتجاه وطني يرمي الى خلق كيانات جديدة مستقلة — شأن الفتى يشب عن الطوق ويجنح للعزلة والتميز عن جامعة الاسرة وتوكيد ذاته وشخصيته . وقد تجلى ذلك في خشية لطفي السيد وسواه من المفكرين ان تذوب الشخصية المصرية في الدولة العثمانية ، وتخوف الكثيرين من مسيحيي لبنان ان يطغى عليهم المسلمون في الشرق العربي وحرص بقايا الآشوريين في

(١) الامير مصطفى الشهابي : محاضرات في القومية العربية ١٢٢
(٢) آراء وأحاديث في القومية العربية ١١

العراق على التميز عن العرب في دولة مستقلة خوفا على كيانهم من الانقراض . إلا ان جميع هذه المخاوف تبددت مع نمو الوعي القومي السليم إثر تضاؤل النفوذ الاستعماري في بلاد العرب . وقد تنبه انصار هذه الدعوات بصورة عامة الى اخطار القوميات الضيقة لانها تدعو الى الانفصال والتجزئة وانها قد تحاسد وتتناحر مما يضعف كيانها امام قوى الشر العاتية .

إن علاقة سكان مصر والشام والعراق بالفراعنة والفينيقيين والآشوريين اصبحت واهية الى حد لم تعد تصلح معه ان تكون أساساً لبناء قومي وبخاصة بعد ان تقطعت اسباب اللغة والعقيدة والمشاعر .

ولا ريب ان النجاح لم يحالف تلك الدعوات لانها قامت على العزلة والانفصال ولانها لم تستند الى اساس واقعي من حياة الجماهير التي لم تلتفت كثيراً الى ماضيها الموغل في القدم ، وبالتالي لم يكن بينها من يعتز باسرحدون وبختنصر ، او بحيرام وملخار ، أو باخناتون وخوفو .

ومن حسن الحظ ان الشعر العربي الحديث قد ربأ بنفسه ان يغدو بوقاً لهذه الدعوات المذهبية الطارئة ، وحاكياً لتلك النعرات الانفصالية الضيقة وهو في الواقع لم يكن يعدو حدود التفاخر بالامجاد السالفة التي آلت الى العرب واضيفت حلقتها الى سلسلة تراثهم العريق . ولا ضير على الفن ان يتسم بخصائص مميزة في كل قطر او بيئة او مدينة بل ان التنوع من مقومات الفن الرفيع ومن مستلزمات الابداع والاصالة . ومن الضروري ان نجد طابعاً إقليمياً طريفاً لدى كل من شعراء لبنان او العراق او المغرب او سواها من اقطار العرب على ان يكون هذا التنوع وهذه الالوان ضمن إطار وحدة الطابع العربي الشامل الذي يبسط جناحيه على فنوننا الادبية كلها .

الفصل الرابع

العاطفة الانسانية

١

من الظواهر البارزة في هذا العصر الحديث مناداة عدد من رجال الفكر والفن بالانسانية . ويبدو أن اهتمام العالم بما انتجه المعري وطاغور وتولستوي وبرتراند رسل وسواهم ممن كانت آثارهم مفعمة بالطابع الانساني الاصيل ، حث الكثيرين من الكتاب والشعراء على مجاراتهم في هذا المضهار أملا في إدراك شيء من تلك الشهرة العريضة .

وقد استهوت هذه النزعة الانسانية عدداً من الشعراء العرب المعاصرين فراحوا يعلنون أنهم يريدون أن يكونوا لكل جيل ولكل جنس . أما الشعر الوطني والقومي فقد ترفعوا عنه لانه في نظرهم شعر محدود بالزمان والمكان مشدود الى الأحداث العارضة والأرض الضيقة . والشاعر الانساني الرفيع عندهم من اعرض عن احداث عصره ، وتحلل من نطاق بيئته ، وتخطى حدود وطنه ، وتجاهل ما تعانيه امته . وقد خيل الى هؤلاء أن الأمر في غاية اليسر وأنه ليس على الواحد منهم إلا أن يختار في أن يكون شاعراً قومياً محدوداً أو شاعرا إنسانيا خالداً .

هذه الفكرة التي قد تخطر ببال الفنان ، وتداعب آماله ، تغاير طبيعة الفن الصحيح الذي لا يتقبل هذا التخطيط الصارم الذي يسبق الابداع الفني . وكل فنان يحاول استعجال صفة الشهرة والخلود دون أن تكون طبيعته ومواهبه مهيأة لذلك، إنما يلاحق أطياف شهرة زائفة، وخلود موهوم، شأن من يسعى وراء سراب براق .

حقاً إنهم لمساكين أولئك الذين يأنفـون أن تتضوع من شعرهم رائحة وطنهم .

لقد كان أدبنا العربي القديم غنياً بالعناصر الانسانية ويكـفي أن نضـرب المثل بأبي العلاء المعري الذي كان شعره مشبعاً بتلك الروح برغم معالجتـه قضـايا مجتمعه في الصميم .

ولعل هذه الابيات لأبي الطيب المتنبي من خـيـر ما قاله شاعر في تصوير العاطفة الانسانية على أنها نزعة الى السلام وليست دعوة الى الاستسلام :

كلما أنبت الزمان قناة ... ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن ... نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا ... كالحات ولا يلاقي الهوانا

إنها إنسانية إيجابية بحق ، تستنكر التطاحن والتناحر والحروب ، ولكنها تأبى أن يكون الاستسلام والاذعان ثمناً لسلام زائف ، وإلا فالموت أجدر بالمرء من عيش الذل والهوان .

والذي يهمنـا هنا أن نستشف المشاعر الانسانية التي عانقت شعرنا القومي الحديث ، وكانت رافداً حياً له ، وأن نتلمس في بعض القصائد الانسانية شيئاً من عناصر الوطنية والقومية . أي إننا نحاول أن ندرس الجانب الانساني في الاتجـاه القومي ، كما حاولنا من قبل دراسة الجانب الديني والنزعات الأخرى الـتي عايشت شعرنا القومي الحديث وكانت روافد له .

ولكن ما حقيقة تلك الانسانية وكنهها بعد ان كثر الحـــديث حولها، وتطلع الكثيرون نحوها ؟. إنها نزعة اصيلة في الانسان ونظرة شاملة نحو البشر تطمح الى السمو بالنفس نحو المثل العليا وتطهيرها من شوائب الأنانية والنفعيـة، وتنزيهها عن التعصب والتحزب. وهي عاطفة شاملة تضم البشر وتعتبرهم إخـوة وتشدهم الى أهداف سامية مشتركة، وكأنهم أسرة كبرى تذوب بينها الفروق العارضة والصفات المميزة، ولا يقام معها كبير اعتبار لعرق أو لجنس أو لدين، ولا مفاضلة بين أسود وأبيض، أو شرقي وغـــربي، أو مسلم ومسيحـي، أو عربي وهندي.

لقد صدر خير الدين الزركلي الشاعر القومي الكبير عن نفحة إنسـانية أصيلة بقوله في إحدى قصائده الوطنية (١):

يكفر فينا معشر معشراً هم | على الحق، والانسان قد يتبصر
دع الناس لا تبغ الذين تهودوا | بشر، ولا تبـغ الذين تنصروا
عجبت لأمر الناس أبناء واحد | يفرقهم دين وجنس وعنصر

وكأن هذه النفحة قبس من روح المعري وفنه الانساني الرفيـع. وقد سبق أن رأينا اتساع العاطفة الشرقية الى رحاب الانسانية في قصيدة لأديب التقي، نظمها إثر زياره طاغور الشاعر الانساني الى دمشق وقال فيها (٢):

أأحرار أهل الغرب أمـوا بلادنا | تزونا كرامـاً لانسر لكم بغضا
تعالوا إلينا لا لفتـح وغارة | لتستعبدوا حراً وتستعمروا أرضا
ولكن لترتادوا حقائق شرقنا | وتستمعوا للقلب عن كثب نبضا

---

(١) ديوانه ٨٥
(٢) ديوانه ١٠١

ومن ذلك ما قاله عمر ابو ريشة في غمرة الأحداث التي كانت تحيق بالعالم العربي (١) :

ليت شعري متى ينفض هذا الشرق من خادع الطيوف جفونه
ومتى ينشر الوئام جناحيه — مظللا جباله وحزونه
ومتى تخمد العواصف في اليم ، وتحدو ريح السلام سفينه

فالشاعر هنا يتوق الى رؤية هذا الشرق قوياً سعيداً يسوده الوئام وتمحى منه آثار الحزن ، وتخمدفيه عواصف الأحداث ، وحينئذ ينعم بالسلام المنشود .ولا ريب ان شعراً كهذا كلام عذب تهفو إليه النفس وتطرب ، بل الأعذب منه لو ان المتناحرين على المغانم اقتنعوا بدعوة الزركلي ، واستجاب المستعمرون لنداء التقي ، وحققت الاقدار اماني ابي ريشة . ولكن انى لمثل هذا الشعر الوادع المترفق ان يكون مجدياً في تحقيق رسالته تجاه وطن استحكمت فيه الطائفية والتعصب ، واستشرت علله وادواؤه ، وتكالبت عليه قوى الشر والعدوان .

لقد خاض العرب معركة المصير ضد اعداء كثر في الداخل والخارج . وكان عليهم ان يقاوموا الاستبداد ، ويناضلوا الاستعمار ، وكان على الشعراء وهم رواد الحرية والوعي ان يقرعوا نواقيس الخطر ويشحذوا العزائم ويوقظوا النيام ويبشروا بالخلاص . وكيف يستمع الطغاة في زحمة المعارك وغمرة الدماء وصليل الحديد ، الى اصوات كهديل الحمام ، والحان كأنغام الناي ، ونداءات في نعومة الحرير .

والواقع ان الشعراء ساروا في هذا الطريق السهل الممهد إذ تغنوا بتعاليم الثورة الفرنسية واشادوا بمبادىء ولسون ، ووثقوا بوعود الحلفاء ، وتفاءلوا

---

(١) ديوانه الاول ٢٠٦ ــ ٢١٦

بالخير ، وتوقعوا الانصاف ، حتى عيب عليهم إغراقهم في ذلك الى حد السذاجة .. ولكنهم لذعوا بالجمر من خلال الرماد ، ولسعوا بالافعي من داخل القش ؛ فقد كشفت لهم دولة الحرية والعدالة والمساواة عن انياب عصل في اسرتها السم الناقع ، وبدت حليفة الامس وصديقة العرب ذئباً ضاريا في ثوب حمل وديع ، وا كتوى العرب بنار الغدر فأورثهم ذلك شعوراً حاداً بمرارة الخيبة عبر عنها الشعراء ، ولم يجدوا مناصاً من إعلان النضال من جديد مع شعوبهم الثائرة .

ومن هنا كان لزاماً على النزعة الانسانية البحتة في غمرة هذا الصراع الرهيب ان تخفض الصوت ، لتفسح المجال امام الشعر القومي المتحفز ليؤدى رسالته الملحة في هذه المرحلة العصيبة من حياة العرب ، ولذلك قل ان نجد شعراً يعزف على وتر الانسانية في خلال نضال العرب المرير ضد قوى الشر . إذ ان ذلك الحال اقتضى من العرب ان يجندوا كل طاقاتهم بما في ذلك الادب شعره ونثره في سبيل التحرر . ومن الطبيعي ان تقابل بالريب والحذر كل دعوة إنسانية يصدر عنها شاعر ويتجاهل فيها واقع شعبه وظروف وطنه ، إذ ان التبشير بالسلام في اوج احتدام المعركة مع العدو دعوة صريحة الى الاستسلام ، والمناداة بالصفح والتسامح تجاه عدو غادر لا يرحم دعوة صريحة الى الذل والعبودية ، لان وضع الندى في موضع السيف مضر ، على حد تعبير الشاعر العربي .

٢

وثمة ظاهرة غريبة عرفها الشعر الحديث بتأثير ظروف اجتماعية معينة ، إذ ان العاطفة الانسانية الكامنة في نفس الشاعر العربي كانت تستيقظ في الساعات التي يخيم فيها اليأس على العالم ويهدد البشر شبح الحروب ، لتضفي على المشاعر القومية نفحات فياضة من الانسانية الرحيبة . ولذلك تلفع كثير من الشعر

القومي بثوب الانسانية الفضفاض . ففي إبان الحرب الكبرى الاولى يصدر الزهاوي عن قوله في رباعياته (١) :

إن المدافــع ترغو والحرب حرب ضروس
طارت هنالك ايد وارجــل ورءوس
قد شبت الحرب ناراً عمت تروع الاناما
يا نار كوني علينا برداً وكوني سلاما

ومن ذلك ما قاله إيليا ابو ماضي في تلك الحرب ايضاً (٢) :

بئس الوغى يجني الجنود حتوفهم في ساحها والفخر للتيجان
ما اقبح الانسان يقتل جاره ويقول هذى سنة العمران
لا حق إلا ما تؤيده الظبي ما دام حب الظلم في الانسان
ما بالكم لا تغضبون لجدكم غضبات ملطوم الجبين مهان

وكأن الشاعر إذ يستنكر ان يقتل المرء اخاه ، لا يجد في الوقت نفسه مفراً من اتباع العنف مع اهله لاستخلاص الحقوق المغتصبة ، لأن ذلك في نظـر الشاعر شر لا بد منه . وهي ابيات شديـــدة الشبه بما اوردناه للمتنـــبي في بداية هذا الفصل .

وابو ماضي يندد في قصيدة اخرى بتلك الحرب الطاحنة نفسها بقوله (٣) :

اعجب ما في بني الـــتراب قتالهـــم فوقـــه عليه
قد صيروا الارض كالكتاب وانحشروا ما بين دفتيـه

---

(١) ص ١٣
(٢) زهير ميرزا : إيليا ابو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٨٩
(٣) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١١٨

فراقبوا ذمــة الاخــاء ولتنس احقــادها الخصوم
لا تتبعوا سنــة البقاء فانهــا سنــة ظــلوم

في بيته الاخير استنكار لتطبيق مبدأ داروين الذي يقضي بــأن البقاء للاقوى ، على العلاقات بين البشر لان ذلك يعني فناء شعبه في جملة الشعوب المستضعفة وهو الذي يرى (١) ؛

إن الانام على اختلاف لغاتهم وصفاتهم لو يذكرون قبيل

ومن اهم ما نظمه ابو ماضي في غمرة تلك الحرب وتمثل فيه هـذا المزج الموفق بين الاتجاهين الانساني والقومي اللذين تعانقا في نفسه موشحه « مــتى يذكر الوطن النوم » الذي يقول فيه (٢) :

ذكرت الحروب وويلاتهـا وما صنع السيف والمدفع
وكيف تجور على ذاتها شعوب لها الرتبة الارفع
وتخضب بالدم راياتهـا وكانت تذم الذي تصنـع

كما يقتل الطير فى الجنة ويقتنص الظبى فى السبسب
كذلك يجني على امتي بلا سبب وبلا موجب
فحتام تؤخذ بالقوة ويقتص منها ولم تذنب

ارى الليث يدفع عن غيضته بأنيــابه وبأظفــاره
ويجتمع النمل في قريته إذا خشي الغدر من جاره
ويخشى الهزار على وكنته فيدفـع عنها بمنقــاره

---

(١) المصدر السابق ٢٣٨
(٢) الجداول ٢٧

متى يذكر الوطن النسوم كما تذكر الطير أوكارها

في هذا الموشح تنديد بقوى الشر وويلات الحروب . كما فيه انتقال بارع من ذلك الجو العام الى موضوع بلده لبنان الذي كان يلاقي الأمرين مع أخوته العرب (١) . ولعل أجمل ما في الموشح مقطعه الأخير بتشبيهاته الرائعة التي قصد الشاعر من ورائها الى حث أمته على النضال .

وثمة قصيدة أخرى أوحت بها الى محبوب الخوري الشرتوني مأساة لبنان أيضاً في غمرة تلك الحرب نفسها عندما شدد الاتراك الوطأة على العرب وشنقوا عدداً كبيراً من أحرارهم وهذه القصيدة التي نظم الشرتوني قوافيها في مهجره القصي تعزف ألحانها الشجية على ذلك الوتر الانساني السامي مستوحياً إياها من تلك الأحداث القومية الدامية فوق سفوح لبنان الخضر (٢) :

أرى الأرض وهج النار ملء جهاتها	طعان القنا فيها وصدم الفيالق
ملايين من أبنائها هبطوا الثرى	وما انفك يهوي لاحق اثر لاحق
فهل تجد الأنهار في الأرض مسبحاً	وفي الارض طوفان الدماء الدوافق
وهل تجد الأطيار في الجو مسرحاً	وفي الجو أفواج النفوس الزواهق
عيال على أعشاشها مطمئنة	تناولها صرف الزمان بطارق
يجرد من أحشائها مهجاتها	ويقذفها مذبوحة في الخنادق
فلا تقطعوا أغصانها وصخورها	فكم ظللت من موجع متضايق
ولا تبسموا ثغراً لحمرة وردها	فحمرة ذاك الورد من دم عاشق

---

(١) ألهمت المجاعة في لبنان توفيق يوسف عواد قصة (الرغيف) ، وميخائيل نعيمة (مهرجان الموت) .

(٢) ديوانه ٦٣

هناك قبور الوالدين وحولها يجود اليتامى بالدموع الغوادق
وثم قبور العاشقين وفوقها تسيل حشاشات الحسان العواتق
حنانك عرش الترك مالك ملقياً على عربي القوم وطأة ساحق
لئن تطلبوا أكبادنا وقلوبنا فلن تبلغوها عن طريق المشانق

لقد سرت في أوصال هذه القصيدة روح إنسانية عميقة أشبه شيء بروح المعري والخيام ، وبخاصة في تصوير الموتى من ضحايا الحرب وكيف تفتقت وجوه الارض عن جثثهم نباتات وأغصاناً ، واكتست أجساد الطير من لحومهم لحوما ، واستحالت خدود العاشقين من حمرتها القانية أزهاراً وورودا .

ومن أمثلة اشتداد العاطفة الانسانية أثناء الحروب وفي أعقابها ، وبسط جناحيها الرحيبين على الشعر القومي قصيدة « أخي »(١) لمخائيل نعيمة التي نظمها أيضاً عام ١٩١٧ . وهي صورة نابضة بالحياة تمثل بصدق ، نفسية هذا الشاعر المرهف الحس الذي اكتوى بنيران الحرب الكبرى ، وعانى تجربتها القاسية بعد أن كتب عليه أن يخوض غمراتها مجنداً في الجيش الامريكي ، مما زاد في صبغ عدد من قصصه وقصائده بصبغة إنسانية محبة :

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دامي
لنبكي حظ موتانا

---

(١) همس الجفون : ١٠

أخي إنْ عاد بعد الحرب جندي لأوطـانه
وألقى جسمه المنهوك في أحضان خـلانه
فلا تطلب إذا ما عدت للأوطـان خـلانا
لأن الجوع لم يترك لنا صحبـا نناجيهم
سوى أشبـاح موتانا

أخي من نحن لا وطن ولا أهل ولا جار
إذا نمنـا إذا قمنا، ردانا الخزى والعـار
لقد خمت بنا الدنيـــا كما خمـت بموتانا
فهـات الرفش واتبعني ، لنحفر خندقاً آخر
نواري فيه أحيانـــا

« نفس مرسل وموسيقا متصلة . فالمقطوعة وحدة تمهد لخاتمتها ، وفي هذا ما يشبع النفس .. أخي ! فأنا إذن شريكه في الانسانية وأنا قريب منه وهو قريب مني . الشماتة شعور أناني خسيس وما أحقرها شماتة تلك الـــتي نستشعرهـا لمن دان ، ما أحقر أن نشمت من جثة هامدة .. »(١) ، ما جدوى الهزج والتهليل للظافر العاتي وأي نصر ذاك يعتلي إثره المرء جسد أخيه الذبيـح .
« ما أشبه المنصور بالمكسور »(٢)

« وشبيه صوت النعي إذا قيس بصوت البشير في كل ناد »

أما الالم الانساني المشترك الذي لا يعرف وطناً ولا قومية ولا حدوداً فلقد لف بشملته كل إنسان وكل ذي قلب وإحساس .

---

(١) محمد مندور : في الميزان الجديد ٥١
(٢) شطر من بيت للشاعر القروي في قصيدة نظمها إثر احتلال جيش الحلفاء بقيادة اللنبي القدس أواخر الحرب العالمية الاولى .

وبلغ التعانق الجميل بين الشعور الانساني والقومي في قصيدة الشاعر مداه حين يحدثنا عن ذلك الجندي العربي الذى عاد من ساحة القتال الى أهله منهوكاً فلم يجد من يرتمي في أحضانه لان الجوع الرهيب قد حصد قومه حصداً واقتلع أنفاسهم اقتلاعاً .

فالشاعر ناقم أشد النقمة على تلك الحرب الضروس وما جرته من ويلات على قومه فلم تبق ولم تذر ، وفي نفسه أيضاً ثورة مضطرمة على الشرق العربي الخانع المستكين ، الشرق الذي لفه العار بشملته وهد الذل أركانه ، حتى لقد خمت الدنيا بأهله وساكنيه أولئك الاحياء الخانعين .. وما أجدرهم بأن يواروا في التراب ويغيبوا في الرموس (١) .

هو الجوع ، والعري ، والفقر والخزى والذل والعار ، وهو الفلاح والكوخ والارض ، والمدفع ، والاموات والاحياء .. كلها معان متلاحقة متآخية أوحت بتلك الظلال الانسانية التي تلفعت بها مأساة شعب لبنان واتحدت معها في صوفية عميقة .

ثم ارتدى الشعر القومي المعاصر حلة جديدة من العاطفة الانسانية حين لاح شبح الحرب مرة أخرى ولم يكد العالم ينسى ما عاناه من أهوال في الحرب الاولى. وقد عبر عدد من الشعراء في خلال تلك المحنة الشاملة عن أنبل العواطف وأحلى الاماني ، من ذلك ما يقوله محمد عبد الغني حسن (٢) :

---

(١) نكاد نلمس هذه الروح الوطنية المزمجرة في كثير من نماذج الادب المهجري وهي ليست كافرة بالشعب ولكنها تفور غضباً على ضعفه فتقذفه بالحمم علّه يفيق ، يقول جبران في العواصف ، المؤلفات الكاملة ٣ : ٤ ؛ (أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة) .

(٢) من نبع الحياة ١٠٧

ملأوا البلاد عداوة وخصاما ما ضر لو ملأوا البلاد سلاما
الله لا يرضيه أن شعوبه يتبادلون على العـداء سهاما

وحين أهل عام هجري جديد خلال تلك الحرب الاخيرة استقبله على محمود طه بهذه العاطفة وقال (١) :

غن للهجرة عاماً بعد عام وادع للحق وبشر بالسلام
كن بشير الحب والنور الى مهج كلمى وأكباد دوامي

ثم يشير الى أيادي النبي محمد على البشرية بقوله :

زلزل العالم من أقطاره بقوى الروح على القوم الطغام
وبنى أول دنيا حرة برئت من كل ظلم واثام
تسع الناس على الوانهم لم تفرق بين آرى وسام
حاطم الاصنام هل منك يد تذر الظلم صريعاً من حطام

وفي قصيدة « الصليب الاحمر » لعمر ابي ريشة تبرز ادواء البشر وطبائعهم في السعي وراء الاحتراب والتفاني حيث يقول (٢) :

في كل متكأ وكل وسادة جرح يسيل ودمعة تتحدر
عيسى طلعت على الوجود وليس في آفاقه إلا الشقاء الاكدر
هزوا بوجهك فاتكات حرابهم واستكبروا والله منهم اكبر

(١) زهر وخمر
(٢) ديوانه ٢٤١

فالقصيدة برغم أنها تصور مأساة البشر وجراحهم في تلك الحرب الطاحنة، تتضمن تنديداً بقوى الشر العاتية التي تقض مضاجع الشعوب الآمنة وفي جملتها أمة الشاعر. ونحن نجد هذه الظاهرة أشد بروزاً لدى أبي ريشة نفسه في قصيدة أخرى إذ يقول (١):

لم يزل شرّب النجيع سكارى يتبارون حوله عدوانا
ما ألانت قلوبهم أدمع الأيتام ـ أو هزهم أنين الحزانى
فضحاياهم تمور على الرمل ـ المدمّى وتعتلي صلبانا
كلهم في وليمة البغي يخشى أن يرى جوف غيره ملآنا
قل لتلك الحمائم البيض طيري فالخطايا تدفقت طوفانا

وقد انحسرت أمواج هذه الحرب عن نزعة إنسانية بارزة ظهرت جلية في نتاج عدد من شعراء الجيل الجديد تحول حدود البحث دون تناولهم ..

وهكذا وجدنا الشعراء العرب يرتفعون أحياناً بأحداث وطنهم الى مستوى إنساني رفيع ويعزفون على هذا الوتر حين كانت أهوال الحروب والمجازر البشرية تطغى على أحداث قومهم وبلادهم، وكأنهم في ذلك كانوا يتلفتون الى العالم يواسونه في محنته التي لم تكن في جوهرها إلا صورة مكبرة لمحنة أمتهم ووطنهم.

أما في أوقات السلم، فلم يكن العرب ينعمون بالسلام إلا غراراً لأن المستعمر كان يجثم فوق صدورهم والنضال من أجل إزاحته عن الوطن كان مستمراً بلا هوادة، ومع ذلك فقد يعثر الباحث على بعض النفحات الانسانية من خلال ثورة البراكين وغبار المعارك، على نحو ما قاله الكاظمي إبان الثورة السورية (٢):

---

(١) ديوانه ٧٣
(٢) ديوان الثورة ٣٧

الا قـوتلت يا إنسان ـ من هـذا تقـاتله
أليس أخاك من تردي وأختـك من تنازله
ألا عطف تنـاشده ألا عـدل تسائله
وفيم الانتداب إذا غلا بالفتك غائـله
يموت الطفل من جوع ويحيـا فيه قاتلة

وقد صدر أحمد شوقي عن شعور إنساني أصيل في نفسه حين انقض الطليان على برقة الآمنة كالوحوش الضارية ثم شنقوا زعيمها عمر المختار وهو شيخ هدت جسمه السنون فقال من قصيدته الرائعة (١) :

يا ويحهم نصبوا مناراً من دم يوحي الى جيل الغد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب مـودة وإخاء
جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمـراء

وثمة قصيدتان لبدوي الجبل وخليل مردم تحملان إسماً واحـداً هو (شهيد إرلندا) تعتبران نموذجاً لتعانق المشاعر القومية والانسانية ، فقد تطلع الشاعران الى بطولة شعب صغير يربض فوق جزيرته ويقاوم الاستعمار بلا هوادة ، وهزهما نضاله ، فتجاوبا معه بعد أن ألف الجرح بينهما وبينه . ومما قاله مردم في بطولة ذلك الشاب الايرلندي (٢) :

بنفسي أنت من هاد امام أنار لمدلج الأقـوام فجراً
ليهنك أن أهل الأرض إلب على أن يدركوا لذويك ثأراً
كأنك من ذوي قرباي لما رثيتك باكياً نظماً ونـثراً
ولكني بكل فتى كريم أخي ثقة عزيز النفس مغرى

(١) الشوقيات ٣ : ١٧
(٢) جريدة البرق عدد ١١٢٧ ، وانظر قصيدة بدوي الجبل في ديوانه ١٨٥

فقد وجد الشاعر في كفاح هذا الفتى وشعبه صورة حية لكفاح العرب وأخاً لهم في النضال المشترك ، وكانت أبياته تعبيراً عن التجاوب الانساني العميق بين أسرة الشعوب التي تؤلف بينهم رابطة الانسانية الشاملة .. وثمة قصائد أخرى من هذا القبيل عبر فيها أصحابها عن مشاركتهم بعض شعوب العالم في محنتها نشير من بينها الى قصيدة « الفتاة الحبشية » لاسكندر الخوري البيتجالي (١) التي تصور انقضاض قوى الطليان الناقمة على الحبشة الآمنة عام ١٩٣٥ ، وهذا التجاوب الانساني مرده أيضاً الى ابتلاء العرب والاحباش معاً بالعدوان الاستعماري .

وهذه أبيات لنسيب عريضة يخاطب فيها وطنه الامريكي الجديد في نيويورك وهي تمثل الجانب الايجابي من الاتجاه القومي ، وتعزف لحنها على وتر الاخاء البشري (٢) :

يا بنت مجد الغرب في العلواء اني ابن الشآم
يا جارتي قلب ودود ليس يرغب في خصام
يا جارتي لسنا على طرفي نقيض في المرامي
مجدي ومجدك واحد ما بين أمجاد الكرام
هو أن يسود الحق في دنيا المودة والسلام
هو أن يعيش الناس إخواناً على شرع الوئام
وأنا على عهد العروبة لن أزال الى الحمام
إن كنت بين الناطحات السحب أو بين الخيام

ومن هذا القبيل ما نظمه الرصافي في قصيدته يوم (سنغافورة) في الحرب الاخيرة (٣) وما نظمه علي محمود طه وسواه من الشعراء إشادة ببطولة ستالنجراد (٤) ثم ما كان أخيراً من تجاوب شعراء العرب على نطاق واسع

---

(١) العنقود ٩٥
(٢) ديوانه ٢٧٤
(٣) ديوانه ٤٧٣
(٤) زهر وخمر ٦٣

تعداهم الى شعراء العالم وأدبائه ، مع أبناء (هيروشيما) التي حل بها دمار وهلاك لم يعهدهما البشر من قبل .

وقد حرص الشعراء على أن يتجاوبوا من حين الى آخر مع مشاعر الشعوب الاخرى دون أن تربطهم بهم رابطة دين أو قومية أو جوار وإنما كانت العاطفة الانسانية وحدها مبعث تجاوبهم هذا ، فقد ايقنوا أن المأساة لا تقتصر على أمتهم فحسب بل تشمل سائر الامم بعد أن غدت البشرية المعذبة ضحية الظالم والعدوان .

٣

والملاحظ أن أكثر ما تتجلى العاطفة الانسانية في الادب العربي المعاصر لدى المهجريين بالدرجة الاولى ، حتى إن ذلك غدا من سمات هذا الادب شعره ونثره . ولشدما كان يؤذي مشاعرهم أن يعتدي الانسان على أخيه الانسان ويؤذيه ، وكانوا في ذلك متأثرين بعوامل شتى في طليعتها تعاليم المسيحية السمحة التي تبشر بالاخاء وتحض على التسامح ، ومنها نفورهم من الطائفية ومآسيها والاستبداد وقسوته ، ويضاف الى تلك الاسباب اتساع افقهم الاجتماعي في مهجرهم وتفتحهم للحياة الحافلة بأنماط من الاجناس والملل والنحل ، وعيشهم في بيئات جديدة تغاير ما عرفوه في الوطن الأم . ومن هذه البؤرة انطلقوا يستنكرون العنف ويستفظعون الحروب ويدعون للمحبة وينادون بالسلام كما راحوا يهدمون كل ما قد يباعد بين المرء واخيه فنددوا بالطائفية والاقليمية والعنصرية .

ولعل ادباء (الرابطة القلمية) في المهجر الشمالي ونخص منهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة في طليعة من بشروا بالفكرة الانسانية ورفعوا

لواءها عالمياً في الادب الحديث . فمن أراء جبران السائرة [1] : « الارض كلها وطني والعائلة البشرية عائلتي » ويجاريه نعيمة فيقول [2] « ما هو العالم العربي ؟ إنه نقطة في بحر الانسانية والانسانية نقطة في بحر الكون » . ومن المرجح أن صدور مثل هذه الآراء عن علمين كبيرين من ادباء المهجر وركنين بارزين في الرابطة القلمية كان له صدى بعيد لدى سائر أعضائها وفي طليعتهم إيليا أبو ماضي . فقد خفت الصوت القومي لدى هذا الشاعر فيما نظم من قصائد بعد دخوله في عضوية تلك الرابطة وإن لم يذهب في شعره الى المدى الذي ذهب اليه جبران ونعيمة في نثرهما . وهذا الانعطاف واضح في نتاجه منذ ذلك الحين في ديوانيه البارزين الجداول ثم الخمائل .

إن المقيم في أرض الوطن يلفحه أتون المعركة ويرى بأم عينه لهيبها يلتهم إخوة له ثم يعقد قوافيه من جذوتها ليس كمن يرقب الامر من بعيد ويخلو الى نفسه المطمئنة ويستقي من معين عقله وفيض ثقافته وفلسفته ، « وما راء كمن سمعا » . ومن هنا لم يعش بعض المهجريين حقائق قومهم من جميع وجوهها .

ونحن نجد في المقدمة الضافية التي وضعها الشاعر القروي لديوانه الكبير إشارة الى هذه الظاهرة التي نبه أمرها في المهجر وردا غير مباشر عليها ، إذ أن جماعة « نصحوه بالانصراف عن الشعر الوطني الى الشعر الانساني ليصير شاعراً عالمياً » فأجابهم : « هب أصاب من قال إني كان في وسعي أن أصير شاعراً عالمياً فاني لست بآسف أنني أحببت بلادي أكثر من نفسي ، وحاولت أن أن افتدي مجدها بمجدي وخلودها بخلودي [3] » .

---

(١) انظر دمعة وابتسامة ١٨٨ ، وانظر أيضاً مجموعة المؤلفات ٢ : ٢٢٧

(٢) انظر عبد الكريم الاشتر : النثر وفنونه في المهجر الشمالي ١ : ١٧٣ ، والعبارة من حديث شفهي لنعيمة معه

(٣) انظر مقدمة الديوان صفحة ز ن .

لقد كان عدد من ادباء المهجر ونقاده يربؤون بالادب شعره ونثره ان يعالج قضايا الوطن ويعيرون القروي وفرحات والوليد باتجاههم القومي في قصائدهم. وقد انبرى القروي في شطر من مقدمة ديوانه ومقدمة اعاصيره للدفاع عن مذهبه وتفنيد النزعة الانسانية المزعومة فقال [1] : « وما الشاعر الوطني الحمي في امة مستعبدة إلا الشاعر الانساني قبل اي شاعر سواه ، لان هذه المبادىء التي يسبح لها ويصلي في محرابها ويجاهد في سبيلها ليست معبودة وطنه فحسب بل معبودة الاوطان جميعا . ولعمري اية قيمة واي سرور ، واي فأل يجد المتبجحون بانسانيتهم المتخدرة في عالم لا حرية ولا حق ولا عدالة فيه » وقال [2] : « إن صراخ سورية وعويلها يكاد يقض مضاجع النائمين في المريخ ، ودخان غيظها يوشك ان يبطن القبة الزرقاء بقبة سوداء ، افتريدون منا ان نجترح المعجزات فنسمعكم همس الازهار وسط هذا الضجيج ونصور لكم الوان الشفق وراء هذا القتام ؟ .. وهبوكم لا تؤمنون بغير الارض وطناً وغير الانسانية عشيرة ، افتعتقدون ان الارض قد صارت جنة والناس فيها ملائكة ينعمون ... إن الذي يغضب لحق هضم في الصين اولى به ان يناضل لدفع حيف نزل ببلاده .. إن الحرية هي الحياة بمعناها الشريف ، وهي اول حقوق الانسان فهل من شروط حبكم للانسانية ان تنكروا الحياة على اقرب ابناء الانسانية اليكم ، افأنتم اكلف بالسلام من مسيح السلام ، اما غضب فانهال بالسوط على الصيارفة وباعة الحمام يطردهم من الهيكل غيرة على بيت أبيه ؟ » .

والحق ان هذه المقاطع من أقوى ما دافع به شاعر عن اتجاهه القومي وفند فيه تلك السلبية المتشحة بثوب الانسانية البراق .

على ان الشعر القومي ظل بصورة عامة معصوماً من هذه النزعة

---

(١) انظر مقدمة الديوان ص : ز ل

(٢) مقدمة الأعاصير ٤٧ - ٤٩

الانسانية السلبية ، كما ظل من الناحيه المقابلة بعيداً عن النزعات الاقليمية المتطرفة « ولم تستطع الدعوة الى الأخوة البشرية على ما فيها من نغمة عذبة جذابة ، ولا المذهب الاشتراكي الحر على ما فيه من قواعد معقولة ومقبولة ، أن يطمسا معالم القومية الجنسية أو يذهبا بالفوارق اللغوية والثقافية . فالعالم لا يزال مقسوماً الى إنجليز وألمان وفرنسيين وطليان وعرب وأسبان وما الى ذلك من أقوام وشعوب » (١) ومن جهة أخرى فان « القوميات لم تستطع مطلقاً أن تغلق الابواب على نفسها وتسد المنافذ على تحفز الانسان نحو الأفق الانساني ، كما لم تستطع التيارات العالمية سواء كانت أدياناً أم كانت مذاهب فلسفية أن تقضي على القوميات أو تمحو هذا التقسيم الذي قسم الله البشر على أساسه إذ جعلهم شعوباً وقبائل » (٢) . إن تطور البشرية وازدهارها يتمان على أساس نمو وحداتها التي هي القوميات نمواً ذاتيا من جهة ونمواً على أساس تعانقها وتوسيع الصعيد المشترك فيما بينها من جهة أخرى .

ويبدو أن سبب بروز هذه النزعة السلبية في الأدب الحديث حتى كادت تعزل دعاتها عن كفاح شعوبهم ، ظهور بعض القوميات العدوانية المتناحرة في أوربة واعتمادها على العنصرية المتطرفة والقوة الغاشمة في سبيل التوسع والاستعمار كما كان الشأن في النازية والفاشية ، في حين أن القومية المتفتحة المتآخية مع سائر القوميات نواة للانسانية المنشودة ، والقومية العربية لا يمكن أن تكون عدوانية لأنها نفسها كانت ضحية العدوان .

والشعر القومي الحديث لم يحمل في ثناياه أية بذور للقومية العدوانية أو العنصرية المغالية حتى في فترات انحرافه مع المذاهب الاقليمية الضيقة ، فهو في قوميته لم يكن ليتعارض مع الانسانية ، بل كان عوناً لها ومرحلة

---

(١) من مقالة الدكتور عبدالرحمن شهبندر ، الهلال ، نوفمبر ١٩٣٦

(٢) انظر محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٧

طبيعية في سبيل بلوغها . وثمة أبيات لخائيل خليل الله ويردي تعبر عن هذا التعانق الجميل بين العروبة وبين الانسانية يقول فيها [1] :

نحن قوم نريد عيشاً كريماً ولكل الورى نود النعيما
فاذا ضمت العروبة أبناء بلادي نلنا المرام العظيما
ومتى وحد الاخاء بني الدنيا – اتبعنا صراطه المستقيما

وهذه هي العروبة الحقة وكل قومية متفتحة ، إنها نواة للانسانية الشاملة المنشودة ، ليست عادية ولا مستعدية ، وليست متعالية ولا متعصبة . وإن التعاطف مع آلام البشر ، والتجاوب مع أحداث العالم ، صفات أصيلة في القومية المتفتحة لأنها غصن نضير من دوحة البشرية . وليس أجدر من الأدب بأن يحمل هذه الروح الانسانية الايجابية لأن الفنان إنسان قبل كل شيء ، ولهذا فاننا نكبر عاطفة « حافظ إبراهيم » تجاه أهالي مسينا حين نكبوا بالزلزال ، كما نكبر ثورة « برناردشو » على وحشية قومه في دنشواي [2] وتنديد « رومان رولان » بفظائع الانكليز في حرب البوير [3] لأن ضمير الانسان هو الذي تكلم في هؤلاء قبل أن يكون الواحد منهم عربياً أو انكليزياً أو فرنسياً .

إن ظروف الوطن العربي وابتلاءه بالاستعمار هي التي حدت من انطلاق شعرائه في أجواء العاطفة الانسانية الرحبة ، وفرضت عليهم أن يقدموا عليها الرسالة القومية . وإن السنين الطويلة التي عاشها العرب في نضال دائب جعلت شعراءهم ينهمكون في تصوير مآسي بلادهم وحفزهم أبناء قومهم قبل كل شيء آخر . ومع ذلك فقد كانت رسالتهم هذه تساير في مراميها الرسالة الانسانية ، لأنها تدعو الى إقامة العدل واعلاء الحق ، ورد الكرامة لكل

---

(١) ديوانه ٢٢٤
(٢) انظر مقدمة « جزيرة جونبول الاخرى »
(٣) راجع مسرحية « سيأتي الغد »

مواطن في أرضه ، وإعادة الحرية الى وطن وهو جزء من الوجود الشامل والى شعب هو عضو في أسرة الانسانية الكبرى .

من كل ذلك يتضح أن القومية المتفتحة والانسانية الحقة ليستا ضدين تقابل إحداهما الأخرى ، وان وجود إحداهما لا ينفي بالضرورة وجود الثانية ، لأن القومية الايجابية ليست سوى خلية فعالة في جسم البشرية .

إن الشاعر شأنه شأن أي فنـــان ليس بوسعه أن ينفلت من وجدان قومه وأن ينسلخ عن تراب وطنه . والقومية ليست جداراً يحجبه عن الانسانية وإنمـا هي قمة سامية يشرف من فوقها على آفاق الانسانية الرحيبة ، وإن إنسانية الأدب لا يمكن أن تعني إطلاقاً أن يتحلل الشاعـــر من أواصر الوطن ، ومن وشائج الارض ، ومن وجدانية اللحم والدم والتاريخ والمجتمع « ويخطىء من يظن أنه ليس في وسع الأدب والسمو الى افق الانسانية إلا بالابتعاد عن اللون المحلي أو القومي ، وربما كان العكس هو الصواب ، أي كثيراً ما كان الادب أصـدق إنسانية إذا كان أصدق قومية ، ذلك أن الابتعـاد المصطنع عن القضايا القومية والألوان المحلية يخرج الادب عن نزاهته وصدقه (١) ومتى استطاع الشعر أن يكون تعبيراً حياً عن تجارب أصيلة صادقـة ووجد فيه أي إنسان في اي مـكان نفسه وحقيقته فقد اكتسب الصفة الانسانية ، لان الفن الحق الاصيل لا وطن له ودو ملك لن يتذوقـه . وعلى هذا الاساس تروعنا إلياذة هوميروس والف ليلة وليـلة وسيرة الايام وعنترة ... على الرغم من بروز السمة القومية المحلية في هـذه الاثار الأدبية جميعاً .

وتعدد القوميات فى الأسرة الانسانية يعني في الوقت نفسه تنوعها وتعدد

---

(١) الدكتور أمجد الطرابلسي : من محاضرة « الادب العربي بين الادب القومي والادب الإنساني » ص ١٨٣ نشرت في مجموعة دار الكتب الوطنية بحلب عام ١٩٥٢

الوانها تبعاً لاختلاف بيئاتها ومشاربها وظروف حياتها ، إذ لكل قومية طبائعها وامزجتها وعقليتها وميولها واتجاهاتها . وبكلمة واحدة لكل قومية ذاتيتها وشخصيتها . والاختلاف فيما بينها أشبه بالفوارق الذاتية بين أفراد الأسرة الواحدة . وربما كان هذا أبرز ما يميز الجماعات البشرية من سائر الاحياء . وتبعاً لذلك كان لكل قومية أدب متميز يعكس شخصيتها وطبيعتها ويصور مطامحها وآلامها ومنازعها . وفي أدب العرب اليوم كما كان شأنه بالامس شعر يتدم بطابع ذاتي وخصائص مميزة . الا أنه في الوقت نفسه شأن كل أدب حي متطور لا يهمل السمات الانسانية العامة التي تلتقي على صعيدها سائر القوميات العاملة المتفتحة ، إنه أدب يموج بالحياة ويسهم في تنمية وإغناء النشاط الانساني الرفيع . وكما نجد في شعور كل فرد وجهين ذاتي وجماعي فلشعور كل جماعة أيضاً وجهان قومي وإنساني . والشعر خير ما ينبغي له أن يصور هذه المنازع الأصيلة في الذات وفي الجماعة على السواء .

إن النزعة الانسانية المصطنعة ربما أبعدت الانسان عن وطنه ، أما النزعة الانسانية الأصيلة فهي التي تربطه بوطنه ربطاً لا انفصام له . (١) وعلى هذا فالدعوة الى الاستقلال والمطالبة بالحرية ومكافحة الاستبداد اهداف قدستها الشعوب وباركت من بشروا بها . وقد كان لها في الأغلب وجهان قومي وإنساني معاً . وإن من الاعمال الأدبية الحديثة التي استلهمت من وثبة القومية العربية ما يحمل في طياته بذور الخلود والانسانية ويمكنه ان يتعدى الحدود ليجد فيه كل شعب طريقه الى الحرية مرآة لنفسه وإن أدبا كهذا ، دائم الاتصال بالقيم البشرية لا شك أنه جدير بالحياة » (٢) .

والشاعر بصورة عامة ، ونظراً لطبيعته المرهفة ونفسه الصافية نفور من

---

(١) انظر المرجع السابق
(٢) المرجع السابق

التباغض والخصام يشمئز من الدماء والحروب ، ويتفطر قلبه أسى للبؤس والشقاء ، فهو تواق أبداً الى إدراك الأهداف السامية التي تحقق لأمته ولسائر البشر ، العدالة والرخاء والسلام .

★ ★ ★

وجملة القول لم ينبجس الشعور القومي العربي صافيا في الشعر الحديث أول الأمر . فمنذ ولادته في نفوس العرب صحبته منازع أخرى أخذت تضفي عليه ألوانها حتى بات من العسير التمييز بينها وبينه ، بل استطاعت هذه المنازع في بعض الأحيان وبتأثير ظروف وعوامل تاريخية واجتماعية أن تطغى على الحس القومي السليم وتنحرف به عن الطريق السوي .

وعلى الرغم من ان الشعور القومي العربي اتسم في بعض الأحيان بصراع مع المنازع الأخرى مثل الجامعة الاسلامية والروح الوطنية المحلية ، إلا انه افاد منها كثيراً في تطوره وازدهاره ؛ فقد عزز الشعور الديني في كثير من الأوقات شعور العرب بعروبتهم ، وكذلك اكتسب هذا الشعور قوة بازدهار الوعي الوطني المحلي في بعض الأقطار العربية ، واتفقت ايضاً النزعة الشرقية ضد الغرب المستعمر في كثير من وجوهها مع الاتجاه القومي ، كما انسجمت النزعة الانسانية التي تدعو الى السلام وسعادة البشر وتحرير الانسان من العبودية مع الأهداف القومية الأساسية .

كل هذه الاتجاهات كانت اشبه بروافد مختلفة الألوان والطعوم انصبت على تيار القومية العربية فأكسبته غناء ومضاء .

وكان طبيعياً ان يأخذ الاتجاه القومي طريقه السوي بعد ذلك وان تتضح معالم القومية العربية بتأثير الاحداث الجسام التي تعرض لها العرب في تاريخهم الحديث وكانت كالنار تطرد الخبث من الحديد . « واما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

وقد عكس الشعر العربي الحديث على صفحته الرائقة مجمل ذلك الصراع والتطور والانحراف وعبر عن مختلف المنازع التي لازمت الشعور القومي خلال فترات معينة ، كما عبر عن تلك الشوائب التي علقت به حيناً من الدهر ثم انحسرت عنه .

وربما كانت مراحل هذا الصراع الفكري اشد بروزاً في النثر الحديث، لأن الشعر بحكم طبيعته يضيق بالجدل والصراع المذهبي ، ولهذا فان المضمون فيه ـ كما تبين لنا ـ لم يتسم بهذه الحدة التي عرفها النثر . والشعر اشبه بصفحة القمر الذي يعكس إلينا الاشعة اللاذعة المتوهجة معتدلة لطيفة ..

الباب الثاني

تيار القومية العربية

تمهيد

نشوء الفكرة القومية

ليس الارتباط بين أفراد القومية الواحدة ، إلا تعبيراً عن غريزة حفظ الذات الجماعية التي هي امتداد للتعبير عن غريزة الشعور بالأنانية في النطاق الذاتي للفرد .

وإذا كانت القومية بمفهومها البسيط تعني شعوراً مشتركاً بين جماعة من البشر بأن ثمة ما يجمعهم ويؤلف بينهم ليكونوا أمة واحدة متميزة عن سائر الأمم ، فان القومية بهذا المعنى عريقة في وجودها لدى الأقوام منذ فجر التاريخ وقيام المجتمعات المتحضرة . فهي تتمثل في الهنود والصينيين والآشوريين واليونان وغيرهم من الأمم التي كانت ذات قومية متميزة ، بعضها باد ليندمج في قوميات أخرى وبعضها ما زال قائماً .

« فالقومية بهذا المعنى شيء موجود في التاريخ باستمرار . وقد يشتد الشعور بها فتكتسب قوة تجعلها فعالة في التاريخ حتى لتطغى على كل علاقة أخرى تجمع بين الانسان والانسان . وقد تضعف فتظهر عليها قوى أخرى تكون أكثر فعالية وشدة ، فيتوارى الشعور بالقوميه لتحل محله روابط أخرى

ولكنه لا ينعدم بل يستكن في النفوس ويكمن في ضمير الأمة »[1]

ولقد كانت القومية العربية موجودة على هذا الشكل الباهت الغامض خلال عصور ما قبل الاسلام ، تغلبت عليها الرابطة القبلية فتوزع ولاء العرب نتيجة لذلك على عدد من شيوخ العشائر . ومما يؤكد وجود تلك القومية آنذاك ، الوجدان المشترك المتمثل في الشعر الجاهلي والأمثال والأساطير والحج والمعتقدات والعادات المشتركة وغيرها . وثمة مثل بارز على انطلاق المشاعر القومية من مكامنها في نفوس العرب حين قام الفرس بغزو بلادهم في معركة ذي قار ، فقد استيقظت المشاعر القومية لدى عدد من القبائل تجاه قومية أخرى عادية ، وكان ذلك إرهاصاً بوحدة العرب في ظل الاسلام .

ثم انتشر الاسلام بين قبائل العرب فآخى بينها ووضع حداً لتناحرها وتنابذها ، ووحدها في أمة تدين بالولاء لزعيم واحد من طينتها ، وكان الفضل الأول في ذلك للعقيدة الجديدة التي اعتنقها العرب فألفت بينهم وتغلبت على كل رابطة سواها .

وما حدث بعد ذلك أن الاسلام انتشر بين الترك والفرس والهنود وغيرهم ، وكان أن تقبلت هذه الأمم دين العرب ولكنها لم تتقبل قوميتهم ، ولذلك حافظت على كيانها ، وكانت من أبرز عوامل الاضطراب في الدولة الاسلامية ، لأنها كانت تنزع باستمرار الى الاستقلال بقوميتها في دولة ذات كيان متميز .

---

(١) انظر محمد منيف الرزاز في محاضرة له عن القومية ألقاها في الكويت .

وقد صور الأدب العربي القديم وبخاصة في العصور العباسية الصراع المرير بين العرب والفرس والدعوة الشعوبية ، كما صور من جهة أخرى الصراع بين العرب والترك والنعرة الطورانية . وقد وجدنا بوادر الفكرة العربية لدى أبي تمام والمتنبي وغيرهما ، وكان دعبل الخزاعي وعبد الله ابن المعتز من الشعراء الذين تصدوا بسليقتهم القومية السليمة للدخلاء والترك من مثل (وصيف ، وبغا ، وأشناس ، وباغر) ونددوا بتسلطهم على الحكم في العصر العباسي .

ومن ذلك يتبين أن الدين حتى في أزهى عصوره سواء أفي الشرق أم في الغرب لم يتمكن من التغلب على المقومات القومية للأمم ، وإن كان في الوقت نفسه عاملا فعالا في الكيان القومي المستقل لدى كل أمة . وقد بقي الاسلام - تبعاً لدوره العظيم في بث القومية العربية ومصاحبته إياها قروناً مديدة - مختلطاً لدى العرب بالمفهوم القومي حتى العصور الحديثة « حين تأثرت القومية العربية وسائر القوميات في الشرق بظهور القوميات الغربية وأفادت من تطورها وفلسفتها واهتدت بهديها ، ثم انصهر ذلك كله في الشعور القومي الأصيل النابع من ذات الأمة ، والذي اتخذ هذا المظهر العاتي البارز تجاه الاستعمار ، وشرعت تطرد الضباب من حولها وتخلع ثوب الغموض الذي كانت ترتديه قبل القرن التاسع عشر »(١) .

وقد انصهر التراث العريق الجوهري بالتفكير الغربي الحديث ، وحدث تفاعل امتزج بشخصية الأمة وظروفها الراهنة ، وتولد شعور قومي متميز لا بالقديم ولا بالأوربي وكان أبرز مظهر لهذا الشعور القومي مطالبة العرب بأن تعود الخلافة إليهم بعد أن استأثر بها الترك قروناً ، كما تجلى ذلك

---

(١) المرجع السابق .

فيما كتبه عبدالرحمن الكواكبي ونجيب عزوري وسواهما . » ولم تعد القومية مجرد رد فعل انطوائي سلبي ينتهي الى الرجعية والتعصب ، ولا رد فعل مقلد ينتهي الى إنكار الذات ، وإنما استحالت الى رد فعل واع تجاه الاستعمار وما ينطوي عليه من استعباد وكبت للحريات واستغلال للخيرات وزرع للنعرات الطائفية والعنصرية والطبقية . وأصبحت القومية العربية عقيدة إيجابية خلاقة لكيان أمة جديدة حديثة تقوم على أسس وطيدة ودعائم ثابتة من الاستقلال والتحرر الاقتصادي . هي في نشأتها وظروف نموها تختلف عن القوميات الغربية التي غدت عدوانية توسعية لأنها ترعرعت في ظل النظام الاستعماري [1] » .

وكان طبيعياً أن يفتقر المفهوم القومي خلال فترة من حياة العرب الحديثة الى الدقة والتحديد والوضوح شأنه في ذلك شأن كل مفهوم اجتماعي ، وقد رأينا في الفصول السابقة مدى تصوير الشعر الحديث ظاهرة اختلاط القومية العربية بالعقيدة الاسلامية والعاطفة الشرقية ثم بالنزعات الاقليمية الشائبة .

ومع أن الشعر القومي قد واكب نضال العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر فان الفكرة القومية لم تجد لنفسها مكاناً في الشعر الحديث إلا بصعوبة . فالعاطفة الوطنية في مصر كانت وحدها تطبع قصائد الشعراء منذ عهد البارودي وما قبله أيضاً ، دون أن تتسم تلك الوطنية بميسم القومية العربية ، كما كانت العاطفة الدينية طابع كثير من الشعر الوطني في العالم العربي .

---

(١) انظر المرجع السابق

ولكن عدداً من شعراء العرب وبخاصة في لبنان استطاعوا أن يكونوا في أذهانهم مفهوماً سليما للقومية العربية منذ ذلك الحين ، فكانوا رواد الاتجاه العربي . وقد أخذ شعور العرب بقوميتهم وعروبتهم يتميز ويقوى باطراد في أواخر العهد العثماني ، « وإن إلحاح عدد من الشعراء على لفظي العرب والترك ، وإيرادهما معاً وتوجيه الخطاب الى الفريقين على أنهما طرفان تهمهما قضية مشتركة لا أمة واحدة متماسكة قد انصهرت عناصرها في قومية واحدة ، إن هذا الالحاح إن دل على شيء فعلى أن الفكرة العربية قد شقت طريقها الى الامام ، وعلى أن الانفصال النفسي كان قد وقع فعلا بين الترك والعرب ، وعلى أن هذا الانفصال قد استقر فعلا وبصورة لا شعورية في نفوس الشعراء جميعاً سواء في ذلك من كان عربي الاتجاه أو عثمانيه »(١) من ذلك ما نراه مثلا في قول أحمد محرم(٢) :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأي شعب يساوى الترك والعربا

أو قول شوقي(٣) :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها

أو أمين ناصر الدين(٤) :

بني العرب والاتراك أين حمية يروع العدا منها اللظى المتسعر

---

(١) الدكتور أحمد الطرابلسي : شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٥١

(٢) ديوانه ٢ : ٤

(٣) الشوقيات ١ : ٣٠٥

(٤) صدى الخاطر ٢٥

والواقع أن الفكرة القومية نمت بشكلها الواعي ومفهومها الحديث في أذهان مثقفي العرب الذين كانوا منتشرين في الآستانة وباريس والمهجر نتيجة احتكاكهم بالقوميات الاخرى واتساع آفاقهم . ولقد كانت هذه الفكرة كامنة في نفوسهم تغشيها العاطفة الدينية المشتركة مع الترك ، إلا أن نموها السريع كان على شكل رد فعل تجاه القومية التركية المتطرفة (الطورانية) ؛ من ذلك ان احد غلاة الترك تعمد ان يردد على مسامع بعض العرب قصيدة تركية تنم عن تلك الروح المتعالية فيها تحد صارخ للعرب ولرسولهم معاً ، وما زال الامير مصطفى الشهابي يذكر احد ابياتها وهو (١) :

جد مز جنكيزخان عاقلدر بزم   جد مز جد الحسينه‌هم معادلدر بزم

ومعناه :

جدنا نحن جنكيزخان العاقل   وجدنا نحن معادل لجد الحسين

ومن هذا القبيل افتراءات جريدة (إقدام) التركية على العرب وتصرفات الترك الشائنة ضدهم مما كان له اسوأ الاثر في نفوس العرب وكان في الوقت ذاته خير موقظ لقوميتهم الكامنة .

ومنذ ذلك الحين ، وبعد ان قامت الحرب الكبرى يدخل الشعور القومي في طور جديد تزداد معه الفكرة العربية قوة واتضاحاً نتيجة لازدياد الوعي القومي من جهة ولانحسار المفهوم الديني والعاطفة الشرقية ، ولخروجها

---

(١) انظر كتابه محاضرات في القومية العربية ٦٤

ظافرة بعد ذلك من حومة صراعها مع النزعات الاقليمية الضيقة من جهة أخرى .

وامل أول ما نلاحظه في هذا الشعر الذي قيل منذ قيام الحرب الكبرى أن الفكرة العربية قد أفادت في نشأتها من الحركات القومية الأخرى التي كانت تقوم من حين الى آخر في الدولة العثمانية ، كحركات شعوب البلقان التي كان لها صدى في نفوس العرب فضلا عن صدى سائر الحركات الاخرى في أوربه .. وقد دلت بعض قصائد الشعراء آنذاك على هذا التأثر ، من ذلك قول إيليا أبي ماضي مخاطباً قومه (١) :

أبناء سوريا الفتاة تضافروا ... وخذوا مثالتكم عن البلقان
ما الترك أهل أن يسودوا فيكم ... أو تحكم الآساد بالظلمان (٢)

ولا يبعد أن تكون عبارة (سورية الفتاة) التي وردت في قوله من مظاهر تأثر الشعراء بعبارة (تركية الفتاة) وهي اسم الحزب الذي أسسه الترك وجاراهم فيه العرب بعد ذلك بتأسيس حزب آخر يحمل اسم (العربية الفتاة) . ونجد هذا الاتجاه أيضا في قصيدة أخرى لأبي ماضي يقول فيها (٣) :

أبناؤكم ، لهفي على أبنائكم ... يلهو بهم أبناء جنكزخان
ثوروا عليهم واطلبوا استقلالكم ... وتشبهوا بالصرب واليونان

---

(١) زهير ميرزا : إيليا ابو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٣٥
(٢) الظلمان مفردها ظليم وهو ذكر النعام .
(٣) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي ١٨٧

فهذا الفهم الصحيح للفكرة القومية عند أبي ماضي مرده إلى إدراك حقيقة الثورات القومية التي كانت تنشب في تلك الفترة ، مما جعله يجد أن قضية بلاده لا تختلف في جوهرها عن هذه القضايا القومية في شيء وليس مصادفة أن تنطلق البادرة التحررية الأولى قبل ذلك من البلقان نفسها حيث كان بعض الضباط العثمانيين من العرب والترك يعيشون في غمرة الشعور القومي اللاهب ويتشبعون بروحه الثورية حتى آل بهم الأمر عام ١٩٠٨ الى زحفهم الشهير على الآستانة وإكراههم السلطان على إعلان الدستور وإطلاق الحريات العامة .

ويشير أبو ماضي أيضاً الى ظاهرة القوميات التي تعاظم شأنها في العالم ويعجب أن يرى العرب بعيدين عنها فيقول (١) :

أدركت غاياتها كل الشعوب   نهض الصين وما زلنا نيام

وعلى هذا الصعيد القومي ينظر أبو ماضي الى حكم الترك للعرب فيرى فيه تحكماً للاقلية في الأغلبية (٢) :

الى كم يحصرون الحكم فيهم   وكم ذا يبتغون بنا احتكاماً
ألسنا نحن أكثرهم رجالا   إذا عدوا وأرفعهم مقاماً

كما يقول (٣) :

متى كان جنكيز لقحطان سيداً   فيمسى بنو هذا لذاك مواليا

---

(١) المرجع السابق ١٥٦
(٢) المرجع السابق ١١١
(٣) المرجع السابق ١٩٩

والملاحظ في البيت الأخير والذي قبله أن روح الاعتداد بالعروبة أخذت تشتد في الشعر العربي وتتسم في هذه المرحلة من نشوئها بشيء من التعالي اقتضته غطرسة الترك . ومن جهة أخرى فان الكثيرين من الشعراء العرب المسلمين لم يكونوا آنذاك يصدرون عن مثل هذه الآراء ، فقد كانت غالبيتهم ترى في ثورات البلقان حركات هدامة تهدف الى إضعاف الامبراطورية العثمانية وتشكل خطراً على دولة الخلافة وعلى الاسلام نفسه . بل إن عدداً كبيراً من العرب لم يكن آنذاك يستشعر خطراً من جراء تحكم الترك به لأنهم كانوا في نظره مسلمين ، وليس من ضير في أن يرئس المسلمين مسلم وإن كان غير عربي .

إلا أن إعدام جمال باشا أحرار الشام إبان الحرب الكبرى كان نقطة تحول في مشاعر العرب القومية ، إذ فتح هذا العمل الطائش أعينهم على أن الدين وحده ليس بوسعه أن يؤلف بين عنصري الامبراطورية المتداعية ، وأنه ليس ما يحول دون استقلال كل عنصر في دولة متميزة . وقد أدرك الشعراء مغزى هذا التنكيل وأشاروا الى أن ذلك يرجع أولا وأخيراً الى نزعتهم القومية الخالصة وأن هذا الانتقام هو ذروة الصراع بين القوميتين الرئيسيتين في الدولة العثمانية . وهذا بشير عوت يعبر عن ذلك في صدد رثائه لعمر حمد أحد الشهداء الذين بطش بهم السفاح يومذاك (١) :

ذهبوا في حب أمتهم شهداء الفضل والشيم
ذنبهم في الدهر أنهم عرب للترك لم تنم

---

(١) ديوان عمر حمد ٨٦

وير د الزهاوي القضية الى جوهرها القومي إذ يقــول في قصيدته « النائحة »[1] :

لعمرك ليس الأمر ذنباً أصابه قصاص ، ولكن يعرب ومغول

كما يعبر عن الفكرة نفسها فيما بعد محمد المدني ذاكراً أولئك الشهداء[2] :

وما وزرهم إلا إباء نفوسهم وأنهم عرب فيا حبذا الوزر

وقد ضرب (أتاتورك) بعد الحرب الأولى مثلا صارخاً للعرب وسائر شعوب الشرق في الانتفاضات القومية وبناء الدول على أساس قومي حديث ، وفي ذلك يقول شكر الله الجر معجباً بذلك البطل القومي[3] :

ومن كان كالغازي فما ضل ناهج مناهجه أيان بالشعب يمما
فما أجمل الاسلام بالشرق لو مشى على خطوات (المصطفى) مترسما

كما صدر محمد الشريقي عن هذا الاتجاه بصوره أوضح في تأثره بالانتفاضة القومية التركية والايرانية فقال مخاطباً سعد زغلول[4] :

إن العروبة يا زغلول قائدنا فاجهر كما جهر الأتراك والعجم
وامدد يديك وصافح كل من نطقوا بالضاد يقبل عليك القوم كلهم

---

(١) رفائيل بطي : الشعر العصري في العراق ١٨
(٢) اللهيب ٣٢
(٣) الروافد ٣١
(٤) ديوان الثورة ٤٠

والشاعر نفسه يوضح ما رمى اليه ويقول «جهر الترك بالجامعة التركية ... وقد سلك الفرس هذا الطريق عينه في نهضتهم الجديدة» .

ثم انطلقت الفكرة القومية من صميم ظروف العرب وحياتهم وراحت تنمو في نفوسهم باطراد على هذا الأساس الحديث الذي وجدته في بعض القوميات التي عاصرتها وشابهتها في ظروف ولادتها ونشأتها والتي كانت بمثابة الجداول التي ترفدها وتزيدها صقلا وجلاء . وقد عبر فوزي المعلوف عن هذه الرغبة الملحة التي كانت تعتلج في نفوس العرب وتحفزهم الى قوميتهم العتيدة (١) :

فلتحي قومية كانت لنا نسباً ... يضم اشتاتنا ما فاتنا النسب
ومن يكون بلا قوم يدل بهم ... فلا يشرفه دين ولا لقب

كما أدرك حافظ ابراهيم في «عمريته» منذ نهاية الحرب الكبرى أن تصدع القومية العربية كان السبب المباشر في انهيار مجد العرب بعد أن تحكمت فيهم العناصر الأجنبية (٢) :

واها على دولة بالامس قد ملأت ... جوانب الشرق رغداً من أياديها
والله ما غالها قدماً وكاد لهـــا ... واجتث دوحتها الا مواليهـــا
لو انها في صميم العرب قد بقيت ... لما نعاها على الايام ناعيها

وهكذا استعرت المشاعر القومية في نفوس الشعراء على نطاق شامل ، وأخذت فكره العروبة تشق طريقها بقوة في الشعر الحديث ، حتى غدت مبدأ

---

(١) ديوانه ٣٠
(٢) ديوانه ١ : ٧٧

يدين به الادباء وعقيدة يعتنقونها وينافحون عنها .. من ذلك ما نجـده في قصيدة تصدى بها الرصافي لشكري غانم وبعض اللبنانيين الآخرين الذين لم يتورعوا عن اعلان تبرئهم من العرب والعروبة (١) :

وهل حسبوا ان العروبة في الورى　　من العر حتى انكروا ذلك العرا

بل غدت العروبة هدفاً متقدماً يستعذب الموت في سبيله كما قال ابو ريشة في صدد اشارته الى نضال بلاده (٢) :

هل ترى فوقهـا سوى كل حر　　يقحم الموت في سبيل العروبة

وكان اول ما خاضه الشعر الحديث الذي بشر بفكرة العروبة تلك المعـارك الجدلية على الصعيد الفكري والعاطفي ضد الطائفية الدينيـة المستعصية والنزعات الاقليمية المنحرفة . ومع ان معالم الطائفيـة والتعصب كانت اوضح في لبنان منها في سائر بلاد العرب بنتيجة عوامل استعمارية ورواسب اجتماعية ، فمن الحق ان نقول ايضاً (كما سيتضح بالتفصيل في فصول قادمـة) ان شعراء لبنان ونخص المسيحيين منهم والذين عاشوا في المهجر كانوا حرباً شديدة على هذا الانحراف القومي ، فقد اتخذوا من القومية العربية عقيـدة لهـم وراحوا يبشرون بها بحرارة وايمـان ، وفي ذلك يقول محبوب الخوري الشرتوني (٣) :

قالوا تحب العرب قلت احبهم　　يقضي الجـوار عليّ والارحام

---

(١) ديوانه ٤١١
(٢) ديوانه ١٦٠
(٣) ديوانه ٨٢

قالوا لقد بخلوا عليك اجبتهم ... اهلي وإن ضنوا علي كرام
قالوا البداوة ، قلت اطهر عنصر ... صفت القلوب هناك والأجسام
ومحمد بطل البرية كلها ... هو للأعارب اجمعين إمام

فالشرتوني يعتز بمحمد اعتزاز المسلمين به ويعـده القائد الاول للعرب كافة . كما يعـتز الشاعر القروي بعروبته حتى يبلـغ حد التقديس (١) :

اني على دين العروبة واقف ... قلبي على سبحاتها ولساني
إنجيلي الحب المقيم لأهلها ... والذود عن حرماتها فرقاني

ولا ريب ان غلبة روح الجدل والمنطق على الفكرة القومية لدى شعراء لبنان في اوائل عهدها واتسامها بطابع التحدي في بعض الأحيان يعود الى وجود بؤر تنكر العروبة كما تبين لنا ذلك في حديثنا عن النعـرة الاقليمية ، ولذلك قل" ان نجد هذا الطـابع فيما نظمه سائر شعراء الاقطار العربية . وهذه المرحلة من نشوء الفكرة القومية امر طبيعي في الشعر الحديث شأن كل دعوة جديدة تحاول ان تشق طريقها الى الأذهان . ولنا في الدعوة الاسلامية خير مثل على ذلك نلمسه جلياً في سور القرآن المكية وفي خطاب الرسول عليه السلام ومواقفه .

ومن اطرف ما سجله الشعر الحديث من مظاهر ازدهار الفكرة القومية وتعاظم شأنها ، ان عدداً من الشعراء حاولوا ان يطبعوا الانبياء المرسلين بالطابع القومي فضلا عن رسالتهم الدينية والانسانية المقدسة . من ذلك مثلا قول ابي الفضل الوليد (٢) :

---

(١) ديوانه ٤٢١
(٢) الانفاس الملهبة ١٣٢

كان الرسول حجازياً بمولده ... فشرف الشام لما زار غسانا
وكان عيسى شآمياً فما وطئت ... رجلاه ارباض يونانٍ وروماناً

وقد رأينا الشاعر القروي أيضاً ينظم قصيدة قومية يناجي فيها السيد المسيح ويعتبره «السوري الأعظم» ثم يقول [١] :

أنت يا ابن الله سوري صميم ... أفناس يا ترى أم تتناسى

***

وبعد أن تخف وطأة التأثر والاقتداء بالقوميات الاخرى ، وتنحسر موجات الطائفية والاقليمية عن المجتمع العربي ، ويبدأ الشعر المعاصر بالتخلص من تلك الظواهر السلبية ، يتجه الشعراء الى إبراز المقومات القومية بروح إيجابية بناءة ويأخذون دورهم القيادي في الدعوة الى الفكرة القومية السليمة على أسس وطيدة مستمدة من طبيعة أمتهم العربية ومستوحاة من النظريات الاجتماعية والمفاهيم الفكرية الحديثة .

وهذه الاسس والمقومات التي حام حولها الشعراء وجعلوا منها محور مضمونهم الشعري تتركز في النواحي التالية :

وحدة الاصل العربي ـ وحدة اللغة العربية ـ الماضي المشترك ـ الآلام والآمال المشتركة ـ الوحدة العربية .

وهذه ليست في جوهرها إلا العناصر الرئيسية للاتجاه القومي العربي في الشعر الحديث .

---

(١) ديوان ٤٣٩

الفصل الأول

وحدة الأصل

العرب من أشد الأمم تمسكاً بالأنساب ورعاية لها ، وقد تجلت هذه الظاهرة بشكل بارز في أدبهم القديم وبخاصة في شعر الحماسة والفخر .

ويبدو أن تلك الظاهرة سرت الي العرب المعاصرين فحاولوا بعثها بشكل جديد في أمتهم باعتبارها إحدى الروابط القومية التي تشيع الثقة والاعتداد في نفوسهم وتوحي إليهم بأنهم أحفاد أولئك الأبطال الذين حملوا شعلة الحضاره قروناً مديدة وكانوا سادة العالم في القرون الوسطى .

وربما كان الشعر في مقدمة الفنون استجابة لابراز رابطة النسب القومي والاعتزاز بوحدة الأصل وقد رأينا أن القصائد التي عكست ما ظهر في المجتمع العربي من نزعات قومية ضيقة كانت ترتكز في جوهرها على إيجاد رابطة قرابة وشيجة مع الفراعنة أو الفينيقيين أو سواهم ممن اعتبرهم بعض الشعراء أجداداً لهم . والواقع أن طبيعة الاتجاهين واحدة سواء ما كان منها متعلقاً بالانتساب الى العرب أو بمن سبقهم من الأمم الغابرة .

ومن المسلم به علمياً أن النسب المادي الدموي (١) مع الشعوب القديمة

---

(١) يعد Gobineau في كتابه « عدم المساواة بين الاجناس البشرية » من أبرز دعاة النظرية العرقية التي أخذ بها الالمان وأقاموا عليها النازية فيما بعد ، وقد ذكر بيير روتوفن « إن علماء الحياة برهنوا منذ زمن طويل على أن فكرة العرق إنما هي ضلال ، وأنه لا يوجد في أوروبة عرق نقي ، وبالتالي أن فكرة العرق في الحقل العلمي ليس لها قيمة » انظر كتابه « تاريخ القرن العشرين » ترجمة الدكتور نور الدين حاطوم ص ٢٩٧ .

والأجناس الأصلية لم يعد له اليوم وجود بين البشر نتيجة التمازج الكبير الذي تم بينهم على مر العصور . وعلى هذا ليس من أمة تستطيع اليوم أن تدعي لنفسها قرابة صافية مباشرة مع عرق من العروق أو شعب من الشعوب . وليس ذلك مما يغير الشعور القومي في شيء لأن النسب المعنوي كثيراً ما يفوق النسب المادي بين الجماعات . وقد رأينا الشعوب الناهضة تشيد كيانها وتبعث قوميتها بالاعتماد على الأواصر الثقافية والروحية والتاريخية .

ومع ذلك فاننا ما زلنا نرى عدداً ولو ضئيلا من الشعراء المعاصرين ينهجون نهج القدماء في الاعتماد على رابطة النسب الحقيقي من بينهم مثلا الشاعر المصري محمد عبد المطلب الذي « كان عربي النشأة والمولد والبيئة معتزاً بنسبه هذا كل الاعتزاز وكان شديد العصبية لسلف هذه الامة وقوادها وعلمائها ومؤلفيها »(١) وهو يرجع بنسبه الى جهينة ويتيه بها في شعره إذ يقول(٢) :

وأنا ابن الصيد من أنكرني ... ينكر الليث إذا ما انتسبا
من أبيين كرام ضربوا ... فوق هاتيك المعالي قببا
وكفاني من فخاري نسبة ... جمعت في طرفيها العربا

وهذا علي الجندي ينسج أبياته على هذا المنوال ويزهى بنسبته العريقة(٣) :

بني الجزيرة تهفو نحوكم كبد ... تهوى على الحضر القيصوم والضالا
لست الغريب فلي قربى ولي نسب ... إلى ربيعة ما حالت ولا حالا
إن كان كندة أعمامي أتيه بهم ... فان لي في بني شيبان أخوالا

وليس هذا التفاخر من باب المجاز لأن الشاعر نفسه يعلق على قصيدته مؤكداً أن آباءه كنديون وأجداده لأمه من بكر وائل من ربيعة . ومع أن شعراء آخرين منهم محمد العدناني في فلسطين وبعض الشيعة في العراق كانوا حريصين على عقد روابط مماثلة مع آل البيت أو مع سواهم من العرب

---

(١) عمر الدسوقي : في الادب الحديث ٢ : ٣٠٦
(٢) المصدر السابق ٢ : ٣٠٨ (٣) أغاريد السحر ١٣٥

الأقدمين فان هذه الظاهرة تبقى محدودة في الشعر الحديث لا تعدو النطاق الفردي، وهي بالتالي لا تصلح لأن تكون رابطة قومية اجتماعية تشمل العرب جميعاً. وكل إشارة في الشعر الحديث الى الأجداد أو الأحفاد لا تعدو أن تكون رابطة معنوية برغم ظاهرها المادي كقول حافظ إبراهيم عن سورية ومصر (١) :

أم اللغات غداة الفخر أمهما　　　وإن سألت عن الآباء فالعرب

أو قول محمود غنيم (٢) :

إن تسألوا عني الى من أنتمي　　　فالى رعاة النوق والأغنام

وحين يقول محمد علي الحوماني مثلا عن السوريين إنهم (٣) :

عرب الأحساب والدهم　　　يعرب والجـد قحطان

فهو يعني في الحقيقة نسباً جماعياً استدعته الروح القومية المتوثبة، وما جعل (يعرب) والداً و (قحطان) جداً إلا تعبير أريد به مدلوله الواسع والرابطة المعنوية؛ إذ أن يعرب وقحطان برغم الشك في ثبوت وجودهما التاريخي أصبحا في مخيلة الشعراء مجرد رمز للأصل العربي العريق.

وشبيه بذلك ما قاله أبو ماضي وقد أشار الى انتساب العرب الى قحطـان وما يقابل ذلك من انتساب الترك الى جنكيزخان (٤) :

ومن كان قحطان أباه فانه　　　له الصدر دون العالمين أو القبر
وإن بني قحطان إذ جد جدهم　　　لأعظم من أن يستنيم بهم حر

---

(١) ديوانه ١ : ٢٦٨　　　(٢) ديوانه ٩٧
(٣) ديوانه ٢٨
(٤) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٩٩

أو قول الشاعر العراقي أحمد الهندي مستغيثاً لفلسطين (١)

يا لقحطان أين تلك الحمية　　　أين آثار روحنا العربية

وكثيراً ما كان الشعراء يعتبرون أنفسهم ومواطنيهم أحفاداً ليعرب أو قحطان أو عدنان كما فعل خير الدين الزركلي حين عمد الى استنهاض قومه لمقاومة دخول المستعمرين الى بلاده باسم الوصاية والانتداب (٢) :

أسليل يعرب طال منك تريث　　　حتام تلبث لاهياً حيرانا
إن كنت من عدنان فاسلك نهجه　　　وإذا جبنت فلست من عدنانا

ومن هذا القبيل ما نجده من شعر كثير نظمه الشعراء المعاصرون اعتزازا برابطة النسب العربي ووحدة الأصل كقول الصافي النجفي (٣) :

أنا عربي وحسبي بذا　　　جواباً يعظمه سائلي
فآبائي الصيد من هاشم　　　وأخوالي الغر من (عامل)(٤)

وقول أبي الفضل الوليد مشيراً الى القرابه بين أهل الشام والعراق (٥) :

الشام أخت للعراق وفيها　　　نور العروبة للضليل الناشد
أهلوهما أبنا عم كلهم　　　عرب بآداب لهم وعوائد

(١) الفلسطينيات ٣١
(٢) ديوانه ٥٥
(٣) ألحان اللهيب ٢٩
(٤) عامل : جبل فى لبنان أكثرية أهله من الشيعة ، وأصل الكلمة عاملة ، وهي قبيلة نزلت تلك المنطقة فعرفت بهذا الاسم ، والنجفي شاعر شيعي المذهب من العراق .
(٥) نفحات الصور ٥٦

فالقرابة في جميع هذه الابيات أقرب الى أن تكون رابطة معنوية برغم ما يؤثره الشعراء من عبارات النسب الحقيقي ، وما يجرون عليه من إطلاق الألفاظ التي تشير الى قرابة الدم والتي تتردد في نطاق الأسرة الواحدة من نحو اعتبار قحطان أو عدنان أو يعرب جداً أو أباً للعرب وكون هؤلاء أحفادا أو أبناء لهم ، أونحو اعتبار الشعوب العربية إخوة أو أشقاء أو أبناء عم .. الخ .

ويعد إلياس فرحات من أشد الشعراء حرصاً على استمرار وحدة الأصل في شبان الجيل الجديد من عرب المهجر الذين نشأ فيهم داء التفرنج ، وأبرز ما قاله في هذا الموضوع قصيدة أسماها « نحن عرب وأولادنا إفرنج » (١) :

لا تقولوا مالنا والعرب كي	تضربوهم مثلا يا شعراء
إنهم أجدادنا بالرغم من	قائل إنا من العرب براء
إنهم أجدادنا إن شرفوا	أو دنوا فالدم لا يصبح ماء
هبهم الشوك فهل من وردة	تنكر الشوك لترضي الكبرياء

ولا نعتقد أن الشاعر يعني بأن القرابة بين العرب المعاصرين وأجدادهم القدماء تقوم فعلا على رابطة الدم ، فالمرجح أنه أراد بذلك مجرد قوة ارتباط العرب بأسلافهم ، كما أن المثل الشائع الذي مفاده (أن الدم لا يصبح ماء) هو الذي أملى عليه هذا التعبير على الصعيد العربي الشامل .

وقد لقي المسيحيون العرب في بعض الظروف والبيئات شيئاً من الحرج بسبب اختلاط الاسلام بالعروبة في الأذهان ، وكان المستعمر يزيد الامر تعقيداً عن طريق بذر بذور الطائفية وإيهام المسيحيين في لبنان وبخاصة (الموارنة) بأنهم ليسوا من العرب ، وكان جميلا أن تتغلب النزعة القومية الأصيلة على هذه الأباطيل ، بل كان أجمل من ذلك أن نرى الشعراء

(١) ديوانه ١٩٧

المسيحيين أنفسهم في طليعة المعتزين بالعروبة وأوائل دعاتها من أمثال رشيد سليم الخوري وإلياس فرحات وفارس الخوري والأخطل الصغير ونقولا فياض ومحبوب الشرتوني ووديع البستاني ونصرة سعيد وكثيرين غيرهم ، وفي ذلك يقول واحد منهم هو اسكندر الخوري البيتجالي الذي يعلو بالرابطة الوطنية والقومية على كل رابطة سواها (١) :

قبل المسيح وأحمد كنا وما زلنا عرب
كانت وما زالت لنا أوطاننا أماً وأب
لا دين يجمعنا سوى دين المحبة والنسب

كما لم تمنع مسيحية شاعر كبير مثل رشيد سليم الخوري او يرى في أعلام الاسلام خير ذخر للعرب والانتساب اليهم أشرف انتساب :

أزيد أعظم من أبي بكر ومن عمر إذا انتسب الكرام ومن علي

ولا يخفى أن الغساسنة مثلا كانوا من القبائل العربية التي بقيت على نصرانيتها وعرفت بصدق عروبتها وأصالتها ، وان المسيحيين في لبنان وفي سواه كانوا بناة النهضة العربية ورواد الوعي القومي .

ومهما يكن من امر وحدة الأصل العربي للعرب المعاصرين وسمتها المادية او المعنوية فقد حظيت من الشعراء باهتمام كبير كان عاملا لا مندوحة عنه في بعث الشعور القومي الكامن في النفوس ، وفي إحكام اواصر القربى بين الأحفاد والأجداد . وربما كان الشعر العربي ـ قديمه وحديثه ـ فريداً في هذا الامر الذي تجلى من خلاله حرص العرب على النسب العريق ووحدة الأصل القومي .

---

(١) العنقود ٦١

الفصل الثاني

اللغة العربية

ورد في تاريخ ابن عساكر الحديث النبوي التالي للرسول محمد عليه السلام:
« يا ايها الناس إن الرب واحد ، والاب واحد ، ليست العربية بأحدكم من أب ولا ام ، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

وهذا الرأي ينسجم مع النظرية الحديثة للقومية ، التي تجعل رابطة اللغة في رأس مقومات الأمة . والواقع ان امماً عديدة اعتنقت الاسلام وكانت العقيدة الدينية قاسماً مشتركاً بينها جميعا . ولكن الصفات المشتركة للامة العربية بقيت مقصورة على البلاد التي تتكلم اللغة العربية ، في حين احتفظت سائر الامم الاسلامية كالترك والفرس والهنود بقومياتها الخاصة ايضاً تبعاً لاحتفاظها بلغاتها .

واللغة وسيلة للتفاهم ، توثق العلاقات الاجتماعية بين الافراد ، وتقرب بين مفاهيمهم وانماط تفكيرهم ، وتحمل اليهم تراث الاجداد ، وتودع في نبراتها سماتهم المميزة ووجدانهم الجماعي المشترك . وقد قدم لنا التاريخ امثلة كثيرة على اندثار امم او انصهارها في امم اخرى نتيجة اندثار لغاتها او اقتباسها لغات اجنبية عنها.

وما من ريب في ان التعاطف بين المتكلمين بلغة واحدة يزداد قوة وإحكاماً ولو كانوا امتين مختلفتين. والاستعمار بذكائه يدرك هذه الحقيقة ويتصدى بلا هوادة لمحاربة اللغة القومية ساعياً بوسائل شتى الى فرض لغته على الامم المستضعفة ومحو كيانها تمهيداً لدمجها به وابتلاعها. والامة التي تستطيع الاحتفاظ بلغتها إنما تمسك بمفتاح شخصيتها. إن وحدة اللغة تقتضي تقارب الميول وتشابه المنازع تبعاً لوحدة المشرب والثقافة، لان اللغة في واقعها تجريد للأفكار. وكما قال احد علماء الاجتماع «ان التفكير هو التكلم سراً، والتكلم هو التفكير جهراً».

واللغة العربية فضلاً عن كونها اقوى الدعائم القومية عند العرب فهي ايضاً اقوى عناصر الثقافة العربية. كما تمتاز بأنها لغة عالمية منذ قرون ولغة حضارة إنسانية عريقة. ولقد كانت على الدوام موضع تقديس المسلمين كافة على اختلاف قومياتهم لانها لغة اختارها الله لدينه ونزل بها قرآنه وتكلم بها رسوله. وهي موضع عناية ودراسة الكثيرين في الهند والباكستان واندونيسية والافغان، وبحروفها كتبت التركية وما تزال تكتب الفارسية والملايوية والاوردية (١).

اما الجانب القومي المحض في لغة الضاد فيتجلى في كونها لغة العرب القومية وعماد شخصيتهم المتميزة ولسان أجدادهم القدماء منذ ما قبل الاسلام وحاملة تراثهم وناقلة تاريخهم ومعقل كيانهم، ومن هنا كانت هي السمة الاولى التي تميز بها جميع العرب مسلمين ومسيحيين من سائر الامم. ومع ذلك فان الجانب الديني الاسلامي في لغة العرب لا يمكن ان ينفصل عن الجانب القومي العربي لأن الرسول نفسه كان عربياً قبل ان يبشر برسالته ولان الاسلام كان دين العرب وهم الذين حملوه الى العالم بلسانهم، كما ان القرآن كتابهم الاول وحصن لغتهم الامنع.

---

(١) انظر محمد المبارك: الامة العربية ٢٠٤

أ

على أننا اذا استقرينا اكثر ما قيل من شعر حول اللغة العربية من الزاوية القومية بدا لنا ان سمات التفاخر باللسان الضادي وعظمته والتغني ببلاغته وفصاحته كانت غالبة على قصائد الشعراء وبخاصة لدى شعراء الرعيل الأول في عصر الانبعاث من مثل شوقي وحافظ والرصافي ومصطفى صادق الرافعي وأبي الفضل الوليد. وقد عبر أمير الشعراء عن ذلك الجمال العلوى الذي خص الله به لغة الضاد فقال (١):

إن الذي ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره في الضاد

كما كانت أرجوزة شوقي المطولة « دول العرب وعظماء الاسلام » مفعمة بروح الزهو والاعتداد تجاه ما امتازت به العربية من سمات الروعة والأصالة. فقد أشاد أمير الشعراء منذ أبياتها الأولى باللسان العربي وأثره في إقامة حضارة العرب، كما أشاد خلالها بفصاحة هذا اللسان وبأن الله اختاره لكتابه الكريم. وقد توسع شوقي في مفهوم اللغة العربية وأورده بمعنى تراث العرب وثقافتهم. ولكن لجوءه باستمرار الى حث العرب على الاغتراف من معينها بعبارات من النوع الطلبي الانشائي جعل أرجوزته تلك في بعض مقاطعها أقرب الى المواعظ الباردة منها الى الشعر القومي الحار.

ونرى الشيخ عبد الحميد الرافعي يزدهي بعبقرية هذه اللغة ويتغنى بسحرها في نشوة بالغة (٢):

---

(١) الشوقيات ١ : ١٠٥

(٢) انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية ١ : ٩٨

شنف بذكر مفاخر العربان سمعي وأنعش خاطري وجناني

أما أبو الفضل الوليد فقد كاد هيامه باللغة العربية يبلغ مرتبة الوجد (١):

ألا يا حبذا لغة تصبت فؤادي في الغدو وفي الرواح
اذا لفظت كألحان المثاني وإن خطت كأزهار الأقاحي
بها كتبت صحائف خالدات فما صرف الزمان لها بماحي
طربت لسمعها طفلا وإني لتطربني وقلبي لا نفتاح

ويطول بنا الأمر لو رحنا نستقصي ما قيل في موضوع الاعتزاز بلغة العرب وبيانها المشرق ، ويكفي ان نشير الى ان هذه الظاهرة ليست في جوهرها الا مظهراً بارزاً للاعتزاز بالعروبة نفسها باعتبار هذه اللغة أقوى اسسها وأهم مقوماتها . ومن العوامل التي ساعدت الشعراء على أن يولوا اللغة العربية اهتمامهم البالغ في هذه المرحلة من تكون الشخصية العربية طول صحبتهم لها وغوصهم على أسرارها وإدراكهم لمكنون جمالها فلا عجب أن يطربوا لسحر نبراتها وينتشوا بجرس ألفاظها لتغدو آخر الأمر جزءاً حياً من كيانهم ووجودهم ورمزاً أصيلاً لتراثهم وثقافتهم ،وموئلاً عذباً لأفكارهم ومشاعرهم .

٢

على أن الظروف السياسية والاجتماعية الحادة التي طرأت على العرب خلال الفترة المبكرة من نهضة مجتمعهم المتحفز فرضت عليهم ان يخوضوا معركة اللغة القومية في غمار معركتهم الكبرى معركة دعم الكيان العربي

(١) ديوانه : الانفاس الملهبة ٨٣

وتوكيد ذاته وتقرير مصيره . فقد ألمت بلغة العرب في هذه المرحلة من حياتهم الحديثة محن شديدة وأزمات حادة كانت خلالها عرضة لحملات ظالمة شنها عليها أعداؤها وأبناؤها على حد سواء . وكان أول عهدها بذلك في أرض الكنانة حيث كانت النهضة الفكرية والأدبية تزدهر على ضفاف النيل أيما ازدهار، وغدت مسألة الفصحى والعامية في جملة المسائل الكبرى التي كانت مثار بحث وجدال . فمنذ أواخر القرن التاسع عشر (١) حوربت الفصحى حرباً لاهوادة فيها في مصر حين اشتدت الدعوة ـ تحت ستار البحث والتيسير ـ الى استبدال العامية بها واتخاذ الحروف اللاتينية لغة للكتابة . وفي ذلك الحين نظم حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة التي نافح فيها عن العربية بحرارة فقال متحدثاً بلسانها (٢) :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي … وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني … عقمت فلم أجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية … وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة … وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن … فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة … وكم عز اقوام بعز لغات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب … ينادي بوأدى في ربيع حياتي
واسمع للكتاب في مصر ضجة … فاعلم ان الصائحين نعاتي

فمن الواضح ان شاعر النيل يقف طرفاً في تلك المعركة حين ينافح عن

(١) بدأت هذه الدعوة أواخر عام ١٨٨١ حين اقترحت مجلة المقتطف كتابة العلوم بلغة الحديث ودعت رجال الفكر الى بحث اقتراحها ومناقشته . ثم نشر عيسى اسكندر المعلوف عام ٩٠٢ مقالا في الهلال عدد مارس أبان فيه عن جهوده في ضبط اللهجات العامية وتقعيدها كما دعا الصحف الى استخدامها . وفي الوقت نفسه أصدر « ولمور » الانكليزي كتاباً عن لغة القاهرة أثار عاصفة من الجدل ، ثم ترجم وليم ولكوكس الإنجيل الى ما سماه اللغة المصرية عام ١٩٢٦ فأثار عاصفة جديدة ، ثم أثير الموضوع من جديد إثر استبدال أتاتورك الحروف اللاتينية بالعربية ، وانتقلت الدعوى الى المجمع اللغوي نفسه في مصر .

(٢) ديوانه ١ : ٢٥٣

الفصحى لغة التراث والقومية ، كما تعكس قصيدته في الوقت نفسه بعض التهم والآراء الهدامة التي نادى بها ادعياء التجديد .

ولكن الأمر بدا أشد خطورة بعد ذلك حين تبنى الدعوة في مصر نفر من أدبائها بعد خمود ثورة ١٩١٩ الوطنية . فقد انحرف الشعار الوطني (مصر للمصريين) وآل الى نزعة فرعونية انطوائية متعالية تعرضت معها اللغة العربية الى حملة شعواء من قبل أبنائها ، وعلت أصوات تنادي « بضرورة خلق أدب قومي يكون مستقلا عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد [١] » وأن تغدو اللهجات المحلية لغة الأدب فتقوم على أنقاض العربية لغة مصرية وأخرى شامية وثالثة عراقية ... الخ على نحو ما آل اليه أمر اللاتينية حين تفتتت الى فرنسية وإيطالية وأسبانية ... وزعم بعضهم أن مصر « ورثت من غزاتها الجدد (يعني العرب) الاسلام واللغة ولكنها حافظت على خواصها القومية ..، ومصر لم تكن عربية قط [٢] . »

وقد اتسم الدفاع عن العربية ـ باعتبارها أحد المقومات القومية الأساسية ـ بمظهر آخر في مصر حيث خاض الشعراء معركتها ضد التفرنج والتحلل بعد أن تفشت بين بعض الشبان المصريين بتشجيع من المستعمر وأقلامه المسمومة روح ازدراء للغة العربية ولكل ما هو عربي ، فراحوا يشيدون بافضلية لغات الغرب ويتباهون بنبراتها ويزعمون أن العربية الفصحى آيلة الى الاضمحلال ، وليس بوسعها أن تساير روح العصر وحضارته ، وأن الأجدر اتباع اللهجات العامية ودعمها لأنها لغة الحياة [٣] .

---

(١) من مقالة لمحمد أمين حسونة في السياسة الاسبوعية ١٩ يوليو ١٩٣٠
(٢) من مقالة لمحمد عبدالله عنان في ملحق السياسة الادبي ١٤ اكتوبر ١٩٣٢
(٣) انظر تفصيل ذلك في كتاب محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٢٣٥ ، وما كتبه سلامة موسى في أواخر كتابه (اليوم والغد) .

ويعتبر مصطفى صادق الرافعي في طليعة حماة العربية في نثره وشعره ومن بعض ما قاله في هذا الموضوع قصيدته « اللغة العربية والشرق » ومنها :

أم يكيد لها من نسلها العقب ... ولا نقيصة إلا ما جنى النسب
كانت لهم سببا في كل مكرمة ... وهم لنكبتها من دهرها سبب
كان الزمان لنا واللسن جامعة ... فقد غدونا له والأمر منقلب
إذا اللغات ازدهت يوما فقد ضمنت ... للعرب أي فخار بينها الكتب

ثم يندد محمود غنيم بالذين بهرهم كل ما هو غربي وتنكروا لقوميتهم ولغتهم فعادوا لا شرقيين ولا غربيين وذلك في قصيدة أسماها « قومي بين الشرق والغرب » وقال فيها (١) :

أبناء عمي من نزار ويعرب ... ليسوا بأعراب ولا أعجام
لا تأمنوا المستعمرين فكم لهم ... حرب تقنــع وجهها بسلام
حرب على لغة البلاد وعادها ... ليست تشن بمدفع وحسام
لا أعرف العربي يلوي فكه ... إن هم يوماً فكه بــكلام
إن فاه تسمع لكنة ممقوتة ... من فيه (سكسونية) الأنغام
لفظاً من الفصحى وآخر نابيا ... كالقــار ممزوجاً بكأس مـدام
لن يستعيد العرب سالف مجدهم ... ولسانهم غـرض لــكل سهام
إن يرفعوا ما انقض من بنيانهم ... فالضــاد أول حائط ودعام

والجديد في هذه الابيات التي نظمت على أثر استفحال موجة التحلل والميوعة بين الشبان في أعقاب الحرب الأولى ، أن الشاعر استطاع أن يدرك

---

(٢) ديوانه ٩٧ : ١٠١

حقيقة مرامي الحملة على اللغة العربية ، وأنها كانت جزءاً من أساليب الاستعمار وحربهم المقنعة ضد العرب ولغتهم .

وقد قارن علي الجارم بين ماضي العربية الزاهر وما تعانيه في حاضرها من كيد ثم حمل بشدة على هذه الزمرة الاثيمة فقال (١) :

وعاثت العجمة الحمقاء ثائرة   على ابنة البيد في جيش من الرهب
يقوده كل ولاغ أخي إحن   مضمخ بدماء العرب مختضب

ومن الواضح أن سبب هذا الدفاع الحار عن اللغة العربية من قبل الشعراء والكتاب لا يقتصر على كونها لغة القرآن ووسيلة نقل التراث التليد فحسب ، بل يتعدى ذلك الى كونها أقوى رابطة تشد العرب بعضهم الى بعض ، وتجعل منهم أمة قوية تتبوأ مكانها على وجه الارض ، فالتحول عنها الى لغة أخرى أو استبدال اللغات العامية بها كان يعني في حقيقة الامر فقد أقوى الاواصر الواشجة ، وبالتالي انهيار المجتمع العربي أو انصهاره في مجتمع آخر ، أو تفتته الى مجتمعات عديدة تتباين لهجاتها العامية مع الزمن حتى تنقطع بأهلها آخر الامر أواصر النسب .

ولعل هذه الغيرة على اللغة العربية التي تجلت لدى شعراء مصر بالدرجة الاولى كانت من أهم الاسباب التي حفظت لذلك القطر عروبته من النزعات المتطفلة ، ولم يكن يضارع هذه القصائد حرارة وغيرة على العربية إلا ما دبجته أقلام كتاب كبار من أمثال مصطفى صادق الرافعي ومي زيادة وأحمد حسن الزيات ومصطفى لطفي المنفلوطي واسعاف النشاشيبي وسواهم في هذا المضمار . وكأن مصر قد عوضت بذلك عن بطئها ــ خلال فترة من تاريخها الحديث ــ في المضمار القومي ، فهي منذ القدم ملاذ الفصحى . « ولما كانت وحدها تمتاز من بلاد

(١) ديوانه ٣ : ٥٥

العرب الاخرى في أواخر العهد العثماني بكون اللغة العربية فيها اللغة الرسمية ، في حين كانت التركية هي اللغة الرسمية حتى في الولايات العربية فقد كان العرب يتطلعون الى مصر ويغبطونها على هذه النعمة ويجلون انفصالها عن الدولة العثمانيه الذي اكسب اللغة العربية ما تستحقه من المكانة ، وقد ظلت بعد الحرب الأولى في نظر العرب كعبة الفصحى ومحجة الفكر والادب في العالم العربي (١) .

٣

ولعل أبرز معركة حقيقية في الشرق العربي خاضتها اللغة العربية على أساس كونها في مقدمة مقومات القومية العربية ، ثباتها أمام محاولات التتريك التي قام بها حكام الآستانة قبيل الحرب الكبرى وأثناءها . وكان التعرض للعربية في مقدمة الاسباب التي دفعت بالكثيرين من نبهاء العرب الموالين للعثمانيين الى أن ينفضوا من حولهم . ومن أشهر هؤلاء الشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية والشيخ عبد الحميد الرافعي الذي يقول مفتخراً بلغته وإشراق بيانها ومعرضاً بمن يكيدون لها (٢) :

لغة بفضل جمالها وجلالها	شهدت شواهد محكم القرآن
قل للالى جهلوا مكانتها وقد	كادوا لها في السر والاعلان
عاديتم ما تجهلون ولم يعب	قدر الورود كراهة الجعلان
والله يأبى أن تذل فبشروا	من رام ذلتها بكل هوان

وقد صح ما تنبأ به الشاعر فكان الهوان نصيب الترك الذين راموا إذلال العربية لان الله يأبى أن تذل . ومن الملاحظ أن في هذه الابيات غيرة شديدة على

(١) انظر ساطع الحصري في آراء واحاديث في القومية العربية ١٣ - ١٤
(٢) أنيس المقدسي ؛ الاتجاهات الادبية ١ : ٩٨

اللغة العربية صدرت عن بواعث دينية وقومية معاً وهذا طبيعي لانها لغة العرب ولسان القرآن. وهذه البواعث نفسها هي التي أملت على أمين ناصر الدين قوله(١):

نحن الألى بلسانهم قد أنزلت ... آي الكتاب وذلك الالهام

حين تصدى للرد على افتراءات جريدة (إقدام) التركية التي كان دأبها التنديد بالعرب ولغتهم. وفي ذلك يقول أيضاً أبو الفضل الوليد معتزاً بلغة العروبة والاسلام (٢):

كفاها أنها الله اصطفاها ... لقرآن تبلج كالصباح

وقد عبر فؤاد الخطيب عن محنة اللغة العربية يومذاك مستنكراً سياسة التتريك الجائرة (٣):

جاروا على لغة القرآن فانصدعت ... له القلوب وضج البيت والحرم
فالقدس باكية والشام شاكية ... وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم

بهذا المنظار الديني المقدس نظر عدد من الشعراء العرب وبخاصة في المراحل الاولى من تطور الشعور القومي الى اللغة العربية حين تعرضت لكيد الترك. وقد اعتبروا الدفاع عنها دفاعاً عن الاسلام أيضاً، ولم تكن مناصرتهم للغة العرب إلا مناصرة القومية في الوقت نفسه. ويمكن القول إن هذه الظاهرة أي المنافحة عن اللغة العربية تعد جديدة في الشعر القومي أملتها سياسة الاتحاديين العنصرية الخرقاء.

٤

على أن لغة العرب لم تلبث أن تعرضت في بلاد الشام نفسها زمن الاحتلال

---

(١) الالهام ٩
(٢) الانفاس الملتهبة ٨٣
(٣) ديوانه ٢٥

لعاصفة هدامة أخرى وبخاصة في لبنان منبت الشدياق واليازجيين وآل البستاني وزيدان وسواهم ممن تفانوا في خدمة العربية وآدابها، فمنذ أن انحسر الحكم العثماني عن بلاد الشام وأصبحت في قبضة المحتلين الجدد غدا لبنان مصدراً لأفكار غريبة على يد فئة عاقة من أبنائه، المقيمين منهم والمهاجرين. من ذلك ما زعمته لجنة من أدباء المهجر (١) في بيان أصدرته «بأن السوريين ليسوا بعرب، واللغة العربية التي يتكلمون بها اضطرهم الفاتحون الى استعمالها بدلا من اللغتين الآرامية الوطنية واليونانية اللتين كانتا اللسان الشائع في البلاد السورية» كما طلع آخر في الوقت نفسه (٢) بنعرة مماثلة زاعماً «أن السوريين واللبنانيين ليسوا بعرب وإن تكلموا بالعربية»، «وفي بيروت ولبنان قام نفر من الشعوبيين يدعون الناس الى الطلب من حكومتهم أن تجعل اللغة الفرنسوية رسمية في سائر محاكمها ودوائرها» (٣). وكان رد الفعل لدى الشعراء متوقعاً فراحوا يندّدون الى جانب الكتاب والسياسيين بتلك النعرة الهدامة وينافحون عن الفصحى بحرارة. وقد نظم خليل مردم بك قصيدة في هذا الشأن أسماها «واعربيتاه» ندب فيها بلوعة وأسى لغة الأجداد، وعمد الى إنطاق اللغة بلسانها على نحو ما فعل حافظ إبراهيم من قبل في قصيدته المشهورة التي نافح فيها عن العربية الفصحى ومن ذلك قوله (٤):

---

(١) نعني بها لجنة تحرير سورية ولبنان التي تحدثنا عنها من قبل في صدد الدعوة الفينيقية المحلية في لبنان، وقد أعلنت هذه الاراء في مذكرة رسمية قدمتها الى مؤتمر الصلح. انظر عدد جريدة السائح النيويوركية ٠تموز ٩١٩٠، والدكتور الكفافي ١٠٣، والدكتورعبدالكريم الاشتر: النثر وفنونه في المهجر الشمالي ١: ١٠٤.

(٢) هو شكري غانم الذي سبق ذكره في صدد الدعوة الفينيقية أيضا، وهو مؤلف مسرحية «عنترة» بالفرنسية. نشر مقالة في إحدى صحف باريس إبان العهد الاستقلالي الفيصلي في دمشق تبرأ فيها من العرب والعروبة، وقد ندّدت الاوساط الوطنية بنعرته وعقوقه وفي جملتها معروف الرصافي في قصيدته «صبح الاماني» أي العهد الوطني الجديد، انظر ديوانه ص ٤١٧.

(٣) انظر ديوان قسطاكي الحمصي، الهامش ١٠٩

(٤) ديوانه ١٦٢

هجروا من الكلم الصحاح مخافة واستبدلوا بعرابها أعلاجها
لم يتركوها بعد ذاك وشأنها بل أجهزوا كي يطفئوا وهاجها
واهاً لآساد فمنذ ثكلتهم قصرت يدى عن أن تذود نعاجها
صمدت لعادى الدهر أطول مدة لو لم يقدر فرعه أبراجها

الى أن يقول مشيداً بمكانة اللغة في البناء القومي :

واضرب بطرفك هل ترى من أمة عقدت على هام المجرة تاجها
إلا واللغة المقام المجتبي جعلوا الى هام السرى معراجها

وكانت قصيدة قسطاكي الحمصي الحلبي التي أسماها « البدوية » ورد بها على شعوبي لبنان من أقوى ما نظم في ذلك الحين . وفيها يشيد بمحاسن تلك البدوية، التي آثر أن يسميها « ليلى » . وقد سلك الى غايته سبيل الرمز فقال :

بالله يا نسمات الرند والبان من نجد جئتن أم من روض غسان
وهل لثمتن من (ليلى) مبسمها إني عليها غيور أي غيران
الى البداوة منسوب منابتها وإن نميت فهل فخر كعدنان
وثوبها يقبل الأزياء ما اختلفت وليس يخلقه تكرار أزمان
حروفها لمعان لا تطاولها في حسنها بنت يونان ورومان
ألفاظها درر ، تركيبها سور آياتها غرر ، في كل قرآن
عزيزة الفضل لم يجحد محاسنها إلا جهول بإيجاز وتبيان
لها الفصاحة تعزى أينما وجدت شهودها مثل قس أو كسحبان
وفي البلاغة هل خود تضارعها وأصلها صاعد يسمو لقحطان
وبعض خدامها عبدالحميد ومن تلاه من أصفهاني (١) وجرجاني

(١) اي عبد الحميد الكاتب وأبو الفرج الاصفهاني وعبد القادر الجرجاني

وغيرهم من ملوك الفضل آخرهم ... رب النهى اليازجي (١) الكوكب الثاني
بلابل الشعر عنتها بدائعه ... على عجائب أوزان وألحان
ما ضرها أنها والحسن عابدها ... لها حواسد من أهل وجيران

ويمضي الشاعر على هذا النحو مشيداً بالفصحى، حتى يوفي على غايته ، ثم يلتفت الى معاول الهدم في لبنان فيقول :

يا أهل لبنان ماذا العهد كان بكم ... يا أهل لبنان قد أصممت آذاني
أنكرتم اليوم (ناصيفاً)وأسرته ... نبشتم قبر (شدياق)(٢) (وبستاني)

ثم يختم قصيدته بالتعبير عن ثقته بصمود العربية وبقائها وعن إيمانه بعروبة لبنان الراسخة مطمئناً الى أن أولئك المارقين لا يمثلون وجهه الحقيقي :

قم يا أخا الود لا تغضب لما أثموا ... فليس لبنان ذا بل بعض لبنان
ليلاك آمنة ما دام من رهنوا ... عهودهم عندنا من خير أعوان

وجلي أن الشاعر الحلبي يباهي في أبياته بأصل العربية العريق ، ويتحدث عنها حديث الصب المستهام الذي يغار عليها ويزهى بسحر جمالها وعذب كلامها ، فهو لا يستغرب بعد ذلك أن يكثر حسادها والكائدون لها . كما نستشف من خلال أبيات القصيدة ظلالا لبعض التهم والافتراءات التي كان يرددها آنذاك أعداء الفصحى ، والشاعر يدحضها ويعرب عن إيمانه الراسخ بأنها لغة حية متطورة تصلح أداة للتفاهم في كل زمان ، وأن كر العصور لا يبلي جدتها ولا يذهب برونقها ؛ ألم تكن لغة حضارة الامويين والعباسيين وناقلة تراث اليونان في عهد المأمون وحاملة لواء العلم والمدنية في عهد الناصر بالاندلس . . ؟ .

---

(١) هو الشيخ ناصيف اليازجي أو ابنه ابراهيم وكلاهما لغوي كبير .
(٢) احمد فارس الشدياق وبطرس البستاني وناصيف اليازجي من أعلام النهضة في لبنان .

والملاحظ أن نظم هذه القصيدة والقصيدة التي سبقتها لمردم بك وأمثالهما كان في وقت واحد تقريباً وهو السنوات الاولى التي أعقبت الحرب الكبرى وبخاصة ما بين عامي ١٩٢٠ — ١٩٢١ وهذه هي الفترة نفسها التي ظهرت خلالها تلك الآراء الهدامة تجاه العربية الفصحى في بعض أجزاء الشام وما يعد امتداداً فكرياً لها في المهجر . ويمكن أن تعد المطالبة بجعل الفرنسية اللغة الرسمية في لبنان وصدور بيان لجنة أدباء المهجر وعدهم العربية لغة دخيلة على سكان البلاد ، وظهور مقالة شكري غانم التي زعم فيها أن العربية لم تكن لغة السوريين وإنما اضطرهم الى استعمالها الفاتحون ، وماشاكل هذه الآراء ... مظاهر موجة واحدة طغت واستفحل أمرها فترة من الزمن في مصر والشام ثم لم تلبث أن انحسرت بعد حين .

ومن جهة اخرى اتسمت المنافحة عن الفصحى بطابع آخر في بلاد الشام التي كانت تعد مصر رائدة شعوب العرب المكافحة نحو التحرر والنهوض . فقد هال السوريين استفحال النعرات التي ترمي الى سلخ أرض الكنانة عن عروبتها ، وزحزحتها عن الفصحى ، وحز في نفوس أبنائها صدور ذلك النشاز من موئل الفصحى وملاذها . فقد انبرى عدد من الشعراء لمخاطبة أشقائهم في مصر بلهجة المعاتب المشفق . وهذا أحمد الشريقي يناجي سعد زغلول ويناشده الاعتصام بالفصحى ويقول (١) :

يا رمز مصر وحسب العرب جامعة	هذا اللسان وتاريخ به العظم
امدد يديك وصافح كل من نطقوا	بالضاد يقبل عليك القوم كلهم
يا مصر يا كعبة الفصحى وموئلها	لأنت للشام في آمالها حرم

كما نافح شفيق جبرى في قصيدته التي ألقاها تكريماً لحافظ إبراهيم

(١) ديوان الثورة ٤٠

حين زار الشام عن تلك الروابط القومية المشتركة التي تتمثل في اللغة العربية وآدابها ، وتشد العرب بعضهم الى بعض ولو كانوا منتشرين في أقاصي الارض (١) :

تضمنا لغة لم يمح رونقها ... زحف السنين بآلام وأشجان
لولا قوافٍ بوادي النيل ننشدها ... في غوطة الشام أو في أرز لبنان
لقطعت بيننا الارحام واضطربت ... بنا الوساوس في وصل وهجران
لكن مصر وان هشت وإن عبست ... ركن العروبة للقاصي وللداني

ولم تلبث الاصوات الناشزة في مصر أن خفتت شأنها في لبنان ، وانحسرت موجة الاقليمية عن عروبة راسخة ، وكان صدور مجلة الرسالة مظهراً لازدهار الاتجاه القومي في مصر ، وحين أهل عليها عام جديد أشاد محمود غنيم بدورها في تقريب الافكار بين العرب فقال (٢) :

مشت مثل جان دارك بين العرب ... تشد عراهم بأقوى سبب
تبشر بالضاد بين بنيها ... وأكرم بحرمة هذا النسب
وما وحد الجمع مثل اللسان ... ولا اتحد الجمع إلا غلب
إذا اتحد الفكر في معشر ... تجمع من شمله ما انشعب
قد انتظمت أمم الضاد طراً ... فكانت كعقد وكانوا كحب
فذا كاتب من أعالي الفرات ... وذا من دمشق وذا من حلب

وقد وجد عرب المهجر في تلك البيئة الاعجمية التي قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وضعاً مشابهاً لما كانت تعانيه لغتهم القومية في الشرق فناضلوا عنها بقوة وإيمان على الرغم من ضعف وسائلهم وقلة عددهم وقسوة ظروف الحياة

---

(١) ذكرى الشاعرين ١٩١
(٢) ديوانه ٢٢٨

عليهم. وثمة أبيات لالياس فرحات تنعى على النشء العربي الجديد في المهجر تفريخه وتحلله من روابط قوميته وهي تنبض غيرة على العربية (١) :

وصلتنا بذوينا لغة | لم تصلنا ببنينا الظرفاء
كل حيوان حقير عالم | بلغاه وبنونا جهلاء
إن نقل قولا فصيحاً بينهم | رددوه بلسان اليغباء
ومضوا تحدجنا أعينهم | وعلى الثغر ابتسامات ازدراء
خالطوا العجم فصاروا مثلهم | دأبهم للعرب إضمار العداء
نحن غرقى في خضم إنما | لغة الضاد سفين للنجاء

وكان في طليعة مظاهر حنين المهجريين الى أرض وطنهم شوق الى العروبة يبرى أجسامهم ويجعلهم شديدي الاحساس بغربتهم . فالشاعر القروي لا تسليه تلك الجموع الغفيرة التي تضطرب حوله ولا المدن المحتشدة بأهلها لانه لا يسمع منها أنغام لغته العذبة لغة الام والاهل والوطن ، إنه يشكو تلك الحال في مغتربه (٢) :

حولي أعاجم يرطنون فما | للضاد عند لسانهم قدر
ناس ولكن لا أنيس بهم | ومدينة لكنها قفر

ومن الطبيعي أن يكون افتقاد المهجريين لغة الوطن في تلك البلاد العربية من أقوى أسباب حرصهم على الابقاء عليها ، ولهفتهم على سماع نبراتها الشجية . ومن طريف ما قاله الشاعر القروي معبراً عن هواه في حب العربية ، تلك الايات في متفرنج عربي (٣) :

---

(١) ديوانه ١٩٧
(٢) انظر جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية ٢٥
(٣) الديوان ٣٩٠

أضحك ما يضحكني ، مستعجم   يسبني بلغـة يسبها
وحقها إن لم أكن أحبـه   سامحة لأنني (١) أحبها

والظاهرة الحميدة أن صدى هذه الافكار الضارة كان خافتاً في الشعر ، حتى إننا لم نعثر على شاعر يدعو الى العامية كما لم نقع على قصيدة تندد بالفصحى . وكأن الشعر يعكس باستمرار ضمير الامة ومنازعها الاصيلة دون أن ينجرف في مضمونه مع النزوات الطارئة والمجادلات الصاخبة . وكل ما صدر على الشعراء في تلك الغمرة مناداتهم بالتجديد ودعوتهم الى تطوير اللغة وضرورة ملاءمتها لروح العصر، وكان حافظ إبراهيم يساير هذا الاتجاه في مثل قوله (٢) :

تغيرت الدنيا وقد كان أهلها   يرون متون العيس ألين مضجع
ونحن كما غنى الاوائل لم نزل   نغني بأرماح وبيض وأدرع

ونظم بعد ذلك قصيدة استهلها بوصف القطار بدلا من وصف الراحلة ظناً منه أن ذلك يجعله في عداد المجددين (٣) . ولقد كان خليل مطران أكثر فهماً لرسالة التجديد واطلاعاً على المذاهب الادبية والاتجاهات الفكرية لدى الغرب في قوله (٤) :

لن ترجع العربية الفصحى الى   ما كان منها في الزمان الاقدم

---

(١) هذا الموقف من القروي أشبه شيء بما اورده أحد نقادنا القدماء عن ظاهرة اجتماع المتعة الفنية بالالم النفسي ، حين ذكر قصة عربي كان يستمع الى شاعر يهجوه ، فقد أخذته النشوة لجودة القصيدة واستبد به الالم لوطأة معانيها على نفسه .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٩

(٣) انظر القصيدة في ديوانه ١ : ٢٨٣ ومطلعها :

صفحة البرق أو مضت في الغمام   أم شهاب يشق جوف الظلام

ما لم يعد ذاك الزمان وأهله والماد والاخلاق حتى جرهم
إن التجدد للسان حياته ومن الذي يحييه غير المقدم

كما حمل أحمد زكي أبو شادي لواء التجديد وصدق التعبير عن النفس في أشماره ثم في مجلته (أبو لو) إذ قال (١) :

علام تهرتي لوفاء جيلي بلفظ أو بمعنى أو دليل
ولست أعيش في قرن تقضّى ولا في غير ذا الوطن الجميل
فلفظي ما يصيغ بيان قومي وحسي حسهم أبداً زميلي

٥

أما كون اللغة الضادية جامعة اللسان وأحد المقومات الرئيسية للشعور القومي ، والرابطة الاساسية بين الشعوب العربية ، فقد عبر الشعراء عن ذلك الجانب تعبيراً واعياً يفوق ما كان منهم تجاه المقومات الاخرى للقومية العربية . ففي اعتقاد معروف الرصافي أن لغة الضاد اكبر رابطة قومية بين العرب (٢) :

وتجمعنا جوامع كبريات وأكبرهن سيدة اللغات

ونحن نستشف في ديوان شوقي « دول العرب وعظماء الاسلام » ، تخطيطاً مبسطاً لعناصر القومية العربية؛ إذ وضع أمير الشعراء لغة العرب

(١) ديوانه ٣ : ٣١
(٢) ديوانه ٥٦٥

في رأس تلك العناصر فقال (١) :

رب لسان جمع الاقواما وكان كالجنس لهم قواما

وقد نجد في الشعر القومي عنصر اللغة مصاحباً عنصر العقيدة الاسلامية في بعض الاحيان وخاصة لدى الجيل المتقدم من الشعراء من مثل شوقي وحافظ والرصافي والزهاوي والكاظمي . فمما قاله معروف الرصافي (٢) :

إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة لسان وأوطان وبالله إيمان
فأي اعتقاد مانع من أخوة بها قال انجيل كما قال قرآن

ويعود الرصافي الى ذكر عنصر العقيدة الدينية مقروناً بآصرة اللغة في قصيدته « بين تونس وبغداد » (٣) :

أتونس إن في بغداد قوما ترف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب الى من خص منطقهم بضاد
وما ضر البعاد اذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد

ولكن آصرة اللغة في تكون الشعور القومي بدأت تستقل بنفسها في الشعر الحديث مع تتابع الايام لاسباب عديدة ، منها انهيار نظام الخلافة العثماني، وتأثر الشعراء الشباب بالنظريات الاجتماعية ونظم الدول الاوروبية التي كانت جميعاً تتناول المسائل القومية في منأى عن الدين . وتبدو هذه الظاهرة الجديدة بطبيعة الحال لدى الشعراء المسيحيين الذين لا يستشعرون سوى العروبة ولغتها رابطة تجمعهم مع العرب المسلمين . وهذا حليم دموس يشيد بدور اللغة في بناء كيان الامة فيقول (٤) :

---

(١) دول العرب وعظماء الاسلام
(٢) ديوانه ١٣١
(٣) ديوانه ١٣٠
(٤) المثالث والمثاني ١٤٤

وأنتم يا بني قومي أناشدكم بمن به عز انجيل وقرآن
صونوا حمى اللغة الفصحى فليس لكم
من دونها وطن يعلو له شان

وهو يرى بحق ان اللغة العربية هي الرابطة الكبرى التي تؤلف بين المتكلمين بها على اختلاف عقائدهم (١) :

ستظل رابطة تؤلف بيننا فهي الرجاء لناطق بالضاد

كما يصدر عن ذلك أبو الفضل الوليد في مهجره (٢) :

ما بيننا نسب فيه لنا شرف وهذه اللغة الزهراء برهان
عيسى وأحمد في بلواها اجتمعا والناطقون بحرف الضاد اخوان

وكان من أجمل ما قاله أنيس الخوري المقدسي من ربوع لبنان (٣) :

ان فرق الايمان بين جموعنا فلساننا العربي خير موحد
قربت به الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فت في اليد

وبرغم عزوف فوزي المعلوف عن الشعر القومي وايثاره العيش في جو رومانسي حالم فانه لم يكن معزولا عن شؤون الحياة والمجتمع في فنه الرفيع، ان لغة الضاد في اعتقاده أقوى آصرة قومية تشد العرب بعضهم الى بعض (٤) :

فلتحي قومية كانت لنا نسباً يضم أشتاتنا ما فاتنا النسب

(١) المثالث والمثاني ١٣٢
(٢) الانفاس الملهبة ٧٥
(٣) الاتجاهات الادبية ١ : ١٠٢
(٤) ديوانه ٣٠

تالله لا نرتقي الا متى اتحدت ... تلك المآذن في الاوطان والقبب
ولتستعد لغة الضاد التي دعيت ... أم اللغات شباباً برده قشب
ان لم نكن كانا في أصلنا عرباً ... فنحن تحت لواها كلنا عرب

كل هذه الابيات والمقطوعات تنم عن ادراك قومي سليم واجلال لشأن اللغة وأهميتها في احكام عرى الوحدة بين العرب على اختلاف عقائدهم. وفي مقابل هذا الشعور القومي الفياض نجد قصائد كثيرة مماثلة مما نظمه سائر الشعراء العرب من المسلمين الذين حرصوا بدافع من تسامحهم الديني على إبقاء اللغة عنصراً قومياً مستقلا عن عنصر العقيدة الاسلامية في المضمار القومي، وهذا مصطفى الغلاييني يقول وقد عاش في بيئة لبنان ذات الحساسية الطائفية (١):

ما في الديار وإن لجوا سوى عرب ... من عبد آدم سل آثارهم تجب
إن فرقتهم ديانات فقد جمعت ... أهواءهم لغة الأجداد في سبب

كما يرى بدوي الجبل الشاعر السوري في لسان الضاد الجامعة الكبرى لشعوب العرب وخير عاصم لكيانهم القومي تجاه الدخلاء الغاصبين (٢):

كل الربوع ربوع العرب لي وطن ... ما بين مبتعد منها ومقترب
للضاد ترجع أنساب مفرقة ... فالضاد أفضل أم برة وأب
تفنى العصور وتبقى الضاد خالدة ... شجى بحلق غريب الدار مغتصب

وثمة نشيد وطني ينسب الى فخري البارودي سار على كل لسان إبان الاحتلال الفرنسي لسورية يشيد بجامعة اللسان بين العرب على اختلاف أماكنهم وتعدد دياناتهم، ومن مقاطعه:

---

(١) ديوانه ١٠٠
(٢) ديوانه ١٧٣

فلا حــــد يمزقنا   ولا دين يفرقنــا
لسان الضاد يجمعنا   بغســان وعدنان

وحين قامت جامعة الدول العربية أشاد خليل مطران بفضل هذه اللغة في إقامة ذلك الصرح القومي ، وقال مخاطباً زعماء العرب (١) :

يا سادة العرب من صيابة نجب   أوتوا الرياسات أو أرباب تيجان
تضمهم في سبيل الضاد جامعة   كل بها لأخيه خير معوان

وهكذا عبر الشعراء بتأثير ظروف وبواعث معينة عن مدى تعلقهم بالعربية باعتبارها مظهراً فعالاً للشخصية العربية . إلا أن الجانب السلبي كان يغلب بصورة عامة على ما مر بنا من أشعار حول هذا الموضوع سواء ما كان منه مباهاة بأصالتها وتغنياً بسحرها وإعجازها أو ما كان دفاعاً ومناضلة عن اللغة القومية ، أو ما كان أخيراً تنديداً وتقريعاً لرماتها والعاقين من أبنائها .

وهكذا يتضح لنا أن رابطة اللغة حظيت في الشعر الحــــديث بمكانة لا تدانيها رابطة أخرى على الصعيد القومي . لقد كانت في نظر الشعراء العلاج الفعال للطائفية المذهبية والتعصب الديني ، كما كانت الجامعة للشمل المبدد ، والطريــــق الطبيعي المؤدي الى وحدة العرب ، وأخيراً الدرع الواقية من النزعات المنحرفة والأفكار الضارة ومن شر كل معتد أثيم .

---

(١) ديونه ٤ : ٣٥٧

الفصل الثالث

الماضي المشترك

١

من طبيعة الأمم أنها في فترات نهوضها تلوذ بماضيها ، وتستوحي أمجادها السالفة ، وتعيش على نشوة ذكرياتها الغابرة ، والنهضة العربية الحديثة شأنها في ذلك شأن النهضة الأوربية قبلها كانت ترمى الى بعث الماضي العريق ، وإحياء التراث الغابر ، واستعادة الأمجاد السالفة . وقد قيض للعرب ماض زاهر وحضارة راسخة الأصول بوأتهم مكانة مرموقة بين الامم في تاريخ البشرية . فحين يرجع المؤرخ القهقرى عبر القرون السحيقة يمثل أمامه العرب أمة من أعرق الامم وأقواها ؛ فقد أقاموا فيما بين النهرين حضارات غابرة أعقبتها عبر الزمن مدنيات زاهرة في اليمن والبتراء وتدمر والحيرة « وكان ظهور العرب في خلال هذه الفترات التاريخية الطويلة كالينابيع تظهر في بقاع الارض وكأنهم يطلون على الزمن من وراء حجب الغيب »(١) ثم كان لهم منذ ظهور الاسلام أمجاد لم يعرف نظيرها عصر ولم يجتمع مثلها لأمة .

« إن موضع الفرد من أسرته ورهطه ودولته وأمته ، وموضعه في العالم إنما تحدده ظروف البيئة الزمنية التي وجد فيها . ولذا فان القومية هي ذاكرة قبل كل شيء ، وبتعبير آخر إن التاريخ هو ذاكرة المجتمع ، حياتنا صيرورة

(١) محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٦٦

مستمره ، هي نهر له نبع ومصب ولا يمكن ان يستغني المصب عن المنبع . كل شيء في الحياة هو تسلسل (١) .

ومنذ القدم عرف العربي بروحه المحافظة ، وحرصه على الاحتفاظ بنسبه ، واعتزازه بتواصله . ولقد أخذ العرب في هذا العصر يعيرون تاريخهم وماضيهم اهتماماً بالغاً ، فهم اليوم تواقون الى استعادة تلك العهود المشرقة وبعث الامجاد الرائعة . « وليس التاريخ عند العرب ماضياً بعيداً ميتاً يستعيدونه عندما يشاؤون ، وينسونه عندما يريدون ، ويتدارسونه في مظانه عندما تدفعهم الحاجة الى حفظه وتذكره ، بل هو بينهم شديد القرب منهم بحيث يمكن أن يقال ان العرب يعيشون تاريخهم . وفي الحقيقة أنهم يذكرون أمجادهم ويحسونها كأنها جزء عضوي من وجودهم .. وكل عربي يعرف الكثير عن النبي محمد وعن عمر وعلي والحسين ومعاوية وخالد والرشيد وصلاح الدين وعنترة ...

ويرفد التاريخ العربي القديم تاريخ الحركات الشعبية الثورية ، وتاريخ النهضة القومية في الآداب والعلوم منذ مطالع القرن التاسع عشر . كما أصبح التاريخ المعاصر جزءاً من التاريخ القومي لعرب ، يعتزون به ويتأثرون بسير أبطاله (٢) » .

وهكذا كان التاريخ العربي الحافل قاسماً مشتركاً بين العرب ، ألف بين مشاعرهم في شتى أقطارهم المتباعدة ؛ « فقد واجهوا دائماً مصيراً واحداً ، وأدوار الانحطاط والازدهار كانت تشملهم في فترات واحدة ، وكان الخليفة في أغلب الادوار واحداً . وحين وقعت البلاد تحت الحكم العثماني وقعت جميعها دفعة واحدة ، وحين انحسر عنها لاقت جميعها المصير الواحد وأصبحت فريسة للاستعمار وعندما بدأت النهضة الحديثة في العالم العربي سارت في وقت واحد وفي اتجاه واحد ، وحين عزمت القومية العربية على التحرر والاستقلال هبت في وقت واحد (٣) .

ان نمو الشعور الذاتي وازدياد الوعي الفكري لدى العرب منذ أوائل

---

١ الدكتورة عزة النص ، مجلة الآداب ، نيسان ١٩٦٠ ص ٢
٢ نبيه أمين فارس ومحمد توفيق حسين : هذا العالم العربي ١٥
٣ محمد منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة ١٤٨

القرن العشرين كان لها الاثر الاول في انشطار الدولة العثمانية بعنصريها الرئيسيين الى قوميتين بارزتين . فقد اتضحت ملامح الشخصية العربية والشخصية التركية وأخذت كل منها تتميز عن الاخرى . وكان أبرز مظاهر هذا الشعور الذاتي المتنامي لدى العرب اعتزازهم بماضيهم وافتخارهم بتاريخهم . وكان ذلك سبباً في التأمل والتفكر في هذا الماضي وتمييز الصفحات المجيدة منه ، والتفتيش عن مواطن القوة وأسباب النجاح والتقدم في ثناياه . « وأصبح للعرب مصدران يستمدون منها القوة : أحدهما خارجي يجدونه في نماذج الامم الاوربية ، وثانيهما داخلي وهو تاريخهم وحضارتهم . وكان هذا المصدر الثاني يتزايد قوة ويتسع أفقاً »(١) .

ولقد كان للأدب وللشعر بوجه خاص أثر فعال في ربط العرب بماضيهم وإحياء غابرهم . وهذه ظاهرة طبيعية في أدب كل أمة تجتاز مرحلة البعث . والشعراء في هذه المرحلة الحديثة من حياة العرب كانوا ذاكرة أمتهم وضميرها الحي الخلاق ، صاغوا من قرائحهم تماثيل لابطالهم في قصائدهم وأحلوا أمجادها سويداء قلوبهم ، حتى صار حبهم لجدودهم وجداً ، واكبارهم لغابرهم تقديساً ، ومن هنا كان ماضي أمتهم الحافل بأعرق الامجاد ماثلا على الدوام في نفوسهم ، حياً وهاجاً في قصائدهم . ولم يكن من الطبيعي لدى أمة تشق طريقها من جديد نحو حياة كريمة أن يهدر كتابها وشعراؤها تاريخ حقب مديدة حافلة بأروع الذكريات ، وأن يبدودا في فترة النهوض تلك الطاقة الكامنة في النفوس شأن الشعوبية ، بل الطبيعي أن تبعث حية ماثلة تعيد الى النفوس اليائسة أو الشاكة ثقتها ، وتعمر قلوب الاجيال الصاعدة ايمانا بمستقبلها .

إن كل يقظة قومية حقيقية لا يمكن ان تنطلق من الصفر . ولقد امتدت دوحة القومية العربية بجذووها بعيداً في الماضي التليد وكان لها من نتيجة رسالتها السامية وحضارتها الاصيلة كيان راسخ متميز .

---

(١) انظر محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ٥٢

كل هذه العوامل التي اتسم بها ماضي العرب وحضارتهم وتراثهم كان لا بد لها من أن تؤثر في حاضرهم وفي حياتهم الراهنة وأن تتجلى قوية على أقـلام كتابهم وألسنة شعرائهم .

٢

إن الشاعر العربي الحديث بحكم فترة البعث القومي التي يعيشها وتبعاً لثقافته الوثيقة الاتصال بتراث العرب وماضيهم كان أشد وعياً لعنصر التاريخ في الضهار القومي وأكثر لصوقاً به . ونحن نجد مثلاً في أبيات محمد الشربقي ما يشير الى أهمية التاريخ العربي المشترك واعتباره الى جانب اللغة المشتركة عاملاً أساسياً ومقوماً هاماً في تكوين الشعور القومي إذ يقول (١) :

يا ناطق الضاد إن جزت الشآم غدا   عرج على مصر حيث المجد والكرم
وانزل هناك باخوان غطارفة   ظلالهم مدها التاريخ والرحم

ثم يقول مخاطباً سعد زغلول :

يا رمز مصر وحسب العرب جامعة   هذا اللسان وتاريخ به العظم

ولسنا نعتقد أن ورود لفظ (التاريخ) في بيتين متتالين على انه عنصر القومية أمر عارض ساقته الصدفة ، إذ المرجح أن هذا الشاعر لم يكن - كما لم يكن سواه من الشعراء - في نجوة من التأثر بالنظريات الاجتماعية والابحـاث القومية التي كانت وما زالت لها الحظوة في نفوس المثقفين ، ومما يؤكد ذلك ورود عامل اللغة ثم عامل التاريخ معاً في البيت الاخير وهما في نظر الباحثين الاجتماعيين دعامتان هامتان من دعائم القومية .

وقد وعى الشعر الحديث زبدة التاريخ العربي الحافل واستوحى أروع

---
(١) ديوان الثورة ٤٠

آبائه من أمجاده السالفة التي رأى فيها حافزاً قوياً على النهـــوض . وكان شعراء العصر الحديث في هذه الفترة من النهوض القومي مشدودين بقوة الى أمجاد العرب الغابرة يشيدون بعظمتها ويتغنون بسحرها على نحو عاطفي محض لا يتعدى في كثير من الاحيان هذه المرحلة الى تمحيص ذلك الماضي والانطلاق منه نحو واقـــع عربي وطيد .

ويبدو أن هالة محببة الى النفوس ترتسم حول ذكريات الأفراد والأمم كلما أوغلت في القدم ، وقد وجدت هذه الذكريات المتمثلة في ماضي العرب المجيد صدراً فسيحاً في الشعر الحديث ، إذ تغنى الشعراء بالعهود السالفة ما طاب لهم التغني ، ونفخوا الحياة في السنين الخالية ، وبعثوا الحرارة في الغابر التليد . وبذلك أسهموا إسهاماً فعالاً في تكوين الوجدان الجماعي المشترك للامة العربية .

وكان ما نظمه الشعراء في هذه الفترة من العصر الحديث شعراً كثيراً في مقدمته ما قيل في عظماء العرب وأعلام تاريخهم ، وعلى رأسهم الرسول محمد عليه السلام ثم خلفاؤه الراشدون ومشاهير خلفاء بني أميــة والعباس وكبـار القواد والفاتحين وعمالقة الفكر والأدب .

ولا مراء في أن أحمد شوقي يعد رائد الشعراء وسيد هذا الفن في الشعر الحديث ؛ فقـد برع في استلهام الماضي التليد واستنطاق الأمجاد الغابرة على نحو لم يسبق له مثيل . وأبرز ما يطالعنا في هذا المجال مطولته الرائعـــة « كبار الحوادث في وادي النيل » . وقد نظمها في مستهل شبابه وقبـل أن تغرب شمس القرن التاسع عشر . ولعل فترة إقامة شوقي طوال سني الحرب الأولى منفياً بالأندلس أخصب مرحلة في نظم قصائده التاريخية أو التي تستوحـي ماضي العرب ، على قلة احتفاله بنظم الشعر آنئذ ، وذلك مثل أرجوزته المطولة « دول العرب وعظماء الاسلام » و « أندلسيته » التي يعـارض فيها ابن زيدون ، وموشحه

« صقر قريش » والقصيدة السينية التي يعارض فيها البحتري . لقد كان شوقي في محنة وكان وطنه في محنة أيضاً ، ومن طبيعة النفوس وكذلك الأمم أنها تهفو الى ماضيها وتلوذ بمآثرها لتستعين برصيد أمجادها على حاضرها بمشكلاته المستعصية . « التفت شاعرنا حوله في الأندلس فرأى أن أيام العرب والمسلمين في تلك الديار أصبحت حلماً من الأحلام ومرتعاً للذكرى ، وآثاراً تبعث في النفس الأسى . وامتد الشاعر ببصره الى الشرق فرأى سباتاً ولهواً يمثلان اللوعة . أفلا يستطيع أن يخلد ذكرى البطولة العربيـــة ، ويعرض على الافئدة صوراً من مجد الأجداد عل فيها لهم العزاء من الحاضر ، والأمل في المستقبل ؟ إن حنينه الى عزة العرب والمسلمين التي ذكرته بها آثارهم يدفعه الى أن ينقل لهم سير عظمائهم »(١) وقد تناول في أرجوزته تلك أبرز رجالات العرب والاسلام فابتدأ بأبي بكر ثم انتقل الى عمر وأشاد بفتوحه ، ومضى بعدهما الى عثمان وعلي حتى اذا بلغ خالد بن الوليد أشاد ببطولته وانتصاره على الروم حتى أخمل أعمـال (هانيبال) القائد القرطاجي وعبوره الألب بجيوشه . فهو يقول عنه (٢) :

فكان في السماوة الرئبالا   لا تذكر الألب وهانيبالا
أقبل سيف الله يزجي خيله   ويلَ هرقل منه ثم ويله

وينتقل بعد ذلك الى عمرو بن العاص وفتحه لمصر ونزوله بالفسطاط ، ثم الى معاوية وبعده الى عبد الرحمن الداخل الذي يكن له إعجاباً خاصاً فيخصه بموشحه « صقر قريش » . وما يزال كذلك حتى يتناول مجد العباسيين ويشيد ببأس المنصور الى أن يبلغ مجد الفاطميين ويشيد بالمعز . وينتهي به الأمر عند حديثه

---

(١) أنظر ماهر حسن فهمي في كتابه شوقي وشعره الاسلامي ١٩٣
(٢) دول العرب وعظماء الاسلام ٦٩

عن الأيوبيين فيمجد بطولة صلاح الدين ويندد بالصليبيين الغزاة الذين جاءوا يهدمون ما أقامه العرب والمسلمون .

ولا يظنن أحد أن شوقي في قصائده هذه إنما كان يعمد الى مجرد نظم الأحداث التاريخية وسردها ، فلأمير الشعراء إيمان كبير بجدوى التاريخ وفضله على الأمة وفي ذلك يقول (١) :

غال بالتاريخ واجعل صحفه   من كتاب الله في الاجلال قابا

وهو حين نظم أرجوزته في الأندلس كانت نفسه مفعمة بهذه الروح فهو يستهلها بقوله :

حتى اراد الله ان نظمتُ   من سير الرجال ما استعظمت
علما بما يبعث في الاحداث   غرائب الاعمال والاحداث

وفي « أندلسية » شوقي التي نسج أبياتها وحاك قوافيها على منوال قصيدة ابن زيدون النونية نراه يتغنى بأمجاد العرب في الاندلس ويذكر المعتمد بن عباد مترحماً على تلك العهود الخالية .

وعلى الرغم من احتفال أمير الشعراء بماضي الامة ونظمه الكثير من الروائع في هذا الشأن فان نظرته الغالبة الى هذا الماضي كانت تتسم بروح الاتعاظ والاعتبار اكثر مما تتسم بالطابع الاجتماعي والقومي ، فهو مفتون أبدا باستخلاص العبرة والمغزى من أحداث التاريخ وتجارب الماضي . كما أنه في سينيته التي يذكر فيها العرب الاجداد ويبكي عز الامويين ويستنطق

---

(١) الشوقيات ٢ ; ١٨

آثارهم في الاندلس يحز في نفسه رحيل العرب ويتخيلهم خارجين من الفردوس المفقود كموكب الدفن خرساً . ثم يستخلص من هذا الوقف عبرة بالغة ويرجو أن يفيد العرب من ذلك الدرس القاسي ، ويهيب بهم أن يتلفتوا الى ماضيهم الحافل بالتجارب ، والماضي كنز للعظات ؛ إنه يختم قصيدته بقوله (١) :

حسبهم هــذه الطول عظات　　من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتــك التفــات الى الما　　ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

وقد صدر حافظ إبراهيم في الفترة نفسهـا عن مثل هذا الاعتزاز بأحد أعلام العرب والاسلام حين نظم عمريته الرائعة عام ١٩١٨ وهي تقرب من مائتي بيت ، وقد ختمها أيضاً بقوله (٢) :

هذي مناقبه في عهد دولته　　للشاهدين وللأعقاب أحكيها
لعل في أمـــة الاسلام نابتة　　تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها　　من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من (عمر)　　حتى ينبـــه منها عين غافيها

فالماضي عند حافظ نبراس للحاضر وفي تجارب الاجداد خير ما يفيد الاحفاد ، وما ابن الخطاب إلا نموذج رائع للحاكم العـربي الذي تتحرق الجماهير شوقاً الى مثله .

وقد حذا محمد عبد المطلب حذو حافظ بعد أكثر من عام فألقى قصيدته

---

(١) الشوقيات ٢ : ٦١
(٢) ديوانه ١ : ٧٧

(العلوية) التي زادت على ثلاثمائة بيت وفيها إشادة بالغة بفجر الاسلام وبسجايا الامام علي .

وكثيرة هي القصائد التي تناولت أعلام العرب الماضين على هذا النحو ووجدت فيهم السمات التي ينشدها العرب ؛ من ذلك قصيدة « صقر قريش » لخير الدين الزركلي ، و « وخالد بن الوليد » لعمر أبي ريشة . وكان اهتمام جماهير العرب بأمر هذه القصائد مظهراً من الحنين الى تلك النماذج البشرية الخالدة ؛ إذ ليس ما يهز الروح القومية مثل استعادة سير العظماء ، وكما يقول أنور العطار (١) :

نشوة الذكريات أفعل في الانفس من نشوة ابنة العنقود
والبطولات شعلة الامل الساطع في ظلمة الليالي السود

والظاهرة البارزة في مثل هذه القصائد انها لم تكن تتغنى بالماضي لذاته ، فكثيراً ما حرص الشاعر العربي في هذا الصدد على ربط الماضي بحاضر أمته وواقعها بدافع من غيرته القومية كما فعل عمر أبو ريشة في قصيدته « محمد » التي جعلها مقدمة لملحمة النبي ؛ فهو بعد أن يبعث في نفوسنا نشوة الماضي العطر بحديثه عن عظمة الرسول وعن غزواته يقول (٢) :

يا عروس الصحراء ما نبت المجـ ـد على غير راحة الصحراء
فأعيدي مجد العروبة واسقي من سناه محاجر الغبراء
قد ترف الحياة بعـد ذبول ويلين الزمان بعد جفاء

وشبيه بذلك أيضاً ما نجده في قصيدة لانور العطار عنوانها « جيش أسامة » ففيها يشيد بأول جيش عربي في الاسلام ، وببطولة قائده الشاب ثم يقول (٣) :

---

(١) في ظلال الايام ١٠٠
(٢) ديوانه ١١٢
(٣) في ظلال الايام ١٠٠

ثم دال الزمان من ناسه الغر – فقرت سيوفهم في الغمود
واستكانت الى الورى فعليها صدأ الدهر من طويل الهجود
صرخ الجرح بالمواجع ثوري وأهاب الأسى بعيني جودي
ارجعي يا مجادة الفاتح السمـ ـح ويا عزة الأبيين عودي

وهكذا كان الماضي الزاهر في هاتين القصيدتين وفي سواهما من القصائد المشابهة سبيلا ممهداً لمعالجة حاضر الأمة والثورة على واقعها، ومنطلقاً ركيناً للشاعر نحو الغاية المنشودة التي تتركز في بعث العرب من جديد.

ولم تكن المهرجانات الادبية التي جرى المعاصرون على إقامتها إحياء لذكرى أعلام العرب كالمتنبي والبحتري والغزالي والمعري والبارودي والرصافي وشوقي وحافظ ومطران والكواكبي.. سوى مظاهرات شعرية قومية حافلة، تستلهم الماضي البعيد والقريب لتنفخ روح القوة في الحاضر وتبعث على الثقة بالمستقبل.

وثمة قصائد كثيرة لا تكاد تحصى نظمها الشعراء أيضاً إحياء لذكرى الوقعات الحاسمة في تاريخ العرب، من ذلك ما نجده في أرجوزة « دول العرب وعظماء الاسلام » و « سقوط غرناطة » لأحمد شوقي، وفي « الالياذة الاسلامية » لاحمد محرم الذي يتغنى فيها بأمجاد العرب الأولى في ظل الاسلام وفى مقدمتها غزوات الرسول عليه السلام، وكذلك في قصيدة « ثورة بدر » لمحمود حسن إسماعيل، و « يوم حطين » لعبد المحسن الكاظمي، و « طارق ابن زياد » لعلي محمود طه .. الخ.

ومن الجلي أن تناول مثل هذه الموضوعات المستمدة من تاريخ العرب لم يكن الغرض منه في أذهان الشعراء مجرد السرد والتسجيل، فكتب التاريخ المطولة تغني عن ذلك وتفوقه دقة وتفصيلا.

ومع أن بعض الشعراء لم يربطوا في قصائدهم بين ما كان عليه العرب في ماضيهم وما هم عليه في حاضرهم فان روح الاعتزاز كانت تطل باستمرار من

خلال قصائدهم ، وتنم عن حنين طاغ الى العهود الزاهية ، وشعور قومي فياض تجاه الماضي المشرق . ونجد مصداقاً لهذا الرأي في قصيدة « الامة العربية » لمعروف الرصافي يقول فيها [1] :

العرب أكبر أمة مشهورة — بفتوحها وعلومها وبيانها
فالمجد مأثور بكل صراحة — عن قيسها أبداً وعن قحطانها
وهم الالى خضعت لهم أمم الورى — من تركها طراً الى أسبانها
والروم قد نزلت لهم عن ملكها — والفرس عما شيد من إيوانها

ومن هذا القبيل قول مصطفى الغلاييني مشيداً بآبائه العرب [2] :

سل الركن عنهم والحطيم وزمزما — وأرض بني قحطان إن هي تنطق
وسائل بهم مصر المعالى وتونسا — وبغداد تصدقك الاحاديث جلق
وسل إن جهلت العرب أندلساً وما — أقاموا من الامجاد فيها وتنقوا

ولا نستطيع إلا أن نزهى مع أمين ناصر الدين في قوله [3] :

كفى العرب فخراً أن منهم محمداً — وأن له الشأو الذي ليس يلحق

وأن نهتز طرباً مع بدوى الجبل بنشوة الماضي التليد وصفحات تاريخنا المجيد [4] :

قف على اليرموك واخشع جاثياً — وتيمم من صعيد القادسية
ها هنا مثوى الصناديد الالى — دوخوا الارض ببعض المشرفية
دوخوا الروم وثلوا عرشها — وطووا حمر البنود الفارسية
يا قبورا محيت واندرست — أنت نبراس الهدى والوطنية

---

(١) ديوانه ١٣٩
(٢) ديوانه ١٠٥
(٣) الالهام ٢٠٠
(٤) ديوانه ١٠٥

وتتمثل روح الاعتزاز بأمجاد العرب السالفة قوية في قصيدة طويلة للشاعر العراقي محمد حبيب العبيدي ، وهو يستعرض من خلالها أبرز معالم السيادة العربية بنشوة وزهو بالغين ، ومن ذلك قوله (١) :

ونحن أباة الضيم من عهد تبع ... إذ الناس غربان ونحن نسورها
بدا النور من بطحاء مكة ساطعاً ... وضاءت به من أرض يثرب دورها
فمزق إيواناً لكسرى مشيداً ... وأخمد نيراناً شديداً زفيرها
وأجفل منه قيصر فوق عرشه ... وذلت له بصرى ودكت قصورها
عبرنا لافريقاء وهي منيعة ... يعز على قوم سوانا عبورها
فقرطبة في الغرب تزهو نجومها ... وفي الشرق بغداد تضيء بدورها
خلقنا بسيف العدل سيف حضارة ... يشعشع حتى الآن في الكون نورها
سلوا أمماً سارت على ضوء رشدنا ... ألم تك قبلا مظلمات عصورها

والشاعر إذ يفخر بقومه منذ عهد تبع في اليمن السعيدة وبانطلاقهم بعد ذلك برسالتهم الى خارج الجزيرة وحملهم شعلة الحضارة الزاهرة قروناً ، لا يكتفي بأن ينظر الى هذه الامجاد الغابرة نظرته الى أحـداث مضت وانقضت فحسب ، فالماضي لديه وثيق الصلة بحاضر العرب وهو تواق الى أن يعيد قومه سيرتهم الاولى لذلك يقول بعد تلك الابيات :

أما آن أن تحيا معالم مجدنا ... وتنشر موتانا وينفخ صورها

وكان كل ظفر يحققه العرب فى صراعهم مع الطغيان والاستعمار يجد التهليل والاستبشار لدى الشعراء الذين يرون فيه اقتراباً من أمجاد العرب السالفة وبعثاً لمكانتهم السامية . وهذا حبيب اسطفان يعكس لنا موجة التفاؤل التي تملكت العرب باستعادة الماضي المجيد عندما قام الحكم العربي المستقل في دمشق لاول مرة بعد تسلط تركي دام أربعة قرون (٢) :

---

(١) انيس المقدسي : العواطف القومية في الشعر الحديث ، نصوص مخطوطة ٢٤
(٢) انظر صبري الاشتر : المختار ٥

دمشق بها ذكرى أمية خلدت وبغداد ذكرى الرشيد مخلد
وفي القدس أنوار المسيح مضيئة تنار بها أقصى الشعوب وترشد
وأم القرى بيت الاعارب مكة لها الشرف العالي القديم الموطد
أقام لها التوحيد ديناً مشرفاً وأنبت مجد العرب فيها محمد

أما خليل مردم بك فقد هزته تلك المناسبة القومية التي كانت ثمرة الثورة العربية الكبرى ، ووجد في دخول الجيش العربي الى دمشق صورة حية للفتوحات العربية السالفة ، فامتلأت نفسه اعتزازاً وأطلق على قصيدته اسم « الفتح العربي » ومما قاله فيها وقد أخذته نشوة الماضي وأسره (١) :

مالي أرى القوم بعد الحزن في طرب هل عاد سالف مجد العرب للعرب
عادت وشائج فهر بعد ما انصرمت عن بعضها عصراً موصولة النسب
لبيك داعي أمير المؤمنين على بذل النفوس وغالي الاهل والنشب
لله جيش أمين الله منتصراً يدني جيوش المدا من مورد العطب

فهذه الابيات وما توحيه في النفس من أجواء وتشيعه من ظلال لا تبدو لشاعرنا وهو يخاطب الملك فيصل بقدر ما تبدو وكأنها لشاعر عربي قديم يناجي خليفة المسلمين . ولا ريب أن الشاعر قصد الى النسج على منوال أبي تمام بعد أن ذكره الحاضر بالغابر فحن اليه وعانق روح الشاعر العباسي واذا هو يتمثل فيصلا صنوا للمعتصم وتبدو له دمشق صورة لعمورية . وما أشبه الليلة بالبارحة .

ويعبر أبو الفضل الوليد عن نشوته البالغة بسحر ماضي العرب وروعة أمجادهم فيقول (٢) :

أنا فتى عربي بين أضلعه تاريخ قوم هو الانوار والسحب

---

(١) ديوانه ١٤٣
(٢) الانفاس الملهبة ٩١

قد رنحته أحاديث الحمى طرباً كما تثنى لهبات الصَّبا القصب
نفسي تلظت بحب العرب فاشتعلت بها النفوس الى العلياء تصطحب

وكم ازدهى الشعراء المعاصرون بالخصال السامية التي تحلى بها أجدادهم العرب كما فعل بشارة الخوري إذ قال (١) :

سائل العلياء عنا والزمانا هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا لم تزل تجري سعيراً في دمانا

واذا ما استقرينا الاناشيد الوطنية التي سارت على ألسنة الجماهير العربية وألهبت فيهم الحماسة ، فاننا نجد التغني بالماضي وسحره عنصراً فعالاً في مضمونها . من ذلك مثلا النشيد الذي نظمه خليل مردم وقد غدا النشيد القومي في سورية . ومما جاء في أحد مقاطعه قوله (٢) :

نفوس أباة وماض مجيد وروح الاضاحي رقيب عتيد
فمنا الوليد ومنا الرشيد فلم لا نسود ولم لا نشيد

ومعظم الشعراء لم يكتفوا بالعبرة والحكمة من تاريخهم بل اتخذوا من أحداثه ووقائعه حافزاً للنهوض وباعثا على النضال ، وتاريخ العرب حافل ، فيه حدة وفيه ثورة . وأبيات محمد رضا الشبيبي التي تندد باحتلال الحلفاء بلاد الشام والعراق تصور بجلاء وعي العرب لماضيهم وتمردهم على واقعهم وذلك في قوله (٣) :

---

(١) الهوى والشباب ١٦٠
(٢) ديوانه ٢٦٩
(٣) ديوانه ٣٣

هجن طردن من الرجال كرائماً | عربية فكأنهن جياد
خنا ذمام الفاتحين وعهدهم | ما هكذا تستنجب الاولاد
إنا بما نجني وهم فيما جنوا | بئس البنون ونعمت الاجداد
إني يذكرني الشهامة عنتر | فينا ووالد عنتر شداد
ويهزني عصر العراق تسوسه | لخم وآل محرق وإياد

ويلوذ عمر يحيى بالاجداد الغطارفة يستمد منهم البأس لوطنه المقهور فيقول (١) :

أيها الناشد مجداً تالداً | هل تمشيت على شط اللوار
هل ذكرت الغافقي الندب الذي | هام بالعليا وغنى واستطار
عنعنات الغرب لا تحفل بها | فابن عبد الله للعرب شعار
ما تعلمنا وهذا خالد | رافع المجد بأن نرضى الصغار

كما يجد الشاعر القروي في جهاد أحرار فلسطين صورة من بطولات العرب في فجر تاريخهم تبعث في نفسه الزهو حيث يقول (٢) :

فكل فتاة في فلسطين خولة | وكل غلام في فلسطين عنتر

وقد أخذ يستقر في روع عدد من الشعراء أن في تذكر أمجاد الماضي ما يعين على علاج واقع العرب المحزن ، وأن التاريخ وتجاربه خير ما ينير السبيل الى الحاضر والمستقبل . وهذا محمد الفراتي يقول في قصيدته « تلفت نحو ماضيك » (٣) :

---

(١) البراعم ١١٢
(٢) ديوانه ٣٦٢
(٣) ديوانه ٢١٢

أطبق الجفن على الجفن ملياً وتفكر
وتلفت نحو ماضيك طويلا وتذكر
فعسى أن تهتك الذكرى حجاب الظلمات
فترى ماضيك جذلان جميل النشوات
باسماً يرنو الى آمالك الغر العذاب

★ ★ ★

ولم يعد تاريخ العرب مجرد أحداث ووقائع يتغنى بها الشعراء فحسب، بل أصبح رسالة يرفعون رايتها ويبشرون بها بايمان وإخلاص ويرون فيها قوة دافعة الى الامام تزيدهم ثقة وإيماناً، وهذا محمود غنيم ينعى على بعض العرب جهلهم بماضيهم وإعراضهم عنه ويرى ذلك من أسباب تأخرهم، وأن الغربيين أنفسهم إنما أقاموا نهضتهم على أساس من ذلك الماضي العريق المشترك (١):

استرشد الغرب بالماضي فأرشده ... ونحن كان لنا ماض نسيناه
إنا مشينا وراء الغرب نقبس من ... ضيائه فأصابتنا شظاياه
بالله سل خلف بحر الروم عن عرب ... بالامس كانوا هنا واليوم قد تاهوا
أين الرشيد وقد طاف الغمام به ... فحين جاوز بغداداً تحداه
ماض تعيش على أنقاضه أمم ... وتستمد القوى من وحي ذكراه

ويبدو أن المعارك التي خاضها العرب ضد المستعمرين كانت تزيدهم وعياً لقضيتهم واعتداداً بماضيهم وثقة بمستقبلهم وبهذه الروح المتوثبة نرى نمطاً آخر من الشعر التأم فيه الماضي والحاضر بعنفوان وإباء نجدهما في قول إلياس قنصل (٢):

---

(١) ديوانه ٧٨
(٢) السهام ٤١

أنرضى بالهوان ونحن قوم ملأنا صفحة التاريخ فخراً
أيرهبنا الحديد وقد بنينا بحد السيف مجداً مشمخرا

وقد أصبح تاريخ العرب ماثلا بروعته في واقع المجتمع العربي الحديث، وأخذ يؤثر تأثيراً فعالا في حياتهم القومية، حتى غدا الحديث عن بعث الامة العربية ديدن الشعراء. وقد عبر أمجد الطرابلسي عن هذا الشعور المتفائل بقوله (١):

تلكم جزيرتكم يا عرب باسمة ترنو اليكم وتحنو أي تحنان
سيروا اليها نعيد البعث ثانية ونملأ الارض من عدل وعمران
أليس منا الالى قادوا جحافلهم وأخضعوا الارض من فرس وروماني

كما نرى الشاعر نفسه يعبر عن هذه الظاهرة أيضاً في قصيدة أخرى عنوانها «أمة تبعث» (٢). وقد بلغ إيمان بعض الشعراء وتفاؤلهم بازدهار المجتمع العربي حداً جعلهم لا يشكون في استعادة المكانة التي كان عليها أجدادهم، وهذا أحمد محرم يتحدث عن فلسطين بلهجة الواثق المطمئن (٣):

يا آل يعرب من يربي خالداً يزجي الخميس ويستحث المقنبا
من شاء منكم فليكنه ولا يقل ذهب القديم، فانه لن يذهبا
السر باق والزمان مجدد والسيف ما فقد المضاء ولا نبا

ونجد هذا الاتجاه أبرز ما يكون في القول القاطع الجازم لمحمد الفراتي في قصيدته «أيها الاحفاد» (٤):

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثانية ص ٩٠٦
(٢) مجلة الرسالة، السنة الرابعة ص ٢٥٠
(٣) ديوانه ٢١٠ ــ ٢١٨
(٤) ديوانه ١٨٢

يا دهر ما التاريخ غير رواية بالرغم منك فصولها ستعاد

وإذ يغدو تراث العرب ماثلا في الاذهان حياً في النفوس الى هذا الحد الذي تجلى في الشعر الحديث ، فان الشعور القومي يكتسب عمقاً ومضاء في معركة التحرر يحدوه في ذلك ذخر لا ينضب وقوة دافعة من روح الماضي والايمان بالمستقبل .

وهكذا كان الشعراء في هذه الفترة من النهوض القومي - فترة ما بين الحربين العالميتين - مشدودين بقوة الى أمجاد العرب الغابرة يشيدون بعظمتها ويتغنون بسحرها في نشوة بالغة . وقد دأب الرعيل الاول منهم بوجه خاص على بعث ذلك الغابر التليد في نفوس جيلهم القلق المتحفز الذي كان يجهد في تبين معالم شخصيته الغائمة .

٣

على أنه كان لتعلق الشعراء العرب بماضيهم في هذه المرحلة من حياتهم الحديثة وجه آخر هو ندب الامجاد السالفة والترحم على الاجداد العظام وبكاء العهود المنصرمة الزاهية . فقد جبههم الواقع المرير بسقوط أوطانهم فرائس بين مخالب المستعمرين ، وسرعان ما تبددت أحلامهم في بعث دولة عربية كبرى ، فانكفؤوا على أنفسهم يندبون حظهم العاثر ويلوذون بماضيهم المجيد يعوضون به عن محنة أمتهم . وأكثر ما كان هذا الوجه القاتم يتجلى إبان النكبات او خلال الازمات أو فترات اليأس التي كانت تخيم على العرب إثر نضالهم العاثر . وقد بدا ذلك مبكراً لدى عدد من شعراء مصر مثل أحمد محرم ومحمد عبد المطلب وبخاصة إبان الحرب الاولى ، كما تجلى هذا الشعور بعد ذلك

لدى شعراء الشام إثر انهيار الحكم الفيصلي وتدفق جحافل المستعمرين على البلاد حتى اصطبغ في ذلك الحين بصبغة اليأس القاتمة . وهذا ما ساعد على اشتداد أزر الحركة الرومانتيكية في الادب الحديث خلال تلك الفترة ، فخليل مردم بك يعبر عن تلك الظاهرة من خلال مناجاته لطيف لمياء التي (١) :

تذكرت قومها أبناء يعرب إذ ... كانوا أعز ملوك الارض سلطانا
سادوا الممالك من هند لأندلس ... محكمين بها عدلاً وإحسانا
فرقرقت أدمعاً أضحى بصيبها ... روض الأماني بعد الجدب فينانا

من كل ذلك يتبين لنا أن الاتجاه الى الماضي العربي المشترك سواء أكان بالتغني بالامجاد السالفة أم بالبكاء عليها غدا مرحلة طبيعية في فترة اضطراب كيان العرب القومي ولقي تجاوباً وهوى في نفوس شعرائهم في ذلك الحين .

أما ظاهرة الفخر والاعتزاز ـ وكانت الغالبة ـ فقد اتسمت بطابع عاطفي وأخذت في استمرارها تنم عن سلبية لا طائل منها بعد مرحلة البعث ، إن لم تغد ضارة ، فهي لم تعد قادرة بمفردها على اقامة الكيان القومي الذي لا بد من وجود عناصر أخرى واقعية فيه . ولقد بلغ استمرار النزوع الى الماضي لدى عدد من الشعراء مدى أصبح معه خطراً على الاتجاه القومي ذاته بعد أن أخذ يزيد عن حده وينقلب الى ضده ؛ إذ أن استرسال الشعراء في تفاخرهم بالامجاد السالفة وتغنيهم المتمادي بالاجداد الغطارفة وبكاءهم العهود الزاهية الى حد إهمالهم شؤون حاضرهم وواقع أمتهم ، كل ذلك جعلهم في شبه عزلة عن الحاضر وأحداثه . وربما كان ذلك منهم عن وعي أو غير وعي نتيجة هربهم الى زوايا الذكريات الغابرة يأنسون بها ويتعزون عن واقع حياتهم وحياة أمتهم ، حتى غدا الماضي لديهم غاية في ذاته ، في حين أنه لا يعدو في الاصل أن يكون عوناً للامة في نهوضها ، وحافزاً على تحررها .

إن العنصرين اللذين اعتمد العرب عليهما في تكوين قوميتهم أي العنصر الداخلي المتمثل في التراث والتاريخ ، والخارجي المتمثل في مفاهيم الغرب الحديثة ونظرياتهم وتاريخ قومياتهم ، هذان العنصران اللذان يتمم أحدهما الآخر أخذا يبدوان في كثير من الاحيان كتيارين متعارضين ينافي أحدهما الآخر . وقد آل الامر أحياناً الى الغلو في الاعتماد على المصدر الخارجي بلغ حد الشعوبية أو الاقليمية ، كما آل من جهة أخرى الى غلو مماثل في الاعتماد على الخصائص الموروثة بلغ حد الجمود .

أما الشعر القومي فقد كان في هذه المرحلة من حياة العرب يضيق بصورة عامة بآراء المتطلعين الى أنظمة المجتمعات الغربية في الحكم والحياة ويشفق من طغيانها على مقومات العرب الاصيلة . وقد يكون لهذا الحذر تجاه الآراء الوافدة والمفهومات الغربية ما يبرره في مرحلة البعث والتكوين القومي . لقد كان من الطبيعي أن يصدر تجاه ذلك رد فعل يستنكر إغراق الشعراء في النزوع الى كهوف الماضي وتعاميهم عن واقع الحياة الراهن وأحداثها الماثلة . حتى لقد استعرت بين رجال الفكر والادب نيران معركة تجلت في كثير من الكتب والمقالات والبحوث وبخاصة في المجال الاجتماعي . واذا كان الامر لم يبلغ تلك الحدة . في المجال القومي حين كان الماضي القديم يمد المشاعر الوطنية بنسغ الثقة والايمان فان صدى ذلك الجدال انتقل في بعض جوانبه الى الشعر . ونحن نجد في عدد من القصائد مظهراً محدوداً لهذه المعركة على الصعيد القومي والفكري ، ومن ذلك أن الشاعر فوزي المعلوف أنشد في حفل أدبي أقيم بالمهجر قصيدة مطلعها (١) :

خل البداوة رمحها وحسامها ۝ والجاهلية نوقها وخيامها

وفيها أنكر كل فضل لقديم . ثم أنشد إلياس فرحات على المنبر نفسه قصيدة عارضه فيها بهذه الابيات وحامى فيها عن مبدأ الماضي المشترك أحد العناصر الاساسية للقومية (٢) :

---

(١) ديوانه ٣٩ (٢) ديوانه ٢٥٥

حي البداوة نوقها وخيامها | والجاهلية رمحها وحسامها
حيتك أشباح القديم وسلمت | فمن العدالة أن ترد سلامها
قد تبلغ النفس الطموح أشدها | ويظل يذكرها الولاء فطامها
لولا الجذور المطمئنة في الثرى | ما كانت الأغصان ترفع هامها

فالشاعر يأبى الانسلاخ من القديم والتبرؤ منه مهما يبد ضئيل الشأن والأثر لأنه الأصل . والأصل تتبعه الفروع ..

وربما كانت صيحة الرصافي أقوى ما قيل في هذا الشأن ، وذلك في قصيدته « نحن والماضي » التي يكاد يدعو فيها الى قطع الصلة بالماضي والاهتمام بالمستقبل وحده (١) :

أرى مستقبل الأيام أولى | بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع | يردد في غد نظراً سديدا
فوجه وجه عزمك نحو آت | ولا تلفت الى الماضين جيدا
وهل إن كان حاضرنا شقياً | نسود بكون ماضينا سعيدا
تقدم أيها العربي شوطاً | فان أمامك العيش الرغيدا
وأسس في بنائك كل مجد | طريف واترك المجد التليدا
فشر العالمين ذوو خمول | إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم | أقام لنفسه حسباً جديدا
فدعني والفخار بمجد قوم | مضى الزمن القديم بهم حميدا

وهو يندد بحيرة العرب وجمودهم أو تلهيهم بأطياف الذكريات فيقول من قصيدة أخرى (٢) :

تراهم جميعاً بين حيران واجم | وآخر يطري ماضياً من فخاره

---

(١) ديوانه ٣٤
(٢) ديوانه ٣٦

وكذلك يعبر محمد رضا الشبيبي عن هذا الشعور المرير تجاه استنامة العرب الى أمجادهم الغابرة فيقول (١) :

قلب يحز به الألم   عبس الزمان أو ابتسم
يا أمة من جهلها   تأبى مجاراة الأمم
ذلت حديثا أمة   أبداً تفاخر بالقدم
وأحال منها رمة   طول التباهي بالرمم

وشبيه بذلك أيضاً ما يقوله حسن البحيري إذ ينكر على قومه تلك الغفلة، والزمن يسير حثيثاً بالأمم (٢) :

أين نحن اليوم من سير الزمن   أين منا نور عصر حاضر
نحن من ماضي الليالي في الدجن   نتغنى بحياة الغابر
شاقنا من عيشنا حلم الوسن   فغفونا عن عدو ساهر

ونجد مظهراً آخر لرد الفعل العنيف الذي أخذ يفتح عيون الشعراء على واقع أمتهم العربي في قول محمود غنيم الذي طالما اعتز نفسه بالأمجاد السالفة (٣) :

لا در در امرىء يطرى أوائله   فخراً ويطرق إن ساءلته ماهو

وفي قصيدة محمد عبد الغني حسن التي نظمها إثر قيام جامعة الدول العربية (٤) :

يا شرق قد دام الزمان ولم يعد   للمرء فخر في فخار المولد
قل للمفاخر في الحياة بأصله   فيم افتخارك بالقديم الأبعد
ما قيمة الماضي الدفين ومجده   إن لم يقس بالحاضر المتولد
هذا زمان لا تقام كرامة   فيه لماض غائب لم يشهد

---

(١) ديوانه ٩٤
(٢) ابتسام الضحى ١١٧
(٣) ديوانه ٧٨
(٤) من نبع الحياة ٥٧

ومهما يكن من أمر ، فان رد فعل كهذا كان لا بد منه في سبيل تقويم انحراف بعض مقومات القومية العربية عن طريقها السوي وفي سبيل الحد من طغيان الماضي على الحاضر والذكريات على الواقع .

« وما ينبغي إدراكه أن من أبرز سمات الثقافة الحية تأصلها بماضيها الايجابي ، فحري بها أن تظل واعية لماضيها مستمدة من هذا الماضي القوة والايمان ، ومنمية الارث الذي يتناقله مجتمعنا جيلا بعد جيل . على أن إيمانها هذا لا يؤدي بها الى الانخداع لان إيمانها بالعقل أشد وأقوى ... ولان الثقافة الحية ثقافة متطلعة الى الامام ، جوابة الآفاق مغامرة في ميادين العقل والروح لا تأخذ من الماضي إلا ما يوحي ويسند » (٢) .

ويحق ما رآه الدكتور عزة النص (٢) من أن « عبادة الاجداد وتقديس كل قديم والحفاظ على معالم القرون الاولى في ظهيرة العصور الحديثة كل ذلك قاد أمة الصين الى الانهيار .. والواقع أن في كل حضارة أسساً خالدة وأخرى زائلة ، والمهم في بناء القومية تمييز العمد الثابتة عن المظاهر المتغيرة . ولعل من خير ما نستوحي من الماضي تلك الطاقة المعنوية التي دفعت المصلحين الى الاصلاح والمجددين الى التجديد . من أبطالنا الشجعان نستلهم شجاعتهم لا أساليبهم في الطعان ، ومن علمائنا الافذاذ نستمد قدرتهم على البحث والغوص لا ما وصلوا اليه بالفعل ، من الماضين تبقى لنا حماسة نبيلة وهيجان خلاق » وقد قال موريس باريس (٣) « إن من واجبنا بل من ضروريات حياتنا أن نحب أمواتنا ؛ فأية قوة تنبعث عنهم ؛ أيها الاموات كم أنتم أحياء ! »

وجدير بشعرائنا أن يجعلوا من تراثنا العريق وأمجادنا الغابرة ذخراً نركن اليه ، وشعلة نهتدي بنورها وأساساً وطيداً نشيد فوقه مستقبلاً باسماً . ولن نرضى لهذا التراث وتلك الامجاد أن تكون لنا قوقعة ندور في داخلها

---

(١) انظر قسطنطين زريق . مجلة الآداب ، نيسان ١٩٥٤
(٢) مجلة الآداب البيروتية ، عدد نيسان (أبريل) ١٩٦٠ ، ص ٢
(٣) انظر المرجع السابق .

وأن تغدو لدينا وزراً ننوء بأعبائه . نريد أن تكون قوميتنا رحية إيجابية تبنى لخير الانسانية وتسهم في تقدم المجتمع البشري ، ولن نكتفي بعد اليوم بأن يردد شعراؤنا أقوالهم المكرورة بأن أرضنا مهبط النبوات ومصدر الاديان ، أو يتيهوا بأننا الجسر الذي يصل الشرق بالغرب وتعبر عليه حضارات الامم .

إن استقراء الشعر القومي الحديث يسمح لنا بأن نلاحظ بصورة عامة أن ماضي العرب المشرق كان خير نبراس يعشون الى نوره في إبان كفاحهم ، ويسيرون بهديه في أحلك أيام نضالهم ، ولم يكن تغني الشعراء بجيش أسامة وأبي عبيدة أو ببطولة خالد وطارق وصلاح الدين ، أو بوقعات بدر واليرموك والقادسية وحطين إلا انعكاساً لما استقر في نفوسهم من رغبات عارمة واماني طاغية ايام الاحتلال في ان يغدو لامتهم جيش قوي يكون لهم درعاً حصينة تجاه الطامعين ، ومعركة فاصلة تنجلي عن طرد الغزاة المستعمرين . وهذا التاريخ المشترك هو الذى كان يمد الشعوب العربية بروح الثقة والايمان والتفاؤل التي عبر عنها الشعراء اقوى تعبير . ولم يكن ماضي الاجداد إلا الذاكرة الحية للعرب عاشت في نفوسهم خالدة ، وكانت في حقيقتها مظهراً فعالا لمشاعرهم المتوثبة ، وركناً هاماً في بناء شخصيتهم القومية وإقامة مجتمع متقدم متحرر يضاهي ما كان عليه الاجداد من شأن نابه بين الامم .

على ان الشعر المعاصر لم يتجه الى التاريخ الحديث بمثل القوة التي وجدناها في اتجاهه الى التاريخ القديم . ويبدو ان ذلك يعود الى سببين : الاول كون العرب يوشكون ان يجتازوا مرحلة البعث التي طال امرها عليهم ، والثاني ان هذا الماضي القريب ما زال يفتقر الى تلك الهالة من القداسة والتبجيل التي وجدناها حول تاريخ العرب القديم والتي لا بد ان ترتسم حول كل تاريخ ، وتزداد اتساعاً كلما اوغل في القدم .

وإننا نجد الشعر العربي اليوم يجنح لابراز التاريخ القريب وتخليد أحداثه الحاسمة . وهذا التاريخ على قصر أمده وقرب العهد به ينطوي على عناصر الحياة

ويعكس وثبة العرب الرائعة ، من ذلك مثلا لجوء أحمد زكي أبي شادي الى بعث إحدى المناسبات القومية الكبرى حين أعاد الى الأذهان ذكرى انتفاضة مشرقة خاضها المصريون ضد الانكليز وانتصروا عليهم عام ١٨٠٧ في معركة رشيد ، وذلك في مطولته الشعرية التي أخرجها في كتاب مستقل حمل اسم « مفخرة رشيد » . ولسنا بصدد الحكم على مدى توفيق الشاعر في محاولته خلق الجو الملحمي أو مدى إيحاء أبياته في محاولته تلك ، ولكننا نقول إنه ميدان جديد اقتحمه أبو شادي بتأثير ملح من الروح القومية التي غمرت الشعر الحديث بقوة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، ومن هذا القبيل كثير من قصائد الذكرى التي يعمد الى نظمها الشعراء من حين الى آخر في انتفاضات العرب الحديثة وفي أحداثهم القومية البارزة ، من نحو ما قيل من شعر حماسي كثير في شهداء أيار وثورات مصر وسورية والعراق والجزائر وما تمخض عن ذلك من بطولات .

ومجمل القول إن تيار البعث الشامل قد استغرق نفوس العرب في العصر الحديث ، وكان الشعراء في طليعة من حمل رسالته وبشر به . وقد أخذ عنصر الزمان الخالد في هذا الوجود يطوي صفحات النضال العربي الحديث ويغيبها في كهوفه مضيفاً إياها بذلك الى السفر العربي العظيم ، وما نضال العرب في عصورهم الحديثة إلا رافد حي لذلك التاريخ الحافل ، شارك مشاركة فعالة في تكوين الشعور القومي المعاصر . ولقد وجد الشعراء في ذلك التاريخ الحديث مادة حية ذات أهمية بالغة في التعبير عن الوجدان العربي الراهن .

الفصل الرابع

المطامح والآلام المشتركة

إذا كان للماضي المشترك ذلك التأثير البليغ في حياة العرب القومية المعاصرة كما أوضحنا ذلك آنفاً من أقوال شعرائهم فمن الطبيعي أن يكون لحاضرهم وواقع حياتهم ووحدة مصيرهم تأثير فعال يسهم الى حد كبير في صهر مشاعرهم القومية ويؤلف بين قلوبهم ويوحد أهدافهم . وليس هذا الحاضر في حقيقته إلا امتداداً لذلك الماضي ، وحلقة أخيرة من سلسلته الطويلة ، كما أن هـذا الحاضر ليس إلا جزءاً من ذلك الماضي المتطاول الذي يمتد إليه بجذوره . وسيبقى هذا حال الزمان ما بقيت الحياة متطورة نامية متجددة ، وما دام قول شاعرنا قائماً :

إن هذا القديم كان جديدا وسيضحي هذا الجديد قديما

ومن الطبيعي أن يكون الشاعر وأي فنان شديد الارتباط بواقعه وبمجتمعه وحياة أمته . ولهذا نجد الشعر الحديث يعبر بقوة وحرارة عن حياة العرب الحاضرة الحافلة بالأحداث لأن الشعراء أصبحوا يحيون واقع أمتهم ويعيشون تجربتها الحية ، وكأن الأمر كما يقول أحد النقاد الفرنسيين « إن الآلام القديمة تغني ، أما الحديثة فتصرخ » .

وقد مرت بالعرب في حياتهم الحديثة ظروف متشابهة من الآلام المشتركة

التي تتمثل في ابتلائهم بالاستبداد والاستعمار والجوع والفقر ، كما جمعتهم الأقدار حول أهداف مشتركة واحدة تتركز في نشدان العدالة الاجتماعية والرخاء الاقتصادي والتحرر والديمقراطية والوحدة ...

وكل ما نطق به الشعراء حول ثورات العرب وانتفاضاتهم الحديثة في مختلف أقطارهم ضد الاستبداد والاستعمار في سبيل التحرر ليس في حقيقته إلا التعبير الرائع عن انصهار العرب في بوتقة قومية واحدة .

١

وليس كالآلام والنوائب ما يضم الشمل المبدد ويلم الشعث المفرق . وقد عبر الشعراء عن هذا العامل القومي بأسلوب مباشر فضلا عما ذكرناه من تعبيرهم عن حياة أمتهم وحاضرها المكافح . ولعل أولى درجات هذا التعبير ذلك التجاوب العاطفي العميق الذي نلمسه قوياً فيما نظمه الشعراء من قصائد شاطروا فيها كل شعب عربي منكوب آلامه وأحزانه وشاركوه في أمانيه وآماله . ومن أوائل ما يطلع علينا من هذا الشعر أبيات حافظ المشهورة التي يقول فيها (١) :

إذا ألمت بوادي النيل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألم ... أجابه في ذرا لبنان منتحب

وعندما شملت المصائب شعوب العرب ، وعمتها الآلام ، أصبح من الواضح أن الشاعر العربي لم يعد يتغنى بمشاعر شعبه فحسب بل أخذ يغني مشاعر العرب جميعاً . ويعتبر أحمد شوقي خير مثل على ذلك ، إذ ما كادت سحب الحرب الكبرى تنجاب عن العالم حتى تحول عن القصر والخديوي والسلطان والاتراك وبادر الى التعبير عن مصر والشعب ثم عن العرب أجمعين . « ولم ينطق عن الروح الوطنية لمصر وحدها بل حلق بقيثارته في جو العالم العربي كله ». فقبل هذه الحرب كان

(١) ديوانه ١ : ٢٦٨ وقد نظمها عام ١٩٠٨ .

يذكر العروبة على هامش مدائحه في الترك أو في الرسول الكريم ، أما اليوم وفي هذه الحقبة فانه يتغنى بالنزعات الوطنية والقومية الطارئة على هـــذه الشعوب . ويقف من العرب موقفه من مصر فهو يتغنى بأمجادهم الماضيـة ، وهو يتغنـى بثوراتهم الحاضرة ، وهو يحس إحساساً قوياً بأن مصر والشام والعراق وغيرهـا من البلاد العربية أسرة واحدة » (١) وعلى هذا النحو أخذت ربة شعر شوقي تغنى العرب أناشيد ودانيتهم وحرياتهم ، وتصور لهم آمالهـم في مستقبـل هنيء ، « وكان له من القدرة في التعبير ما جعله يذ معاصريه في كل ناحيـة لسها ، بل ما جعل العرب أنفسهم يعدون بعض قصائده كأنها مصاحفهـم » (٢) وفي مقدمة ما نظمة في دمشق منذ عام ١٩٢٥ مصوراً مشاعر السوريين ضـد الاستعمار الفرنسي قصيدته النونية التي مطلعها :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا   مشت على الرسم أحداث وأزمان

وقصيدته القافية التي مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق   ودمع لا يكفكف يا دمشق

وفضلا عن أن هذه القصائد تعد في ذاتها مظهراً فعالاً للتجاوب مـع آمال السوريين وآلامهم ، فاننا نجد في عدد من أبياتها ما يشير مباشرة وبوضوح الى عامل الألم المشترك الذي اعتبرناه من العناصر المكونة لقومية العرب الحديثة، فهو يقول(٣):

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم   ونحن في الجرح والآلام إخوان

كما يقول في قصيده أخرى (٤) :

بني البلد الشقيق عزاء جار   أهاب بدمعه شجن فسالا
وما زلنا إذا دهت الرزايا   كأرحم ما يكون البيت آلا

وربما كانت قصيدة شوقي التي نظمها بمناسبة تكريم العرب له عام ١٩٢٧ ومبايعته أميراً للشعراء ، في مقدمة قصائده التي تجلت فيها ، نازع الالم المشترك بين

---

(١) الدكتور شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٥٦
(٢) المصدر السابق ، انظر ١٥٩ ــ ١٦٠   (٤) الشوقيات ٢ : ١٢٣
(٤) الشوقيات ٢ : ٢٢٧

الشعوب العربية اهتماماً زائداً ، بل لا تكاد تضارعها في ذلك قصيدة أخرى ، وفيها يقول (١) :

يا عكاظا تألف الشرق فيه ... من فلسطينه الى بغدانه
رب جار تلفتت مصر توليه ... سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتنى معزياً بمآقي ... وطني أو مهنئاً بلسانه
كان شعري الغناء في فرح ... الشرق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح ... وأن نلتقي على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح ... لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم قيود ... تتنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء ... كلنا مشفق على أوطانه

ولا ريب أن ذلك المهرجان الادبي كان مظاهرة قومية رائعة وصورة حية لنزوع العرب نحو الالفة والاتحاد ، وإرهاصاً لفكرة الجامعة العربية التي اشتدت الدعوة اليها بعد عصر أمير الشعراء .

وتتجلى ظاهرة الالم المشترك بين العرب لدى سائر الشعراء في مختلف اقطارهم من ذلك أبيات لعبد المحسن الكاظمي يقول فيها (٢) :

أحن إذا قيل العراق وانحني ... وأشهق إن قيل الشآم وأزفر
وأطرق إن قيل الحجاز على جوى ... وأعجب اما قيل مصر وأبهر
جميع بلاد العرب في القدر واحد ... إذا وزنوا البلدان يوماً وقدورا

على أن هذا التعاطف كان يشتد إبان الازمات والمحن التي تلم بالعرب من حين الى حين . فعندما نكبت دمشق بقذائف الفرنسيين على أثر ثورة سورية عام ١٩٢٥ تجلى حزن الشعراء على عاصمة الامويين وتعاطفهم معها في مأساتها الى مدى

---

(١) الشوقيات ٢ : ٢٤٠
(٢) ديوانه المجموعة الثانية ٢٥١

لم يبلغه في حدث آخر من قبل . ويكفي أن نشير الى أن فاتحة شعر شوقي في الاتجاه العربي انطلقت منذ ذلك الحين على النحو الذي سبق أن رأيناه . وهـــذا معروف الرصافي يعكس ما اعتلج في نفس العرب تجاه الفيحاء آنذاك من أسى فيقول (١):

إذا هي مدت في الدجنة صوتها   تميد له في الغوطتين غصون
وتلهب منه في الفضاء شرارة   فتبصرها في الرافدين عيون
وتهوو له في ساحل النيل هبوة   أبو الهول منها واجد وحزين

وقد جمع محمود الحبوبي عناصر القومية من لغة ودين ومصاب مشترك على صعيد واحد في قوله (٢) :

سواء نحن في لغة ودين   كما أنا سواء في المصاب

ونجد لدى محمد مهدي الجواهرى تعاطفاً كبيراً مع آلام العرب الذين وحدت الجراح مشاعرهم فهو يقول مخاطباً أهل يافا في فلسطين (٣) :

ثقوا أنا توحـــدنا هموم   مشاركة ويجمعنا مصاب
تشع كريمة في كل طرف   عراقي ، طيوفكم العذاب
وسائلة دما في كل قلب   عراقي جروحكم الرغاب
يزكينا من الماضي تراث   وفي مستقبل جذل نصاب

وهذا عزيز فهمي يعبر من ارض الكنانة عن التعاطف الشديد بين العرب على اختلاف ديارهم فيقول (٤) :

---

(١) ديوانه ٤٥٤
(٢) ديوانه ٧٢
(٣) ديوانه ١٨٨
(٤) ديوانه ٧٦

ألسنا جميعاً أمة وحضارة تفرقنا أرض ويجمعنا عهد
إذا أن شامي تنبه هاجع بمصر وفي بغداد والتفتت نجد
غفونا جميعاً وانتبهنا فجاءة كأنا على وعد وقد أنجز الوعد

وهذا البيت الثاني لعزيز فهمي يذكرنا بروح حافظ إبراهيم في بائيته « سورية ومصر » التي سبق أن أوردنا بعض أبياتها في مستهل هذا الفصل . وقد حظي تعبير حافظ على بساطته بشهرة ذائعة وغدا محبباً الى الجمهور وأثيراً لدى الشعراء لأنه عبر بصدق عن عواطف الود والتآخي المتبادل في نفوس الشعوب العربية على اختلاف ديارها ، وعلى هذا المنوال نسج قول علي الجارم عن ظاهرة الألم المشترك الذي صهر أمته حين قامت جامعة الدول العربية (١) :

تذوب حشاشات العواصم حسرة إذا دميت من كف بغداد إصبع
ولو صدعت في سفح لبنان صخرة لدك ذرا الاهرام هذا التصدع
ولو بردى أنت لخطب مياهه لسالت بوادي النيل للنيل أدمع

والمعنى نفسه يكاد يمثل أمامنا في قول محمد عبدالغني حسن (٢) :

إذا تغنى بمصر بلبل غرد سمعت بالشام ألحان المغنينا
وإن شكت مصر من سوء ألم بها سمعت من سروات القدس شاكينا
بنا من الوجدان والآلام ما بكم فالوجد يشجيكم حيناً ويشجينا

٢

أما عنصر الامل المشترك فلا نستشفه إلا من خلال الآلام والمآسي التي حلت بالشعوب العربية .

---

(١) ديوانه ٤ : ١ : ٤ (٢) من نبع الحياة ٩٦

فالواقع أن الخطوب الجسام التي نزلت بالعرب منذ قيام الحرب العالمية الاولى عملت على ازدياد التقارب بينهم ، وأن الاستعمار الذي أصاب كرامتهم ومشاعرهم القومية بجرح بليغ قد ألف بينهم ولم شعثهم ووحد آمالهم . وكان الشعراء قبل الساسة والزعماء ، لسان الشعوب ورسل التقارب والالفة والوحدة . وهذا محمد عبدالغني حسن يقول في ذلك أيضاً (١) :

قد وحدت بيننا الآلام موجعة　　　وألفت بيننا الآمال والطلب
وجمّعتنا الجراح الحمر دامية　　　وللجراحات فيما بيننا نسب

ونجد هذه الظاهرة قوية لدى كثير من شعراء سورية الذين كانوا شديدي الاحساس بما يمر بالعرب من أحداث وما ينزل بهم من خطوب ، من ذلك قول أمجد الطرابلسي مستبشراً بالغد المشرق بعد أن ابتلي العرب زمناً بالاستعمار (٢) :

وحدتنا مواجع القيد حيناً　　　فارقبوا اليوم وحدة التحرر

كما نجد ما يضاهي هذا الاستبشار أيضاً في قول عمر أبي ريشة والاحتلال في أوج طغيانه (٣) :

هذه أمتي وهذي مغانيها ـ تجر السواد في الاعياد
كلما لاح بارق في سماها　　　أطفأته ريح الزمان العادي
جمعتها هوج الليالي على الجر　　　ح كما تجمع الندامى شوادي
والرزايا كم قربت بين أشتا　　　ت بداد وأمنيات بداد

وهذا الشاعر يتمثل في قصائده العنفوان القومي والارادة التي لا تقهر ، فهو متفائل أبدا ينبط النور من الظلام والماء من الصخر واليسر من العسر .

(١) من نبع الحياة ٩١٥
(٢) مجلة الرسالة ، السنة السابعة ص ١٠٦
(٣) ديوانه ١١٢

وقد ازداد الشعراء ثقة وأملا بمستقبل أمتهم وتحررها خلال سني الحرب الاخيرة إذ بـــدا للشعوب المستضعفة أن الاوان قد حان لتقطف ثمرات نضالهـا . وكانت سورية أول بلد عربي انتزع حريته من براثن المستعمر إثر انجلاء غيوم الحرب القاتمة . ونجد أبا ريشة أيضاً يعـبر عن تلك المنى المعسولة التي ذاق الشعب حلاوتها بعد لهفة شديدة وأيام مريرة ، وهو في أبياته هذه يبلغ حد مباركة الخطوب ، ويشير الى أنه لولا تلك الآلام لما تحققت هذه الآمال (١) :

لمت الآلام منا شملنا   ونمت ما بيننـا من سبب
فاذا مصر أغاني جلق   وإذا بغداد نجوى يثرب
بورك الخطب فكم لف على   سهمه أشتات شعب طيب

وفي أواخر أعوام الحرب الاخيرة حين أهل عام السلام على العالم المعذب قال محمود غنيم أبياته المفعمة بالآمال والمنى (٢) :

يا أيها العام المطل تحية   من خير سكان بخير بقاع
أمل العروبة فيك أعرض جانباً   من سؤدد تبكي عليه مضاع
أمل تكاد تحس وقع دبيبه   بـين القـلوب منافذ الاسماع

وبمشيئة الله وإرادة الشعوب تحققت هذه الآمال وتقلص ظـل الاستعمار البغيض عن قسم كبير من بلاد العرب التي أخذت القطر تلو القطر، تنعم بالتحرر .

والملاحظ أن هذا الاتجاه في الشعر القومي الذي ينزع الى تصوير الآلام المشتركة وواقع الامة العربية حظي باهتمام الجيل الجديد من الشعراء ، إذ أن عنصر الشباب مشدود بقوة الى المجتمع ، يتجاوب مع واقع حياته ويتفاعل مـــع وجدان أمته . في حين كان الجيل الاسبق من أمثـــال شوقي وحافظ ومحرم

---

(١) ديوانه ١٤٥   (٢) صرخة في واد ٣٥

وعبدالمطلب والزهاوي والكاظمي والوليد والغلاييني وسواهم أكثر اهتماماً بالماضي المجيد والتاريخ العريق ، أو أنهم كانوا يتأرجحون بين هذين الاتجاهين . وهذا طبيعي في فترة تاريخية معينة من حياة العرب يعتمدون فيها على قوة البعث القومي وأصالته .. وهذا الاتجاه الذي أخذ الشعراء يصدرون عنه بصورة مطردة منذ السنين الاخيرة التي سبقت الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، والذي يقيم الشعور القومي على أساس الآلام والآمال المشتركة ووحدة الهدف والمصير أخذ يغلب على الشعر المعاصر تبعاً لغلبة الطابع الاجتماعي على الفنون بصورة عامة ، وتبعاً لانسجام هذا الاتجاه مع النظريات الحديثة في القومية التي تجعل للعناصر الواقعية مثل وحدة المصير والهدف المشترك ، المقام الاول في تكوين الشعور القومي .

* * *

من خلال ما تقدم من بحث عناصر القومية ومقوماتها في الشعر المعاصر ، نلاحظ أن الشعراء لم يقصدوا في معظم ما نظموه من قصائد ومقطوعات الى ذكر هذه العناصر بشكل مباشر ، ولم يكن هدفهم سردها أو حصرها أو توضيحها لان ذلك من شأن النثر ويتنافى مع طبيعة الشعر وضيق قوافيه وأوزانه . وا كثر ما مر بنا من الشواهد يدل على السمة العفوية التلقائية التي كان يصدر عنها الشعراء في التعبير عن تلك المقومات والعناصر التي تشكل الشعور القومي ، وهذا ما يفسر لنا قلة الاشعار التي عمد فيها اصحابها الى إبراز العناصر القومية مجتمعة في قصيدة أو مقطوعة واحدة . على أن أثر الدراسات الفكرية والابحاث الاجتماعية أخذ يبدو لدى عدد من الشعراء المعاصرين الذين تسلحوا بالثقافة والمعرفة بعد ان كان من سبقهم من شعراء الجيل الماضي يكتفون بمحاولة إتقان متون اللغة واستيعاب الفاظها وتنميق عبارتها .

وربما كان عباس محمود العقاد رائد الاتجاه الجديد ، وهو مع عزوفه عن معالجة الشعر القومي وبعده عن تيار العروبة بصورة عامة قد ترك

لنا في ديوانه « وحي الاربعين » قصيدة تعد فريدة بالنسبة الى موضوعنا وقد نظمها في عيد الاستقلال السوري عام ١٩٣٠ ومنها قوله (١) :

إنا بنو وطن تقرب بينه ... سيناء في قدسية وجلال
الشمس تجمع في المطالع بيننا ... والارض في حرم الجوار الغالي
ومعالم التاريخ في كتب وفي ... عقب وفي نصب وفي اطلال
ولسان صدق في اللغات تألفت ... فيه القلوب تألف الاقوال
شكواكم شكواى او سلواكم ... سلواى او اشغالكم اشغالي
ومطالب الغازين في بيدائكم ... كمطالبي ومآلكم كمآلي

فقد اتى الشاعر تقريبا على جميع مقومات القومية العربية حين تحدث عن اشتراك العرب في الارض والتاريخ والنصب والآثار واللغة والعواطف والافكار والآلام والمصائب والامال والاهداف والمصير . ولا يبعد ان يكون العقاد قد وضع تخطيطا مسبقاً لافكاره وعرف ماذا ينبغي عليه قوله قبل ان ينظم ابياته هذه وكأني به في ذلك ، يقبل على نظم قصيدته بروح تماثل اقباله على تدبيج مقالته .

كما نقع على ما يشبه ذلك في ابيات لخليل مردم بك يقول فيها (٢) :

تأبى الاواصر من قربي ومن لغة ... إلا الوفاق فكيف اليوم نختلف
إن المصائب والاحزان تجمعنا ... والسعي والامل الفينان والهدف

فقد اتى الشاعر في هذين البيتين على معظم المقومات القومية بين العرب حين ذكر اشتراك شعوبهم في صلات القرابة واللغة والالام والمطامح والاهداف ...

وإذا ما انتهينا الى هذه المرحلة من استجلاء مقومات القومية العربية في الشعر الحديث نكون قد رصدنا عناصر المفهوم القومي لدى الشعراء .

---

(١) ص ١٤٦ (٢) ديوانه ١١٥

ومن الطبيعي أن يكون الجانب العاطفي من المفهوم القومي اكثر بروزاً من العنصر الذهني والواقعي في الشعر لان الشعر لغـــة العاطفة والشعور . ونحن لا نـكاد نجد في الشعر الحديث اهتمامـاً بسائر العناصر المكونة للقومية مثل المصالح المادية المشتركة ووحدة الارض وغير ذلك مما ازور عنه بسبب طابعه العلمي المحض . كما ان الشعراء في تناولهم هذه المقومات استطاعوا ان يمزجوها بحراره انفعالهم وأصالة شعـورهم فخرجت تنبض بالحياة ...

الفصل الخامس

الوحدة العربية

١

كان الوطن العربي واحداً منذ عصر الراشدين ، حاضرته دمشق أو بغداد أو القاهرة . فالمتنبي مثلا نشأ في الكوفة وقضى حياته متنقـلا بين حلب وأنطاكية ودمشق والقاهرة ، وابن خلدون عاش شطراً من حياته في المغـرب وشطراً آخر في مصر .. وما عرف العرب التجزئة إلا في أحلك عهودهم . ولم تكن الدويلات المتنافرة في الماضي إلا نتيجة عوامل سياسية فرضها الزعماء والقـواد دون أن يقيموا أي اعتبار لرغبات مجتمعاتهم آنذاك ومع هذا فقد كانت الحـدود مصطنعة تتراوح بين مد وجزر بحسب ازدياد نفوذ الحكام أو ضعفه ، وما أسرع ما كانت تمحى بمجرد انهيار ذلك النفوذ . وحتى في العهد العثماني الذي دام نحـواً من أربعة قرون كانت أقطار العرب وحدة متماسكة يتنقل بينها العربي كيفما شاء . أما ألفاظ أردني ولبناني وفلسطيني وسوري .. فلم تعرف إلا بعد الحرب العالمية الأولى حين فرض الاستعمار التجزئة على بلاد العرب وأقام بينها حدوداً مصطنعة (١) .

---

(١) انظر محمد منيف الرزاز في محاضرة له عن القومية ألقاها في الكويت .

« لقد تمت بين سكان البلاد العربية عوامل الوحدة والانسجام بشكل لم يتم لأكثر بلاد العالم إذ لم تقتصر هذه الوحدة وذلك الترابط والانسجام على ناحية اللغة أو الأصل أو الجنس أو الثقافة أو المعتقدات ، بل اجتمع ذلك كله وتظاهرت هذه العوامل كلها لتكوين المجتمع العربي وجعله وحدة اجتماعية حية خصبة منتجة فعالة » (١)

إن القومية في جوهرها - رابطة تجمع أبناء الأمة الواحدة ، وهي تستلزم قيام دولة مستقلة متحررة ذات شخصية وسيادة تتآلف فيها مختلف عناصرها وطوائفها وأديانها وطبقاتها وأقاليمها ... فالقومية بذلك سد قوي أمام العدوان الخارجي وسياج منيع ضد التفرق الداخلي والنزعات الوطنية الضيقة . وتعد الثورة العربية الكبرى التي قامت إبان الحرب الأولى أول تعبير عملي شامل عن هذه المنازع المضطرمة في نفوس العرب ، فقد كانت في جوهرها ترمي الى تحرير العرب وجمع شملهم في دولة كبيرة واحدة . ولم ينظر العرب آنذاك الى هذا الهدف نظرتهم الى وضع جديد ، وإنما كانوا يرون فيه إعادة للأمر الى نصابه ، إذ من الطبيعي أن يتحد العرب لا أن يتفرقوا . ولكن هذا الحلم الكبير سرعان ما تبدد بلجوء المستعمرين الى احتلال البلاد وتجزئتها دويلات عديدة منفصلة . وقد حز ذلك كثيراً في نفوس العرب وكان شعراؤهم خير مرآة تعكس لنا شعور المرارة والخيبة . ولعل شعراء الشام كانوا أشد إحساساً من سائر الشعراء العرب بوطأة هذا التقسيم الذي خطه الحلفاء سراً خلال الحرب العالمية الأولى . ويعد خير الدين الزركلي في مقدمة من ناضلوا في سبيل القضية العربية ، ونافحوا عن وحدتها ، من ذلك قوله حين تكشفت نوايا الحلفاء تجاه بلاده (٢) :

فيم الونى وديار الشام تقتسم ... أين العهود التي لم ترع والذمم
ما بال بغداد لم تنبس بها شفة ... وما لبيروت لم يخفق بها علم

وقد عبر أبو الفضل الوليد من وراء البحار عن شعور الأسى تجاه الوطن الممزق بقوله : (٣)

---

(١) محمد المبارك ، الأمة العربية ١٨ .
(٢) ديوانه ١٥
(٣) نفحات الصور ٦٣

قلبي تقسم وجداً من تقسمهم   لكن حبي وحيد غير منقسم

وكانت أبيات خليل مردم من أصدق ما تجلى فيه شعور الاستنكار الذي شمل العرب آنذاك ، فهو يقول والأسى يملأ قلبه (١) :

فيم التقاطع والأرحام واشجة   والدار جامعة والملتقى أمم
الله في قطع أرحام وفصم عرى   عهدي بها وهي وثقى ليس تنفصم
ماذا عسى أنكرت من جلق حلب   بل ما عسى أهل لبنان يريبهم
بلادنا ويد التقسيم تقلقها   كأنها رقعة ينتابها جلم
أكل حاضرة دار لمملكة   أبعاد ما بينهن الفتر والبصم

كما ندد إلياس قنصل من مهجره أيضاً بهذه الحدود التي خطها المستعمر في قلب الوطن العربي وأقام على أطرافها دويلات وحكومات (٢) :

دويلات تفرقها حدود   مزيفة أقيمت ثم قسرا
وتجمعها العروبة وهي روح   مقدسة بها الخلد استقرا

وحين انعقدت آمال العرب على فيصل بن الحسين بطل الثورة العربية ، في توحيد وطنهم الممزق ولم شعثهم المفرق أعرب شاعر العراق محمود الحبوبي عن تلك الأماني العذاب بقوله (٣) :

بشرت بالفوز قومي العرب مذ عقدت   عليك يا فخرها آمالها العرب
فانهض لتوحيدها واجمع مواطنها   كما يضم بنيه التائهين أب
حقق كبار أمان أنت باعثها   الى اتحاد هو الآمال والأرب

---

(١) جريدة ألف باء الدمشقية السنة الأولى ، العدد ١٧٧ وانظر أيضاً ديوانه ١١٦
(٢) السهام ٤١
(٣) ديوانه ٧٠

٢

إن النزوع نحو التكتل بين أفراد الشعب الذين يتكلمون لغة واحدة ويعيشون في أرض واحدة وتربطهم عادات متشابهة وثقافة مشتركة ظاهرة طبيعية في حياة المجتمعات البشرية « وكلما عرضت ظروف عاقت هذا الوضع الطبيعي وبدلته ظهرت دوافع نفسية وتيارات اجتماعية لارجاعه الى اصله. ولذلك فان الأمم التي قسم شعبها وأرضها لسبب من الاسباب أو احتلت وغلبت على أمرها لا بد أن يدفعها دافع طبيعي الى الوحدة والتحرر والاستقلال »[1]

وقد كان وجدان الشعراء في هذا العصر نابعاً من هذه الحقيقة ؛ فقد أدركوا جيداً أن أزهى عهودهم في الماضي كانت إبان وحدتهم ولذلك كان شعورهم بالتجزئة قوياً حاداً.

وقد بدا جلياً في أعقاب تجزئة المستعمرين لبلاد العرب أن الأمة لا ترضى عن التحرر ووحدة الشمل بديلا. إلا أن الدعوة الى الوحدة الشاملة التي لم تفتر في أي وقت على ألسنة الكتاب والشعراء وبخاصة في الشام والعراق أخذت تبدو عاطفية عسيرة المنال ، وكان منطق الأمور وتطورها يستدعي نظرة أكثر واقعية في ظل تلك الظروف والملابسات حتى لا يغدو الأمر مجرد شعار أو نداء فحسب. وبهذا المنظار كان خليل مردم بك يواجه قضية قومه[2] :

فكيف ترجّي جمع (قيس ويعرب) وشملك يا هذا شتيت مفرق
وكيف ترجّي وحدة عربية ومن دون (راشيا)[3] حدود وبيرق

والواقع أن العرب بعد أن ابتلوا بالتجزئة إثر دخول المستعمرين بلادهم

---

(١) محمد المبارك : الأمة العربية ٣٨ (٢) ديوانه ٢٧٢
(٣) «راشيا قضاء سوري في الأصل سلخ عن سورية أيام الانتداب وألحق بالجمهورية اللبنانية» : الشاعر.

واقتسامها غدوا يتلهفون على ضم ما انفرط من عقدهم ، فكان كل قطر يحن الى وصال جاره ، وكل شلو ممزق ينزع الى التقرب من صنوه والاتحاد به ، لأن هذا الاتحاد إن هو الا مرحلة في سبيل الوحدة الكبرى ، وخطوة نحو اقامة الوطن العربي الكبير .

ويعبر بدوي الجبل عن هذه الرغبة الملحة في تلاقي الشقيقتين سورية ولبنان بعد أن حال دون ذلك الدخيل الأجنبي فيقول : (١)

لبنان والغوطة الخضراء ضمهما ... ما شئت من أدب عال ومن نسب
ما في اتحادهما تا لله من عجب ... هذا الفراق لعمري منتهى العجب

أما المهجريون الذين غادروا لبنان واستقربهم المقام في أمريكا فلم يكونوا يترددون في اعتبار أنفسهم سوريين سواء في أحاديثهم أو في صحفهم أو خطبهم أو أشعارهم ، وكان تآخيهم في تلك الأرض النائية نموذجاً لوحدة القطرين .

ومن جهة أخرى كان ثمة تجاوب مماثل بين شعب الشام وشعب العراق اللذين رسم (سايكس وبيكو) الحدود بينهما أيضاً على الورق ، ثم خطتها دولتا الاستعمار فوق رمال عربية كانت الرياح تعصف بها صباح مساء معلنة وحدة القطرين وسائر أقطار العرب ، وقد عبر بدوي الجبل كذلك عن هذه الحقيقة بقوله (٢) :

ليس بين العراق والشام حد ... هدم الله ما بنوا من حدود

كما ندد محمد مهدي الجواهري بعبث الاستعمار في أرض الوطن وفصله بين الشام والعراق ، في حين أن الطبيعة هي التي أجرت بينهما الفرات العذب وجعلتهما ينهلان من منبع واحد (٣) :

(١) ديوانه ١٧٣
(٢) ديوانه ٣٩
(٣) ديوانه ٣ : ٨٥

ثوي دمشق فلا حد ولا سمة ... ولا خطوط كلعب الطفل تبتدع
تقصيك عن أرض بغداد ودجلتها ... أما الفرات فنبع بيننا شرع

وما الشام والعراق لدى أبي الفضل الوليد إلا أختان ربطت بينهما آصرة العروبة (١) :

الشام أخت للعراق وفيهما ... نور العروبة للضليل الناشد
أهلوهما أبناء عم كلهم ... عرب بآداب لهم وعوائد

وكذلك يعبر محمد رضا الشبيبي عن شعوره وشعور كل عربي حين يغادر بلده الى بلد عربي مجاور فيقول (٢) :

وما أنا في أرض الشآم بمشئم ... ولا أنا في أرض العراق بمعرق
هما وطن فرد وقد فرقوهما ... رمى الله بالتشتيت شمل المفرق

وبمثل هذا التجاوب كان الشعراء يعبرون عن عاطفة الأخوة بين المصريين والعراقيين . وأكثر ما كان ذلك يحدث حين يتزاور أبناء الشعبين ويلتقون ، إذ تنطلق مشاعر الاخوة الكامنة متدفقة نبيلة ، كما تجلى ذلك في أبيات لعزيز فهمي يعرب فيها عن حبه الدفين وحب المصريين جميعاً لاخوتهم في بلاد الرافدين (٣) :

أهلا لقيناكم فما حنت ركا ... ئبنا على ضجر الى أوطان
إنا لتجمعنا بكم أقوى العرى ... والامس أبقاها على الازمان
ويزيدكم حباً إلينا أننا ... في الجرح والآلام مشتركان
ويكاد من شوق إليكم يلتقي ... لولا التخوم النيل والنهران
بغداد إني قد رضيتك موطناً ... مصر وأنت اليوم لي وطنان

---

(١) نفحات الصور ٥٦
(٢) ديوانه ٤٢
(٣) ديوانه ٢٩

وقد عزف شعراء مصر والسودان ألحان الاخاء بين شعبيهم ، ونادوا بوحدة وادي النيل في كل مناسبة قومية . وهذا أمير الشعراء شوقـي يرى أن القطرين ليسا إلا عضوين لجسم واحد فهو يحذر من فصلها اذ يقول (١) :

احذروا من قسمة النيل فيا ضيعة الوادي إذا النيل انشطر

وكان محمد الاسمر متلهفاً على وحدة شعب وادي النيل وهو في ذلك يعكس رغبات الملايين في مصر والسودان ، حتى انه خص السودان الشقيق بقسم من ديوانه . ومن قصائده في هذا الصدد قوله (٢) :

نحن الشقيقان الوفـ يان على مر الزمن
ونحن مذ كنا ، له إن لم نكن له فمن
قلوبنا وحـــدها في السر منا والعلن

وهويدعو بحرارة الى وحدة القطرين ويناجي أبناء وادي النيل بقوله(٣):

جل ربي عن الشريك فما يجـ ري سوى ما يشاؤه ويريد
يا بني النيل (منبعاً)و(مصباً) وحدوه ، فديننـــا التوحيد

أما التجاوب بين الشام ومصر وحنين كل شعب فيها الى وصال الآخـر فقد كان قوياً وعميقاً عبر عنه شعراء القطرين منذ فجر النهضة الحديثة ، وتجلى في قول حافظ ابراهيم قبل أكثر من خمسين عاماً إذ قال (٤) :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب
هذي يدى عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

(١) الشوقيات ٢ : ٢٠٢
(٢) ديوانه ٢١٨
(٣) ديوانه ٢١٦
(٤) ديوانه ١ : ٢٦٨

وعندما زار لبنان شاعر النيل نفح أهله بتحية الاخاء الخالص في قصيدته « تحية الشام » قال فيها (١) :

لي موطن في ربوع النيل أعظمه ولي هنا في حماكم موطن ثاني

وقد تملك الشعراء السوريين هوى لا حد له تجاه مصر إذ كان العرب قاطبة وبخاصة السوريون يتطلعون الى أرض الكنانة ويحلونها محل الزعامة في قيادة العرب وتحقيق أمانيهم المنشودة في التحرر والاتحـــاد ، وهم لم ينسوا أنها كانت ملجأ لاحرارهم وسائر احرار العرب في أيام محنتهم ، ومنبراً حراً لنشر آرائهم المتحررة والتبشير برسالتهم القومية . ولم يكد يتخلف عن الاشادة بروابط الاخاء بين البلدين شاعر عالج الشعر القومي . وكان في مقدمة الذين بشروا بفجر الوحدة في أحلك الاوقات وابان الاحتلال الفرنسي خير الدين الزركلي وشفيق جبري وخليل مردم ومحمد البزم ومحمد الفراتي ومحمد الشريقـــي وأمجد الطرابلسي وسواهم من الشعراء . وقد عبر شفيق جبرى عن هـــذا الشعور الفياض منذ أن ثارت مصر ثورتها الشاملة عام ١٩١٩ (٢) :

بين الكنانة والشآم أواصر مشدودة كأواصر الارحام
ما هاج في ظل المقطم هائج إلا سرت أصداؤه في الشام

وحين زار أمير الشعراء دمشق عام ١٩٢٥ تدفقت مشاعر شفيق جبرى بصدق وحرارة قل أن نجد لها نظيراً عند شاعر آخر (٣) :

تلك الاواصر لم تزل معقولة من عهد عمرو لم يحل عقالها
كهفان تضطرب العروبة فيهما حتى تجول على السنين مجالها

---

(١) ديوانه ١ : ١٣٤ (٢) صبري الاشتر : المختار ٤
(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٥ ، ج ٨ ، ص ٣٨٨ .

وإذا الشدائد بالكنانة أحدقت   وثبت دمشق فقطعت وصالها
لو تشتكي مصر أذى بشمالهـا   بترت ربوع الغوطتين شمالهـا

ومما يدل على هذا الهوى العميق في نفس الشاعر نحـو مصر أنه عاد الى تصوير عواطفه الملحة حين زار حافظ إبراهيم دمشق عام ١٩٢٩ فقال (١) :

إذا بكت جنبات النيل من ألم   بكت دمشق بدمع منه هتان
أواصر ببيان العـرب محكمة   النيل والشام في الآلام صنوان

ونحن نقع على المشاعر نفسها لدى خليل مردم حـتى كأن مصر غادة يتلهف الجميع على وصالها (٢) :

مصر العزيزة والشآم على الولا   إلفان ضمهما هوى وغرام
من عهد عمرو لم تحل عظيمة   في مصر إلا شاركتها الشام

وكذلك يرى محمد الفراتي أن مصر والشام أختان وكأنه يستنكر انشطارهما فيقول (٣) :

أمة الشام والشآم قديماً   أخت مصر المبارك المعمور

وتعد قصيدة محمد الشريقي من أبرز ما قيل في وحدة الشعبين المصري والسوري منذ بضع وثلاثين سنة ومن أبياتها قوله (٤) :

أ إلى مصر أم الى الشام تصبو   والشقيقان واحد في وصـاله
وطن العرب خافه كل عات   أغـرق الفـاتحين بحـر رمـاله

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٩ ، ج ٦ . ص ٣٧١
(٢) جريدة ألف باء الدمشقية عدد ٥ آب ١٩٢٥ ، وانظر ديوانه ٢٥٩ .
(٣) ديوانه ١٩
(٤) ديوان الثورة ٩٢ .

مصر والشام فرعه الوارف الظل ـ وأهل القطرين من أشباله
مصر والشام مشرقان لشمس ضاء منها الزمان في إقباله
مصر والشام لن تموتا وإن جا ر علينا الدخيل يوم نزاله
مصر والشام مطلعان لفجر عربي غطى على آصاله
نهضا يبعثان عصراً قديماً في جديد حاكا على منواله
مصر والشام دوحتان لشعب صانه الله ، مد في أظلاله

كل هذه المشاعر الفياضة ، والتجاوب العميق تجاه مصر لم تكن في الحقيقة إلا إرهاصا بالتيار القومي الجارف الذي شمل الشعبين بعد ذلك وآل الى وحدة القطرين كفاتحة مباركة لوحدة العرب الشاملة .

٣

على أن الوحدة الشاملة والدولة الكبرى كانت هدف العرب الأول وأمنيتهم الغالية ، وهي رغبة أصيلة في نفوسهم لم تزحزحهم عنها نوائب الدهر ومكائد المستعمرين ، وقد تجلى ذلك أشد ما يكون منهم إبان الحرب الأولى ، في ثورتهم العربية الكبرى ، ثم في غضبتهم المضرية الشاملة على تجزئة بلادهم واستنكار إقامة الحدود بينهم كما تبين ذلك من خلال قصائد الشعراء ومقطوعاتهم . والحق أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا يتحدثون عن السوري واللبناني والمصري والجزائري والعراقي إلا كما يتحدثون عن الحلبي والبيروتي والاسكندري والوهراني والموصلي .. وكما قال حسن البحيري (١) :

---

(١) ابتسام الضحى ٧١

لا يعرف العربي في الأحداث ـ بالمصري والسوري واللبناني
فالشرق تجمعه العروبة عروة أدنت أقاصي مصر من بغدان

لقد كان اجتماع شمل العرب الممزق حلماً يداعب أخيلة الشعراء وهذا ما جمل إلياس فرحات يقول (١) :

إن من الموت يحلو في سبيل الاتحاد

وعندما بلغ أرض البرازيل أول سفير لمصر بادر « شكر الله الجر » إليه يسائله بلهفة المشوق المستهام وكأنه يرى فيه نفحة من بلاده وقومه (٢) :

كيف حال العراق بل كيف مصر كيف لبناننا وكيف الشآم
أتراها لدى صروف الليالي لم يزل دأب أهلها الانقسام
لو تطيق الرجوع طرنا اشتياقا لبلاد هي المنى والمرام

فالشاعر بحنينه الطاغي الى وطنه يرى في بلاد العرب المتعددة وطناً واحداً أو أعضاء في أسرة واحدة ، إنه يستفسر عنها الواحد بعد الآخر ويأسى لتقاطعها .

وهكذا كانت تتجلى لهفة الشاعر العربي على رؤية بلاده متحدة ولو كان في أقاصي الأرض .

وثمة تعبير جميل عن نزوع العرب الى الوحدة الشاملة لدى حليم دموس الذي وفق في تصوير عواطفه القومية من خلال تصويره لطبيعة بلاده الساحرة حيث يقول (٣) :

---

(١) ديوانه ١٦٩
(٢) الروافد ١٢
(٣) المثالث والمثاني ١٣٢

وتقارب الأرواح ليس يضيره | بين الديار تباعد الاجساد
أفما رأيت الشمس وهي بعيدة | تهدي الشعاع لأنجد ووهاد
أنا كيف سرت أرى الأنام أحبتي | والقوم قومي والبلاد بلادي
بردى كدجلة والفرات محبة | والنيل كالأردن طي فؤادي
وأرى الرصافة في العراق وكرخها | كالصالحية مرقد العبّاد
والغوطتين وكرم وادي زحلة | كنخيل مصر في ظلال الوادي
وحفيف هذا الأرز في لبنانه | كحفيف ذاك النخل في بغداد

ومع أن مضمون القصيدة لا يخرج في جوهره عما قصد إليه الشاعر في بيته الأول فاننا نلذ لوقع هذه الأماكن من بلاد العرب على أسماعنا. وقد طاب للشاعر العزف على وتر الوحدة العربية والترنم بذكر بلدان العرب وبسحر طبيعتها بعد أن أضفى عليها من روحه وفنه ... وهذا الجانب الشعوري والعاطفي كان السمة البارزة للنزوع نحو الوحدة الشاملة لدى الشعراء العرب بصورة عامه. ونحن نجد هذه الروح أيضاً لدى الشاعر القروي الذي كان يعيش تجربة الوحدة العربية بجوارحه، فهو يعبر عن تعلقه بها بما يشبه لهفة المتصوفه إذ يقول (١):

هبوني عيداً يجعل العرب أمة | وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا | وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

وما أروع تصويره لوحدة مشاعر العرب رغم تجزئة بلادهم واختلاف ديارهم حين قال (٢):

وما ضرنا ان لم يك العرب وحدة | وقد وحدتنا في الجهاد المقاصد
أصابع كف المرء في العد خمسة | ولكنها في مقبض السيف واحد

---

(١) ديوانه ٣١٥
(٢) ديوانه ٤٢٩

وقد رأى أمجد الطرابلسي في وحدة النضال والآلام المشتركة بشيراً بالوحدة العربية المنشودة فراح يقول بلهجة الواثق المطمئن (١) :

وحـدة العرب مزقت حجب الليل ـ وشعت ملء الفضـاء المنـير
عرب نحن ما نذل لبـــاغ مستبيح ولا ندين بنـير
وحدتنا مواجـع القيد حينـــا فارقبوا اليوم وحدة التحرير

والظاهرة التي يسجلها الشعر العربي باعتزاز أن سياسة الأمر الواقع التي استمر المحتلون في تطبيقها على بلاد العرب وإصرارهم على تثبيت الحدود بينهم لم تستطع أن تنال من نفوس أبناء الشعوب العربية ، فقد ظلوا على الدوام يرون في تجزئة بلادهم تقطيعاً لأوصال أمتهم . وقد تجلى هذا الشعور قـوياً على ألسنة الشعراء ، من ذلك قول حسن البحيري (٢) :

لئن فرقتنا أكف الخطوب ديارا تقاسمها المقتسم
فان لنا في طـوايا القلوب لشملا تأصـل في كل دم

ولعل فيما قاله محمد مهدي الجواهري في الأبيات التالية نفحة صادقة من الشعور القومي الفياض الذي يشعر به كل عربي يغادر بلده الى بلد آخر شقيق ، فهو يصور مشاعره إثر ارتحاله من العراق الى فلسطين بقوله (٣) :

أقلتني من الزوراء ريح الى يافا وحلق بي عقاب
وراح الله منبسطاً عليه من الزهرات يانعة خضاب

(١) مجلة الرسالة ، السنة السابعة ص ١٠٦٠ .
(٢) ابتسام الضحى ٦٢
(٣) ديوانه ١٨٨

وقلت وما أحير سوى عتاب ولست بعارف لمن العتاب
أحقاً بيننا اختلفت حدود وما اختلف الطريق ولا التراب
ولا افترقت وجوه عن وجوه ولا الضاد الفصيح ولا الكتاب
لئن حم الوداع فضقت ذرعاً به واشتف مهجتي الذهاب
فمن أهلي الى أهلي رجوع ومن وطني الى وطني إياب

٤

أما الدولة العربية الموحدة فقد كانت مشيئة شعوب تؤمن بأنها أمة واحدة ومن حقها أن تعيش في وطن واحد. ويبدو أن صورة الدولة العربية الكبرى التي أقامها العرب في أوج ازدهارهم والتي امتدت من حدود الصين الى شاطىء الاطلسي لم تكن تبرح مخيلة الشعراء، وقد انبعثت هذه الفكرة قوية إبان الحرب العالمية الاولى وفي أعقابها حين تفجر الشعور القومي في نفوس العرب. ولم تكن الثورة العربية الكبرى في الواقع إلا مظهراً فعالا لهذه الرغبة الملحة. وهذا أبو الفضل الوليد يعبر عن تلك المشاعر التي استمدها من علم الثورة آنذاك بقوله (١):

لك الفتوح التي في الصين آخرها وفي المحيط شهدت الموج يلتطم
من الحجاز الى أرض الشآم الى أرض العراق لك الآفاق تبتسم

كما عبر عبد المحسن الكاظمي عن هذه الاماني باقامة الوطن الكبير الذي يأمل العربي أن يتنقل في ربوعه أنى أراد (٢):

---

(١) الانفاس الملهبة ١٢٠
(٢) ديوانه : المجموعة الأولى ١٧٠

حبذا يوم يشتم المرقونا   حبذا يوم يتهم المتجدونا
جبذا يوم يصبح العرب طرا   في جميع البلاد متحدينا

وكان العرب منذ أوائل هذا القرن يرجون الخلاص من نير العثمانيين ويطمحون الى تأسيس دولة عربية تضم الاقطار التي كانت خاضعة لسلطة الآستانة. وإذا كانت الظروف السياسية قد اقتضت أن يسعى العرب يومئذ الى وحدة تضم عدداً معيناً من أقطارهم فليس معنى ذلك أن الشعراء اعتبروا هذه المرحلة غاية في ذاتها، فهم لم يكونوا ليرضوا عن الوحدة الشاملة بديلا، وحدة تضم العرب قاطبة وتستعيد أيام الامويين والعباسيين. وكان في طليعة من تغنوا بهذا الامل أبو الفضل الوليد أيضاً، فقد عبر من مهجره القصي عن استبشار لا حد له باستعادة عهد المأمون والرشيد إثر نشوب الثورة العربية إبان الحرب العالمية الاولى في قصيدة أسماها « الدولة العربية »(١) :

الله اكبر عادت دولة العرب   بشرى لهارون والمأمون في الترب
دمشق حنت الى بغداد واضطربت   مصر التي هي دار العلم والأدب

وفي تسمية الشاعر نفسه إحدى قصائده القومية باسم « الاموية » دليل على على إلحاح صورة تلك الدولة العربية التي شادها الاجداد، على نفسه.

وفي قصيدة أخرى يعبر أبو الفضل أيضاً عن هذا الهوى العميق الذي يكنه نحو العروبة ودولتها المنشودة التي ملكت عليه مشاعره فيقول (٢) :

نعم موطني لبنان لكن مولدي   به عربي كالولي من السحب
فلا قوم إلا العرب لي وأنا لهم   على البؤس والنعماء والسلم والحرب

(١) الانفاس الملهبة ٨٥
(٢) الانفاس الملهبة ٣

فأعظم وأكرم باتحاد ونسبة الى دولة تمتد في الشرق والغرب
وما هي إلا أمـــة عربيـة دماً ولساناً ليس تفصل بالترب

وكان الشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية في طليعة الداعـين الى توحيد شمل العرب في دولة واحدة مرهوبة الجانب ، حتى لقد انكر أن تقوم هذه الدول الصغيرة على أشلاء الوطن الممزق بتدبير من المستعمر ، وبخاصة بعد أن اتجه الشبان في كل قطر الى تقديس هذه الحدود الموضـوعـة في صلب الوطن العربي ، وقد أشار الى ذلك في قوله منذ أوائل عهده بالنضال (١) :

ولقد برئت اليك من وطنية ليست تجاوز موطن الميلاد

وقل أن نجد لشاعر إلياس فرحات نظيراً في تصويره الرائع لهـذا الوطن العربي الكبير الذي يخفق له فؤاده بقوة من وراء البحار (٢) :

أرى موطناً كالنسر يبدو خياله على الارض ثبتاً وهو في الغيب طائر
جناحاه مصر والعراق وصدره ــ الشآم ومجمـوع الجزيرة سـائر
يذود جناحاه عن الجسم كله وتفدي جناحيه الضلوع الحرائر

وفي تشبيه دولة العرب المنشودة بالنسر وأقطارها بأعضائه تعبير رائع عن وحدة العرب في وطنهم الكبير .. وكذلك نستمع من المهجر الى منـاجاة نسيب عريضة شاعر الحنين وهو يصور مشاعره تجاه بلاد العرب التي انصهرت أجزاؤها في قلبه فخرجت على لسانه متحدة متآخية (٣) :

الأهل أهلي وأطلال الحمى وطني وساكنو الربع أترابي وأقراني

---

(١) ديوانه ٦٤ .
(٢) ديوانه ١٣٢
(٣) ديوانه ٢٤٥

لاحد عندي إن جارت حدودهم الشام شامي ومصر أخت لبنان
وفي فلسطين أقدامي وعاطفتي في نجد ، والقبلة السمحاء إيماني
لي العروبة أمشي في مخارفها من العراق الى ما بعد وهران

وثمة نشيد حماسي ينسب الى فخري البارودي طالما ترنم بنبراته الشبان العرب ، وانتشوا بألحان الوحدة العربية التي انسابت من مقاطعه ، ومنه :

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن مصر الى يمن الى نجد فتطوان
فلا حد يمزقنا ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا بغسان وعدنان

فقد هزج الطلاب بهذه القوافي في مظاهراتهم اللاهبة ضد الفرنسيين في سورية وسارت على لسان كل مناضل حتى غدت نشيداً جماهيرياً قومياً .

وفي خلال هذه الحرب الأخيرة يتعاظم الشعور القومي في النفوس ويتحفز العرب لأخذ مكانهم اللائق بين الأمم من جديد ، فقد راحوا يترقبون انتهاء التطاحن الرهيب بين الدول الكبرى بلهفة ، ويرقبون من وراء دخان المعارك ذلك الفجر الجديد الذي أخذت ملامحه في الظهور . وتكون ولادة جامعة الدول العربية في أواخر هذه الحرب أولى ثمرات الوعي العربي ، إذ استبشر الشعراء بهذا الحدث وطفقوا يتغنون به ويعتبرونه عيداً قومياً ، وهذا أحمد محرم الذي كان أحد شعراء الجامعة الاسلامية يبادر الى احتضان الجامعة ويقول :

أمم العروبة جاء يومك فاعملي والى مكانك فانهضي وتقدمي
ضمي القوى وتجمعي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحتمي

انظر الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية عن ديوان مخطوط للشاعر ٢ : ١٧٥ .

أمم العروبة جد جدك فانظمي ... من عقدك المنثور ما لم ينظم
لك أن تسودي تحت رايتك التي ... خفقت لها الدنيا فسودي واسلمي

كما تغمر هذه العواطف القومية شاعراً مثل علي الجارم كان بعيدا عن تناول مثل هذه الموضوعات في شعره فيهلل لتلك المناسبة القومية بقوله (١) :

لقد كان حلماً أن نرى الشرق وحدة ... ولكن من الأحلام ما يتوقع
فليست حدود الارض تفصل بيننا ... لنا الشرق حد والعروبة موقع

وبرغم أن العرب كانوا يتوقون الى اتحاد أشد إحكاماً من جامعة تضم دولهم فحسب ، فقد عم الابتهاج النفوس يوم توقيع الميثاق من قبل الدول يومذاك ورأى فيه العرب خطوة نحو الوحدة المنشودة وفاتحة عهد جديد في حياة العرب ، وقد انعكس ذلك كله جلياً في نفوس الشعراء وبدا في قصائدهم بأسمى معانيه .

ومما لا ريب فيه أن هذه الوحدة العربية التي طالما تغنى بها الشعر الحديث والمعاصر وتاق العرب الى تحقيقها ، لم تكن رغبة شعب واحد في قطر من أقطار الوطن العربي ، وهي ليست أيضاً رغبة آنية طارئة تنشط في يوم لتموت بعده ، وإنما هي أمل كل عربي واع يسكن هـذا الوطن من أقصاه الى أقصاه . وكان هذا الشعور يزداد عمقاً وقوة كلما ازداد الشعب إدراكاً لأهـدافه ، وتمرساً بقضيته . وما تعبير الشعراء البليغ عن ترابط أجزاء البلاد العربية إلا مظهر بارز لرغبة جماهير العرب الاصيلة وشعورهم المنطلق في النزوع نحو الوحدة الشاملة. على أن هذا التجاوب لم يبلغ مداه إلا إثر نكبـة فلسطين التي اكتوى العرب بنارها في أعقـاب الحرب العالمية الثانية فجرحت كرامتهم وهزت كيانهم وأنضجت وعيهم .

ومع أن العرب كانوا يرسفون في القيد ويصارعون الاستعمار فان خوضهم

---

(١) ديوانه ٤ : ٤١

معركة التحرر والمصير الضارية لم يكن ليصرفهم قط عن قضية توحيد أقطارهم بل إنهم وجدوا في وحدتهم ضماناً لاستقلالهم وتحررهم ، وقد رأينا الشعراء ينادون بهذا الهدف المزدوج : التحرر والوحدة وهم في أحلك ساعات صراع الامة مع الاحتلال . حتى إذا ما انحسر الطغيان وتقلص ظله انطلقوا يبشرون بالوحدة الكبرى بايمان لا حد له .

مما سبق يمكننا أن نخلص الى القول إن سائر المقومات القومية الاخرى لتيار العروبة ، من وحدة في الاصل وفي اللغة ، واشتراك في التاريخ والذكريات والآلام ، كانت في الواقع بمثابة روافد غزيرة للنزوع الى الوحدة أمل العرب ومحور حياتهم القومية بعد تحررهم ، كما كانت الدعوة إليها والتبشير بها ديدن شعرائهم المعاصرين في شتى أوطانهم ومهاجرهم .

★ ★ ★

والآن يجدر بنا أن نتساءل أخيراً عن مدى قوة هذا الاتجاه العربي أو ضعفه في مختلف بلاد العرب وبالتالي لدى شعراء الاقطار العربية ، وهل تدفق تيار العروبة في جميع الامكنة والازمنة على صعيد واحد متماثل ؟

إنه من الطبيعي أن تتفاوت هذه المنازع العربية شدة وضعفاً ، ووضوحاً وغموضاً ، تبعاً لاختلاف العوامل التاريخية والاجتماعية والسياسية بين الشعوب العربية نفسها ، فالواقع أن ثمة ظاهرة جلية تعرض للمتتبع الباحث من خلال رصده لانطلاق تيار القومية العربية وتدفقه في الشعر العربي الحديث ، وبخاصة خلال فترة ما بين الحربين العالميتين ، وهي أن النزعة العربية على اختلاف مقوماتها تجلت أوضح ما تكون ـ كما دلت الشواهد آنفاً ـ في ربوع الشام وما يعد امتداداً لها في المهجر ثم في ارض الرافدين بصورة عامة . فقد كان الشعراء في هذه

الربوع العربية يعزفون ألحانهم القومية على وترين اثنين معاً : التحرر الوطني والاستقلال من جهة والمصير العربي المشترك والوحدة العربية المنشودة من جهة أخرى .

ولكن الامر لم يكن يسير على هذا النسق في أرض الكنانة . ولو طرحنا جانباً النزعة الفرعونية التي طغت حيناً على أذهان المصريين ووسمت بعض مناحي حياتهم الفكرية والثقافية بدا لنا ان فكرة « مصر أولاً » أو « مصر للمصريين » قد استأثرت باهتمام الشعب المصري واستغرقت نشاطه ، كما أن دوحة العروبة لم تورق إيراقها المنشود على ضفاف النيل برغم جذورها العميقة الاصيلة خلال قرون طويلة من تاريخ العرب الحافل وأمجادهم العريقة . ولعل من أسباب التخلف في الوعي العربي آنذاك يعود الى منافسة أفكار أخرى طارئة لفكرة العروبة ، يضاف الى ذلك انشغال مصر المبكر بقضيتها الاولى قضية التحرر الوطني ، فضلا عن أن كيان مصر ظل سليما لم يمس بتجزئة أو انقسام على الرغم من جثوم الاحتلال فوقه أمداً طويلاً . أما الامر في بلاد الشام مثلاً فقد كان مختلفاً اذ كادت هذه البلاد تخلو من الافكار الشائبة التي ترتكز الى فلسفة قومية خاصة ونعرة إقليمية متميزة كما أن تاريخها القريب افترق عن تاريخ مصر من حيث جثوم الحكم العثماني أمداً طويلاً فوقها وانحساره المبكر عن أرض الكنانة ، ثم اقتحام المستعمرين لبلاد الشام والعراق آخر الامر وتماديهم في تجزئتها وتفتيتها وسلخ بعض اقسامها عنها .

ومن هنا كان شعراء مصر يعكسون مشاعر شعبهم ويتجاوبون مع آماله بالتحرر والاستقلال فحسب دون ادراك واضح لوحدة المصير العربي فيما حولهم من شعوب العرب . وقد ظهرت بوادر هذا التجاوب أول الامر لدى بعض الشعراء

المصريين حين عدوا عرب الشام والعراق مجرد جيران ، أي لا تجمع بينهم وبين المصريين اكثر من رابطة الجوار والقرب المكاني شأن أي دولة اجنبية شرقية متاخمة . وعلى ذلك لا تتضح لنا ملامح نضال العرب في مختلف ديارهم من دواوين الشعراء المصريين إلا في احوال قليلة أو بمقدار ما يضمهم إطار الدين المشترك في جملة ما يشمله من الشعوب الشرقية أو المسلمة . فالدعوة الى الوحدة العربية مثلا ظلت أمداً غير قليل خافتة خامدة على ضفاف النيل ، ولم يكن يصدر الشعراء عن شيء بارز منها الا في اعقاب ثورة ١٩١٩ اذا استثنينا رائعة حافظ ابراهيم التي نظمها عام ١٩٠٨ والتي يقول فيها (١) :

اذا ألمت بوادي النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب

فنحن لا نكاد نقع على قصائد نظمها المصريون قبل الحرب العالمية الاولى تشارك الشاميين والعراقيين أساهم من وطأة الاستبداد العثماني ، كما ان إعدام جمال باشا عشرات الزعماء العرب في ساحات دمشق وبيروت لم يحرك مشاعر أحد في مصر ، برغم ما كان يتمتع به المصريون آنذاك من حرية في القول . وحين نشبت الثورة العربية الكبرى في الحجاز وامتدت الى الشام والعراق لم يحدث لها صدى في مصر ، أما القلائل الذين عرضوا لها بالذكر فقد انكروها ونددوا بزعيمها ، وكان لهم بعض العذر في ذلك لانها تحالفت مع عدوتهم انكلترا . وعندما اجتاحت جحافل المستعمرين سواحل الشام واقتحمت السبل نحو حاضرة الامويين على اشلاء المجاهدين العزل بزعامة يوسف العظمة في ميسلون مر ذلك الحدث الجسيم بغالبية المصريين وبشعرائهم بوجه خاص مرور العابر حتى لكأن شيئاً لم يقع وأن شعباً لم يقهر وبلاداً لم تستعمر . أما القليل الذي قيل رثاء ليوسف العظمة فقد

(١) انظر القصيدة في ديوانه ١ : ٢٦٨

صدر بعد سنوات طويلة في ذكرى تلك الوقعة التاريخية . وشبيه بذلك ما كان يجتاح العراق من أحداث . في حين كان شعراء الشام والعراق شديدي الحساسية والتتبع لاحداث مصر . ولا شك اننا ندخل في حسابنا ضعف الصحافة العراقية والشامية مقابل انتشار الصحف المصرية في الشرق العربي حاملة معها صوراً متوالية للحياة السياسية والاجتماعية في وادي النيل .

على ان وقع الاحداث العربية اخذيظهر قويا في نفس احمد شوقي وبخاصة منذ نشوب الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، فقد كان تجاوبه معها رائعاً اثلج قلوب العرب يومذاك .

ومع ذلك بقي الغموض يلف كثيراً من المنازع العربية في مصر برغم صدقها وإخلاصها وانطلاق المشاعر القومية الاصيلة من مكامنها بعدان طردت عنها الافكار الشائبة كما تطرد النار الخبث من الحديد ، فقد رأينا غلبة المفهوم الاسلامي حيناً او الشرقي حيناً آخر على المفهوم العربي واختلاطه به في أذهان الكثيرين من شعراء مصر . ومن مظاهر اضطراب التيار العربي على ضفاف النيل أيضاً اعتبار بعض المفكرين والادباء والشعراء ان العرب امم متعددة على نحو ما بدا لنا في شعر حافظ ابراهيم واحمد محرم ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم حتى إننا نجد هذا المفهوم قد ورد عام ١٩٤٤ في خطاب رئيس وزراء مصر في معرض تأسيس جامعة الدول العربية (١) ، بل في كثير من اقوال عبدالرحمن عزام اول امين عام للجامعة .

---

(١) انظر النص الرسمي لخطاب مصطفى النحاس رئيس وفد مصر في حفلة افتتاح اللجنة التحضيرية لبروتوكول الاسكندرية الذي مهد لقيام جامعة الدول العربية اذ قال : « يطيب لي أن أشيد بما يربط بين الامم العربية في مختلف البقاع من صلات أخوية .. »

على ان الحال اخذ في التبدل سريعاً خلال الاعوام الاخيرة إثر ازدياد الوعي القومي في نفوس العرب قاطبة بعد ان شحذها النضال . كما كان لانتشار الصحافة والاذاعة وتبادل الكتب والوفود فضل لا يجحد وبخاصة منذ بدء الحرب العالمية الثانية وتأسيس جامعة الدول العربية . لقد اخذ ظل الاستعمار البغيض ينحسر عن الشرق العربي ولاح للعرب فجر التحرر ، حتى اذا ما نعموا بالاستقلال بعد خوضهم معركة الاحتلال تلفتوا ينشدون التقارب بينهم في شتى الميادين في معركة أخرى هي معركة المصير المشترك والوحدة المنشودة .

الباب الثالث

موضوعات الشعر القومي

الفصل الاول	مناضلة الاستعمار
الفصل الثاني	التنديد بالاستبداد وفساد الحكم
الفصل الثالث	الاستنهاض والحض على الثورة
الفصل الرابع	التضامن والاخاء
الفصل الخامس	البطولة والفداء

الفصل الأول

مناضلة الاحتلال

قصة العرب مع المستعمرين ملحمة دامية تعاقبت أحداثها الرهيبة على أرضهم ولما تتم فصولا حتى هذا اليوم ، وطبيعي أن يجد موضوع الاستعمار الذي اقتحم حياة العرب قاطبة عشرات السنين صداه البالغ في الشعر الحديث ويغدو من أبرز جوانب أدبنا القومي .

وعلى الرغم من أن العهد العثماني لا يختلف كثيراً فيما جره على العرب من شرور عن عهود الاستعمار والانتداب والوصاية ، فان ثمة فارقاً أيدولوجياً بينها لا يمكن إغفاله . ففي حين كان الحكم العثماني يقوم على التسوية بين جميع القوميات التي تتألف منها الدولة وبخاصة العرب والترك الذين ينضوون تحت راية واحدة هي الراية العثمانية ، كان الغزو الاستعماري يرتكز الى فلسفة غريبة تبرر سياسة العدوان وتحل اعتداء القوي على الضعيف وتزعم لنفسها حق تمدين الشعوب المستضعفة ولو اقتضى الأمر اللجوء الى الحديد والنار .

والواقع أن نشوء بعض القوميات في الغرب وبخاصة لدى الدول الصناعية الكبرى يختلف اختلافاً جوهرياً عن نشوئها في الشرق . فما حدث أن تلك القوميات اندفعت خارج قارتها بعد الانقلاب الصناعي باحثة عن أسواق لها في الشرق . ثم شعرت بعد ذلك بحاجة ماسة لوضع مذهب يبرر غاياتها ووسائلها فكانت الرأسمالية

التي تمخض عنها النظام الاستعماري . لقد حمل عدد من القوميات الغربيـــة بذرة العدوان في ذاته حين جعل القوميه مذهباً اجتماعياً وأخلاقياً شاملا للوجـود لا يأتيه باطل ولا يتطرق اليه شك ، ولم يلبث أن أورث أصحابه صلفاً مستهجناً وعصبية ذميمة ، وغدت تلك القوميات قوميات متعالية متباغضة ازلقت فيما بينها الى حروب طاحنة كانت جميعها في الوقت نفسه وبالا على حرية الشعوب الآمنـــة في الشرق . ولقد كان أقطار المغرب العربي الفريسة الأولى للمستعمرين دون سائر أجزاء الوطن ، وذلك بسبب قربها من أوربا وبعدها في الوقت نفسه عن مراكز قوة الدولة العثمانية وعاصمتها . وكانت هذه الدولة على ضعفها وفساد حكمها الدرع المنيعة التي صانت البلاد العربية من كيد المستعمرين أمداً طويلا . ومع ذلك استطاع الانكليز بمساعدة حكام مصر أن ينفذوا الى أرض الكنانة إثر ثورة عرابي ، وراحوا بعدها يتطلعون الى العراق الغني بالنفط . وكانت فرنسا لا تخفي مطامعها في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر ، وتدعي أنها حامية الكاثوليك في لبنان . ثم وجد الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى فرصة لتحقيق أطماعهم المشتركة فاجتمعوا خلالها سراً واقتسموا بينهم الشام والعراق ، ثم منحت بريطانيا فلسطين لليهود لتكون وطناً قومياً لهم . كل ذلك والعـــرب لا يدرون من الأمر شيئاً . ولم يقف المستعمرون عند هذا الحد بل راحـوا يستغلون استياء العرب من استبداد الترك واخذوا يشجعونهم على الانتفاض ضـد الدولة العثمانية ويكيلون لهم أجزل الوعود في التحرر والسيادة .

١

ولم تكن نتيجة الثورة العربية الكبرى التي قامت ضد الترك وتحالفت مع الحلفاء سوى خدعة استعمارية كبرى ذهب العرب ضحيتها بسبب « سذاجة زعمائهم وإيمانهم الصبياني في تصريحات الساسة الغربيين وبياناتهم [١] » . وهكـذا تسلل

---

(١) نجلاء عزالدين : العالم العربي ٢١٣

المستعمرون الى بلادالعرب من قلب ثورتهم الكبرى فأصبح الحلفاء الشرفاء محتلين والأصدقاء الخلص مستعمرين ، وكان جرح لكرامة العرب كبير عبر عنه شعراؤهم أجلى تعبير ، وفي ذلك يقول خليل مردم ونار الحماسة تتأجج في قلبه (١) :

ما حررت من قيود الترك أنفسنا | حتى نكون لغير الترك عبدانا
تأبى دماء زكيات لقد سفكت | وأنفس بالحمى زايلن أبدانا
أن يستباح ذراع من مواطننا | في سهل سيناء أو في حزن لبنانا

ويمكن القول إن شطراً كبيراً من الشعر القومي الذي قيل في هذا الصدد إنما اتجه الى التنديد بأساليب الختل وأحابيل الوعود التي كانت أبرز ما ساس به الاستعمار البلاد المستضعفة ، وقد غدا كل شاعر عربي آنذاك يحس في قرارة نفسه بأنه وأمته ضحية الخداع والتضليل . وسيتجلى لنا هذا الشعور المرير لدى كثير من الشعراء ، من ذلك ما قاله محبوب الخوري الشرتوني في قصيدته « دمعة على العرب » (٢) :

قالوا إذا ما الحرب أغمد سيفها | للعرب من درك العثار قيام
فاذا بأضواء البروق كواذب | وإذا بمربد السحاب جهام

وقد عبر أيضاً أمين ناصر الدين عن شعور الخيبة المرير الذي تملك العرب في أعقاب تلك الحرب فقال (٣) :

ولما بشروا بالصلح قلنا | لكل رزيئة نزلت زوال
وأملنا النجاة فما رجونا | سوى أمر حقيقته خيال
وما نفع العهود مسطرات | إذا كانت تناقضها الفعال

وحين توفي الحسين بن علي زعيم الثورة العربية تجدد في مراثي الشعراء الشعور المرير تجاه الغدر الاستعماري . وقد أشار خليل مطران الى ذلك ومنّة على الحلفاء بمؤازرة العرب لهم حيث قال (٤) :

---

(١) ديوانه ١٤٩ | (٢) ديوانه ٨٢
(٣) الالهام ٨٣ | (٤) ديوانه ٤ : ٩٢

أين الذي سجلوه في رسائلهم ورددوه من الأيمان في الخطب
لولا معونة ذاك الحلف لانقلبوا دون الذي أملوه شر منقلب

ولم يختلف ما قيل في تمجيد فيصل بن الحسين أو في رثائه عن مثل هذا التنديد بوعود المستعمرين وأحابيلهم . فالشاعر إلياس قنصل يناجيه من وراء البحار ويشير الى تواطؤ فرنسا والانكليز وإرسالهم (غورو) الى سورية لاحتلالها والاطاحة بالحكم العربي فيها [١] :

نصت سياستهم على أن يغدروا وابيت رغم خداعهم أن تغدرا
وأغثتهم فنسوا ولو ذكروا لما بعثوا الى الفيحاء ذاك الأعسرا

ومن أبرز القصائد التي قيلت في هذا الصدد مرثية الاخطل الصغير التي انشدها في ذكرى فيصل أيضاً وهي مفعمة بشعور الأسى [٢] :

حدثونا عن الحقوق فلما كبر النصر أحوجتنا التراجم
نفحتنا بها الحروب سلاما ورمانا بها السلام أداهم

بل إننا نلمس لدى الشاعر نفسه بعد سنين أثراً آخر لهذا الجرح البليغ الذي خلفه المستعمرون في قلوب العرب ، وذلك في قصيدته التي نظمها على أثر استفحال الخطب في فلسطين وقد حيل بينه وبين القائها [٣] :

قل (لجونبول) إذا عاتبته سوف تدعونا ولكن لا ترانا
قد شفينا غلة في صدره وعطشنا فانظروا ماذا سقانا
يوم نادانا فلبينا الندا وتركنا نهبة الدين ورانا
ذنبنا والدهر في صرعته أن وفينا لاخي الود وخانا

وبرغم لهجة الاعتدال في هذه الابيات فهي تشير الى أن العرب في ثورتهم الكبرى وفي محالفتهم الانكليز قد سلوا سيوفهم في وجه السلطان المسلم وانقضوا على

---

(١) السهام ٥٤ ، ويريد بالأعسر « غورو » الذي أصيبت ذراعه في الحرب
(٢) أنيس المقدسي : العواطف القومية في الادب العربي ٣٠٠
(٣) الهوى والشباب ١٥٦ . وكان الشاعر قد اعدها لينشدها في احتفال هيأته مدينة حمص سنة ١٩٣٧ انتصاراً لفلسطين ولكن السلطات الفرنسية حالت دون ذلك .

دولة الخلافة ضاربين برابطة الدين المشترك عرض الحائط في سبيل تحـررهم فاذا هم يجزون جزاء سنمار .

وكان أبو الفضل الوليد في إشارته الى هذا الامر شديـداً على دول الغرب كما كان شأنه في أكثر شعره ،وهو أيضاً يشيد بفضل العرب عليهم ويقول(١):

قد حالفوه وظفّروه بالمدا   حتى استبد وكان أضرى آسد
فعليه لعنتهم ولعنة نسلهـم   ما دام أكذب واعد ومواعد

أما مبادىء الرئيس الامريكي (ولسون) التي ارتكزت على حـق تقرير المصير للامم المستضعفة فقد حسب فيها العرب الذين أغرقهم طوفان الاستعمار منجاة لهم بعد أن طلعت عليهم بوجهها النبيل ، حتى إن عدداً غير قليل من الشعراء انتشوا بها فلم يترددوا في مدح أمريكا وسياستها ورئيسها وكان منهم عبد المحسن الكاظمي وإلياس فرحات ومسعود سماحة وغيرهم (٢) . وسرعان ما تبين للعرب أن ما بدا لهم ماء ليس إلا سرابا . ولذلك كان رد الفعل شديداً لدى الشعراء عـبروا عنه بمرارة إثر تلقي شعوبهم تلك الضربة الجديدة من حيث لا يحتسبون ، وكان ممـا قاله خير الدين الزركلي (٣) :

وعود ولسن كم أضلت من فئة   لأنت اشأم ما سيست به الامم
أيدّعون حقوقاً في مواطننـا   والمين أقبح ما يطوى عليه فم

وكان طبيعياً أن يكون شعور فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربيـة أشد مرارة بعد أن صحب بنفسه مراحل انتصارات العرب في ثورتهم الى جانب الحلفاء ، فهو يشير الى مبادىء ولسن بسخرية حادة (٤) :

نسخ الوصايا العشر من الواحها   وحوى (الكتاب) وزاحم التنزيلا

---

(١) نفحات الصور ٥٦
(٢) انظر ديوان الكاظمي المجموعة الأولى ٢٢٤ ، وديوان فرحات ١١٧
(٣) ديوانه ١٥   (٤) ديوانه ٥٤٤

واتى بأربع عشرة انتظمت معا　　وحياً يرتل بكرة وأصيلا
مشت الشعوب الى الشعوب واكبرت　　ما كان منـــه وهالت تهليلا
وتوسمت فيه المسيح وأبصرت　　في قوله التوراة والانجيلا
حتى إذا انكشف القناع تحققت　　أن السياسة لم تزل تضليلا
ورأت (مسيلمة) يساوم (أشعبا)　　سلب الممالك عرضها والطولا

ونجد صدى نكول الرئيس ولسن عن مبادئه واستجابته لهوى حلفائه في أبيات لمعروف الرصافي يعبر فيها عن خيبه العراقيين وسائر العرب (١) :

رجل قد تنكب الحق قوسا　　ومن البطل ظل يرمي السهاما
قال حرية الانام هي الغاية　　لي في الوغـــى فغر الاناما
فاشرأب الورى إليه وظنوا　　أنهم سوف يبلغـون المراما
ثم خابت ظنونهم فيه لما　　مر في الجـو خلباً وجهاما

أما المصريون الذين طال أمد الاستعمار عليهم فقد قاموا بثورتهم عام ١٩١٩ بعد ما تبين لهم إصرار الانكليز على احتلال بلادهم وكانوا يعقدون على وعود ولسن آمالا عراضا، وهذا محمد عبد المطلب يخاطب الغربيين والثورة في بلاده على أشدها (٢) :

يا ناشري علم السلام ألم تروا　　للسلم في أرجاء مصر مجالا
ما العدل ما حرية الامم التي　　سارت رسائلكم بها أرسالا
ما عهد ولسن أين ولسن هل درى　　أنا بمصر نـــكابد الاهوالا

وكان من الطبيعي ان يفقد العرب بعد ذلك كل ما تبقى لهم من ثقة بالغرب منذ ذلك الحين . ولذلك نجد ان لهجة الشعراء اخذت تتسم بالحدة

---

(١) ديونه ٤ : ٤٣٥　　(٢) ديوانه ١٩٣

وتلوح بالثأر لكرامة العرب المهدرة . ومما يدعو الى الاعتزاز أن الشعراء الذين حملوا لواء مكافحة المستعمرين جهدوا في أداء رسالتهم نحو أمتهم بإيمان وإخلاص ، ولم يكتف بعضهم بتحذير الأمة من وعود الدخلاء ، بل أخذوا على عاتقهم تبصير الحكام بحقائق الأمور وتحذيرهم من الوقوع في أحابيل السياسة، من ذلك مثلاً ما ذكره محمد الفراتي في ديوانه من أن الملك فيصلاً أصدر إرادة سنية بتسليم دير الزور الى الانكليز . فأرسل اليه الشاعر يومذاك قصيده يقول فيها(١):

لا تنخدع بأساليب ينمقها ... منهم غوي يحاكي رسمها الحلما
اين العهود وما منوا وما زعموا ... كانت وعودا فأمسى حبلها انصرما
قالوا الشعوب لقد قمنا لننقذها ... من المهاوي فكانت بينهم قسما
بعض الطباع لها من جنسها مثل ... لا تأمن الذئب أن يرعى لك الغنما

وكذلك يتجه الشاعر القروي الى فيصل بقصيدة مماثلة يحذره فيها من كيد المستعمرين وقد أزمع السفر الى عاصمة الانكليز لمفاوضتهم (٢) :

نصحتك لا تمدد الى أبرص يداً ... ولو أمطرت كفاه دراً منضدا
لأمر يلاقيك الفرنجي باسما ... فزد حذراً ما زاد ذئب توددا
تراه صحيح الجسم وهو سقيمه ... كما تكسب الحمى الخدود توردا
لئن وعدونا بالجلاء عن الحمى ... فقد ضربوا يوم القيامة موعدا

وقد عرف المصريون من أمر مراوغة انكلترا ما لا يعرفه سواهم من العرب إذ أنهم ما برحوا منذ عام ١٨٨٢ يتلقون الوعود الكاذبة بالجلاء عن البلاد ، ولذلك نرى حافظ إبراهيم يصور ببراعة مكر المحتلين ويحذر سعد زغلول من أحابيلهم حين أزمع السفر لمفاوضتهم ، على نحو ما خاطب به الفراتي والقروي الملك فيصلاً ، فهو يقول (٣) :

---

(١) ديوانه ١٠١ (٢) ديوانه ٢٤٣
(٣) ديوانه ١ : ١٠٢

لا تقرب (التامين) واحذر ورده مهما بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفى مائه والختل فيه مذوَّب مصقول
كم وارد يا (سعد) قبلك ماءه قد عاد منه وفي الفؤاد غليل

وأشار شوقي الى أن سورية ومصر كانتا ضحية الاستعمار وأحابيله (١) :

وهل نلنا كلانا اليوم إلا عراقيب المواعد والمطالا

وكما أن ثورة مصر عام ١٩١٩ كانت ترجع في أسبابها الى نكث الانكليز عهودهم ونقضهم مواثيقهم ، كان الشأن في العراق إذ قامت ثورتهم الكبرى عام ١٩٢٠ بعدما تبين لهم عزم المحتلين على إدامة بقائهم في ربوع الرافدين خلافاً لما كانوا قد أعلنوه على لسان قائدهم إبان الحرب . وفي ذلك يقول جميل صدقي الزهاوي بحق (٢) :

ما كان قبلا لهذا الشعب من خطل حتى اطمأن فغرته المواعيد

وقد عبر محمد الهاشمي عن ضيق العراقيين والعرب جميعاً بسياسة الختل والمطل ، في قصيدة أسماها « قد سئمنا الوعود » وقال فيها (٣) :

قد سئمنا الوعود وهي خداع ومللنا الايعاد والتهديدا
وانجلى الشك وانتهى كل سر كان بالغش بابه مسدودا
أين تلك الآمال ما بلغوها يوم شدوا جيلا بها ممدودا

على أن الشعراء الذين دأبوا على فضح أساليب المستعمر وكشف أحابيله عمدوا من ناحية أخرى الى التشهير بأساليب الختل والتضليل التي كان يصطنعها

(١) الشوقيات ٢٢٧
(٢) الاوشال ٢٤٩
(٣) عبرات الغريب ١١٧

الفرنسيون مع مسيحيي الشام مثل ادعائهم أنهم حماة لهم من طغيان المسلمين . وكان كثير من مسيحيي لبنان يثقون بفرنسة ثقة عمياء لأسباب دينية بحتة بعد أن عانوا الويلات في العهد العثماني من جراء التعصب وفساد الحكم ، وكان أن فطن من جهة أخرى معظم الشعراء الى حقيقة الوجه الاستعماري المستتر وراء الصليب . وقد عبر أبو الفضل الوليد عن حقد دفين على فرنسة التي أناخت باستعمارها على كثير من شعوب العرب فقال (١) :

هذي العداوة بيننا أبديه   تسكينها يدعو الى التحريك
من عهدمن تحذوا الصليب شعارهم   للنهب والتقتيل والتهتيك
حتى اجتياح المغرب الباكي على   أبنائه من ميت ونهيك

وقد انبرى كثيرون من الشعراء المسيحيين في الشام والمهجر الى كشف زيف مزاعم المستعمرين الذين تسللوا من ورائها الى ربوع لبنان وسائر الشرق العربي ، ومن هؤلاء اسكندر الخوري البيتجالي الذي يقول (٢) :

أتوا باسم الصليب وهم براء   من اسم لطخوه مجرمينا
وما اتخذوا الصليب لهم شعاراً   وما كانوا به مستنصرينا
هي الاطماع يا قومي دعتهم   إلى عمل أباه المرسلونا

ويمكن القول إن أكثر الشعراء الذين عاشوا في ظل الاستعمار أو عاصروه نسجوا أشعارهم من نسيج الشك وسوء الظن في كل مسلك يسلكه ، وكان لهذا الاتجاه اثره في السلبية الشديدة التي تسلح بها العرب في علاقتهم بالمحتلين ، والحذر الدائم منهم . وليس بمستغرب بعد كل هذا التاريخ الحافل بالأكاذيب ، وبعد الذي عاناه العرب من سياسة المطل والتسويف والختل والخداع أن يستقر سوء الظن في نفوس العرب تجاه كل ما يصدر عن المستعمر . فعندما نشبت

---

(١) نفحات الصور ٩١   (٢) العقود ٨٣

الحرب العالمية الثانية « قال إلياس فرحات يتهكم على الانكليز حين دعوا شباب العرب الى التطوع معهم » (١) :

يحلم السكسون في استعدادهم ... للوغى أن يأخذوا منا جنودا
طمئنوهم أننا من أمة ... تحفظ الود ولا تنسى العهودا
كيف ننساهم وننسى أنهم ... أخذوا النفط وأعطونا اليهودا

وإذا كان العرب قدعانوا كثيراً من جراء أفاعيل المستعمرين فقد اكسبهم ذلك أيضاً الكثير من صفات الوعي والحذر والتبصر التي بدت جلية على ألسنة شعرائهم ، في احتفاظهم بتفاؤلهم وثقتهم بالمستقبل الباسم . وقد عبر عن هذه الروح قبيل الحرب الأخيرة الشاعر محمد مهدي الجواهري بقوله (٢) :

لئن تكن خدع ساءت عواقبها ... فكم أنارت طريقاً مظلماً خدع

وبهذه الروح سار العرب قدماً وبخطا ثابتة نحو تحررهم المنشود .

٢

أما الخرافة التي أسهم الشعر الحديث في تبديدها من الاذهان فهي أن المستعمرين استطاعوا أن يوهموا بعض السذج بما زعموه لأنفسهم من رقي يريدون أن يجلوه في الشرق المتخلف . وكانت مبادىء الثورة الفرنسية وكفاح الفرنسيين مقياساً لدي بعض السوريين قاسوا به سياسة هذه الدولة الباغية ووثقوا بها ، والى هؤلاء يشير أبو الفضل الوليد بقوله (٣) :

زعم الذين تعشقوك ضلالة ... أن الهدى والحق عند بنيك
نظروا الى أقلام كتاب وما ... نظروا الى أسياف جلاديك

(١) جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر ١٤٥
(٢) ديوانه ٨٥ ... (٣) نفحات الصور ٩١

كما يعبر أبو ماضي عن ظاهرة الانسياق وراء ذلك السراب بقوله (١) :

أطربتنا الاقلام لما تغنت   بالمساواة بيننـا والاخاء
فسكرنا بها فلمـا صحونا   ما وجدنا بها سوى أسماء

ويشيرفؤاد الخطيب الي تنكر فرنسة لمبادئها التي كانت مناراً للشعوب فيقول(٢)

إن حطموا (البستيل) فيك تحرراً   فسلي العروبة كم بنوا (بستيلا)

ويجنح الرصافي للسخرية بهذه المبادىء المزعومة وبرسالة التمدن التي ادعى الغرب حملها والتبشير بها على غرار قول أديب اسحق الذي مر بنا في «البواكير»(٣) :

وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي   بأشياء من بطلانها ضحك الحق
فهم منعوا رق الاسير وإنمـا   أجازوا لهم أن يشمل الامم الرق

وعلى هذا الغرار أيضاً يندد بدوي الجبل بالمحتلين (٤) :

أيعدون قتل شعب حلالا   ويعدون قتل فرد حراما
عبثوا بالنظام جوراً وقالوا   قد أتيناكم لنحيي النظاما

وربما كانت أبيات العلامة مصطفى الغلاييني من أدق ما يصور طبـائع المستعمرين وأساليبهم في الختل والتضليل وتشدقهم بالمثل الانسانية ومبادىء الحرية والمساواة والعدالة (٥) :

يقولون « إنسانية وتمدن   وتحرير أقوام » وفي العنق الربق
فما وعدهم إلا وعيد ولم يكن   لهم في ميادين الوفا مرة سبق
فخلفهم خلف ، ووعدهم هبا   وقولهم إفك ، وعهدهم خرق

---

(١) زهير ميرزا : إيليا ابو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٢٠
(٢) ديوانه ٥٤٢   (٣) ديوان الرصافي ٤١٥
(٤) ديوانه ١٥٣   (٥) ديوانه ٦٦ .

وأما أنماط الاستعمار المتعددة التي دأب الأجنبي على تطبيقها في بلاد العرب فقد كانت واحدة في جوهرها لا تعدو إذلال الشعوب وسلب خيراتها، ووأد حرياتها. ونظراً لما تحلى به العرب من وعي تحاشى المحتلون وسم وجودهم في بلادهم بأنه احتلال أو استعمار، فقد فزعوا الى أسماء أخرى حسبوها أخف وطأة، من ذلك نظام الحماية الذي فرضوه على مصر، ونظام الانتداب الذي ابتدعوه أثناء الحرب الأولى وفرضوه على بلاد الشام والعراق رغم أنف شعوبها، مدعين أن مهمتهم توجيهية ولا تعدو أن تكون وصاية إلى أمد قصير ريثما يتمرس المواطنون بشؤون الحكم.

ومن يستقرء دواوين الشعراء والمجموعات الشعرية التي صدرت في الشرق العربي بين الحربين العالميتين يلاحظ أن أكثر ما قيل في التنديد بهذه الأنماط المتعددة من النظام الاستعماري تكاد تتركز في سورية، وذلك لأن الانكليز استطاعوا الى حد كبير أن يصرفوا الرأي العام في مصر والعراق عن جوهر قضيته الى قضايا الانتخابات والبرلمانات والأحزاب والمفاوضات .. حيث انجرفت طائفة من الشعراء بتلك الموجة، وظلت طائفة أخرى تهوم في عالمها الروماني الحالم بعيدة عن واقع أمتها المضطرب. وكان الحاكم الاجنبي في البلدين يمسك بزمام الامور من وراء ستار، ويعتمد على أسرة حاكمة ونظام ملكي يضمن للمحتلين شيئاً من الاطمئنان الذي كانوا يطمحون اليه.

إلا أن سورية كانت أشبه ببركان ثائر لا يكاد يهدأ حتى يقذف بحممه من جديد، وذلك منذ أن وطئت أقدام (غورو) دمشق الفيحاء. وحينما تمادت فرنسة في غيها وبلغت الذروة في بطشها بقصفها دمشق بنيران مدافعها عام ١٩٢٥ إثر نشوب الثورة السورية تفجرت قرائح الشعراء نقمة وغضباً على هذا الانتداب ودولته الباغية، وهذا محمد الشريقي يتصدى للمحتلين يومذاك بقوله (١) :

(١ ديوان الثورة ٤٠

رسل التمدن ، والاجرام مثلبة　　　وليس يصلح للأحكام مجترم
الصخر أكثر عطفا من قيادتكم　　　منه العيون ومنكم هذه الحمم
(سار اى)اذ كرتنا(تيمور) منتقما　　　بل أنت والله أقسى حين تنتقم

وفي هذه النكبة نفسها يقول خير الدين الزركلي ساخراً برقي الغرب المزعوم (١) :

الظلم في عرفهم عدل ومرحمة　　　والامر بالباطل المنبوذ تشريع
ماذا يعدون من فخر ، أفتكم　　　بالمطفلات يواريهن تقنيع

ويهزأ محمد الفراتي على هذا المنوال بمدنية الدولة المنتدبة بعد ان هالته مأساة دمشق فيقول (٢) :

هتكت حرائرها نفت أحرارها　　　لم تبق شباناً هناك وشيبا
هذا تمدنك الحديث فهاته　　　من قلب باريس لنا مجلوبا

كما يتهكم الشاعر القروي برسالة الغرب المزعومة في قوله (٣) :

زعموا الشآم بحاجة لمجدد　　　نعم المجدد مدفع ومسدس

وكان من أجمل ما نظم في تصوير فظائع الفرنسيين إبان الثورة السورية وفي التهكم بدولة الحرية المزعومة وانتدابها البغيض قصيدة لنسيب عريضة الشاعر المهجري أسماها « موكب الجثث » ومما قاله فيها (٤) :

صليل سلاح وقرع طبول　　　وجند قساة تسوق الحمول
وفوق النياق حماة القبيل　　　تدلوا قتيلا بجنب قتيل

---

(١) ديوان الثورة ٣٨　　　(٢) ديوانه ١٤٦
(٣) ديوانه ١٩٨　　　(٤) ديوانه ٢٠٢

دمشق انظري شهداء الفداء		على النوق صرعى ولا من رداء
لقد فاز ساداتنا الاوصياء		وداس حقوق الورى الاقوياء

فيا لانتداب على قاصر
ونصر على أعزل بائر
ودعوى رقي بلا آخر

وفي الفترة نفسها كان محمد البزم أحد شعراء دمشق يرى بعينيه جرائم الفرنسيين فيقول متوعداً (١) :

أبناء (غلية) لا كان انتدابكم		فقد أسال دماء العرب غدرانا
لا ترهقوا العرب، فالعرب الكرام		لهم ان أرهقوا وثبة الضرغام غضبانا

وهكذا سقط قناع الانتداب واتسع نطاق الحملة عليه الى سائر العالم العربي في لبنان وفلسطين والعراق ومصر .. وهذا مصطفى الغلاييني يخاطب المستعمرين من سفح لبنان بقوله (٢) :

لا تخدعونا بألفاظ إذا سمعت		تحلو وان تختبرها مر معناها
فما (الحماية) إلا السهم يقصدنا		وما (الوصاية) إلا النار نصلاها

كما يشير وديع البستاني من ربوع فلسطين المقدسة الى هذه الحقيقة الصارخة وهي أن الحلفاء هم الذين فرضوا أنفسهم وصاة أو منتدبين أو حماة في بلاد العرب (٣) :

وأنكرنا وصايتهم علينا		وقد جعلوا بوادرها اغتصابا
ولم نندبهم في الامر فينا		وقد حكموا وسموه انتدابا
ودسوا السم في الدستور دساً		فما ذقنا الطعام ولا الشرابا

---

(١) ديوان الثورة ٣٠		(٢) ديوانه ٧٥
(٣) الفلسطينيات ١٥٣

وكان الكاظمي والرصافي في مقدمة شعراء العراق الذين ناضلوا المستعمرين بلا هوادة ونددوا بانتدابهم في الشام والعراق . ويتساءل عبد المحسن الكاظمي عن معنى هذا الانتداب بقوله (١) :

أذا انتداب أم اغتصاب عاد به حقنا هضيما
لا تلزمونا بكم فلسنا نرى لكم بيننا لزوما
هل دام في الارض حكم شعب إذا أبى الشعب أن يدوما

أما الرصافي فقد حمل بجرأة على الانتداب وكم أفواه الوطنيين في العراق وقال (٢) :

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم أهل العراقين لا بدواً ولا حضرا
إن انتدابكم في قلب موطننا جرح نداويه لكن لم يزل غبرا
لم يكفه أنه للحكم مغتصب حتى غدا يقتل الآراء والفكرا

ولعل من أجمل القصائد التي وفقت في تصوير اساليب المستعمر وختله ودأبه على إدامة بقائه في بلاد العرب قصيدة الشاعر الدمشقي خليل مردم ففيها يحكي قصة ذلك الدخيل الوقح بما يشبه اسلوب الرمز (٣) :

أتى ضيفاً فأصبح رب بيت يحكم بالقطين وبالعيال
وسمى نفسه قسراً وصياً عليَّ مفوضاً في كل حال
ومنتدب عليَّ برغم أنفي واست بقاصر يوم النزال
وباعد بين إخوان وأهل فلجوا في التقاطع والتقالي
وشاركني فكان الغرم حظي وخصص بالغنيمة والنوال
ومن حب السلام حوى سلاحي ليكفيني ممارسة القتال

---

(١) ديوان الثورة ٥٦ (٢) ديوانه ٣٢٤
(٣) ديوانه ١٣٧

وكمَّ فمي عن الشكوى لكيلا يسير بغيبة يوماً مقالي
وأحرجني فأخرجني فلما رآني بالمنيــــة لا أبالي
دعاني للتفاهم بعد أخذ ورد واختلاف واقتتال
فطوقني بأدهى من أفاعي وشد يدي على حد النصال
وهش وبش مبتسما فيا من رأى ذئباً تبسم للسخال
وواعدني الى أجل مسمى يكون قضاؤه عهد انتقال
تقبلت القليل النزر منه وقلت : النقص مرقاة الكمال
وما خلت القليل يظل وعداً يكدر بالتعلل والمطال

٣

ويفضي بنا حديث الوصاية والحماية والانتداب الى ما استتبع ذلك من سياسة المعاهدات والاحلاف الجائرة التي كان المستعمرون حريصين على عقدها مع الحكومات التي ينصبونها. ولم يكن موقف الشعراء تجاه هذه القيود ليغاير موقفهم الثابت تجاه الاستعمار نفسه. إلا أن الامر في هذا المجال كان يتطلب وعياً وحصافة ونظراً ثاقباً، إذ كثيراً ما استطاعت هذه المعاهدات تضليل الناس وإيهامهم بعدول المستعمر عن تسلطه. ويعتبر الشعراء بحق الطليعة الواعية للشعوب فقد تصدوا بلا هوادة لفضح أساليب الاحتلال وما كان يعمد إليه بذكاء من حين الى آخر من تمويه الحقائق على العرب في سبيل استمرار بقائه في أرضهم. وهذا علي الجندي يشير الى كثرة تلك المعاهدات ونتائجها المؤلمة على وطنه مصر فيقول(١):

في كل يوم لنا (معاهدة) نعود منها بصفقة الغبن

على أنه مما يلاحظ في العراق أن التنديد بالمعاهدات والاحلاف قد استأثر بجانب كبير من الشعر القومي. فقد كان المستعمر ناعم اللمس ولم يحاول إلا

(١) اغاريد السحر ٩٧

في ساعات اليأس أن يستفز مشاعر الشعب خلافاً لما كانت تتـــورط به فرنسة في سورية من طيش . وربما كان معروف الرصافي ومحمد مهدي الجواهري وجميـــل صدقي الزهاوي أبطال هذا الميدان ، ومن ذلك قصيدة للرصافي يقول فيها (١) :

خلقتم لنا من كل عهد مموه قيوداً بها استقلالنا يتقيد
إلى أن غدا استقلالنا ضحكة الورى به ساخر كل امرىء ومندد

وبسخريته اللاذعة يصور لنا الرصافي أيضاً واحدة من تلك المعاهدات التي كانت تحاول الايقاع بحرية الشعب ، وكان الشاعر في طليعة من عارضوها تحت قبة البرلمان العراقي الذي كان عضواً فيه حيناً من الزمن (٢) :

نشروا المعاهدة التي في طيها قيد يعض بأرجل الآمال
قد أبلعونا حبة استعبادنا لكن مموهة بالاستقلال
والعهد بين الانكليز وبيننا كالعهد بين الشاة والرئبال

وتتجلى في أبيات الزهاوي مشاعر الضيق بهذه الشراك المنصوبة (٣) :

الشعب بالقيد الثقيل مكبل حتى يكاد إذا تحرك يقعد
تلغى معاهدة وأخرى تعقد والشعب يستفتى لها ويهدد

أما الجواهري فكان بارعاً في تصوير حالة العرب المؤلمة مع المحتل الماكر في ظل مشاريعه ومعاهداته وذلك في قوله (٤) :

و « تصريح » يعطله قوي كلوح الطين إذ يدحوه داح
و « حلف » لست أدري من ذهول أعن جد يدبر أم مزاح
ولست بعارف أبداً حليفاً يهدده حليف باكتساح
« نطوف ما نطوف ثم نأوي إلى بيت » أقيم على اقتراح
يخرج ألف وجه من حديث ويخلق ألف معنى لاصطلاح

ولكن كل هذه الأنماط المبتكرة من الاستعمار في بلاد العرب لم تكن

---

(١) ديوانه ٤٧١
(٢) ديوانه ٥١٢
(٣) الأوشال ١١١
(٤) ديوانه ١ : ١٨٣

لتبلغ ما كان عليه الأمر في فلسطين من استعمار مركب جثم على صدر البلاد فزعزع كيانها وهد أركانها ، وجعل أهلها يعانون الويلات . وقد حظيت أحداث فلسطين باهتمام متزايد على مر السنين من قبل العرب وشعرائهم بلغ أوجه في العالم العربي إثر النكبة بعد الحرب العالمية الثانية وكان الاستعمار في هذه الديار المقدسة رأس الأفعى وأصل البلاء . وهذا نسيب عريضة يشير من مهجره الى تواطؤ المحتلين الانكليز مع الدخلاء الصهيونيين في أبشع ما عرفته الانسانية من ظلم ، حيث يشير الى وعد الانكليز لليهود ووعودهم للعرب (١) :

ذبحتم فلسطين يا ويحنا أبحتم حماها لمسترزقه
أكانت مواعيدهم حكمة وكانت مواعيدنا زندقة

وقد استطاع شاعر فلسطين ابراهيم طوقان أن يبرز هذا التواطؤ الاثيم بين الاستعمار والصهيونية ويكشف عن أخص أساليب هذين العدوين الماكرين في البطش بالعرب (٢) :

لنا خصمان ذو حول وطول وآخر ذو احتيال واقتناص
تواصوا بينهم فأتى وبالا وإذلالا لنا ذاك التواصي
مناهج للابادة واضحات وبالحسنى تنفذ والرصاص

٤

أما الجشع الاستعماري الذي كان الدافع الحقيقي لاحتلال بلاد العرب وامتصاص خيراتها فقد فطن إليه بعض الشعراء وإن كان كثير منهم لم يعره الاهتمام الذي يستحق لأن الشعراء كانوا يثارون بالمشاهد العاطفية والمحسوسة أكثر من أي شيء آخر ، مثل المصادمات والقتل والجرح والتدمير وما الى ذلك على نحو ما وجدنا من شعر كثير قيل إثر قذف الفرنسيين دمشق بالقنابل . وفي

(١) ديوانه ٢٦٠ (٢) ديوانه ٨٧

طليعة من عنوا بابراز البؤس وابتزاز المستعمرين أموال الوطن شاعر فلسطين ابراهيم طوقان الذي قرع بشعره ناقوس الخطر تجاه أساليب اليهود في الاستيلاء على أراضي العرب ، ومما قاله يخاطب الانكليز (١) :

منذ احتللتم وشؤم العيش يرهقنا ... فقراً وجوراً وإتعاساً وإفساداً

ويعد الرصافي فارس هذا الميدان في العراق لاتصال موضوع الجشع الاستعماري بموضوع البؤس الاجتماعي الذي برع في معالجته شاعر الرافدين . ففي الأبيات التالية يتصدى الاستعمار ويعمد الى تعرية زبانيته مما كانوا يحاولون به إيهام الشعوب من نحو قدرتهم على نشر الرخاء بينها وتحسين حالتها الاقتصادية المتخلفة، ويضرب لذلك مثلا بارزاً فيما كانت تعانيه الهند من فقر وبؤس فيقول (٢) :

دع اللوم واسمع ما أقول فانني ... قتلت طباع (التيمسيين) بالبحث
كأنهم والناس عث وصوفة ... وهل يستقيم الصوف في طيه العث
زر الهند إن رمت العيان فكم ترى ... على الأرض من غبر هناك ومن شعث
وهم سلبوا أرض العراق سمينها ... ولم يتركوا فيها منالاً سوى الغث

وقد نحا محمد الفراتي هذا النحو في تصوير جشع المستعمرين فعرض مظاهره في عدد من البلاد المستضعفة على مسامع الملك فيصل الذي كانت ثقته بالانكليز تنم عن سذاجة بالغة (٣) :

ماذا على أمة قامت تدافع عن ... حق لها كان قبل اليوم مهتضما
رأت عدواً لدوداً ملحماً قرماً ... مستقتلاً طامعاً مستعمراً نهما
لا الهند تشبعه لا السند تقنعه ... أضحى لنصف بلاد الله ملتهما
سل الفرات وسل بغداد ما فعلت ... أيدى الطغاة بأهليها سل الهرما
سل الهنود سل الافغان سل عدناً ... تحطك علماً، سل الاكراد والعجما

---

(١) ديوانه ٨٥ (٢) ديوانه ٤٧٠
(٣) ديوانه ٦٥

مصائب صوبتها الانكليز على رؤوسهم تقذف الويلات والحمما
فالارض لله لا للطامعين وإن داموا ستمسى بها أشلاؤهم رمما
يرون أنفسهم فيها ملائكة مكرمين لذاك استعبدوا الامما

والحق أننا قلما نجد قصيدة كهذه وفق فيها صاحبها الى تصوير جشع الاستعمار على حقيقته هذا التصوير الشامل ، فهو العدو اللدود الملحم القرم المستقتل الطامع المستعمر النهم ، وهو الذي ابتلع بلاداً وأمماً وطغى على نصف العالم دون أن يشبع أو يقنع ، وهو أخيراً المتغطرس الصلف ، المتعالي على البشر لا يرى في إذلال الامم واستعباد الشعوب سوى حق طبيعي له .

وقريب من هذه الابيات ما نجده لمحمد الاسمر في قصيدة له يصور فيها تكالب الانكليز على ثروات وادي النيل إذ يقول (١) :

تشكو المجاعة بالوادى عشيرته والاجنبي به يشكو من التخم
لو لم نكن رمماً في الناس ما ظفرت بنا عصائب للغربان والرخم
حطت جياعاً فلما اتخمت نهضت كيما تطير فما استطاعت فلم تقم
فهي الغداة بوادى النيل جاثمة مقيمة أشبه الاشياء بالهرم

وواضح مدى توفيق الاسمر في تصوير جشع المحتلين وتشبثهم بمصر حتى كأنهم شاركوا الهرم في لصوقهم بأرضها وعدم تزحزحهم عنها .

وقد أدى تعدد دول الاستعمار وتزاحمها على امتصاص دماء الشعوب الى تباين ظاهري في أساليب حكمها ، مما ولد في بعض الاذهان فكرة خاطئة كان من مظاهرها اغترار بعض العرب في بيئات المهجر والشام وتحدثهم في أمور المفاضلة بين أنواع الاستعمار ، حتى خيل للسذج منهم أن الانكليز يفضلون الفرنسيين في هذا المضمار . إلا أن طائفة من الشعراء وبخاصة في المهجر

(١) ديوانه ٣٤

كالقروي وفرحات والوليد كانوا حرباً على هذه الافكار المسمومة على نحو ما حذر منه القروي (١) :

لا تبدلوا (أسدا بديك) إنه   إن كان ذا نجساً فهذا أنجس
لكليهما في الشرق واستعماره   قلب كعوسجة وجلد أملس

فالشاعر يرى طبيعة الاستعمار واحدة مهما تكن الدولة التي تمثله . وقد عمد محمود أبو الوفا الى تجسيد الاستعمار نفسه في هذه الصورة فقال (١) :

فلو صور الشيطان مرآة وجهه   لما اختار الاسحنة استعمار

٥

وكما كانت لهجة العنف دأب الشعراء في مخاطبة المستعمرين كانت السخرية المرة لدى من يجيدها منهم أكثر جدوى وتأثيراً في التنديد بهم ، والكشف عن مخازيهم ، وكان حافظ والرصافي وطوقان في طليعة من أوتوا تلك الموهبة من الشعراء ، وتعتبر قصيدة حافظ التي نظمها سراً إبان ثورة ١٩١٩ في مصر من أشهر هذه القصائد ، فقد ندد فيها بقوات الاحتلال التي تصدت بنيرانها لمظاهرة سلمية قامت بها نساء القاهرة بسخرية لاذعه ، وبلغ من ذيوع أمرها أن وزعت بالخفاء على الجماهير الثائرة ومنها قوله (٣) :

خرج الغواني يحتججن   وبت أرقب جمعهنه
يمشين في كنف الوقار   وقد أبن شعورهنه

---

(١) ديوانه ٣٠٢   (٢) اشواق ١٠٤
(٣) ديوانه ٢ : ٨٧

وإذا بجيش مقبل ، والخيل مطلقة الاعنة
وإذا الجنود سيوفها ، قد صوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنادق والصوارم والاسنة
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقا حولهنه
والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان ساعات تشيب لها الاجنة
فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن منة
ثم انهزمن مشتتات الشمل نحو قصورهنه
فليهنأ الجيش الفخور بنصره وبكسرهنه

هذه القصيدة الساخرة التي لم يجرؤ صاحبها على نسبتها اليه إلا بعد مضي عشرة أعوام على نظمها (١) جمعت السهولة والتدفق في أسلوبها وايقاع بحرها الراقص بالاضافة الى هذه اللهجة الساخرة المبثوثة في أبياتها . كان التهكم من طبيعة حافظ ومزاجه لجأ اليه في قصيدته بعدما رأى من أساليب القمع الرهيبة ، فتفجرت نفسه على الطغيان سخرية مرة لاذعة . والقصيدة بعد ذلك ترتبط بحدث فريد في تاريخ مصر والشرق العربي اذ أن خروج النساء في مظاهرة الى الشارع لاول مرة في حياه العرب الحديثة نقطة تحول في انطلاق المرأة العربية نحو التحرر والنور بعد أن طال عليها الامد في عزلتها ...

أما ابراهيم طوقان شاعر فلسطين فيضحك بملء شدقيه من رسالة التمدن التي يزعم المستعمر حملها ، وشر البلية ما يضحك (٢) :

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة ... وختمنا لجندكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقاً وفياً ... كيف ننسى انتدابه واحتلاله
وخجلنا من لطفكم يوم قلتم ... وعد بلفور نافذ لا محالة

(١) انظر مقدمة الديوان ص ٨ للاستاذ احمد امين (٢) ديوانه ٧٦

كل (أفضالكم) على الرأس والعيـ ن وليست في حاجة لدلالة
غير أن الطريق طالت علينا وعليكم فملنا والاطالة
أجلاء عن البلاد تريدو ن فنجلو أم محقنا والازالة

وقد أصاب طوقان المرمى في عبارته الساخرة التي انتزعها من صميم تعبير الشاميين إذ قال « كل أفضالكم على الرأس والعين .. »

وتعد أخيراً قصيدة الرصافي المشهورة « الحرية في نظر المستعمرين » التي ينسج فيها على هذا المنوال الساخر في رأس ما صور به الشعراء حقيقة الاستعمار وأساليبه في البلاد المحتلة ومنها قوله (١) :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم
أما السياسة فاتركوا أبداً وإلا تندموا
من شاء منكم أن يعيـ ش اليوم وهو مكرم
فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
وإذا ظلمتم فاضحكوا طرباً ولا تتظلموا
واذا أهنتم فاشكروا وإذا لطمتم فابسموا
إن قيل هذا شهدكم مر فقولوا علقم
أو قيل إن نهاركم ليل فقولوا مظلم
أو قيل إن بلادكم يا قوم سوف تقسم
فتحمدوا وتشكروا وترنحوا وترنموا

---

(١) ديوانه ٥٠٠ :

والحق إن الرصافي بهذه الابيات قد بلغ ذروة الفن الرفيع في سخريته اللاذعة وكان من مقومات قصيدته في ذلك انسياب عباراته سهلة متدفقة ، وبحره المجزوء ، ثم جمله القصيرة المقتضبة التي تعتمد في الغالب على الأمر والنهي ، إلا أن هذه البراعة في قلب المعاني والافكار الى مفاهيمها المعكوسة وإلباسها ثوباً من الجد الظاهر هو الذي أكسبها بالدرجة الأولى تلك المنزلة الفنية .

★★★

وهكذا استغرق كفاح الاستعمار تجربة العرب السياسية وحياتهم القومية الحديثة في شتى ديارهم . وقد أسهم الشعراء مع شعوبهم في تعريته وإسقاط اقنعته قناعا قناعاً. لقد عرضوه احتلالاً سافراً ثم انتداباً مموهاً ثم معاهدات ثم أحلافاً ، ومع ذلك لم يكن بوسعه أن يخدع العرب طويلاً ، وإن خدع منهم الكثيرين ، فكانوا مطاياه وصرعاه . لقد كانت التجربة المريرة قصيرة العمر ولكنها حافلة عميقة كثيرة العبر .

ومن محصلة ما سبق نخلص الى التنويه بالدور الفعال الذي قام به الشعراء في المعركة الكبرى التي خاضها العرب ضد الاستعمار ، إذ أن الشعور بالظلم أول مراحل التمرد والثورة ، وليس كرواد الفكر من بوسعه إيقاظ العقول وتنبيه النيام وحث الهمم على النضال . وقد تجلت في قصائد الشعراء الأولى انطباعات غدر المستعمرين وأحابيلهم في نفوس العرب ، ثم انتقلوا من مرحلة الانفعال الى صعيد التبصير والتحذير وتفنيد أساليب الاحتلال وكشف نواياه ، وفضح زيف مدنيته ومدى تسلطه وجشعه ، كما نددوا بزبانيته وحملوا على قادته وكانوا في ذلك يؤثرون شدة المهجة في كثير من الاحيان ويجنحون للساخر منها في بعض الأحيان الأخرى .

وقد أسهمت هذه القصائد والمقطوعات وأمثالها في تعميق الشعور بالخطر لدى الجماهير وتبصير العرب بما يحيق بهم من مكر وسوء، كما ساعدت على تكوين الوجدان الجماعي العربي عن طريق تركيز الوعي السياسي والأفكار والمفاهيم الاجتماعية في بؤرة واحدة تتجمع فيها الطاقة الشعورية للأمة لتتسلط بعد ذلك بلا هوادة على العدو الماكر. ولا ريب أنه بفضل هذا الوعي السليم الذي عبرت عنه هذه الأشعار وسواها مما كتبه الكتاب من مقالات وما ألقاه الخطباء من خطب غدا فجر التحرر مرتقباً وكانت العاقبة للعرب.

الفصل الثاني

التنديد بالاستبداد وفساد الحكم

منذ كان في الحياة خير وشر ونور وظلام كانت حرية وكانت عبودية . وحين أطلق عمر بن الخطاب صيحته المدوية « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » غدا في طليعة رواد التحرر وأعداء الاستبداد في أمة العرب .

وإذا كان الانسان بطبيعته نزوعاً الى التحرر نفوراً من الاستعباد فان رجل الفكر أو الفن لا غنى له عن نسمات الحرية ، لأنها جزء أصيل من شخصيته المتميزة وما ينبثق عنه من آثار رفيعة وأفكار نيرة . ولهذا كان الادباء والمفكرون روادا لحرية النفس الانسانية وكرامتها لقوا في سبيل رسالتهم كل عنت وأذى . وكثيرون هم شهداؤها الذين سيقوا الى مذبحها وصلبوا على خشبتها .

وإن كان موضوع التنديد بالخونة والمستبدين والطغاة يعتبر ظاهرة جديدة في الشعر العربي الحديث فان شاعراً عربياً كبيراً هو أبو العلاء المعري كان بحق الرائد الاول في هذا الموضوع حين ندد في لزومياته بالطغيان والجور ، وبالفاسدين من الرؤساء والحكام ، وفتح بذلك باباً آخر من أبواب خلوده .

إن مبادىء المساواة والديموقراطيه متأصلة في نفس العربي منذ القدم

فقسوة البيئة الصحراوية ، واضطرار جميع العرب الى الكفاح على قدم المساواة في سبيل العيش أدى الى انعدام الفروق الطبقية بينهم . وقد حافظ العرب بعد الاسلام على هذه الصفات التي غدت جزءاً من تقاليدهم فكانوا ينتقدون الحكام والقواد والخلفاء ويخاطبونهم كما يخاطبون أفراداً عاديين من بينهم .

ولم تدخل على العرب مظاهر تبجيل الحاكم وتقديسه الا في فترات الضعف حين تفشت لديهم عادات الدخيل من الفرس والروم وأخيراً من العثمانيين .

وما زال العربي الاصيل في هذا العصر يتسم بشيء من صفات الاجداد ويعتقد بصحه قولهم بأن « سيد القوم خادمهم » فهو يتسقط أخبار الحاكم ويحصى عليه سلوكه وتصرفاته ويؤاخذه على هفواته ولا يطيق انحرافه عن جادة العدل . ومن هنا كان مجتمعنا العربي في نضال مستمر مع حكامه . وقد تجلى ذلك بأبرز مظاهره في الشعر الحديث . ويبدو أن شعراءنا في هذا العصر ـ وأكثرهم كانوا يسيرون على النهج التقليدي ـ جنحوا الى حوك قصائدهم على غرار ما عرف به الاقدمون في عهدي بني أمية والعباسيين من صراحة وجرأة ونزوع الى التحرر والمساواة واباء للضيم واستنكار للظلم .

١

ولا ريب أن رائد أحرار الفكر ومناهضي الاستبداد في العصور العربية الحديثة هو عبدالرحمن الكواكبي الذي كان كتابه (طبائع الاستبداد) الصيحة المدوية التي زعزعت أركان الطغيان ، واللبنة الكبرى في صرح التحرر القومي .

وقد عرف العصر الحديث عدداً من الطغاة المستبدين في رأسهم السلطان عبد الحميد الثاني ، إذ كان العرب في ظل حكمه الاسود يعيشون في محنة ، وقل من استطاع أن يجهر ضده برأى ، حتى بدا في ذلك الحين أن الشعب أشبه بالمستنقع الآسن أو الشاة الذبيح يتعاقب عليه غاشم إثر غاشم ،

ويتداوله جزار بعد جزار ، وقد وفق ولي الدين يكن الذي كان في طليعة الثائرين على الاستبداد الى تصوير حالة العرب آنذاك بقوله (١) :

صحا كل شعب واسترد حقوقه ... فياليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم ... وليس له فيمن تولوه خادم
يقلب من عهد لعهد على الاذى ... إذا زال عنه غاشم جد غاشم

ثم هبت نسمات الحرية على العرب ولكن الى حين ، في فترة إعلان الدستور ، وغدا من العسير عليهم بعد ذلك أن يحيوا بدونها . إذ ما كاد الاتحاديون الترك يتسلمون زمام الامر حتى استبدوا بالدرب وراحوا يعملون على تتريكهم أو ابادتهم. وكان اندلاع الحرب العالمية الاولى خير فرصه اهتبلها أولئك الطورانيون للبطش بهم . فما كاد جمال باشا يصل الى الشام مطلق اليد في شؤونها حتى أخذ ينكل بالاحرار ويفتك بأقرب أعوانه ، ثم ارتكب جريمته الشنعاء بتعليق عشرات من زعماء العرب على أعواد المشانق في ساحات دمشق وبيروت ، وغدا في صبيحة ذلك اليوم الطاغية الاول والسفاح الاكبر .

وقد أثار هذا العمل الاخرق حفائظ العرب وقيل في صدده شعر كثير طوال أعوام مديدة بعده . وكانت تند من ثنايا العيون الدامعة ومن خلال القوافي الواجدة أنات شجية تستنكر الظلم والجور والطغيان ، وهذا أمين ناصر الدين يقول (٢) :

شعب يضام وغاشم لا يرحم ... ونوائب تغشى الوليد فيهرم
ودم يطل على الثرى ومشانق ... بحبالها وصل القضاء المبرم
أجمال لا والله لست بمسلم ... كذب الذي قد قال إنك مسلم
لم يبرح الاسلام يأمر أهله ... بالرفق مذ بعث النبي الاعظم
وزت بك الاحقاد أفظع نزوة ... فبطشت منتقماً ولم تك ترحم

(١) ديوانه ١٩ (٢) الالهام ٥٧

وقل أن نجد شاعراً عاش تلك الفترة أو ما بعدها دون أن يدلي بقوافيه في هذا الحدث ويندد بطغيان السفاح ، ويكفي أن نشير الى أن هذا الارهاب كان السبب المباشر الذي أشعل شرارة الثورة العربية الكبرى ضد الحكم التركي بعد أسابيع معدودات . وتعد قصيدة « النائحة » لجميل صدقي الزهاوي من أبرز ما قيل في رثاء الشهداء العرب والتنديد بجمال باشا وطغيانه .

٢

قد يكون موضوع الاستبداد والطغيان وفساد الحكم الموضوع الاول الذي عرفه الشعر القومي الثائر في هذه الفترة من الحرب الاولى وقبل ابتلاء العرب بالاستعمار وإذا كان العرب قد عرفوا عدداً من المستبدين في تاريخهم الحديث فان هؤلاء المستبدين لم يكن لهم في الواقع من سند سوى نفر من حولهم ينصرونهم في طغيانهم . ولم يكن استمرار حكمهم بسبب من قوتهم بقدر ما كان نتيجة ضعف شعوبهم وضآلة وعيها ، وكثيراً ما كانت الانتفاضات الشعبية تطيح بهم وتجعلهم أثراً بعد عين . إلا أن دخول الاستعمار على هذا النطاق الواسع الضاري الى سائر بلاد العرب في أعقاب ثورتهم الكبرى حمل في ثناياه الظلم والاضطهاد ، وغدا للاستبداد منذ ذلك الحين وجه جديد تجلى في فساد جهاز الحكم كله دون أن يرتكز ذلك الى طغيان فرد واحد . ويبدو أن المحتلين عمدوا إمعاناً في المكر وتطبيقاً لبعض نصوص صك الانتداب أو المعاهدات الجائرة الى تنصيب بعض الحكام من العرب آملين من ورائهم أن يمكنوا لأقدامهم في البلاد ويهدئوا من ثائرة الشعوب .

ويمكن اعتبار بعض أعضاء الأسرة الهاشمية التي حكمت الحجاز ثم سورية والعراق والأردن الركيزة الأولى التي اعتمد عليها الاستعمار البريطاني في الشرق العربي . ومع أن الشريف حسين قائد الثورة الثورة العربية كان يعد بطلا في نظر كثير من العرب أول الامر ، فان غالبية المصريين وطائفة من

بلاد الشام نفسها نظروا إليه بمنظار آخر منذ أن ثار على الخلافة التركية وتحالف مع أعدائهم الانكليز، ثم أخذت هالة البطولة تنحسر من حوله بعد أن تكشفت للعرب مطامعه الشخصية. ولئن عز على كثير من العرب الذين تجلت مشاعرهم على ألسنة شعرائهم أن يفجعوا بسياسة زعيمهم وآثروا التماس العذر له إن فئة أخرى من الشعراء صدعت بالحق دون أن تأخذها فيه لومة لائم. ومما لم يرق لهم آنذاك إصرار الحسين على استخلاص الخلافة لنفسه والعرب في أوج صراعهم مع الاحتلال، وقد كان لا يتردد في كسب تأييد الانكليز لبلوغ هذه الغاية. وممن انبرى الى التنديد بمسلكه هذا شاعر دمشق خير الدين الزركلي بجرأته المعهودة (١) :

طال انقيادك للخصوم وأنت أدرى ما الخصوم
الانكليز وما أراك بأمرهم غير العليم
ما في جموعهم وإن حدبوا عليك سوى غريم
عجبا لمن طلب الخلافة والخلافة في النجوم

ومع أن عهد فيصل بن الحسين في الشام كان يعتبر ذهبياً بلغت في أثنائه العواطف القومية أوجها، فقد تكشفت سياسة ذلك الملك ـ الذي قدر له أن يعيش في ظروف عصيبة ـ عن بعض الأخطاء التي ما زال المؤرخون مختلفي الرأي تجاهها سواء إبان ملكه في الشام أم في العراق بعد ذلك، ولكن فئات كثيرة من الشعب وفي جملتهم الشعراء كانوا فيما يبدو يشفقون من الاساءة الى ذلك الزعيم العربي ومن تشويه ذلك الرمز القومي. والواقع ان قلائل هم الشعراء الذين استطاعوا التعرض لفيصل ولسياسته بالانتقاد ومنهم الشاعر محمد

---

(١) ديوانه ٧٢

الفراتي الذى أخذ في تحذيره بلهجة المنذر حين أشيع أنه يزمع تسليم مدينة دير الزور الى الانكليز (١). كما خاطبه في قصيدة أخرى بجرأة وصراحة عرف بها سكان تلك المدينة وما حولها من البادية، حيث قال (٢):

تكلفنا ما لا يطاق احتماله ... فليس لنا عفوا على حمله صبر
لكالوت أن تطغى علينا عصابة ... مطالبهم فينا الخيانة والغدر
لئن قادنا شوق لربعك حثه ... عفاف واقدام فما قادنا الاسر
إذا أنت لم تنصف بعدلك بيننا ... تطاير فيما بين أحقادنا الشر

فالفراتي في هذه الابيات يعبر عن إرادة العرب الحرة ويأبى أن يساوم رجل على عرش له في سورية ويدفع ثمنه قطعة من وطنهم الغالي، أما التهديد والوعيد فلم يكن بوسع الشاعر أن يصدر عنها لو لم يستمد اليأس من شعبه الواعي يومذاك. ومع أن خليل مردم بك في طليعة الشعراء الذين تغنوا بالعهد الفيصلي الوطني بدمشق بعد دحر فلول الترك منها فقد ساورته الريب فيمن ساورتهم تجاه مسلك الملك الهاشمي وسياسته إذ توجه بقصيدته «الى فيصل» قائلا (٣):

الى فيصل لا يثلم الله حده ... قوارص قول دونها كل مخذم
إذا بلغته أحرج الهم صدره ... وقبض وجه العابس المتجهم
أفيصل إن سلمت مقدار ذرة ... مياسرة من حقنا لا نسلم
نفضنا يدينا منك لا عن تباغض ... وكنا بحل معك من كل محرم

وحين عوض فيصل عن عرشه في الشام عرشاً في العراق ظهر من أمره ما ظهر وتلقفه شعراء نابهون كان معروف الرصافي في رأسهم، وفي الرصافي جرأة وفي طبعه إباء. ومع اعترافنا بوجود خلاف شخصي بين الرصافي

---

(١) انظر ديوانه والهامش فيه ٦٥
(٢) ديونه ٢٩
(٣) ديوانه ١٥٣

وفيصل زاد الهوة بينهما اتساعاً فلا مندوحة عن القول إن الرصافي كان مدفوعاً أيضاً بنزوعه الاصيل الى التحرر ؛ إذ لم يرق له هذا الحكم بعد ثورة عراقية شاملة جرت فيها الدماء أنهاراً وأزهقت الارواح آلافاً . لقد نظم قصيدة جريئة في ذلك الحين بعث بها الى جريدة (الاهرام) وقال فيها (١) :

لنا ملك وليس له رعايا ... وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح ... ومملكة وليس لها نقود
أيكفينا من الدولات أنا ... تعلق في الديار لنا البنود
وأنا بعد ذلك في افتقار ... الى ما الاجنبي به يجود
كلاب للاجانب هم ولكن ... على أبناء جلدتهم أسود

ولا ريب أن هذه اللهجة الحادة قد تبدو غريبة بالنسبة الى كثير مما عهدناه لدى الشعراء الذين تغاضوا عن أخطاء فيصل وظلوا يعتبرونه بطل الثورة العربية الكبرى ورمزاً للوطنية . ولم يكن الشاعر العراقي محمد صالح بحر العلوم ليقل حدة عن الرصافي ، فهو من أشد من عرفهم العراق من الشعراء تصدياً لحكامه الطواغيت ، ومن ذلك قوله يخاطب الملك فيصل أيضاً في قصيدة سماها « العبودية والاغلال » (٢) :

أبأثواب الرعاة البالية ... قد تعودت ارتداء السندس
أم على جانب بئر الباديه ... كنت تسقي عذب ماء التيمس
أنا قدمت الدماء الزاكيه ... فتأخرت بتاج الدنس

وإذا كان فيصل قد حرص على تحرير العرب ولجأ الى مداراة الانكليز

---

(١) الأهرام عدد ٢٧ نوفمبر ١٩٢٢ . ولم أعثر على قصيدة هذه في ديوانه .
(٢) ديوانه ١٢

في سبيل انتزاع ما يمكن انتزاعه من الحقوق ، فان أخاه عبدالله بن الحسين أمير الاردن ثم ملكها لم يظهر مثل ذلك الحرص على مصالح العرب في علاقاته مع بريطانيا ، فقد كان أكبر عون لتلك الدولة المستعمرة في بلاده . وربما كان خير الدين الزركلي الذي اتصل به حيناً من الزمن وعرف من أمره ما عرف ، في طليعة من تجرؤوا عليه من الشعراء ؛ فهو يعبر عن خيبة آمال الاحرار فيه بعد أن لاذوا به والتفوا حوله ومن بينهم الشاعر نفسه في أعقاب انهيار الحكم الفيصلي في دمشق واضطهاد الفرنسيين له [١] :

لا التاج ينفعه ولا استقلاله إن لم يحل وثاقه وعقاله
ظلموه فاستبقوا الى وكناته فسهوله محتلة وجباله
وطن تزاحمت الخطوب ببابه وجفاه من عقدت بهم آماله

ثم يشير الزركلي في قصيدة أخرى الى مسلك عبدالله ومحاباته لليهود منذ ذلك الحين فيقول مخاطباً أباه الحسين بعد أن ندد به [٢] :

هذا وليدك في (الرقيم) يعيث في أهل الرقيم
يحبو (يهوذا) ما حبوت وليس غيرك من ملوم
خسر وارضى(موسى)الكليم فناب عن موسى الكليم
شر الممالك ما يساس سياسة البغي الوخيم
ما في العروش على الجهالة والغباء بمستقيم

ويشتد الزركلي على ذلك الحاكم الذي باع شعبه في سبيل كرسيه [٣] :

عجائب الاردن ما تنقضي تلحق أخراها بأولاها
ما كان إلا عبد طاغوته من حسبوه (يعبد الله)

---

(١) ديوانه ٥٢
(٢) ديوانه ٧٢ وأصحاب الرقيم أهل الكهف وقيل كانوا في الأردن .
(٣) ديوانه ٤٨

ثم يحمل على مهزلة الاستقلال المزعوم الذي أتى به الأمير بلاده (١) :

عمان كانت أمس ، بالهفى على ... آمال أمس ، الموئل المرتادا
لاذت بعد الله فانقادت وما ... حسبته لاذ بغيرها فانقادا
حمل الصفاد لها وقال تحرري ... لو رام تحريراً رمى الأصفادا
من كان أقصى همه (شطرنجه) ... كانت (بيادقه) له أجنادا
ما كان الاستقلال ما آتاهم ... من لندن بل كان الاستعبادا

والى جانب الزركلي كان شاعر الاردن عبدالله وهبي التل أبرز من تصدى للامير وحكمه الرجعي حتى لقي في سبيل ذلك السجن والتشرد والاضطهاد فهو يشير الى ذلك العرش وتلك البطانة بقوله (٢) :

أرأيت كيف العرش حف بربه المسترزقون
فاتته معرفة الأمين فضل معرفه الخـؤون
والتاج أضيع ما يكون مؤيداً بمنافقين

وغدا التنديد بالملوك وفسادهم ديدن عدد من الشعراء الذين تحلوا بالاخلاص والجرأة . وقد ربط علامة العراق الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بين مآرب المستعمرين وتصرفات بعض ملوك العرب وكيف كانوا أداة طيعة في أيديهم لتفتيت وحدة شعوبهم فقال (٣) :

واستخدموا ملوكنا ... لضربنا ولا عجب
هم نصبوا عرشاً لهم ... في كل شعب فانشعب

كما عبر أديب التقي الشاعر الدمشقي عن حنق العرب تجاه كثرة

---

(١) ديوانه ٦٣ ، وفي البيت الرابع إشارة الى براعة الملك عبد الله بلعبة الشطرنج
(٢) عشيات وادي اليابس ١٦
(٣) انظر عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث ٦٤

العروش وفساد من فوقها بحيث أصبح لزاماً على الشعوب أن تناضل بلا هوادة في جبهتين وتقاتل عدوين لدودين (١) :

في كل يوم لنا عرش تشيده — على المطامع أيد أجنبيات
ماذا تفيد ملوك تحتها عرش — جميعها بين أيدي القوم آلات
إني سئمت صدى الألقاب في بلد — يكاد يعوزها ماء وأقوات

وهذا الوصف الذي يصور حالة العرب إثر الاحتلال وظهور المتزعمين فيهم على أشلاء بلادهم الممزقة يذكرنا بأبيات الشاعر العربي في تصوير ما آلت إليه الاندلس من ضعف بالغ مما أضاع ذلك الفردوس :

مما يزهدني في أرض أندلس — ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

ولعل قصيدة شاعر فلسطين عبدالكريم الكرمي في طليعة القصائد الجريئة التي تصدت لملوك العرب قبل النكبة ونددت بتخاذلهم تجاه الصراع الدامي بين العرب واليهود في الأراضي المقدسة ؛ فقد نظمها (أبو سلمى) إثر الانتفاضات المتلاحقة في فلسطين وأكثر أبياتها سار على الالسن :

أنشر على لهب القصيد — شكوى العبيد الى العبيد
شكوى يرددها الزما — ن غداً إلى أبد الابيد

ثم يلتفت الى الملوك ويسلقهم الواحد بعد الآخر بلسانه الحديد :

دكت عروش زينو — ها بالسلاسل والوعود
إني لارسلها مجلـ — ـجلة إلى الملك السعودي
وأبو طلال في ربا — عمان يحلم بالحدود
أقعد فلست أخا العلا — والمجد ، وانعم بالقعود
واحكم على الشطرنج إ — س على الفيالق والجنود

---

(١) ديوانه ٨١

عرج على اليمن السعيـ ـد وليس باليمن السعيد
واذكر إماماً لا يزا ل يعيش في دنيا ثمود

ثم يخاطب ملك مصر (فاروق) الذي اصطنع مظاهر التقى وأرسل لحيته ليضلل بها شعبه :

دع سبحة التضليل واخـ ـلع عنك كاذبة البرود
أحسبت أن الملك بالتـ ـسبيح يطلب والورود
إيه مـلوك العرب لا كنتم ملوكاً في الوجود
قوموا اسمعـوا من كل نا حية يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا الوطن الذبيـ ـح من الوريد إلى الوريد

وما من ريب في أن استفحال روح التمرد في النفوس وبلوغها لدى فئة من الشعراء هذا الحد الخطير إيذان بانهيار العروش الفاسدة وإطاحة الشعوب بحكامها الطغاة .

ويمكن القول بعد ذلك إن المحتلين حرصوا على إظهار أنفسهم بمظهر يختلف عما كان عليه الترك أيام حكمهم للعرب ، من ذلك أنهم كانوا يطلقون حرية القول بمقدار عن رغبة حيناً وعن رهبة في أكثر الاحيان ، وقد عمدوا استكمالا لهذه المظاهر الى اصطناع طائفة من المتزعمين وإقامتهم على رأس حكومات ترتدي ثياب الوطنية والحرية والديمقراطية ليكونوا لهم عوناً في تمكين استعمارهم ، وقناعاً يسترون بهم جرائمهم ، ولم يترددوا في إعلان الدساتير وإقامة المجالس التمثيلية وإجراء الانتخابات النيابية إمعاناً منهم في حبك مهزلة الحكم .

وكان على الاحرار ورجال الفكر وحملة القلم أن يبادروا الى كشف

الزيف وإظهار الحق ، وأن يحاربوا أيضاً في جهتين ويقاوموا عدوين لدودين يساند أحدهما الآخر . وكانت حملة بعض الشعراء على الاذناب وأعوان المستعمرين ضارية . ويجدر بنا أن نحاول رصد المدى الذي بلغه الشعراء في تجريئهم على الحكام في أقطار الشرق العربي ، وبخاصة في مصر والعراق حيث كان يسود النظام الملكي وتستتر أحابيل المستعمر وراء فئة من الحكام المحليين ، بالاضافة الى كثرة عدد الشعراء في هذين القطرين مما يساعد على استجلاء هذا العنصر في الاتجاه القومي السائد .

ونحن نجد لدى حافظ إبراهيم قصيدة رائعة ندد فيها بالاستعمار والاستبداد على السواء ، ولكن متى كان ذلك ؟ الواقع أنه بعد أن أحيل الى المعاش ، وغدا بمنأى عن أسر الوظيفة ، ولم يبق لديه ما يخشى عليه ، فهو إذ يخاطب الانكليز بقوله (١) :

إنا جمعنا للجهاد صفوفنا ... سنموت أو نحيا ونحن كرام

لا يلبث أن يقول في رئيس الوزراء يومذاك (اسماعيل صدقي) والغيظ الذي ظل كظيماً في نفسه أمداً طويلا يتفجر صواعق على الطاغية :

ودعا عليك الله في محرابه ... والشيخ والقسيس والحاخام

لاهمّ أحي ضميره ليذوقها ... غصصا وتنسف نفسه الآلام

على أن أكثر ما نظمه الشعراء في هذا الموضوع لم يكن من اليسير أن يجري على هذا المنوال . وقد مر بنا أن التنديد بعبد الحميد أو بجمال باشا وسواهما من الطغاة لم يكن من الممكن صدوره عن النفوس إلا في منأى عن يد الظلم . ومن الطبيعي أن تغلي نفوس الشعراء وسائر حملة الاقلام كالمراجل دون أن تستطيع

(١) ديوانه ٢ : ١٠٥

التعبير بحرية عما يختلج في أعماقها من مشاعر النقمة والغضب ، وقد كان التعميم في القول منفذاً تنطلق منه هذه المشاعر دون أن ترتد الى نحور أصحابها ، على نحو ما نجده للشاعر أحمد زكي أبي شادي بعد انقضاء فترة على خمــود ثورة ١٩١٩ في مصر (١) :

أسفي على الناسين فرض وفائهم يوم الوفاء لخدمة الأوطان
القاعدين على الأرائك ضـلة الغافلين الخاسري الوجدان
الموميـاء أجل في تقـدنا من هذه الاشباح والأكفان

ويعتبر محمد الأسمر في مقدمة الشعراء الذين عنوا بمعالجة أمور الحكم في مصر ، وكان يتحلى بصراحة وجرأة في شعره ، فهو يصور تلك الحكومات التي كانت تحكم بمشيئة المحتلين خير تصوير إذ يقول (٢) :

وزارات يراح بها ويغـدى فقل للحالمين بهـا رويدا
دمى خزف وألواح زجاج وإن لاحت حدائد أو أشدا
إذا يد ساندبها أغفلتهـا تبدى أمرها فـيما تبدى
هوت فاذا بها متحطمات ولو لبست من الفولاذ سردا
وكل سفينة نزلت ببحـر أطـاعت موجه جزرا ومدا

فالاستعمار في رأي الأسمر هو الذي كان يمد الحكومات المصرية المتلاحقة بنسغ الحياة ، فهي من دونه لا حول لها ولا قوة ، والشاعر نفسه يندد في قصيدة أخرى ـ نظمها قبل الحرب الاخيرة ـ بفوضى الحكم في مصر إذ يقول بلسان شعبه (٣) :

تروح وزارة وتجيء أخرى ومصر تقلب النظرات حيرى
نشيم فلا ترى إلا بروقاً كواذب ربما أمطرن جمـرا

---

(١) مصريات ٢٣
(٢) ديوانه ٥٧
(٣) ديوانه ٤١

فيا وزراء مصر بكل عهد　　لقد مل الرواية شعب مصرا

وإذا رحنا نلتمس الجرأة في انتقاد أنظمة الحكم الفاسدة لدى شعراء العراق أدهشنا اهتمامهم الشديد بهذا الموضوع وإكثارهم من النظم فيه، وكأن الروح الثائرة المتمردة لأسلافهم الخوارج قد تقمصت فيهم. وتتجلى لنا هذه الظاهرة خلال قصائد كثيرة لجميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ومحمد صالح بحر العلوم ومحمد مهدي الجواهري ومحمد باقر الشبيبي ومحمد رضا الشبيبي وخيري الهنداوي وغيرهم من شعراء العراق. مما ينم عن مبلغ ما كان يعانيه العراق في ظل حكامه البائدين. ويعد الرصافي بحق فارس هذا الميدان، صدر عنه بفهم عميق، وكان كالطود الأشم لا ينحني أمام الطغاة ولا تلين له تجاه المفسدين قناة وله من القصائد في هذا الشأن ما يعد وحده ثورة عاتية على أجهزة الحكم الغاشم في العراق (١) :

وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي الضرع غربي اللابن
وطني الاسم لكن إنكليزي الشناشن
عربي اعجمي معرب اللهجة راطن
فيه للايعاز من لندن بالأمر مكامن
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لا نملك تحريك السواكن

وها هو ذا نفسه يصور إحدى تلك الحكومات التي كانت أشبه شيء بخضراء الدمن وضعت على وجهها قناعاً وطنياً أبى الرصافي إلا أن يهتكه عنها ليظهر حقيقة أمرها أمام الملأ، فهو يقول بأسلوبه اللاذع المعهود (٢) :

---

(١) ديوانه ٤٣٨　　(٢) ديوانه ٤٥١

في الكرخ من بغداد مرت بنا ... يوماً فتاة من ذوات الحجاب
تختلب الناس بأوضاعها ... وكل ما يصدر منها خلاب
قد وضعت تاجاً على رأسها ... يلمع في الظاهر لمع الشهاب
قال جليسي يوم مرت بنا ... من هذه الغادة ذات الحجاب
قلت له : تلك لأوطاننا ... حكومة جاد بها الانتداب
تحسبها حسناء من زيها ... وما سوى (جنبول) تحت الثياب
ظاهرها فيه لنا رحمة ... والويل في باطنها والعذاب

وما نظن شاعراً عربياً آخر بلغ هذا المدى من التوفيق الذي بلغه الرصافي في وصف إحدى هذه الحكومات الصورية ، وهو شديد الحرص على الكشف عن الصلة الواشجة بين حكام العراق وبين المستعمرين بجرأة بالغة دون أن تأخذه في الحق لومة لائم . ونجده يسم وزارات العهد البائد بالخيانة السافرة في أبيات أخرى منها قوله (١) :

إن الوزارة لا أبالك عندنا ... ثوب يفصل في معامل (لندنا)
لا يرتديه سوى امرىء أضحى له ... طبعاً وداد الانكليز وديدنا

وثمة قصيدة أخرى له أطلق عليها إسم « الوزارة المذنبة » التي جاءت لتحكم العراق بعد أحداث دامية وأزمة شديدة وهو يجري فيها على مألوف أسلوبه اللاذع في تصوير الوزراء الجدد تصويراً مفعماً بالسخرية المرة وفيها يقول (٢) :

أهل بغداد أفيقوا ... من من كرى هذى الغرارة
إن ديك الدهر قد با ... ض ببغداد وزارة
حبت للوطني الـ ... حر أن يهجر داره

---

(١) ديوانه ٤٩٦ (٢) ديوانه ٤٦٦

فكأن الحكم والعد ل بها قط وفاره
كم وزير هو كالوز ر على ظهر الوزراه
ووزير ملحق كالذ يل في عجز الحماره
أدركوا الحق فقدشذ ت على الحق الاغاره
لا تسل عنه وزير ال قوم واسأل مستشاره
فوزير القوم لا يعـ مل من غير إشاره
وهو لا يملك أمراً غير كرسي الوزراه
يأخذ الراتب إما بلغ الشهر سراره
ثم لا يعرف من بعـ د خراب أم عماره

وقد بلغ الرصافي في هذه الصور مستوى فنياً رفيعاً يخيل لقارىء معها أن الشاعر لم يترك في هذا المجال زيادة لمستزيد. وبخاصة حين يقارن الوزارة ببيضة الديك إمعاناً في العجب من أمرها، ثم تشبيه الحكم والعدل بالقط والفارة، وجعله الوزير التابع ذنباً للحمارة - الى آخر ذلك من الصور والتشبيهات التي كانت تجعل كل بيت من أبيات القصيدة سهماً ينطلق الى نفوس أولئك الحكام فيصمى. « ومن الطبيعي أن يستقبل الرصافي هذا العهد بالسخط والتشاؤم ... إذ أن شاعراً من شعراء الحرية والوطنية كالرصافي إن كان يتطلع الى انقلاب أو تغيير في الأوضاع فان هذا الانقلاب ينبغي أن يهدف الى استبدال الحرية بالعبودية، والاستقلال بالاحتلال، لا أن تنجو البلاد من احتلال لتقع بين براثن احتلال شر منه وعدو غريب لا تصله به وشيجة من وشائج العقيدة أو التاريخ »(١) ولذلك صدر عن مثل هذه الحماسة والحدة في مهاجمة الحكم البائد آنذاك.

---

(١) بدوي طبانة: معروف الرصافي ١٣٢

وإذا ما انتقلنا الى طائفة أخرى من شعراء العراق فاننا نعيش في أجواء مماثلة لدى شاعر عرف بجرأته البالغة على الفساد والاقطاع وهو محمد صالح بحر العلوم الذي يقول وقد أقذع في بيته الأول (١) :

حكومة واطأها الانتداب ... فأولدت عرش العراق البليد
وقام فيها منجل الانتخاب ... يحصد رأس العربي المجيد
فاختلقت مملكة من تراب ... فظن بعض أنها من حديد
وانتهبت من يد الاغتصاب ... ما تركت أذناب (عبد الحميد)

أما محمد باقر الشبيبي أحد العاملين في ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ فقد كان حرباً على المستعمرين وأذنابهم ومن مشهور قوله (٢) :

قالوا استقلت في العراق حكومة ... فعجبت إذ قالوا ولم يتأكدوا
أحكومة والاستشارة ربها ... وحكومة فيها المشاور يعبد
المستشار هو الذي شرب الطلا ... فعلام يا هذا الوزير تعربد

وفي بيته الأخير طرافة محببة مفادها أن ما يوعز به المستشار ينعكس جليا على الوزير ، فاذا ما شرب المستشار الخمرة وجد الوزير نفسه ملزماً بأن يعربد .

وكما ندد الرصافي في قصائده السابقة بالاستعمار والاستبداد دون أن يرى فارقاً جوهرياً بينهما ، نسج محمد مهدي الجواهري قصائده على هذا المنوال في تعبيره عن تجربة عرضت له حين أزمع السفر من العراق الى لبنان وحالت السلطات في بينه وبين الزيارة (٣) :

خلت أني فررت من جو بغداد وطغيان جورها الالهاب

---

(١) ديوانه ١٠٧
(٢) علي الخاقاني : شعراء الغرى
(٣) ديوانه ٢ : ١٩٠

ومن البغي والتعسف والذل فظيعاً محكمـــاً في الرقاب
خلت أني نجوت من بطشة عات وخائن كذاب
ومن الزاحفين كالدود هوناً تحت رجـلي مستعمر غلاب
افيقى الاحرار مناومنكم بين سوط الدخيل والارهاب

وهكذا أبان الجواهري عن طبيعة الحكم الفاسد الذي كان في كل من لبنـان والعراق مما يعد دليلا على تماثل الاوضاع الداخلية في ظل الاستعمار سواء كان بريطانياً أم فرنسياً .

ولم يكن من المأمول أن تتغير الأمور تغيراً جوهرياً في ظل جيوش الاحتلال في سائر بلاد العرب ففي الأردن ذلك البلد الصغير تصدى لنظام الحكم عدد من الشعراء على قلتهم من نحو مانجده في أبيات لمصطفى وهي التي تذكرنا بقصيدة « الوزارة المذنبة » للرصافي التي مرت بنا قبل صفحات قليلة ومما قاله فيها (١) :

أما البلية فهي في تلك التي تدعى الوزاره
حشروا بها المختار والبغلين ثم ابن الحماره
والله لو بيعوا بسوق الخيل ما بيعوا بباره
يا شاربين على الأذى والصابرين على المراره
حتام لا تتململون فلا يقال هم الحجـــاره
الناس من لو أرهقوا ، شنوا على الارهاق غاره
« العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشاره »

فالشاعر الذي عاش حياة بوهيميـة مضطربة كان يندفع ثائراً على وضع بلاده المؤسف ، ولا يتردد من أجل ذلك في أن يقذع في القـول دون أن يحسب حساباً لنفي أو لسجن .

---

(١) عرار : البدوي الملثم ٣٠٩ .

ومما سبق من استعراض مواقف الشعراء تجاه حكامهم نلاحظ أن مصر لم تحظ بطائفة من الشعراء الذين عرفوا بالجرأة كما كان الشأن في العراق ، ولم يقيض لها شاعر من هذا الطراز الذي وجدناه في الرصافي . فقد ابتعدت طائفة من الشعراء عن مثل هذه الموضوعات كما كان الشأن في أكثر شعراء مدرسة (أبولو) كما أن شوقي وحافظ وسواهما كانوا يؤثرون الاعتدال في أكثر مواقفهم ولم يصدروا عن مثل ذلك الالتزام في الرأي والحدة في القول على النحو الذي وجدناه لدى شعراء العراق بصورة عامة .

٤

وأما البرلمانات الصورية والانتخابات التمثيليه المزيفة التي كان المفوضون السامون أو المعتمدون الأجانب حريصين على إقامتها ، وإلهاء الشعب بما يجري فيها من مباريات ، فقد لقيت نقداً لاذعاً من الشعراء كان جزءاً من حملتهم الشاملة على أجهزة الحكم الفاسدة ومظاهر السيادة الكاذبة . وعندما تمخضت مداورات الانكليز ومؤامراتهم عن إقامة أول برلمان في مصر عام ١٩٢٤ انبرى نفر من الشعراء لاعلان سخطهم على يوم افتتاحه والتنديد بأعضائه . وكان في مقدمتهم أحمد محرم الذي يمكن اعتباره من معارضي الحكم القائم آنذاك بزعامة سعد زغلول ، ومما قاله يومئذ [1] :

يقولون نواب ودار نيابة	وملك ودستور من الحق واضح
وحكام عدل شائع ووزارة	هي الشعب أو روح من الشعب صالح
وساوس أقوام مهاذير مالهم	من الرأي هاد أو من اللب ناصح
أسائل نفسي وهي ولهى من الأسى	أرائك ملك ما أرى أم مذابح

ومن أشد ما نظمه محمد الأسمر على النواب في مصر قوله في الأبيات التالية

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٩٦ عن ديوان مخطوط للشاعر .

يخاطبهم على نحو طريف وغريب معاً (١) :

حطموا الأغلال عن أمتكم ... وازأروا بالحق فيمن زأرا
لا تموؤوا هرة محبوسة ... بل أسوداً غاضبات للشرى
واخلعوا الأرسان لستم حمراً ... واطرحوا النير فلستم بقرا

فهو فيما يبدو يحاول أن يهز بعنف ضمائر أولئك النواب الذين لا يعرفون من اجتماعاتهم سوى رفع الأصبع وهز الرأس دون أن ينبسوا ببنت شفة ، وهو يعجب من قبولهم عن طيب خاطر تلك الارسان والانيار شأنهم شأن الحمر أو البقر ... والشاعر مولع بهذا النمط من الصور التي تعتمد على تشبيه البشر بفئات من عالم الحيوان ،فبالاضافة الى ذكره في المقطوعة السابقة الهرة المحبوسة والاسود الغاضبة والحمر والبقر ، ينحو هذا النحو أيضاً في قصيدة أخرى عنوانها « قبل الحكم وبعده » إذ يشبه فيها أولئك النواب أو الحكام بطائفة من الحيوانات ويشير الى أنهم يملؤون الدنيا جعجعة ثم يصابون بعد أن يبلغوا قاعة المجلس بالبكم (٢) :

ألاما لبعض الناس أصبح (باقلا) ... وقد كان قبل اليوم (سحبان وائل)
أيسمعنا زأر الاسود وينثني ... فيفعل فعل الصاهلات الجوافل
أقلب طرفي حيث كنت فلا أرى ... سوى قنفذ أو ذئب ليل مخاتل

ويصور عبدالكريم الدجيلي مدى ضعف النائب في برلمان العراق الذي وضعه في أعين الشعب رفع لانكليز له (٣) :

أيها النائب لا تحـ ... فل بمن قال وقيلا
قد هززناك حساما ... فوجدناك كليلا
وسبرناك عميلا ... فوجدناك أصيلا

---

(١) ديوانه ٣٧
(٢) ديوانه ١٢١ ؛ وباقل مضرب المثل بالعي ؛ وسحبان من أفصح العرب في الجاهلية
(٣) عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث عن ديوان له مخطوط ١١٧ .

أما أحمد الصافي النجفي فهو يعرض لنا بحوار رشيق منزلة تلك المجالس النيابية في نفوس الشعب فيقول (١) :

قال لي صاحبي هلم الى المجلس فاليوم أعظم الجلسات
قلت بالامس زرته وفؤادي مفعم منه في أذى الذكريات
قال كرر له الرواح لتلقى لك سلوى عن هذه الازمات
قلت هيهات لا أعود فحسبي رؤية الموت مرة في حياتي

والحق إن هذا التأفف من مهازل الحكم كان على كل لسان في الشرق العربي ، فقد كانت الانتخابات في راس تلك المهازل ، تقيم البلاد وتقعدها ثم تتمخض بعد ذلك عن :

تماثيل ينحتها الانتداب وتعرض في قاعة المجلس

كما يقول محمد علي اليعقوبي (٢) . أو كما يقول ناجي القسطيني ساخراً (٣) :

قلنا لكم ألف مرة الانتخابات حرة

ويشير أديب حلب قسطاكي الحمصي الى أولئك النواب في سورية الذين كانوا يتصدرون قاعة المجلس تحت حراب الفرنسيين فيقول (٤) :

نوابنا نواب كلهم على لحى منتخبيهم قضوا
ثمة ميزانية ليس من تصديقها بد أبوا أو رضوا

على أن أبيات خليل مردم تبقى من أطرف ما وصفت به هيئة أولئك النواب من الذلة والمسكنة وهم في طريقهم الى تسلم مقاعدهم في قاعة المجلس (٥) :

---

(١) الهواجس ١٣٢ (٢) ديوانه ٧٠
(٣) عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث ١٨
(٤) ديوانه ١١٥ (٥) ديوانه ١١٥

البرلمان وهل أتاك حديثه وحديث من فيه من النوام
نقلوا اليه ناكسين رؤوسهم نقل الجبان لساحة الاعدام
ملك الحياء عليهم أبصارهم فعيونهم بمواطىء الأقدام
عكفت زواياه على أصنامهم من لي بإبراهيم للأصنام

أما شعراء المهجر الذين اتيح لهم في مغتربهم من حرية القول مالم يتح لاخوانهم في مواطنهم من انتقاد وتنديد بأحوال البلاد السياسية فلا نجد لهم في هذا الموضوع إلا اليسير نظراً لطابعه المحلي ، على خلاف ما كان الامر لديهم تجاه الاستعمار ، وثمة أبيات للشاعر القروي نظمها في مجلس نيابي اصطنعه الفرنسيون وزوروا فيه إرادة شعب لبنان يقول فيها (١) :

وطن تحيرت العبيد لذله وأذل منه رئيسه والمجلس
جاد المفوض بالمليق فحمحموا وثنى عليهم بالشكيم فأسلسوا
لا تسلقوهم بالملام فانهم جلسوا وهل نجوا الكيلا يجلسوا
في كل كرسي تسند نائب متكتف أعمى أصم أخرس

ومما يؤكد تجاوب جماهير الشعب مع أمثال هذه القصائد وأنها تنطق بلسانهم وتعبر عن مكنون أنفسهم أن هذه الابيات ، وسواها للقروي ، كانت تصل في رسائل خصوصية لبعض أصدقائه في بيروت ، وهؤلاء يطبعونها سراً في نشرات ثم يدفعونها الى باعة الصحف لكي يبيعوها في غفلة من رجال الشرطة (٢) :

٥

على أن الوعي المتنامي في نفوس الشعراء وفهمهم القومي الصحيح المتزايد وبخاصة في أعقاب الثورات القومية التي قامت بها شعوبهم وأخضعها

---

(١) ديوانه ٣٠٥

(١) انظر جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر ٣٤١

المستعمرون بعد ذلك ، جعلهم يركزون حملتهم بشدة على الطبقة الجديدة الحاكمة التي اصطنعها المستعمرون من أهل البلاد تمويهاً للحقائق وتجنباً لغضبة الشعوب . واستقر في النفوس بنتيجة ذلك أنه لولا الذين يمكنون للاستعمار في وطنهم ويكونون له عوناً على قومهم لكان بوسع الامة أن تتجه بقوتها كاملة الى المحتلين وتتخلص منهم . وقد فطنت طائفة من أولئك الشعراء الى الصلة الوثقى بين المستبدين والمستعمرين ، والى التلازم بين فساد الحكم والاحتلال حتى كأنهما طرفان في عصا أو وجهان لقطعة من النقود .

وهذا الشاعر القروي يشهر بخساسة الدور الذي قام به بعض المتزعمين في لبنان حين يسروا على جيوش فرنسة أمر احتلال بلادهم أثناء الحرب العالمية الاولى فراح يخاطبهم بقوله (١) :

ويا ناعمين بذل القيود ويا سادة في هوان العبيد
أمن أجل تقبيل رجل العميد وبري الذقون لفرط السجود
غدرتم بشعب وبعتم وطن

وحين اقتطع الفرنسيون جزءاً من سورية وهو لواء الاسكندرون وقدموه لقمة سائغة الى تركيا ، أعلن الشعب غضبته على الاحتلال ودولة الانتداب ، وقل من فطن يومذاك الى تهاون الزعماء في تلك القضية وتقصيرهم في كشف ما كان يدبر في الخفاء ، ومع هذا نرى شاعر العاصي عمر يحيى يتجه بشدة الى لوم هؤلاء الحكام (٢) :

بكوا فقد اللواء لنا رياء وهم طعنوا البلاد وضيعوه
أضاعوه لكي تبقى الكراسي فيا لدم يضيعه ذووه
فصفق الرئيس ولا تعارض وإن ينطق فقل : لافض فوه

(١) ديوانه ٢٩٥
(٢) صبري الأشتر : المختار من الشعر في سورية ٢٦

وقد نحا علي الجندي هذا النحوا إذ وجد أن علة الشرق المزمنة حمق سياسته وأنه لا لوم على الذئب إن وجد الرعاة أنفسهم لاهين عن أرضهم (١) :

زمانة الشرق حمق ساسته وأعيت الطب آفة الزمن
لا تلم الليث إن رأى إبلا رعاته غارقون في الوسن
فأعمل الناب في فرائسه أحق باللوم حارس الوطن

ومن هذا القبيل ما نظمه خيري الهنداوي الشاعر العراقي حين ألقى اللوم في سوء حالة البلاد على الحكام الفاسدين قبل أن يلقيه على المحتلين فقال يخاطب الشعب (٢) :

ما الغرب أول ظالم لك بالذي يأتيه بل أبناؤك الظلام
قد أهملوك وأنت معقل عزهم فاستهونتك بوطئه الاقدام

وكما قال عمر أبو ريشه :

لا يلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم

ورأى عمر بهاء الاميري أن أصل الداء يكمن في هذه الطائفة المتزعمه وكأنه يدعو الى محقها (٣) :

ضل شعب يسوسه غير كفء ويقود المنافقون زمامه
كيف تحيا البلاد والحكم فوضى ورءوس البلاد صرعى زعامه

ومع كل ما وجدناه من سوء الظن في قادة العرب السابقين ، فان إيمان الشعراء بالشعب كان وطيداً ، فحين يزهى عمر أبو ريشة بأمجاد العرب يناجي خالد بن الوليد بقوله (٢) :

قم تلفت تر الجنود كما كا نوا منار الاباء والعنفوان
ما تخلوا عن الجهاد ولكن قادهم كل خائن وجبان

---

(١) أغاريد السحر ٩٧ (٢) رفائيل بطي : الأدب العصري في العراق ١٧٣
(٣) من : « رجال واشباه » ديوان مخطوط للشاعر (٤) ديوانه ٢٣١

فالخير في نظر الشاعر ما زال موجوداً في الآخرين كما كان في الأولين .

ولم يكن ثمة مفر أمام الأقلام الحرة من أن تشتد على هذه الطبقة الحاكمة الجديدة التي عمل المستعمر على خلقها ودعمها . فقد استفحل أمر الحكام الذين كانوا حرباً على قومهم وشؤماً على وطنهم ، وأخذ الجيل المتحفز يرى في مثل هؤلاء خطراً كبيراً على قضية البلاد ، وينسب إليهم كثيراً مما يحيق بالوطن من نكبات ، وقد تجلى هذا الشعور الحاد لدى فئة من الشعراء الشبان كان منهم وجيه البارودي الذي يعبر عما يجيش في صدور الشاميين من حقـــد على تلك الزمرة المتواطئة مع الأجنبي (١) :

يقولون هذا أمير البلاد	جميع العباد له خاضعون
أراه ومن حوله في النعيم	يروغ العدو وهم غافلون
تجوع البلاد وهم متخمون	ويبكي الفقير وهم يضحكون
هم الناكثون هم الخائنون	هم الآثمون هم المجرمون
وكل جريء أتى مخلصاً	يناضل حامت عليه الظنون

ولا ريب أن هذه الأبيات زفرة حرّى من نفوس الشبان الثائرين الذين كان يحز في نفوسهم أن تحتكر الوطنية طائفة من محترفي السياسة وتحـرص على إبعاد كل مخلص وشريف عن دفة الحكم .

والحق أن الزعامة المخلصة والقيادة الحكيمة كانت في الشرق العربي أندر من الكبريت الأحمر ، حتى غدا كثير من المقالات والخطب يحرص على ذكر صفة الاخلاص الى جانب أسماء الساسة إمعاناً في تقريظهم . والى هذه الظاهرة المتفشية في ظل الاحتلال يشير فؤاد الخطيب بقوله (٢) :

يقال زعيم ثم ينعت مخلصاً	فهل أصبح الاخلاص إحدى العجائب
وهل ندرت تلك السجيه أو عفت	فتذكر في التاريخ ضربة لازب

(١) بيني وبين النواني ١٨ (٢) ديوانه ٦١٨

وهكذا بدا واضحاً للطليعة الواعية في بلاد العرب أن النكبات التي تحل بأمتهم لا يمكن أن تكون جميعاً من صنع الاستعمار بمفرده. إذ كان لأعوانه دور فعال في إنجاح خططهم وتنفيذ مآربهم ولذلك فطن أكثر من عرفنا من الشعراء في اثناء البحث الى هذا الشر المزدوج.

٦

والواقع أن اتجاهاً جديداً أخذ يظهر بصورة متنامية في الشعر الحديث في فترة متأخرة نسبياً، حين أخذت طائفة من الشعراء الشبان تتوجـــه باللوم الى الشعب نفسه مصدر القوة، وتحصر فيه بصراحة وجرأة تبعات فساد الحكم الذي ضرب أطنابه في بلاد العرب طويلا، وكأن الشعراء يؤمنون بالقول المأثور «كما تكونوا يولى عليكم». ولعل من أسبق الشعراء الى هذا الاتجاه خليل مطران في مطولته (نيرون)، ففي أبياتها تنديد غير مباشر بحكم الفرد وتقريع للشعب الذي حمله الى سدة الحكم من ذلك قوله (١):

ذلك الشعب الذي آتاه نصراً — هو بالسبة من نيرون أحرى
قزمة هم نصبـوه عاليـــاً — وجثوا بين يديه فاشمخرا
منحوه من قواهـم ما به — صار طاغوتاً عليهم أو أضرا
إنمـــا يبطش ذو الأمر إذا — لم يخف بطش الألى ولوه أمرا
من يلم نـيرون إني لائم — أمة لو كهرته ارتد كهرا
كل قوم خالقو نيرونهـــم — قيصر قيل له أم قيل كسرى

فهذه الابيات الرائعة لمطران تنطـوي على روح ثورية متمردة، وكأنهـا تحض الشعب على الانتقاض على الطغاة لأنه هو الذي مكنهم منه حين رفعهم وهو وحـده القادر على الاطاحة بهم.

---

(١) ديوانه ٣ : ٥٠ القاها في بيروت ١٩٢٤

غير أن الصراحة كانت طابع أكثر ما نظمه الشعراء في هذا الصدد ، إذ أخذوا يصدعون بالحق ويجنحون للاسلوب المباشر بعد أن لم يعد التلميح مجدياً . وأكثر هؤلاء الشعراء كانوا من الشبان الذين قيض لهم أن يعيشوا في غمرة الاحداث ويكونوا من طلائع الجيل العربي الثائر من نحو إبراهيم طوقان الذي يقول في هذا الصدد (١) :

فالى متى يا ابن البلاد وأنت تؤخذ بالسياسة
والى متى زعماء قومك يخلبونك بالكياسة
ولكم احطنا خائناً منهم بهالات القداسة
ولكم اضاع حقوقنا الرجل الموكل بالحراسة
والله ليس هناك إلا كل قناص الرئاسة

ويعبر عباس محمود العقاد عن هذه الحقيقة المؤلمة حين جعل نفسه أحد من تقع عليهم تبعات الحكم الفاسد وكأنه لمز بذلك لافراد الامة قاطبة (٢) :

وقد أسأمتنا رعاة تساق ... فأين الرعاة وأين الغنم
فماذا أقول لهذا الجبين ... وما عابه عائب أو وصم
وماذا أقول لهذي اليمين ... وإني بها قد صنعت الصنم

وقد نحا أحمد زكي أبو شادي هذا النحو أيضاً إذ قال (٣) :

شكوت كما تشكون من زعمائنا ... وقد كثروا لكن مآثرهم قلت
فهلا شكونا من تهاون أمة ... وهل هي خافت في المعارك أم ملت
أينتقد القواد والجند محجم ... عن الحرب أم هذي موازيننا اختلت

(١) ديوانه ٥٧ (٢) عابر سبيل ٧٣
(٣) فوق العباب ٦

وينتقد مسعود سماحة من مهجره القصى خضوع قومه لتلك الفئة الباغية من الحكام وينكر عليهم خنوعهم وذلك إثر زيارته للشام حيث قال (١) :

مشت القرون وكل شعب قد مشى — معها وقومك واقفون ونوم
يعنون عن صغر لكل زعامة — الموت تحت السوط منها أرحم
لم ترتفع كف لصفعة غاشم — فيهم ولم ينطق بتهديد فم

وكذلك يلقي عمر بهاء الدين الاميري اللوم على الامة في أنها لم تأخذ على أيدي حكامها ولهذا استبدوا بها (١) :

لا تلوموا غير كفء — وسد الامر إليه
لا أرى في الناس من بطو — ي عن الغنم يديه

ولعل عمر أبا ريشة الذي عرف بجرأته في الحق وفي مواجهته واقع الامة من أبرز الشعراء الذين ساروا في هذا الاتجاه ، وأبياته التالية في هذا الشأن من أجمل الشعر ، فهو يخاطب الشعب الذي يئن تحت وطأة الخيانة والتآمر بعبارات مريرة تلتهب بروح الثورة (٣):

يا شعب لا تشك الاداة ولا تطل فيها نواحك
لو لم تكن بيديك مجروحاً لضمدنا جراحك
أنت انتقيت رجال أمرك وارتقبت بهم صلاحك
فاذا بهم يرخون فوق خسيس دنياهم وشاحك
أيسيل صدرك من جراحتهم وتعطيهم سلاحك

وبهذه الروح استطاع الشعر أن يخوض المعركة ضد من باعوا أنفسهم

---

(١) ديوانه ٢٠
(٢) « في بلادي ديوان مخطوط للشاعر
(٣) ديوانه ٢٤٧

اللاجني واتبعوا شهواتهم . وليس ما مر بنا من أشعار في الواقع سوى نمط جديد من الشعر فجرته المآسي التي عاناها العرب في ظل حكامهم .

★ ★ ★

ومما سبق يتبين لنا أن أكثر من عالجوا موضوع الاستبداد وفساد الحكم من الشعراء كانوا في مصر والعراق والاردن ، وذلك تبعاً لوجود النظام الملكي في هذه البلاد وما كان يستتبعه من بطانة فاسدة في الغالب ، إذ أن قصر مهمة حكم البلاد وتصريف شؤونها على ملك واحد مدى الحياة وإبقاء هذا الحق في أسرته الحاكمة كان يساعد على استفحال الفساد وسريانه بالتالي الى سائر أجهزة الحكم . بالاضافة الى أن أكثر هؤلاء الملوك إنما جلسوا على عروش أقامها لهم المستعمر ، وطبيعي أن يكونوا مدينين لهم بها ، وأن يدفعوا لهم الثمن من كرامتهم وحرية شعبهم .

ومن جهة أخرى فاننا نلاحظ قلة ما نظمه شعراء المهجر في هذا الموضوع على الرغم من اهتمام طائفة كبيرة منهم بمعالجة الشعر القومي بصورة عامه . ولعل ذلك يرجع الى ابتعادهم عن العيش في غمرة الجو الداخلي ، وعن رائحة الفساد فيه ، يضاف الى هذا السبب قلة احتفال الصحف عادة بنشر أنباء الاحداث المحلية وتفصيلاتها ، بالنسبة الى ما كانت عليه من اهتمامها بالقضايا المباشرة ذات الطابع الخارجي والتي تنطوي على أصداء عنيفة . ومن هنا كانت حملة المهجريين على الاحتلال تستأثر بمعظم اهتمامهم .

والواقع أن أساليب الشعراء لم تكن تجري دائماً على النمط الذي رأيناه فيما مر بنا من قصائد ومقطوعات ، ولا ريب أن كثيرين من الشعراء اضطروا الى التزام الصمت إيثاراً لسلامتهم من بطش الطغاة وبخاصة في بعض الفترات الحرجة كفترة الحرب العالمية الاولى التي عاش العرب خلالها في ظل الاحكام العرفية سواء في مصر أو في العراق حتى « إن أحداً من الشعراء

(خارج الحجاز) لم يجرؤ على أن يندب أحرار العرب الذين شنقهم جمال باشا إلا بعد جلاء الترك عن بلادهم »[1] وكثيرون هم الشعراء الذين كبحوا جماح قرائحهم في فترات أخرى .

ومع أن الشعراء ذوي الطابع الرومانسي الذين نبه شأنهم في السنوات العشر التي أعقبت الحرب الأولى عرفوا بعزوفهم عن تناول موضوعات اجتماعية وقومية محددة فانهم عبروا بشكل غير مباشر عن سخطهم على أحوال مجتمعهم ، وكثيراً ما كان هذا التعبير سلبياً ؛ فالرومانسي ذو النفس القلقة يجنح أبداً للفرار من واقعه ويهاجر بخياله الى أجواء جديدة يحلم بها ، فاما أن يلوذ بالطبيعة ينشد في رحابها العزاء وإما أن يسكن الى ماضي ينعم فيه بالسلوان . وكم وجدنا من الشعراء من يجمجم دون أن يفصح ويناجي عندليبا أو غزالا يبثه ما بنفسه من سخط على السلطان واستنكار للجور . وقد كان الرومانسيون في الغرب « يشتدون في سخطهم واستهتارهم بممثلي السلطان في مجتمعهم من ملوك وقسس وحكام وقضاة . وطالما هاجموا الكنيسة الكاثوليكية في تدخلها المعوق للحرية ،[2] ومن قبل نادى روسو رائد الرومانسيين في كتاب العقد الاجتماعي بالارادة العامة ليقضي على سلطان الملك . كما عرف سائر الرومانسيين ببغضهم للملوك والطغيان وكان هوجو يسميهم ضبعاً وخنازير ونموراً .[3]

والحرية في جميع مجالها — في المجتمع وفي السياسة وفي الفن — قوام الرومانسية ومن هنا لم يكن الشعراء والكتاب الذين صدروا عنها على وفاق مع السلطات الحاكمة في مجتمعاتهم ، فقد كان ديدنهم السخط والنقمة أبداً . وما من من ريب في أنه كان لرواد الحركة الرومانسية الغربية وبخاصة أدباء الثورة

---

(١) أنيس المقدسي : العواطف القومية في الادب العربي الحديث ، محاضرات مخطوطة

(٢) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ١٠٨

(٣) انظر المرجع السابق ١٠٩

الفرنسية تأثير في نزوع أدبنا الحديث نحو التحرر ، كما كان لرواد النهضة العربية مثل عبدالرحمن الكواكبي وأديب إسحق وجمال الدين الأفغاني تأثير مباشر وفعال في إيجاد هذا النزع الثوري لدى شعرائنا الذاتيين . وكان ضغط الحكام على حرية الفكر والتعبير من أشد البواعث على اشتداد المنازع الرومانسية في أدبنا الحديث.

وثمة طائفة من الشعراء احتالت للامر فلجأت الى تنكير عواطفها وتمويه مقاصدها في اساليب غير مباشرة أقرب الى الرمز أو الطابع القصصي ، على نحو ما مر بنا في أبيات الشاعر خليل مطران المستمدة من مطـولته « نيرون » « إذ اختار القصص التاريخي أو الخيالي وسيلة للتغني بالحرية والبطولة والتمرد على الظلم وإظهار قحة الاستبداد » (١)

كما نجد لجميل صدقي الزهاوي قصيدة مشابهة اسمها « ثورة في الجحيم » نظمها في استبداد الحكام وندد بهم خلالها تنديداً غير مباشر ، وهي أشبه بملحمة وبلغت أبياتها (٤٣٥) بيتا . وقد أجرى على ألسنة الفلاسفة والشعراء والكتاب الذين كانوا في الجحيم عبارات الثورة والتبرم والسخط تجاه ما يلقون من معاملة ..

على أن أكثر ما مر بنا خلال هذا الفصل من أشعار اتخذ التعبير المباشر وسيلة الى طرق هذا الموضوع ، وكانت سمة الوضوح والصراحة بارزة فيه . ومع ذلك فان شطراً كبيراً من تلك الاشعار تعمد فيه أصحابه إغفال الاسماء والوقائع وجنحوا للتعميم وعدم الاشارة الى حدود الزمان والمكان والمناسبة أو إلقاء ضوء على الملابسات التي دعت الشاعر الى بث أفكاره في قصيدته . وربمـا كان ذلك منهم ابتعادا عن سطحية الحياة اليومية وإيثاراً لشمول الفكرة ، وتجنباً لما يلحقه التخصيص في القصيدة من أذى بالشاعر .

---

(١) الدكتور محمد مندور : خليل مطران ٢٤

كل ذلك يشير الى أن الشاعر العربي لم يكن بوسعه دائماً أن يتكلم بملء إرادته ويعبر بانطلاق عن كل مايعن له . فقد كانت حرية الفكر في الشرق العربي عرضة لمحن شتى في كل حين .

وجملة القول إن هذا الشعور الحاد الذي غمر جماهير العرب في شتى أقطارهم تجاه الطغيان والاستبداد وفساد الحكم وسوء الادارة ، وتجلى بقوة على ألسنة شعرائها لم يكن إلا إيذاناً بالانتفاضة الحاسمة في سبيل التحرر من الاستعمار رأس الافعى ، وتطهير الوطن من رجسه وبقاياه من المرتزقة وأصنام السياسة وعبيد الكرسي .

وكما أيقن الشعراء من انبثاق فجر التحرر من الاستعمار فقد آمنوا باقتراب أجل الاستبداد وفوضى الحكم وتفاءلوا بالحرية والازدهار في أحلاك عهود الظلام وكأنهم قد عبروا على لسان الجواهري عن الثقة بمستقبل العرب والاطمئنان اليه حين قال (١) :

لا بد أن يثب الزمان وينثني حكم الطغاة مقلم الاظفار

والنصر أبدا للشعوب .

---

(١) ديوانه ١٢٠

الفصل الثالث

استنهاض الهمم والحضّ على الثورة

١

لعل من أبرز ظواهر الادب الحديث اتسامه بالواقعية والالتزام . فقد أخذ الاديب العربي منذ انبثاق فجر النهضة الحديثة يحس بأن ثمة ما يربطه وأدبه بمجتمعه القلق المتحفز ، وما زال هذا الاحساس يعمق ويقوى حتى آل آخر الامر الى شعور واع في نفس الاديب بأن أدبه جزء من مجموع النشاط الفكري لمجتمعه ، وأنه ليس بوسعه أن يكون بمعزل عما يحيق بقومه ويهدد كيان وطنه ، وبذلك غدا الاديب مسؤولا تجاه أمته يعبر عن نوازعها ، ويتجاوب مع أحداثها . ولم يكن ازدهار الشعر القومي في هذا العصر إلا نتيجة لايمان الشعراء العرب برسالتهم نحو أمتهم ويقينهم بأن لها عليهم حقا .

ومن هنا حمل كثير من الشعراء تبعات هذه الرسالة ، وكان إيقاظ الغافلين وتنبيه النيام ، واستنهاض الهمم والحض على الثورة من أبرز موضوعات الشعر القومي الحديث .

وإذا كان الشاعر العربي قد صدر في شعره عن هذا الاتجاه منذ العصر الجاهلي في استنفار قبيلته من أجل الحفاظ على شرفها والذود عن حياضها فان الشاعر اليوم أخذ يؤثر السير في هذا الطريق من جديد ، وقد كان الشيخ إبراهيم اليازجي رائد الشعراء المعاصرين في قصائده المشهورة (١) التي كانت الصيحة المدوية في آذان العرب .

لكن الارهاب الحميدي من جهة وضعف الوعي القومي في نفوس شعراء القرن الماضي من جهة أخرى ، وسم كثيراً من الأشعار آنذاك بطابع التزلف والولاء .

وما إن هبت على العرب نسمات الحرية إثر إعلان الدستور العثماني حتى عادت الثقة الى نفوسهم وبدوا وكأنهم وجدوا ذاتهم من جديد بعد أن افتقدوها قرونا .

إلا أن محاولة الترك الاستئثار بالحكم وأساليبهم الجائرة ، أثارت حفيظة أحرار العرب فأخذوا يعلنون على ألسنة فئة من كتابهم وشعرائهم تذمرهم وسخطهم ، ويهيبون بقومهم الى النهوض في سبيل انتزاع حقوقهم ، وصون لغتهم ووطنهم وقوميتهم .

وكانت مهمة الشعر شاقة ، لأن شطراً كبيراً من العرب لم يكن آنذاك ليتقبل فكرة التصدي للترك بله الثورة عليهم ، إذ كانت الرابطة العثمانية ما تزال تلقى تأيدهم ، كما كانت الجامعة الاسلامية تحظى باحترام كبير . وغدا تبعاً لذلك من العسير استبدال الرابطة القومية بهذه المشاعر . يضاف الى ذلك عامل هام حال بين الشعراء وبين النظم في المضمار ، ذلك هو سطوة النظام الاستبدادي الذي كتب

(١) انظر « بواكير الشعر القومي » في مدخل هذا الكتاب

على اولئك الشعراء ان يعيشوا في ظله البغيض مع شعوبهم المقهورة . ومن هنا كان مجال القول رحيباً أمام شعراء المهجر الذين كانوا في نجوة من الاحكام العرفية التي أناخت بكلكلها على قومهم . بالاضافة الى الآفاق الجديدة المتحررة التي عاشوا في اجوائها في بيئتهم المتفتحة الجديدة . وكثير منهم كان في شعره ينطوي على الثورة والتمرد تجاه الحكم العثماني وأساليبه البالية . ومما قوى هذا الاتجاه لديهم كون الكثيرين منهم من المسيحيين الذين وجدوا في خضوع قومهم وبخاصة في لبنان لسلطة دولة تغايرهم في العقيدة وفي القومية أمراً شاذاً وغريباً لا يجوز السكوت عنه . وكان جورج عساف من رواد هذه الطائفة الثائرة وقد أطلق صرخته المدوية في قصيدة له يحض فيها على الثورة ويقول (١) :

جف المداد فكم أنادي أمة — معصوبة العينين كالعميان
هبوا فقد طالت ليالي بؤسكم — والشمس مشرقة على الاكوان
لولا تخاذلكم لما بتم بلا — عز ولا مال ولا سلطان

وفي مقدمة الاصوات التي ارتفعت في المهاجر أيضاً صوت أبي الفضل الوليد وإيليا أبي ماضي وقد أكثرا من القول في هذا الموضوع وكان الوليد عنيفاً في ثورته حين دعا الى امتشاق الحسام ضد الترك وانتزاع الحقوق منهم في انتفاضة قومية عاصفة (٢) :

هبوا بني أمي وصيحوا صيحة — يصحو العراق لها ويصحو الشام
والله لا عدل ولا حرية — حتى يجرد بيننا الصمصام
كونوا أسوداً فالذئاب عداتنا — حتام أنتم عندهم أغنام

---

(١) انظر جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ١٢٧
(٢) الأنفاس الملهبة ٣٨

وقفوا نغزق بالسيوف حجابهم حتـــام تعبد عندنا الاصنام
ما حـــرر الاقـــوام إلا ثورة فيهـــا تعانقت الظبى والهام

وأبو ماضي كان حديث عهد بالهجرة الى العالم الجديد وما يزال قلبه رهين وطنه ، فهو يتشوف الامل من خلال الحرب الكبرى ، ويحث قومه على الانتفاض في وجه الترك وقد عيل صبره (١) :

يا لقومي بلغ السيل الزبى واستطال البغي واستشرى الفساد
كتب السيف، اقرأوا ما كتبا لا ينال المجد إلا بالجهـــاد

وقد أرادها أبو ماضي ثورة قومية حاسمة على غرار ثورات شعوب البلقان التي لم يكن كثيرمن الترك والعرب يرون فيها سوى حركات هدامة وغيرمشروعة. وكان مما قاله آنئذ مناشداً قومه الثورة (٢) :

لو تعقلون عملتم لخلاصكم من دولة القينات والخصيان
ثوروا عليهم واطلبوا استقلالكم وتشبهوا بالصرب واليونان

ومع أن معروف الرصافي كان من دعاة الجامعة الاسلامية الحريصين على إدامة عرى الاخاء والمودة بين الترك والعرب ، والابقاء على الدولة العثمانية عزيزة الجانب تجاه مطامع الغرب ، فهو لم يجد بدأ من التحول عن موقفه الى التنديد بهم وزرع بذور الثورة في نفوس العراقيين وسائر العرب ضدهم ، فقد نفض يديه من عودة غلاة الترك من جماعة الاتحاديين عن مسلكهم ، ولم يكن وحيداً في هذا التحول وإنما شاركه فيه كثيرون من شعراء الشام والعراق ، منهم جميل

(١) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٥٦
(٢) المصدر السابق ١٩٣

صدقي الزهاوي وفؤاد الخطيب وعبد الرحمن الرافعي وامين ناصر الدين وسواهم .

وكما كان الرصافي يحرض قومه ضد الطغيان الحميدي ويعمل على الاطاحة به نراه يستأنف القول في أولئك المستبدين الجدد (١) :

كأنا لهم شاء فهم يحلبوننا ... وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق
سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا ... وشيب وشبان على ضمر بلق

وانطلق في الشام صوت الشيخ عبدالحميد الرافعي الذي انقلب على الترك أيضاً فقال يحث قومه على النهوض ومستلهماً عنفوان المتنبي :

لا تصلح الدنيا ولا ناسها ... ما لم يل الأقوام أجناسها
هبوا بني العرب إلام الكرى ... وقد دهى الآمال دهاسها

وكان ثمة شاعر شاب التزم في حياته وفي شعره النضال من أجل تحرير قومه من البطش والاستبداد ذلك هو الشهيد عمر حمد ، ومما قاله مستنفراً قومه للجهاد (٢) :

بني العرب كم أدعو ولم ألق بينكم ... صدى لدعائي أو مجيباً لتسآلي
أنادي بني قومي الى المجد والعلا ... وأدعوهم دهري صباحي وآصالي
مضى ذلك العهد المعزز وانقضى ... ولسنا نرى في عهدنا غير إذلال
خذوا بيد الأوطان يا خير فتية ... وردوا لها ما كان من مجدها الخالي

ومما قاله أيضاً في ديوانه الصغير (٣) :

يا عرب قام القائمون وما برحتم نائمينا
يا أيها العرب انتباها حسبكم تتغافلونا

---

(١) ديوانه ٣٩٩ (٢) ديوانه ٢٤
(٣) ديوانه ١٨

أشبهتم شعراءكم في كل واد هائمينا
لهفي على شعب له خضع الا كاسر صاغرينا
لهفي على أبناء من ساقوا الملوك مصفدينا

وهذه الأبيات تنم عن روح المرارة التي كانت تملأ نفس الشاعر تجاه ما كان عليه قومه من ضعف وتقاعس وغفلة. ثم كانت القافلة الأولى من شهداء الحرية وفي جملتهم الشاعر نفسه، وإذا هي مأساة أخرى تنزل بالقوم الى جانب أهوال الحرب، ويصحو العرب جميعا على صيحة الجرح. ومنذ ذلك اليوم أي السادس من أيار (مايو) عام ١٩١٦ شملت الدعوة الى النهوض والحض على الثورة والثأر الجانب الأكبر من الشعر القومي.

والواقع أن كثيراً من هذا الشعر الثائر الذي كان يحض على الانتفاض في وجه الترك مبثوث في القصائد التي قيلت رثاء لأولئك الشهداء وتفجعاً عليهم، فقد ثارت ثائرة الشاعر القروي على قومه حين بلغته أنباء إعدام الأحرار فراح يقول بعد أن بكاهم (١) :

يا للجبانة بل يا للخيانة من … شعب حيال الغاشم ارتعدا
يا شعب لبنان بات الصبر مفضحة … ألا نفاد الصبر أجره نفدا
هل علقوا عن بلاد الصين فاضطربت … وأنت لا قام (صنين) ولا قعدا
أين الحماسة يا لبنان قد بردت … كالثلج والدم يا لبنان قد جمدا

كما كان ارتداد الفعل لدى أمين ناصر الدين تجاه الفاجعة في قصيدته (جزار سورية) فهو يحض قومه على الثأر ويهيب بهم أن يثوروا في وجه الطغاة بقوله (٢) :

شعب يضام وغاشم لا يرحم … ونوائب تغشى الوليد فيهرم

---

(١) ديوانه ٢٧٥ (٢) الالهام ٥٧

ودم يطل على الثرى ومشانق بحبالها وصل القضاء المبرم
هل بعد ذلك للتجلد موضع إن كان فيكم من يحس ويفهم
والله لو ناب الذي قد نابكم بعض السوائم لا نثنت تتظلم
هذي دماء بنيكم مسفوكة أفليس يجري في عروقكم دم

فالشاعر ثائر حانق تفجرت نفسه غيظاً على تقاعس العرب تجاه الظلم حتى بلغ في مخاطبتهم هذا المدى .

وهكذ حمل الشعر القومي يومئذ بذور انتفاضة العرب في ثورتهم الكبرى عام ١٩١٦ .

٢

ولكن الحرب العالمية الأولى تكشفت عن خدعة كبرى كان العرب ضحيتها وما زالوا يعانون من جرائها حتى اليوم . واذا وجدنا طائفة من الشعراء قد أغضت عما ارتكبه الترك من مظالم تجاه العرب خشية التصدع في صفوف المسلمين وإشفاقاً على الامبراطورية العثمانية من الانهيار فانهم منذ ذلك اليوم قد واجهوا عدواً أجنبياً جشعاً يحتل أرضهم ويذل قومهم ، ويختلف عنهم في الدين والقومية واللغة والطباع ، ولهذا قصدوا لمحاربته والتنديد به بكل قواهم .

وبوقوع الشام والعراق في قبضة الحلفاء التأمت قضايا البلاد العربية في قضية واحدة وغدا الشعراء لا يفرقون في قصائدهم بين مستعمر وآخر . وهذا معروف الرصافي ينبه قومه الى الخطر الجديد ويقول (١) :

---

(١) ديوانه ٣٦

لك الخير هل للشرق يقظة ناهض فقد طال نوم القوم بين دياره
ألم تر أن الغرب أصلت سيفه عليهم وهم لاهون تحت غراره
أما آن للساهين أن يأبهوا له وقد أصبحوا في قبضة من إساره

كذلك يتجه عبد المحسن الكاظمي وهو مقيم في مصر الى العرب جميعاً يستنهضهم لقتال المستعمر مهما يكن وجهه واسمه (١) :

سيروا نذب عن الحمى وزد عنه المستبدا
نحمي حمى أوطاننا ونصونها غوراً ونجدا
سيروا قواصد للمنى أو نبلغ الأوطان قصدا
إن لم تكن تجدي الحياة بعزها فالموت أجدى

ومع أن خير الدين الزركلي كان ينعم وقومه بالاستقلال في سورية خلال فترة قصيرة بعد انتهاء الحرب الاولى والثورة العربية الكبرى ، فقد حز في نفسه أن يكون سائر الوطن العربي فريسة بين مخالب المحتلين فلم يهنأ بما هو فيه وراح يحث أهل العراق ولبنان على طرد الغاصبين ويعلن سخطه على مشروعاتهم الآثمة بقوله (٢) :

فيم الونى وديار الشام تقتسم اين العهود التي لم ترع والذمم
ما بال بغداد لم تنبس بها شفة وما لبيروت لم يخفق بها علم

ويأبى شفيق جبري على شعب العراق أن يكون دون مصر حمية بعد ثورتها على الاحتلال عام ١٩١٩ ، فيحفز همته على الكفاح ويحضه على الثورة قائلا (٣) :

---

(١) ديوانه : المجموعة الاولى ٢٣٤
(٢) ديوانه ١٥
(٣) صبري الاشتر : المختار من الشعر في سورية ٤

ما للعراق خوت عزائم أهله فاستسلموا لمشيئة الحكام
هلا أتاه حديث ثورة أمة في مصر قد أنفت من الاحجام
ثارت شعوب الارض بعد خضوعها ان الخضوع نقيصة الانام

ولكن العراق لم ينم وإنما كان يقظان يترقب ، إذ لم تمض شهور حتى اندلعت فيه ثورة شعبية عاصفة سنة ١٩٢٠ فانطلقت أصوات شعرائه تحض على الجهاد ومنهم عبد الغني الخضري الذي قال مستنفراً (١) :

الجهاد الجهاد أبناء قحطا ن وأحفاد يعرب وإياد
حفزت وثبة العراق شعوباً ركنت للقيود والأصفاد

وقد أتيح لعبد المحسن الكاظمي آنذاك أن يندد بمن يحتلون بلاده وهو بعيد عن شعبه في مصر فقال يستنهض قومه (٢) :

أيها السيف قولك اليوم فصل أرهم كيف يحكم الحاكمونا
أرهم فعلك الذي إن رأوه طأطأوا هامهم له مرغمينا

وكان محمد مهدي الجواهري الذي حمل لواء الشعر القومي في العراق بعد قيام ثورته الأولى وقمعها دائباً على حث قومه على الثورة من جديد ضد الاستعمار الذي كان ينشر جذوره يوماً بعد يوم في البلاد ، ومما قاله في خلال تلك الفترة – فترة اليأس – أبيات يعلن فيها سخطه على إخلاد قومه الى التخاذل ويستنهضهم للجهاد (٣) :

أقر على الضيم الشباب ولم يثر وأخلد لا يسدي النصيحة أشيب
كأن لم يكن في الرافدين مغامر وحتى كأن لم يبق فيه مجرب
أعقماً وأمات البلاد ولودة وإنك يا أم الفراتين أنـ.ـب

(١) رفائيل بطي . الشعر العصري في العراق العربي ١٢
(٢) ديوانه : المجموعة الاولى ١٦٣
(٣) ديوانه ١٤٥

كما صاح محمد صالح بحر العلوم بأبنـاء وطنه للذود عن استقلالهم والثورة من جديد على اعدائهم (١) :

بني وطني هبوا لاسعاد أمة علیها رواق الانتداب مخيم
بني وطني جدوا لاسعاد أمة مخاصمها في حقها يتنعـم

ولم يكن موقف شعراء الشام من قوات الاحتلال يختلف في جـوهره عن موقف شعراء العراق أو مصر لأنهم جميعاً يصدرون في نتاجهـم عن ضمير أمتهم الحي وعن نزوعها نحو التحرر ، فكان الاستنهاض والحـض على الجهاد دأبهم منذ أن وطئت جحافل (غورو) أرض لبنان وسورية . من ذلك ما قاله الشيخ مصطفى الغلاييني يومئذ (١) :

إلى النهوض إلى كسر القيود إلى رفع البنود إلى ما يطلب الشمم
هبوا فأمتكم أمست على خطر جارت عليها الاعادي جور منتقم
وذمة العرب والايام شـاهدة لنضرمن الوغى في السهل والعلم
حتى يخلوا بلاد العرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل العجم

والملاحظ أن الشـاعر يستنفر قومه الى الجهاد لتحرير الوطـن العربي الكبير الذي استباحه المستعمرون دون أن يشير الى اجتيـاح غورو أرض لبنـان ، فالنظرة الشاملة رائده ، وبلاد العرب لديه وحـــدة من حيث قضيتها ومصيرها ، وهي عنده أيضاً تواجه عدوا واحداً مها تختلف أسماؤه . وبرغم أن بيروت غدت محتلة فالغلاييني لا يستنهض أهل لبنان وحدهم بل يستنهض العرب كافة لأن لبنان أو ساحل سورية إنما هو عضو في جسد العرب .

---

(١) ديوانه ٧٩ (٢) ديوانه ٧٧

ثم أمدت الثورة الكبري التي اندلعت في سورية عام ١٩٢٥ الشعراء بوقودها فتأججت المشاعر القومية في النفوس . وكان على الشعراء أن يخوضوا المعركة بأشعارهم يذكون بها الهمم ويحفزون العزائم . وعندما أصبحت دمشق طعاماً لنيران الفرنسيين هب الشعر القومي كالليث زاده الجرح ضراوة يستنهض الشعب الي الجهاد . ويمثل لتلك الظاهرة الادبية بأبيات لعز الدين التنوخي يقول فيها (١) :

يا عرب حتام القرار على الاذى ... وديار كم قد غالها ما غالها
أو تجبنون على الفرنجة بعدما ... سامتكم إرهاقها ونكالها
لستم لقحطان إذا لم تثأروا ... لبلادكم وتقتلوا قتالها

والملاحظ أن التنوخي شأنه شأن الغلاييني وكثير من الشعراء ، لم يبق في نطاق الاحداث المحلية بل تناولها على الصعيد القومى العام وراح يستنفر العرب كافة .

وفي الوقت نفسه كان المهجريون العرب يعيشون أحداث وطنهم بقلوبهم ويتلهفون على تحرره ، فقد دأب أبو الفضل الوليد وإيليا أبو ماضي ورشيد سليم الخوري وإلياس فرحات وسواهم على استنهاض قومهم في كل مناسبة ، وكثيراً ما عمدوا الى استثارة حمية لبنان الذي كان ينهمك بحزازاته الطائفية وخلافاته السياسية ، ويغفل عن عدوه الحقيقي ، ومما قاله القروي في هذا الصدد مخاطباً (شبول الارز) (٢) :

أهيب بهم فلا ألقى سميعاً ... كأنني المنادي والمنادى
شبول الارزبات الحلم عجزا ... وبعض الصبر موت إن تمادى
فكونوا النار تحرق أو قذى في ... عيون البطل إن كنتم رمادا

وحين اقتطع المستعمر لواء اسكندرون من سورية في غفلة من أهلها

(١) ديوان الثورة ٧٣ (٢) ديوانه ٢١٧

ورؤسائها وسلمه الى تركيا ثار الشعراء في جملة من ثاروا آنئذ وكان الحض على استعادة الجزء السليب قوياً يومذاك ، ولكن انقضاء الامر بسرعة وبتكتم ثم انهماك السوريين وسائر الشعوب العربية بمكافحة الاحتلال كل في بلده جعل نطاق القول محدوداً حول هذا الحدث إذا قيس بسواه من الاحداث القومية الاخرى ، ولأبيات عمر يحيى في اقتطاع ذلك اللواء العربي مغزى بعيد لانها قرعت يومئذ ناقوس الخطر ونبهت النيام على ما يراد بهم ، من ذلك قوله (١) :

أبعد الثورة الحمراء يرضى بنونا أن يفارقهم بنـــوه
أفيقوا إن يضع فلسوف يأتي زمان فيه يتلوه أخـــوه

وكأن هذا القول الذي حذر فيه الشاعر قومه كان نذيراً بمـــا يخبئه المستعمر من شر للعرب تجسد في أبرز صوره في مأساة فلسطين بعد ذلك ..

على أنه ما من قضية عرفها العرب في عصرهم هـــذا وأثارت معاني الاستنهاض والحفز في الشعر الحديث مثل قضية فلسطين التي اثارت أحداثها اهتمام العرب جميعاً . وقد تجلى ذلك بوضوح على ألسنة شعرائهم في مختلف ديارهـم . وهذه الظاهرة الادبية تعكس بجلاء ، الوجدان اجماعى للعرب قاطبة في تجاوبهم المشترك تجاه ما يعانيه إخوانهم في تلك البقعة المقدسة

وتغدو أحداث فلسطين الدامية ملء دنيا العرب وشغلهم الشاغل ، وينظم فيها الشعراء ما ينظمون ، ويكتب حولها الكتاب ما يكتبون ، غير أن طابـع الاستنفار الشامل والروح العربية البارزة كان السمة الاولى التي عرف بها ذلك النتاج الادبي بصورة عامة . ويكفي أن نمثل لهذه الظاهرة الهامة بما نظمه شعراء

---

(١) صبري الاشتر : المختار من الشعر في سورية ٢٦

العرقا في هذا الشأن فنشير الي ديوان حمل اسم (الفلسطينيات) وحــوى مختارات من قصائد اقتصرت على موضوع فلسطين وحده ، نذكر من بينهم محمود الحبوبي وعبدالغني الخضري وأحمدرضا الهندي وعلي الهاشمي وعبد المنعم الفرطوـي وعلي البازي وعلي الشرقي ومحمد باقر سماكة ومحمد مهدي الجواهري وغيرهم ، ومن ذلك مثلا قول أحمد رضا الهندي (١) :

يا لقحطان اين تلك الحميه ... أين آثار روحنا العربيـــة
أين ذاك الحماس والشرف البا ... ذخ مجداً لهاشم وأميه
أين عُرب الحجاز أين العرا ... ق ألا أين الشهامة السوريه
أين عيسى المسيح يرأف بالنا ... س وأين المواقف الأحمدية

فالشاعر يستثير حمية العرب ويستغيث بجدهم الاول قحطان ، كما يفتقد فيهم حماسة بني هاشم وبني أمية ، ويرى أن واجب الذود عن فلسطين يشمل شعوب العرب جميعاً في الحجاز والعراق والشام ، وفي كل أرض عربية ، بل إنه يعدو ذلك الي الاستغاثة برأفة أتباع المسيح وحمية أشياع محمد وكأنه يستنهض البشر كافة ويلوذ بعاطفتهم الانسانية على اختلاف عقائدهـــم الدينية .

ويضم محمود الحبوبي صوته الى تلك النداءات الحارة ، حاضاً قومه على مساعدة المجاهدين في فلسطين بقوله (٢) :

لبوا نداء فلسطين فقد بعثت ... صوت استغاثتها دون الورى لكم
هذي فلسطينكم هل تهدأون إذا ... أمست برغم أنوف العرب تقتسم
حمية العرب لا ترضى وعزتها ... بأن يحل مكان السادة الخدم

---

(١) الفلسطينيات ٣١ (٢) الفلسطينيات ٦٢

ولم يكن نشر كثير من هذه القصائد في الجرائد اليومية والمجلات الدورية سوى تعبير آني عن تلك الحمية الفائرة في نفوس العرب تجلت على ألسنة شعرائهم في نداءات شعرية صادقة على نحو ما نجده في قصيدة للشاعر الدمشقي أمجد الطرابلسي يقول فيها على صفحات الرسالة المصرية (١) :

يا عرب هيا فانصروا موطنا ... للعرب هاج الحقد أفراده
هناك شعب عربي الهوى ... يحاول الغاصب إنفاده
يسومه الخسف بأغلاله ... ويدعي بالنار إرشاده

فالشاعر يستنهض العرب ويحضهم على نصرة شعب عربي شقيق ، وهو لا يعدد أسماء الشعوب العربية بما فيهم شعب فلسطين ، فالوطن فرد والأمة واحدة وجوهر الاستعمار والصهيونية واحد أيضاً أشار الشاعر إليه بكلمة الغاصب . وحين بلغت أحداث فلسطين أوج احتدامها نظم شاعر دمشق خليل مردم قصيدة على صفحات (القبس) الدمشقية عبر فيها باستجابته الآنية عن دوافع الاستنهاض مشوبة بروح مريرة من الخيبة والسخط والتقريع ومما قاله يومذاك (٢) :

بني العروبة كم من صيحة ذهبت ... لو يستثار بها الموتى إذن ثاروا
هنتم على كل شعب من تخاذلكم ... شأن العبيد وباقي الناس أحرار
إخوانكم في فلسطين تنالهم ... بالسوء والعسف أنياب وأظفار

وهكذا كان أكثر ما قيل في أحداث فلسطين متسماً بروح الاستنفار والاستنهاض وبث الحمية والقوة في النفوس ، كما أن ذلك الشعر لم يكن من جهة أخرى يخاطب فلسطين وحدها أو شعباً آخر بعينه ، وإنما كان يتجه الى الأمة العربية وشعوبها قاطبة .

أما مصر التي كانت أسبق بلاد الشرق العربي وقوعاً في قبضة المحتلين فقد عمد شعراؤها منذ أواخر القرن التاسع عشر الى التنديد بالمحتلين بلهجة

---

(١) السنة الثالثة ص ١٢٣٣ دمشق .
(٢) جريدة القبس الدمشقية العدد ١٤٢١ سنة ١٩٣٨ .

تشتد حيناً وتضعف حيناً آخر . وإذا حاولنا استقصاء ما نظموه قبيل ثورة ١٩١٩ التي كانت في حقيقتها امتداداً وبعثاً لثورة عرابي فاننا لا نكاد نقع على الكثير من قصائد الحث والاستنهاض في التمهيد لتلك الانتفاضة الشعبية ، في حين أن شعراً غير قليل نظمه شعراء العرب في الشام والعراق قبيل الثورة العربية الكبرى والثورة السورية وثورات فلسطين في حث العرب على الجهاد واستنهاض هممهم وعزائمهم . ومرد ذلك الى أسباب متعددة ، منها أن الافواه قد كمت خلال سني الحرب الاولى وهي التي سبقت عام الثورة فلم يعد من يستطيع التعبير عن رأيه في ظل الادارة العرفية وسيف الارهاب المصلت . كما أنه لم يقيض لمصر كما قيض للشام جالية أدبية كبيرة في أرض المهجر بوسع قرائحها أن تنطلق بما لم يكن في وسع شعراء الوطن أن يقولوه ، وكان أحمد شوقي في منفاه بعيداً عن الوطن وأحداثه حتى اندلاع ثورة عام ١٩١٩ . ومن هنا كان أكثر ما قيل من شعر في مصر آنذاك شعراً منفعلا قبل أن يكون فاعلا ، يتأثر أكثر مما يؤثر . وتعتبر قصائد محمد عبد المطلب مثلا التي يصف فيها فظائع الانكليز في أنحاء الريف المصري وقراه (١) وقصيدة حافظ إبراهيم النونية وبعض ما نظمه محمد الأسمر وسواه خير مثال على ذلك . وعلى هذا يمكن القول إن دور الشعراء المباشر في مصر كان ضئيلا في التمهيد لثورتها، وأن تلك الانتفاضة كانت من صنع الشعب قبل كل شيء . ومما قاله محمد الأسمر في غمرة الصراع بين الشعب المصري والاستعمار في أعقاب الحرب الأولى (٢) :

فتى الشرق إن الغرب أدلى بمخلب ... وناب فلا تهتز بينهما جبنا
خذوا حذركم إن الخطوب روابض ... وشيدوا لكم ركنين إن هدمت ركنا

---

(١) انظر ديوانه ص ١٩٣ و ص ٢٨٣
(٢) تغريدات الصباح ٢٠

والواقع أن المحتلين في مصر استطاعوا بدهائهم أن يصرفوا الشعب بعد ذلك الى حين عن جوهر قضيته وجعلوه يولي تناحر الزعماء والأحزاب اهتمامه الأول . وقد انعكس ذلك بجلاء في الأدب ونجم عنه ما يمكن أن يقارب الشعر السياسي الذي كان ينظم على هامش القضايا الوطنية الكبرى . ثم طغى التيار الرومانسي فانعزل كثير من الشعراء عن واقع أمتهم وآثروا معالجة الشعر الوجداني. وكانت مدرسة (أبولو) مظهراً لهذا التيار في مصر ، وبوفاة شوقي وحافظ وعبد المطلب حدث ما يشبه الفراغ في الشعر بصورة عامة وفي الشعر القومي والاجتماعي بوجه خاص ، فلم يستطع أحد من الشعراء بعدهم أن يتغنى بمشاعر قومه ويتجاوب مع آمالهم وآلامهم ويسدي إليهم الرأي والنصح بمثل ما كانوا عليه . وتبعاً لذلك قل شعر الاستنهاض والحض على الكفاح .

ومن العجب أن نرى عدداً من القصائد المفعمة بالثورة والنضال تصدر عن طائفة من الشعراء الذين عرفوا بانسياقهم مع التيار الرومانسي في مصر مثل محمود أبي الوفا في إحدى قصائده التي أسماها « الاسد السجين » (١) :

ألا يا ليث لست أقول صبرا فقد جربت هذا الصبر دهرا
فلم ينفع وزاد العيش مرا ولكن إن قدرت وكنت حرا

فحطم كل هاتيك القيود

في ثنايا هذه الأشطر القليلة تضطرب جمرات الثورة ويلتمع لهيب التمرد. وقد تلفع نداء أبي الوفا بثوب ضبابي رمزي في عنوان قصيدته وفي مناجاته الليث ، ومن وراء ذلك كله يلوح شبح الارهاب وكبت الحرية في نفوس المصريين خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأخيرة ، وفي هذه الفترة وإبان انتفاضات الشعب المصري عام ١٩٣٥ طلع علينا حسن كامل الصيرفي بقصيدة تكاد تكون يتيمة في ديوانه قال فيها (٢) :

---

(١) أشواق ٥٦ (٢) الشروق ٨٩

تحرك من سباتك يا فتاها   وأرجع عزمها وأعد قواها
فقد طغت الخطوب على حماها   فواها للأبي إذا تلاهى

تحرك يا أبي الضيم وانهض   لحقك في بلادك بات يرفض
وأي جفون مسلوبين تغمض   إذاما الأسد ديس على حماها

بلادك لقمة في عين جائع   وحقك نهبة في كف طامع
وأنت مع المذلة جد قانع   فقم وأزح عن النيل السفاها

ولا تقل السوف يوف خصمي   ولا تقل المدافع فوق عزمي
[illegible] معقود لقوم   نفوسهم ترى الجلى هواها

تقدم بالأماني الصفوفا   ولا تخف الصواعق والحتوفا
وأوجد من عزيمتك السيوفا   وأشعل نارها وأثر لظاها

… زئم . والشاعر يريدها ثورة عاصفة لا تبقي ولا تذر .
والقصيدة بعد ذلك تعكس تطوراً كبيراً في مفهوم الشعر عند شاعر ذاتي رومانسي ، بعد أن انطلقت نفسه من سجنها وأصبحت قادرة على أن تنفعل بما هو خارج عنها . في هذا النشيد تحس بحرارة الروح الثورية التي اشتعلت في ذلك العام في مصر واستطاعت أن تنفذ الى روح الشاعر (١) :

٣

وكثيراً ما كان شعر المناسبات طريقاً الى معالجة القضايا الأساسية الوطن وبخاصة ما يتصل منها بالتاريخ العربي الزاهر ، إذ يلجأ الشاعر

(١) الدكتور محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، الحلقة الثانية ١٢٧ .

في الأثال الى وسط ماضي العرب ومآثرهم والمقارنة بينهما ، ثم يعمد الى استنفار الشعب للذود عن كرامته وحثه على إدراك مجد آبائه ، حتى إن الشاعر الحدث قد يتعمد أحياناً الابتعاد بمضمون أبياته عن أصل موضوعه في ... ونحن نجد هذه الظاهره أبرز ما تكون في مناسبات دخول عام ... عيد أو مصادفة ذكرى قومية أو دينية ، ومن هذا القبيل ... « ذكرى المولد »(١) :

يا صحابي ومعشري وقبيلي آن أن تستفيق تلك الصوارم
فامنعوها غمودها وكراها واستثيروا بها دفين العزائم
وانفضوا عنكم الرقاد وهبوا لم تلن هـذه الحيـاة لنائم
قد ضججنا من البكاء كأنا قد سلبنا النواح هـذي الحمائم

ويبدو أن الشاعر لم يشف كل ما في نفسه من حرقة على استكانة قومه فتراه يعود بعد مناجاة الرسول وافتقاده مجد العرب الى إلهاب نيران الثورة في النفوس بقوله :

أوقدوها حمراء تلتهم الأفـ ـق فتشوي بها الظلم والسلم
وامنحوها دماءكم تتـغذى وامهروها أرواحكم والجماجم
واملكوا الأرض أنتم سادة الار ض وأنتم ...

وهكذا كان جانب من الشعر القومي الحدث ... على درجات تتفاوت بين الشدة واللين تبعاً لظروف ... يحيا في ظلها الشعراء وبحسب أمزجتهم ومدى تجاوبها مع الاحداث ...

---

(١) ديوانه في ظلال الأيام ٩٤

من الشعر ما اقتصر على التنبيه والتحذير ، أو تعدى ذلك الى الحث والاستنهاض أو ما بلغ أخيراً حد التمرد والثورة .

وقد ظل موضوع استنفار العرب وحضهم على الثورة والثأر يحظى باهتمام أدباء الشرق العربي طوال العهد الاستعماري ، وهذه الظاهرة في الادب الحديث تشير الى ريادة الشعر الوجدان الجماعي في نفوس العرب وإسهامه في زرع بذور الوعي القومي والتمهيد للانتفاضات الشعبية في العالم العربي . ولئن اختلفت الآراء حول مدى تأثير الشعر في توجيه ضمير الامة وإثارة مشاعرها القومية ، فليس بوسع أحد أن ينكر الدور القيادي للادب في هذا المجال . ولا ريب أن المستوى الفني للقصيدة هو الذي يحدد مدى هذا التأثير ؛ إذ أن شعراً غير قليل مما نظم في موضوع الاستنهاض والاستنفار كان يعتمد على صيغ الامر والنهي والاسلوب المباشر مما يقربه أحياناً من الوعظ والارشاد ويفقده الكثير من الرواء .

الفصل الرابع

التضامن والإخاء

لم يكن الاجنبي يأمل في التمكين لجيوشه في بلاد العرب إلا عن طريق بذر الشقاق والتعصب في النفوس ، واتخاذه من مبدأ « فرق تسد » محوراً لسياسته في إضعاف عناصر الامة وتفتيت مقاومتها للاستعمار .

وقد طرأت على العرب في تاريخهم الحديث آفات الشقاق والخلاف والتعصب الاعمى في السياسة والدين . واذا كانت العصبية القبلية لدى العرب في الماضي والتطاحن على الحكم بعد ذلك في طليعة العوامل التي أطمعت فيهم الفرنج وأدت الى تصدع أركان الدولة العربية ، فان التعصب الديني والتحزب السياسي كان لهما في تاريخ العرب الحديث أسوأ الاثر في سيرهم الحثيث نحو التحرر والاتحاد .

أما الشعر الحديث الذي أخذ يبدي اهتماماً متزايداً بأوضاع العرب القومية والاجتماعية فقد أخذ يعبر بقوة عن وجدانهم الجماعي ويعكس على صفحته الجميلة منازع نفوسهم ومناحي تفكيرهم حية نابضة .

وثمة عنصران في هذا الموضوع : الشقاق السياسي ، والتعصب الديني ،

وهما يرتدان في الوقع الى جوهر واحد هو التفرقة التي كانت تنخر كالسوس في كيان الامة وتفت في عضدها بلا هوادة ..

١

وإذا بادرنا الى استجلاء مظاهر الشقاق والخلاف في أمر السياسة وحول شؤون الحكم من خلال الشعر الحديث الذي نظم في فترة ما بين الحربين العالميتين بصورة خاصة وبدأنا مثلاً بتاريخ مصر في هذه الحقبة الحديثة « نجد أنه يدعو الى الرثاء حقاً ؛ فلم يستطع المصريون في أحلك الاوقات أن يتحدوا ، وظل بأسهم بينهم شديداً ، وظلوا في كل حال رحماء على الاعداء متباغين بينهم . كانوا قبل الحرب الاولى شيعاً وكذلك ظلوا من بعدها . ولم يتحدوا إلا عند بدء ثورة ١٩١٩ ولم يدم اتحادهم إلا قليلا ، فلقد دب اليهم الخلاف والشقاق قبل أن تنتهي الثورة [١] » ولم يقر للشعب المصري قرار إلا بعد جلاء المستعمر الذي استطاع أن يطيل أمد بقائه عن طريق نجاحه في إشاعة الفرقة والشقاق في صفوف الامة .

وقد انبرى الشعر يقرع ناقوس الخطر وينعى على القوم خلفهم وتناحرهم حتى كثر القول في هذا الشأن . ومن ذلك ماقاله خلال الحرب الاولى أحمد محرم [٢] :

أرى الناس في مصر شتى القلوب	وإن جمعتهم عوادي النوب
فكل له وجهة تستراد	وكل له شأنه والأرب
وبعض يمد حبال الرجاء	وبعض يرى اليأس حقاً وجب

---

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٦٣

(٢) المصدر السابق ٢ : ١٠ عن ديوان مخطوط للشاعر .

ثم انقضت أعوام الحرب وعرفت مصر في أعقابها ثورة شاملة تجلى فيها التضامن بأروع مظاهره وأسماها في صفوف الشعب. ولكن الامر لم يلبث على هذا الحال طويلا حتى أخذ في التدهور، إذ اتسمت الحياة الحزبية بعد تلك الثورة بحدة ومهاترات مؤسفة بين قادتها. وقد انعكس ذلك الامر لدى طائفة من الشعراء فانساقت في تيار الخلف والتنابذ، إلا أن سائر الشعراء لم يترددوا - تجاه الحالة السائدة في البلاد - في إعلان سخطهم واستنكارهم فيما نظموه من قصائد آنذاك. وفي مقدمتهم أحمد شوقي الذي دعا بحرارة الى نبذ التنافر والخصام وحث على التضامن والاخاء في عدد من قصائده. ومن مشهور ما قال آنئذ قصيدته التي نظمها في ذكرى مصطفى كامل وندد فيها بالتفرقة والتطاحن الحزبي (١):

إلام الخلف بينكم إلاما ... وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض ... وتبدون العداوة والخصاما
شببتم بينكم في القطر ناراً ... على محتله كانت سلاما
وليتا الامر حزباً بعد حزب ... فلم تك مصلحين ولا كراما
وسستنا الأمر حين خلا إلينا ... بأهواء النفوس فما استقاما
تراميتم فقال الناس: قوم ... إلى الخذلان أمرهم ترامى
وكانت مصر أول من أصبتم ... فلم تحص الجراح ولا الكلاما

وما هذه الابيات إلا زفرة صادقة انطلقت من قلب أمير الشعراء مفعمة بالاسى والمرارة لما كان عليه قومه، وهي تنقل لنا صدى ذلك الجو المشحون بالكراهيه والانقسام بين صفوف الامة وزعمائها على حد سواء. لقد كان في الدساتير والمعاهدات والانتخابات وما الى ذلك من الامور التي يحسن المستعمر

---

(١) الشوقيات ١ : ٢٦٢

الماكر طبخها وتقديمها مبعث خلافات وانقسامات كبيرة ، من ذلك أن الدستور الذي أمل فيه المصريون الخير لم يكن في حقيقته إلا سراباً ولم يصيبوا من ورائه سوى الشر ، وقد فتح ثغرة في نفوسهم حين راحوا تجاهه بين مادح وقادح . كل ذلك انعكس في نفس شوقي فاتجه بالقول الى قومه يتحدث عن أمر ذلك الدستور والأسى يملأ قلبه (١) :

لا تجعلوه هوى وخلفاً بينكم ومجر دنيا للنفوس ومتجرا
قدكان وجه الرأي أن نبقى يداً ونرى وراء جنودها إنكلترا
فاذا أتتنا بالصفوف كثيرة جئنا بصف واحد لن يكسرا
حظ رجونا الخير من إقباله عاث المفرق فيه حتى أدبرا

وقد كثر القول خلال تلك الفترة من حياة مصر السياسية حول الخصومات والاختلافات التي استفحل أمرها بين الزعماء حتى سرت عنيفة حادة الى صفوف الامة . ومن مظاهر هذا السخط الذي عم الشعب تجاه أحزاب مصر ومتزعميها وما أورثوه إياه من شقاق قول محمد الاسمر (٢) :

خصام وصلح كل يوم وحالة إلى عبث الاطفال واللهو أقرب
بني وطني إن البرية كلها تجد وأحزاب الكنانة تلعب

والواقع أن حدة الخلف كانت تخف حيناً لتشتد حيناً آخر ، ولكن حالة البلاد وأزمات الحكم وتناحر القادة على خسيس المغنم ... كل ذلك كان يضرب أطنابه في مصر . ولذلك لم تكن معاني الشعراء لتتغير كثيراً في هذا المجال برغم تعاقب السنين . وكما وجدنا أبيات محرم وشوقي تعلن تبرمها بالفرقة

---

(١) الشوقيات ١ : ١٨١
(٢) ديوانه ٤١

والخصام أثناء الحرب الاولى أو بعدها نجد الشعراء فيما بعد ظلوا ينسجون على هذا المنوال حتى رأينا على الجندي مثلا يقول في أواخر الحرب العالمية الثانية (١) :

وأحزاب تزيد الحكـ ـم لولا الحكم لم تكن
وأشياع منافقـــة تثير عواطف الفتن
ومحتــــل يلاعبنـــا لعاب الموج للسفن

ومن خلال هذه الصيحات المفعمة غيرة على الوطن وإشفاقاً على الامة يمكن القول إن المستعمر قد أفلح الى حد كبير في بلوغ أهدافه بعد أن أشاع الانقسام في صفوف الامة وجعلها تتلهى عن جوهر قضيتها بتوافه الامـــور وقشور الحكم. وهذا الشعور الساخط الذي تجلى بصورته الواعيـــة على ألسنة الكتاب والشعراء والذي كان أمره يتفاقم باطراد ، غدا في طليعة الاسباب التي أطاحت بالنظام الرجعي آخر الامر في مصر .

أما في العراق فلم يبلغ التطاحن والانقسام هذا المدى الذي بلغه في مصر بفضل التفاف الناس حول الملك فيصل أول الامر ثم حول ابنه غازي . ومن جهة أخرى فان ضعف الصحافة بصورة عامة وفقدان حرية التعبير في كثير من الاحيان جعل نطاق الخلاف محدوداً دون أن تذكي ناره الصحف والمنابر على نحو ما كان يحدث في مصر ، وبالتالي بقي صدى ذلك في الشعر ضئيلا . والواقع أن هذا الاعتدال النسبي في الجو السياسي بصورة عامة كان يخفي وراءه ما هـو أدهى وأمر ؛ إذ كمت الافواه وأخذ المعارضون بالشدة ، والتقى المتزعمون على صعيد المغانم . وبرغم ذلك كانت أرض الرافدين تميد بحكامها من حين الى آخر ، ثم ينقلب الناس شيعاً وأحزاباً وتغدو الامة مشتتة الاهواء ، إذ حيثما

---

(١) أغاريد السحر ١٨٨ ــ ١٩٥

حل المستعمر حلت معه الفرقة والارزاء . وقد أشار جميل صدقي الزهاوي الى تلك الحال فقال (١) :

ويل لمملكة قضى إهمالها ‏ ‏ ‏ ‏ من أهلها أن يفشل استقلالها
ولأمة بعد الوفاق تخالفت ‏ ‏ ‏ ‏ فتقطعت لخلافها أوصالهـــا
من كل عاصمة الرشيد وأهلها ‏ ‏ ‏ ‏ لم يبق إلا طيفها وخيالهـــا

وكان الامر أكثر تعقيداً في فلسطين حيث الاستعمار المركب يعيث في الارض فسادا ، وعدوان لدودان يتواطآن ، والعرب عن كل ذلك لاهون . لقد عبر إبراهيم طوقان عن شعور مرير مفعم بالاسى تجاه تفتت طاقات الامة وتلهي قادتها بالعرض الزائل وخسيس المغنم ، فهو بصدد رثائه موسى كاظم الحسيني أحد زعماء فلسطين يلتفت الى شاطبة قومه بلهجة مفعمة بالغيرة والاخلاص (٢) :

والله لا يرجى الخلاص وأمركم ‏ ‏ ‏ ‏ فوضى وشمل العاملين ممزق
أين الصفوف تنسقت فكأنما ‏ ‏ ‏ ‏ هي حائط دون الهوان وخندق
أين القلوب تألفت فتدافعت ‏ ‏ ‏ ‏ تغشى اللهيب وكل قلب يخفق
أين الأكف تصافحت وتساجلت ‏ ‏ ‏ ‏ تبني وتصنـــع للخلاص وتنفق

فالشاعر يفتقد التئام الشمل و [illegible] اللوعة والحسرة . وإنه ليدمي القلب أن يرى شاعر رهيف الحس بلاده نهباً مقسماً بين الاستعمار والصهيونية وقومه سادرون في غيهم ماضون في تناحرهم .

وفي سورية ولبنان كانت الانقسامات تزداد استفحالا في ظل الحكم

---

(١) الثمالة ١٠ ‏ ‏ ‏ ‏ (٢) ديوانه ١٦٣

الفرنسي نتيجة لظروف طائفية معينة تطغى في كثير من الأحيان على الخلافات السياسية . وقد ابتلي السوريون كسائر العرب في هذه الفترة على حياتهم القومية بداء التفرقة ، وانقسم حكامهم منذ انتهاء الحرب الاولى بين مذعن لانذار (غورو) باحتلال البلاد وعازم على القتال حتى النهاية . كما ذر الخلاف بعد ذلك قرنه في حياة البلاد السياسية واستحكم التعصب الاعمى بين الافراد والأحزاب وكانت الحال على ما وصفها خير الدين الزركلي بقوله (١) :

ترى كلاً له أمل ومسعى ... وما لاثنين حولك من وئام
وأحزاباً إن التأمت فليست ... تدور بها الامور على التئام
وتجتمع الجسوم على تراض ... فتفترق القلوب على خصام
لكل جماعة منا إمام ... ولكن الجميع بلا إمام

[illegible]
كتابه وشعرائه . و[illegible] في هذا الشأن كان مفعماً بروح المرارة على ما تردى فيه العرب من تخاذل وتفكك ، من نحو ما نظمه خليل مردم بك في قصيدته « لوجه الوحدة » (٢) :

لقد أضعنا تراث السالفين سوى ... نار من الحقد والاضغان تضطرم
أكلما قام داع للوئام بنا ... إذا بأسماعنا عن قوله صمم
من مبلغ الحس من قيس ومن يمن ... أنا على كل أمر دق نختصم

ومن الطبيعي أن تكون نظرة شعراء المهجر الى هذا الامر متسمة بالشمول وألا يقتصروا في كثير من الاحيان على ما يعانيه قطر بعينه . فقد كانوا في تلك البلاد القصية شديدي الاحساس بحالة قومهم ، دائمي الترقب لما

(١) ديوانه ٣٩ (٢) ديوانه ١٦٦

يحدث في وطنهم . وكم كان يحز في أنفسهم أن تلهو أمتهم عن عدوها ، وتنام عن ثعالب الاحتلال في أرضها . وهذا إلياس قنصل يناجي قومه من وراء البحار ويهيب بهم أن يتمسكوا بحبال الوحدة الوطنية [١] :

يا آل يعرب هل تنسون أنكم بالاتحاد بلغتم في العلا الاربا
لئن تفرقتم فالدهر يغلبكم ولا نجاح لمن بين الورى انغلبا

كما يصدر إلياس فرحات عن مثل هذه النظرة الشاملة نحو العرب فيسخط على ما كانوا عليه حين اعتبر الساسة والمتزعمين أصل البلاء [٢] :

عليكم سلام الله يا آل يعرب متى ينتهي مسعاكم المتنافر
لقد وحد العلم العبيد وأنتم قبائل تفني بعضها وعشائر
أليس لكم يا قوم بعد محمد نبي لأصنام السياسة كاسر

وهكذا كان الشعراء ، وهم من الطلائع الواعية في الأمم ، رسل الاتحاد والوئام ، كما كانوا في شعرهم حرباً على الشقاق والانقسام يدفعهم الى ذلك إيمان عميق برسالتهم السامية .

٢

وإذ ننتهي من استجلاء هذا الجانب من حياة العرب القومية الحديثة يجدر بنا أن نحاول استجلاء أمر التعصب الديني ، والدعوة الى التسامح والوئام بين ملل الأمة وطوائفها ...

---

(١) على مذبح الوطنية ٥ (٢) ديوانه ٣٢

ان القول لم يكثر في الشرق حول التضامن والاخاء إلا عند ما استفحل خطر التفرقة والتعصب . وإذا كان الشعراء قد أولوا هذا الموضوع اهتماماً بالغاً في هذا العصر ومنذ فجر النهضة العربية الحديثة فان شاعراً عربياً كبيراً هو أبو العلاء المعري كان رائدهم الى ذلك قبل نحو ألف من السنين ، وبدا في شعره حر الفكر رحيب النفس متسامحاً في عقيدته . وقد وضع في الميزان دين أحمد والمسيح ، وسلط نور العقل على الدين وجرده من قشوره ، كما فضح تجار العقائد ودعاة التفرقة .

وأبرز من فطن في عصرنا الى هذه العلة المزمنة وخطرها على الامة الشيخ محمد عبده رائد هذا الاتجاه في التفكير الشرقي الحديث ، ومن مشهور قوله في هذا الصدد بيتاه السائران على ندرة قرضه للشعر :

ولست أبالي أن يقال محمد ... أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت فلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم

والحق إن آفة الشرق في عصوره الحديثة كانت في تعصب أبنائه واشتداد الخلف بين أهله ، والى ذلك يشير حافظ ابراهيم وكأنه يعتبر زوال هذا الداء الوبيل حلماً بعيد المنال (١) :

متى أرى الشرق ادناه وأبعده ... عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
لا فرق ما بين بوذي يعيش به ... ومسلم ويهودي ونصراني

وبدافع من هذا الشعور اشتدت دعوة الأقلام الحرة في العهد الاستعماري الى نبذ التعصب والخلاف اللذين كانا يزدادان اشتعالا بسبب

(١) ديوانه ١ : ١٢٤

تفشي الجهل من جهة وبتشجيع من المحتلين من جهة أخرى . ولم يكن الاستعمار في سبيل تثبيت اقدامه في البلاد يحيد عن بذر الشقاق والتعصب في النفوس بعد أن اتخذ من مبدأ « فرق تسد » محوراً لسياسته .

وكان من الطبيعي ألا يطمئن المسيحيون في بلاد العرب بصورة عامة الى كل نظام من شأنه أن يجعلهم أقلية ضئيلة في ظل دولة إسلامية كبرى بعد ما عانوه من أهوال التعصب الديني خلال عهود العثمانيين . ومن هنا كان كثير منهم ينظر بعين الريب الى فكرة الجامعة الاسلامية ، ويتلهف على إقامة دولة حديثة على أسس قومية تجمع بين أبنائها رابطة العروبة على اختلاف عقائدهم ، وينتفي فيها التعصب الطائفي وتسلط رجال الدين على الحكم .

وقد رأى بعض الشعراء بحق أن تفشي التعصب الطائفي بين العرب كان في طليعة الأسباب التي اطمعت فيهم العدو ، ومما بادروا الى نظمه منذ وطئت اقدام المحتل أرض الشام والعراق قصيدة لمحبوب الخوري الشرتوني أسماها « دمعة على العرب » وأشار فيها الى العلة التي كانت تنخر في كيانهم (١) :

يا أمة العرب استباحك معشر	ما إن عليهم بل عليك سلام
لم تجن أسيفهم عليك وإنما	العيسوية فيك والاسلام
هاتيك تبسط للفرنجة باعها	هرباً وذاك جواره إيلام

فالشرتوني وقد حز في نفسه ما كان عليه قومه ينحي باللائمة على عنصري الأمة معاً حين ارتمى أحدهما في أحضان الغرب ولاذ الثاني بالتعصب ضد إخوانه فكان كل فريق حرباً على الآخر .

والحق إن المسلمين والنصارى عاشوا معاً بسلام ووئام طوال العهود

(١) ديوانه ٨٢

العربية المديدة » والاسلام نفسه فسح المجال للنصرانية لتعيش معه والى جنبه ، وحمى مقدساتها ومعتنقيها وصان معابدها وجعل بينه وبينها صعيداً مشتركاً يتلخص في اعتبارها ديناً سماوياً مصدره وحي إلهي ، وفي أن المسيح كلمة الله وروح منه . وأنه ولد من أم عذراء طاهرة بتول من غير أب ، وأن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى »[1] وما المسيحية والاسلام سوى موجتين روحيتين متلاحقتين ظهرتا في الشرق العربي ، والخطأ الفادح فى العهد العثماني والعهد الاستعماري على السواء أن السلطات الحاكمة كانت تدأب على وضع الاسلام في مقابل المسيحية وتبرزهما في صورة خصمين متقابلين . وما فتئت دول الاحتلال منذ دخلت بلاد العرب تثير نيران الحقد والتعصب وتستفز النفوس بطيشها وحماقتها . من ذلك ما صدر عن الجنرال غورو أحد زبانية الاستعمار بعد أن اقتحمت جيوشه سورية ولبنان ؛ فقد ألقى خطبة في بيروت تشدق فيها بالحملات الصليبية واعتبر نصره متمماً لها ، وكان الصلف والزهو يملآن نفسه والحقد والكراهية يسيلان من فمه . وقد أثارت هذه الخطبة مشاعر العرب وتصدى لصاحبها الشعراء والكتاب ، نذكر من بينهم الرصافي الذي نظم بهذه المناسبة قصيدة أسماها « مظاهر التعصب في عصر المدنية » وكان منها قوله [2] :

ذكرتَ لنا الحرب الصليبية التي ... بها اليوم قد تمت لقومك آمال
وتلك لعمري قرحة قد نكأتها ... بما قلتهَ فاهتاج بالشرق بلبال
فيا عجباً من امة قدت جيشها ... تشابه كردينالها والجنيرال
ولو أننا قلنا كما أنت قائل ... لأنحى علينا بالتعصب عذال

---

(١) محمد المبارك : الامة العربية ٦٩
(٢) ديوانه ٤٣٣

وقد استغل المستعمرون الاحقاد الماضية التي كانت دفينة في النفوس وبخاصة في لبنان منذ مذبحة الستين فبعثوها ذميمة وعملوا على إشعال فتن طائفية عمياء وتناحن رهيب بين عناصر الامة الواحدة ، وعمدوا في سبيل هذه الغاية الى استقدام البعثات العلمية والدينية وبخاصة وفود المبشرين ، ثم تسخيرها لمآربهم الاستعمارية إمعاناً منهم في تحدي مشاعر الطوائف الاخرى والكيد لها وفي بث الاحقاد والضغائن في نفوس العرب .

ومن دواعي التقدير أن يكون عدد من الشعراء المسيحيين المنصفين قد سموا بنزعتهم القومية وتصدوا لهذه السياسة الخطيرة ونددوا بها ، وفي مقدمتهم الشاعر القروي وإلياس قنصل وخليل مطران والاخطل الصغير ، ومن هذا القبيل ما نظمه إلياس فرحات في قصيدته « أيها العرب » منددا بزبانية الغرب (١) :

غرست بنا التعصب من قديم	فأثمر لوعة وأسى وضرا
بعثت لنا الوفود فمزقتنا	كما علمتها شطراً فشطرا
وفود ان تحل بأرض قوم	تحيل عرا وفاق القوم مكرا
ولو دخلت جنان الخلد يوماً	لادخلت الخلاف بهن قسرا
ثياب البر والارشاد صارت	لجسم الشر والأحقاد سترا
خذوا بعثاتكم عنا فأنتم	بها من كل أهل الارض أحرى
ولا تدعوا الى الايمان شعباً	يرى الاكراه في الايمان كفرا

وشبيه بما كان في نفوس نفر من المسلمين العرب من تعصب ديني في العهد العثماني كان أيضاً ما يماثل ذلك في نفوس بعض المسيحيين العرب الذين

---

(١) ديوانه ٩٩

وجدوا في الفرنسيين والانجليز حماة لهم وضماناً لحرية عقائدهم ، حتى بلغ الامر بفئة منهم في لبنان مثلا حد طلب الانتداب وتحبيذ الاحتلال فكانوا حرباً على قومهم .

إلا أن الشعور القومي السليم لدى كثير من العرب - مسلمين ومسيحيين - هو الذي نهض بكل قواه على ألسنة الشعراء والكتاب من أجل استئصال هذه الشأفة . وبذلك حمل الشعر الحديث رسالته السامية بإيمان وراح يبشر بالاخاء والتضامن ، معلناً حرباً لا هوادة فيها على التفرقة البغيضة والتعصب الذميم .

لقد كان هذا الشعور بوطأة التعصب حاداً في سورية ولبنان بحيث غدا منى النفوس أن يهل على العرب عهد جديد ينعمون في ظله بالوئام والتسامح والسلام . وكان عهد فيصل في أعقاب الحكم التركي عهداً ذهبياً رفل فيه الناس بالتحرر السياسي والفكري والديني ، كما كان فيصل رائداً في الشعارات السائرة التي كان يطلقها من خلال خطبه القومية الملتهبة يومئذ من مثل قوله « الدين لله والوطن للجميع » أو « نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد » و « أن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً » [(١)] . فقد كان لهذه الاقوال صدى بعيد في قرائح الشعراء تجلى على ألسنتهم صافياً صادقاً على نحو قول اسكندر الخوري البيتجالي معتزاً برابطة العروبة التي وسعت مختلف النحل [(٢)] :

قبل المسيح وأحمد   كنا وما زلنا عرب

وكان بطل الثورة العربية يومذاك معقد آمال العرب في بناء مجتمعهم الجديد فلا غرو أن يتجه إليه فرحات كما يتجه العليل الى الآسي [(٣)] :

---

(١) انظر كتاب : فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله ١٧٥ و ١٨٤
(٢) العنقود ٦٢   (٣) ديوانه ٧٣

طبب بحكمتك الشآم فانها كادت تموت بعلة الاديان

وفي هذه الفترة من الحكم العربي المستقل طاب للشعراء ان يعزفوا ألحانهم على أوتار التسامح والوطنية بعد عهود مديدة من التعصب والاستبداد والتبعية ، ومن ذلك ما نظمه حليم دموس [1] :

لك دين وله دين ولي آخر والكل دين محترم
فاحسبوا أدياننا واحدة واجعلوا قبلتكم هذا العلم

وقد دأب أدباء المهجر في مغتربهم على التبشير بالتسامح والدعوة الى الاخاء برغم ما صدر عن بعضهم خلال فترات وظروف معينة من نزوات ونعرات تبين لهم بعدها أن ما أملوه في الاجنبي من خير لبلادهم وما ارتسم في أذهانهم حوله من هالة باهرة وألوان زاهية لم يكن في حقيقته إلا وهماً وسراباً . وتعد (الرابطة القلمية) موئل هذه الدعوة السامية حيث كان لقطبيها جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة أدب إنساني مفعم بالاخلاص والنبل ، وهل أثلج للصدر من قول جبران [2] « أنت أخي وأنا أحبك . أحبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فأنت وأنا أبناء دين واحد هو الروح ، وزعماء هذا الدين أصابع متلاحقة في يد الالوهية المشيرة إلى كمال النفس » . أو قوله « أنا مسيحي ولي فخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي وأكبر اسمه ، وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله » [3] وهل أصفى من نظرة (نعيمة) الى جوهر الاديان حين يعتبر [4] « يسوع وموسى ومحمداً على السواء في العالم إلهاً واحداً وهو إله الجميع ليس مسيحياً ولا مسلماً ولا يهودياً » . ولقد كان لمثل هذه الآراء الرائدة صدى بعيد في سائر كتاب الرابطة بل تعداه الى المهاجر كلها .

---

(١) ديوان حليم ٢٧٧
(٢) مجموعة المؤلفات ، دمعةوابتسامة٢ : ٢٣١
(٣) من مقالته (الى المسلمين من شاعر مسيحي) مجلة الفنون سنة ١٩١٣ العدد ٨
(٤) الآباء والبنون ٣٠

والحق إنَّ شعراء المهجر ومنهم إيليا أبو ماضي وإلياس فرحات ورشيد سليم الخوري ومحبوب الشرتوني وأبو الفضل الوليد وجورج صيدح وغيرهم كانوا رواد هذا الاتجاه السامي في الشعر الحديث منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى . ولعل سبقهم الى ذلك يعود الى ما كانت عليه بيئتهم الاجتماعية المتفتحة من إكبار للحرية وإنكار للتعصب . ومن هذا القبيل ما نظمه أبو ماضي مخاطباً قومه (١) :

اتباع أحمد والمسيح هوادة ... ما العهد أن يتنكر الأخوان
الله رب الشرعتين وربكم ... فالى متى في الدين تختصمان
مهما يكن من فارق فكلاكما ... ينمى الى قحطان أو غسان

ويعد إلياس فرحات بحق فارس هذا الميدان في المهجر غير مدافع . إذ أنه من الشعراء القلائل الذين التزموا في شعرهم بالدعوة الى التحرر القومي والتسامح الديني . ومما قاله في هذا الصدد مشفقاً على وقوع بلاده في براثن التعصب الطائفي (٢) :

يعز علينا أن نرى الشرق هاوياً ... الى القعر ما بين ناب ومخلب
تثير به الاديان هوج عواصف ... فيركب من أهوالها شر مركب
سلام على قطر الشآم بأسره ... سلام على أهليه من كل مذهب

وقد جعل فرحات دأبه التنديد بتلك الفئة الضالة التي استشرى التعصب في نفوسها ، فعقت آباءها العرب وتنكرت لاصولها حتى ارتمت في أحضان فرنسا ووجدت فيها أماً حنوناً (٣) :

قتلتم أباكم وحولتم ... الى نعشه نظراً جاحدا
وقلتم فرنسة أم حنون ... فلا بأس أن نقتل الوالدا

---

(١) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر ١٩١
(٢) ديوانه ١١١ (٣) ديوانه ١٢١

وقلتم تجيء بشكل الوصي فتجمل هابطنا صاعدا
ولكنها أوقدت للتعصب ما كان من جمره خامدا

ومن جهة أخرى يمكن القول إن تدخل بعض رجال الدين في شؤون السياسة وتسلطهم على الحكم بالاضافة الى ما عرفوا به من تزمت، كل ذلك كان له أسوأ الأثر في نفوس أحرار الفكر وأولي النزعة القومية المتحررة. ولهذا كانت الحملة عليهم شديده سواء في الشعر أم في النثر وبخاصة في المهجر حيث امحى التعصب الديني وتسلطه على الحكم، وفي ذلك يقول شكرالله الجر [1]:

ومن تدعي العمائم فيه الا فضل دعوى القلانس الكذابه
إن شعبا قواده رؤساء الد ين شعب لا شك ناح خرابه

ولهذا وجدنا إلياس فرحات يثير عليهم الحرب العوان بقوله [2]:

لا يفهمون الدين إلا جبة وعمامة وتنطعا وهراء
ان يخسر الوطن (اللواء) وأخته وسواهما فالأمر ليس بلاء
أما إذا نقض الوضوء فنكبة تذرى الجبال وتغمر الأوداء

والواقع أن نار التعصب الطائفي في لبنان بلغت خلال بعض العهود إبان الانتداب حداً خطيراً ضج منه العقلاء واستنكره الكتاب والشعراء؛ حتى بدا للجميع أن عودة الوئام والتسامح الى النفوس أمنية بعيدة المنال. وهذا نقولا فياض ينطق بأنبل المشاعر وأسمى العواطف من بلد استحكمت في أهله الطائفية الذميمة، فهو يتطلع الى ذلك اليوم المنشود ويناجيه بقوله [3]:

---

(١) الروافد ١٨
(٢) جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا في المهاجر ٧٠
(٣) رفيف الاقحوان ١٠٣

يا فجر يوم إليه منتهى أملي ونوره مالىء قلبي ووجداني
غداة يجمع داعي الحب شملكم على تسابيح إنجيل وقرآن
وفي القلوب وفي الآذان قاطبة صوت المؤذن والناقوس سيان
غداة تمحى حزازات الصدور فلا يثيرها الدين حربا بين إخوان
ولا يفضل مخلوق لمذهبه من مسلم ويهودي ونصراني
هذا دمي ان تنادوني وذا قلمي كلاهما عربي الأصل لبناني

٣

أما الظاهرة الساميه التي تجلت في الشعر القومى في هذا المجال فهي أن ظلمات التعصب الذميم والتفرقة والشقاق كانت تضمحل أو تتوارى إبان الأزمات الوطنية والمحن القومية التي تعصف بالبلاد. وكان اندلاع الثورات القومية فى أنحاء الوطن العربي خير ما يعث على التضامن والاتحاد ويشيع الألفة والوئام. ولعل أبرز ما اتسمت به ثورة ١٩١٩ التي قام بها المصريون ضد الاحتلال الانكليزي ذلك الالتفاف الرائع حول الوطن وحول زعيمه سعد زغلول. فقد صهرت تلك الثورة جميع عناصر الأمة بلهيب الوطنية فحل التسامح محل التعصب وطغى الشعور القومي على النعرات الطائفية وتعانق الصليب والهلال في معركة الكفاح بأسمى معاني الاخاء. وقد تجلى هذا الشعور الغامر على ألسنة الشعراء الذين انتشوا بهذا المظهر الرائع في وحدة صفوف الأمة، على نحو ما قاله محمد عبد المطلب آنذاك (١) :

---

(١) ديوانه ١٠٥

بنينا على آداب عيسى وأحمد | منازل عز دونها يقع النسر
فنحن على الانجيل والذكر أمة | يؤيدها الانجيل بالحق والذكر
كلانا على دين به هو مؤمن | ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذا ما دعت مصر ابنها نهض ابنها | لنجدتها سيان مرقس أو عمرو

ويعد أحمد شوقي في رأس من بشر بالتسامح ودعا الى نبذ التعصب والفرقة ، وقد أوتي براعة فائقة في تناول الأمور الدينية في شعره ، وكان حريصاً على كسب ثقة المسلمين والمسيحيين على السواء ، ولذلك نراه كثيراً ما يعزف ألحانه الشعرية على أوتار المحبة والوئام ونبذ التعصب والخصام . وهو في الأبيات التالية يزهى بذلك التضامن الرائع بين الطوائف الدينية في مصر ويقول (١) :

إنما نحن مسلمين وقبطا | أمة وحدت على الاجيال
سبق النيل بالابوة فينا | فهو أصل وآدم الجد تالى
والى الله من مشى بصليب | في يديه ومن مشى بهلال

ونراه يستعذب هذه النغمة في شعره كلما سنحت له فرص القول ، حتى إنه يسمو الى مستوى إنساني رفيع في بعض أبياته ، على نحو ما يتسم به رثاء بطرس غالي الذي كاد اغتياله يودي بوحدة الامة (٢) :

نعلي تعاليم المسيح لأجلهم | ويوقرون لأجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله | لو شاء ربك وحد الاقواما
هذى قبوركم وتلك قبورنا | متجاورين جماجماً وعظاما

---

(١) الشوقيات ١ : ٢٢٨
(٢) الشوقيات ٣ : ١٤٤

وهكذا دأب شوقي على التنديد بالتعصب في حضه المصريين على الوئام ومناشدة مسلميهم وأقباطهم التعايش بسلام على الصعيد القومي .

ولقد ارتبط اسم سعد زغلول بالاتحاد والتضامن والاخاء . وأكثر من توجه إليه بالقول من الشعراء في حياته أو بعد مماته ألح على هذا الامر ، وفي ذلك خاطبه علي الجارم في أعقاب ثورته وشعبه على الانكليز بقوله (١) :

ألفت بين العنصرين وكنت للرحمن حزبا
نبذوا الشجار وأبدلوه لمصر إخلاصا وحبا
وسعى الهلال الى الصليب وأقبلا جنبا فجنبا

ومن هذا القبيل ما نظمه محمد الاسمر آنذاك مشيراً الى التفاف الشعب من جميع عناصره حول هذا الزعيم المصري إذ قال (٢) :

أرى الشعب آلى أن تكون زعيمه ... وأعطى لك الميثاق دير ومسجد
وأنت الذي لا يعرف الشعب غيره ... وأنت الذي حياه عيسى وأحمد

ولم يكن اندلاع الثورة في سورية عام ١٩٢٥ مغايراً في تأثيره لما حدث في مصر من تناس للأحقاد ونبذ للتعصب ، إذ أن حمم المستعمرين فوق دمشق لم تكن لتميز بين المسلم والمسيحي ، وقد لقي الجميع من كيد الطغاة أهوالا . والحق إن ائتلاف عنصري الشعب في سورية كان خير عزاء للبلاد في محنتها القاسية إبان تلك الثورة لان هذه الظاهرة التي انبثقت قوية لدى الجماهير آنذاك كانت كسباً كبيراً لدفع الوعي القومي الى الامام وتعميق جذوره

---

(١) الشوقيات ٤ : ٥٥
(١) ديوانه ٢ : ٨٣

في النفوس . وقد أشار الى ذلك خليل مردم في صـدد رثائه دمشق المنكوبة فقال (١) :

بلت دمشق بنيها يوم محنتها ... فلم تجد غير من صحت عقائده
زى الحنيفي يوم الروع مبتدرا ... الى المسيحي في البلوى يساعده
الحمد لله أني في حمى وطـن ... تحمي كنائسه فيه مساجده

ولم يقتصر هذا التجاوب مع وحدة الطوائف على شعراء دمشق أوسورية يومذاك بل رن صداه لدى كثير من شعراء العرب في مصر والعراق والمهجر . وقد أشار شوقي في قصيدته النونية التي ناجى فيها دمشق الى أهمية التقاء عناصر الشعب على صعيد الثورة الوطنية فقال (٢) :

الملك أن تتلاقوا في هوى وطن ... تفرقت فيه أجناس وأديان

إلا أن معروف الرصافي كان أكثر تفهماً لمعضلة الطائفية في الشام ولهذا جاءت قصيدته التي نظمها إثر نكبة دمشق بقذائف الفرنسيين رائعة من حيث روحها القومية ودعوتها الصادقة الى التسامح والوئام فمما قاله فيها يومذاك (٣) :

إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة ... لسان وأوطان وبالله إيمان
فأي اعتقاد مانـع من أخوة ... بها قال إنجيل كما قال قرآن
كتابان لم ينزلهما الله ربنا ... على رسله إلا ليسعد إنسان

---

(١) ديوان الثورة ١٢٤
(٢) الشوقيات ٢ : ١١٦
(٣) ديوان الثورة ٥٣ ، ديوان الرصافي ١٣١

من قام باسم الدين يدعو مفرقا فدعواه في أصل الديانة بهتان
أنشق بأمر الدين وهو سعادة إذن فاتباع الدين يا قوم خسران
نمتكم الى المجد المؤثل (تغلب) كما قد نمتكم للمكارم (غسان)

والحق إنه بنتيجة التجارب المريرة التي عاناها العرب وبلوا فيها أخطار الشقاق والتعصب السياسي والطائفي أخذ يقر في الاذهان أن الصراع مع المحتلين لم يكن مجدياً إلا حين تضافرت الجهود وتصافحت القلوب . وقد تجلى هذا الاتجاه أوضح ما يكون في الشعر القومي الذي كان ينطق عن ضمير الامة ومشاعرها القومية ؛ فقد راح الشعراء يحضون على الوئام ويدعون الى التسامح ويعلون قضية الوطن والتحرر على كل النعرات والحزازات . وهذا عباس محمود العقاد يأسى على ما فيه السوريون من صراع طائفي فيناجيهم بقوله (١) :

ما في المدامع من شعار كنيسة يوم الحنين ولا شعار هلال
أمنازعون على السماء وأرضكم نهب لكل منازع ومـوال
من بعلبك خذوا المثال لرأيكم يوم الخلاف وتلك خير مثال
فيها لموسى والمسيح وأحمد أثر ، والوثن القديم البالي

بهذه الروح السمحة صدر الشعراء قاطبة وأخذوا يبشرون برسالة المحبة والسلام بين عناصر الامة وطوائفها برفق على نحو ما وجدناه لدى أمير الشعراء أحمد شوقي أو ما نجده في أبيات لخير الدين الزركلي تتضوع من ثناياه نفحة إنسانية تذكرنا بروح أبي العلاء في لزومياته (١) :

---

(١) وحي الأربعين ١٤٦ (١) ديوانه ٨٥

يكفر فينا معشر معشراً   على الحق، والانسان قد يتبصر
دع الناس لا تبغ الدين تهودوا   بشر ولا تبغ الدين تنصروا
عجبت لأمر الناس أبناء واحد   يفرقهم دين وجنس وعنصر

وقد رأى فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية أن العاطفة القومية تسع الناس على اختلاف معتقداتهم فقال (١) :

إن العروبة لا يفرق بينها   بعد التآلف قبلة أو هيكل
أبناؤهم ضيم وبين صفوفهم   عيسى المخلص والنبي المرسل

كما تجلت هذه الروح السامية التي تتفهم جوهر الاديان بعمق في قول إلياس قنصل واصماً بالمروق ومخالفة الدين نفسه كل من يفرق باسم الدين (٢) :

ولا الانجيل يأمر بالتقالى   ولا القرآن بالبغضاء أغرى
وعيسى عن تنافرنا تناءى   وأحمد من تنازعنا تبرّا

وفي ذلك يقول أيضاً جورج صيدح الشاعر المهجري (٣) :

قل لمن دس في الصفوف شقاقاً   بين طه وبين عيسى بن مريم
جحد الدين جاحد الوطن الغا   لي سواء مقلنس أو معمم

وقد بشر حسن البحيري من شعراء فلسطين بوحدة طوائف الامة ودعا الي إبعاد المعتقدات الدينية عن المجال القومي ، أو بعبارة أدق نادى بانصهار معتنقيها من المذهبين في بوتقة القومية فقال (٤) :

---

(١) ديوانه ٢٨٦   (٢) ديوانه ٣٧
(٣) النوافل ١٤٥   (٤) ابتسام الضحى ٧١

وإذا تنادينا لدفع كريهة عن مهبط الانجيل والفرقان
سرنا لها وهلالنا وصليبنا في سيد الأعلام يعتنقان
ما بيننا عند التنادي مسلم كلا وما في جمعنا نصراني
فالشرق موطننا ونحن حماته بنفوسنا ، والدين للديان

ومن هنا استنكر كل شاعر قومي بل كل مواطن حر تفاني الشعوب فيما بينها واتخاذ الدين ذريعة لزيادة الشقاق وبث الاحقاد بين أبناء الوطن الواحد على نحو ما نرى في قول خليل مردم [1] :

فيم التقاطع والارحام واشجة والدار جامعة والملتقى أمم
الله في قطع أرحام وفصم عرى عهدي بها وهي وثقى ليس تنفصم
قالوا وفي الدين بون دون وحدتنا الى متى باسم هذا الدين نقتسم

٤

وبنتيجة تتبع جوانب وجدان الامة المشترك ورصد مشاعرها الجماعية يمكن القول تبعاً لاطراد نمو الوعي القومي في النفوس إن حدة الصراع الطائفي قد خفت وأخذت تسير نحو التلاشي أمام نور الوعي القومي كما تطرد النار الخبث من الحديد ، وبمر السنين وتعاقب الايام بسط التسامح جناحيه على الامة واشتدت أواصر الاخاء وازدادت المحبة والالفة . وكان ما فاضت به قرائح الشعراء في هذا المجال يعبر عن أسمى المشاعر وأنبل العواطف . فمن لبنان هذا البلد الصغير الذي عانى من وطأة أدواء التفرقة والتعصب الطائفي ما لم يعانه وطن كانت تنطلق

---

(١) جريدة ألف باء الدمشقية ، السنة الاولى ، العدد ١٧٧

نداءات المحبة والوئام ويتغنى الشعراء بالتسامح والسلام على نحو ما انطلق به نقولا فياض إذ قال (١) :

لي في هوى وطني كتاب خالد | يبقى على المكتوب من أيامي
سجلت نصرانيتي في متنه | ونشرت فوق سطوره إسلامي

وقال (٢) :

شمس العروبة في لبنان ما غربت | يوماً ولا غاب عنها نورها القاني
الطائفية يا رباه مغفرة | بلية الشرق هذى منذ أزمان

والجدير بالذكر أن الشاعر ألقى هذه الابيات في مهرجان منظمة (الكتائب) وهي ذات طابع طائفي ، ولا تقيم في مبادئها كبير وزن للقومية العربية وهذا دليل على تغلغل الاتجاه القومي العربي الى أبعد مدى محمولا على أجنحة الوئام والسلام . وكذلك نجد شاعراً مسيحياً آخر أبى إلا أن يغتنم فرصة زيارة حافظ إبراهيم لربوع لبنان عام ١٩٢٩ ليحييه تلك التحية القوميه الخالصة ، وليعبر من خلال ترحيبه به عن ذلك الفجر الجديد الذي أخذ يلوح في أفق الوطن العربي مبشراً بوحدة طوائفه وتحرره القومي ، وقد آثر لقصيدته عنواناً هو « وحدة إنجيل وقرآن » ، إنه (حليم دموس) الذي قال (٣) :

دمشق يا جنة الدنيا وبهجتها | إليك قلبي وفيه سر إيماني
وما رضيت بأن ألقاك زاهية | بشاعر بل تجلى عندك اثنان
(بحافظ) و(خليل) من إذا ذكرا | نادى بنو الضاد يا نعم الاميران
هما الشقيقان في أوطاننا وهما | عنوان وحدة إنجيل وقرآن

وهذا أيضاً شاعر مسيحي هو اسكندر الخوري البيتجالي من الديار المقدسة في فلسطين أرض النبوات ومهد المسيح ومسرى محمد يعلن تمسكه بالعروبة ووحدة عناصر الامة بثقة وطيدة (٤) :

---

(١) رفيف الاقحوان ١٠٣
(٢) رفيف الاقحوان ١٣٢
(٣) المثالث والمثاني ٢ : ٣٤٧
(٤) العنقود ٦٢

لا لن تنال من اتحاد المتين يد الفتن
كلا ولن تصدع ما بينهما هذى المحن

وذلك وديع البستاني يتغنى منتشياً بما كان من تماسك أهـــل فلسطين في الأزمات ويقول (١) :

المسلمون مع النصارى كبروا ومهللون مع النصارى رحبـوا
والمهد للاقصى انثنى وتعانقـا وانظر فحولك بيت لحم ويثرب

ولعل تحول أحمد شوقي الى الاتجاه الوطني الصرف إثر عودته من منفاه في الاندلس وهو شاعر الجامعة الاسلامية أبرز مثال على تدفق المشاعر القومية في نفوس الامة وشعرائها ، وطغيانها على كل نزعة أخرى قد تحد من انطـلاق العرب نحو تحررهم المنشود ، فيما قاله يومئذ مناجياً وطنه (٢) :

أدير إليك قبل البيت وجهي إذا فهت الشهادة والمتابا
ولو أني دعيت لكنت ديني عليه أقابـــل الحتم المجابا

أو حين قال (٣) :

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم أن تجعلوه كوجهه معبوداً

فقد غدا الوطن في منزلة أسمى من البيت الحرام عند أمـير الشعراء ، كما غدت عبادة الوطن تضارع عبادة الله .

ثم تملك هذا الهوى نفوس الشعراء حتى جعلوا العروبة دينهم والوطن معبودهم ، وغدا الشاعر القروي أبرز هؤلاء إذ يقول (٤) :

إني على دين العروبة واقف قلبي على سبحاتها ولساني
إنجيلي الحب المقيم لأهلها والذود عن حرماتها فرقاني

---

(١) الفلسطينيات ١٨٦
(٢) الشوقيات ١ : ٦٨
(٣) الشوقيات ١ : ١٣١
(٤) ديوانه ٤٢١

وما كان أحلى قوله في التعبير عن هذه المنازع السامية حين نظم قصيدته تمجيداً لذكرى مولد محمد الرسول العربي وقال (١) :

أكرم هذا العيد تكريم شاعر   يتيه بآيات النبي المعظم
هبوني عيداً يجعل العرب أمة   وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا   وأهلا وسهلا بعده بجهنم

وعلى هذا المنوال من اعتناق العقيدة الوطنية واتخاذها ديناً نسج سائر الشعراء قصائدهم فقال إلياس فرحات (٢) :

أنا العربي خلقاً وانتسابا   وإن أك لست بالعربي دينا
ولو أوصى بكره العرب دين   لكنت إمام الملحدينا

حتى ان إلياس قنصل الذي أسمى ديوانه « على مذبح الوطنية » آثر أن يفتتحه بقوله :

إذا كان ديني عن تحرر موطني   يعيق فقد طلقت ديني وإيماني

وسرت هذه الروح السمحة التي بلغت لدى طائفة من شعراء المهجر أوج سموها الى سائر الشعر الحديث وأصبحت تشكل ظاهرة بارزة من ظواهره ، وقد زهي بدوي الجبل بالدين الجديد الذي يجمع شمل المسلمين والمسيحيين على الصعيد القومي فراح يدين به ويردد (٣) :

تنبه هذا الشرق حتى تصافحت   قلانسه محمودة والعمائم
ندين بدين الحب شيباً وفتية   وأنف الذي يهوى التفرق راغم
لقد ألفت ما بين عيسى وأحمد   مغانم نلقاها معاً ومغارم

كما يقول بلهفة المتصوفة :

---

(١) ديوانه ٣١٥   (٢) ديوانه ١٧١
(٣) ديوانه ١٣٢

الدين دين الحب فهو عقيدتي ولو انه في الشرق قل دعاته
بيت العروبة قبلتي ومحجتي لا (طوره) قصدي ولا (عرفاته)

وإذا كان كثير من الشعراء العرب مسلمين ومسيحيين قد آثروا البعد عن كل ما يشير الى المسيحية أو الاسلام إلا في معرض سلبي في غالب الاحيان، فان شاعراً مسيحياً كرشيد الخوري ذهب الى أبعد من ذلك وكأنه يضن بتراث الاسلام أن يهدر في المجال القومي لمجرد تهدئة الخواطر ومجاملة ذوي الحساسية المفرطة والنفوس المعقدة:

عش للعروبة هاتفاً بحياتها ودوامها
انظر الى آثارها تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمت مع ظمه الى إسلامها

ويقول:

أنا العروبة لي في كل مملكة إنجيل حب ولي قرآن إنعام
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت عروبتي مثلي الاعلى وإسلامي

فالشاعر يرى في الاسلام خير ذخر للعرب ولقوميتهم على اختلاف مللهم ونحلهم. وما من ريب في أن كثيرين من الشعراء لم يبلغوا هذا الشأو في فهم العلاقة بين العروبة والاسلام فلم يكن بوسعهم دائماً التمييز بين الاسلام من حيث أنه دين من الاديان أو أنه تراث قومي للعرب أجمعين.

وهكذا رسخت العقيدة القومية في النفوس ونافست في منزلتها العقيدة الدينية بل طغت عليها وغشتها برداء التسامح والاخاء.

ومن الملاحظ أخيراً أن شعراء المهجر - كما اتضح لنا من أشعار صيدح والقروي وفرحات وأبي ماضي وقنصل والشرتوني وسواهم - قد أولوا عناية بالغة موضوع التضامن والوئام بين عناصر الامة العربية، وهذا أمر طبيعي نتوقعه من شعراء يمكن اعتبارهم أدرى الناس بأخطار التعصب الطائفي الذميم الذي عانوا منه الاهوال في وطنهم قبل رحيلهم عنه الى العالم الجديد، بل كانوا هم أنفسهم من

ضحاياه ، وفي مقدمة العوامل التي دفعت بهم الى الهجرة ، وثمة سبب آخر لا يمكن إنكاره وهو أن بروز هذا الاتجاه في أدب المهجريين شعره ونثره كان في الواقع نتيجة تأثرهم بتحرر الفكر الغربي الحديث وما وجدوه في بيئتهم الجديدة من احترام للعقائد الفردية وشيوع التسامح الديني في المجتمعات الغربية وعلمانيـــة الدول الحديثة .

ومن جهة أخرى فان شعراء لبنان الذين عاشوا في حمأة الاحداث كانوا أسبق من بشروا بالتسامح الطائفي على نطاق واسع . وإن انبثاق مثل تلك الاشعار التي مرت بنا عن شعراء مسيحيين بالدرجة الاولى ، مفعمة بالنفحات النبيلة الصادقة لما يبعث على الفخار في حياة العرب الحديثة . ويتضمن من جهة أخري مغزى هاماً ودلالة كبرى على إشراق النفس العربية وتحررها من بقايا التعصب والهوى .

لقد كان الشعر العربي الحديث ـ بصورة عامة ـ عامل خير ووئام ورائداً للعرب في نزوعهم الاصيل الى التسامح والتضامن والسلام .

الفصل الخامس

البطولة والفداء

ليس شعر البطولة والفداء بالغرض المستحدث في أدبنا الحديث ، فهو من أعرق الموضوعات التي عرفها الأدب العربي وسائر الآداب الأخرى ، كما كان محور شعر الملاحم في العصور الغابرة . ولم يكن شعر الحماسة عند العرب في أروع آياته سوى شعر البطولة والفداء والتضحية والاقدام مستوحاة من صميم حياتهم وواقع مجتمعهم . ولعل أبرز ما قيل في هذا الموضوع صدر أول الأمر عن عدد من الشعراء الجاهليين ثم تجلى بأسمى معانيه على ألسنة شعراء الخوارج .

وقد ورث العرب اليوم عن أجدادهم حب البطولة وتقديس التضحية وراح شعراؤهم يتغنون بأعمال البسالة والاقدام التي أكبروها في معاصريهم وفي أجدادهم على السواء .

وإذا كان الجود بالنفس أقصى غاية الجود كما قال شاعرنا العربي ، فمن الطبيعي أن يهز سقوط الشهداء في ساحات الجهاد وجدان الأمة ويلهب قرائح شعرائها . ومن هنا لم يكد يخلو ديوان شعر أو مجموعة شعرية خلال هذه الفترة الحافلة بالأحداث من قصائد تمجد بطولات الشهداء وتخلد مواقفهم الرائعة .

١

وتبعاً لارتباط الأدب المتزايد بواقع الأمة العربية فان جانباً كبيراً من شعر الرثاء أخذ يشكل ظاهرة قومية بارزة في الشعر الحديث . ولعل أكبر حدث قدمت فيه الضحايا على مذبح القومية منذ قامت الحرب العالمية الأولى كان إقدام جمال باشا التركي على إعدام عدد كبير من أحرار الشام في ساحات دمشق وبيروت فقد تركت تلك المجزرة الأليمة جرحاً بليغاً في نفوس العرب ظل يدمي على كر السنين ويهيج قرائح الشعراء حتى يومنا هذا ، ففي تلك القصائد امتزجت صيحات الثأر والثورة بدموع الحزن والأسى .

وقد احتفظ لنا رجال الرعيل الأول ومؤرخو الثورة العربية بشذور قليلة من الشعر الحماسي الذي نظمه أو تمثل به أولئك الشهداء في لحظاتهم الأخيرة ، من ذلك ما تمثل به (بترو باولي) وهو يعتلي منصة الاعدام :

ومن لم يمت بالسيف مات (بحبلة)   تنوعت الأسباب والموت واحد

وفي الطريق من سجن (عالية) حين سيق الأحرار الى ساحة الاعدام كان الشهداء يرددون هذين البيتين من سيارتهم المقفلة [٢] :

نحن أبناء الألى   شادوا مجداً وعلا
نسل قحطان الأبي   جد كل العرب

كما رددوهما أيضاً امام أعواد الموت بصوت جماعي [٣] ، والمرجح أنهما يشكلان المطلع أو اللازمة من أنشودة حماسية قدر لها أن تصحب المجاهدين حتى لحظاتهم الأخيرة . وقد ذكر مؤرخ الثورة العربية أمين سعيد أن الشاعر عمر

---

(١) أمين سعيد الثورة العربية الكبرى ١ : ٨٧   (٢) المصدر السابق ١ : ٨٦
(٣) الدكتور أحمد قدري : مذكراتي عن الثورة العربية ٥٥

حمد كتب على الطاولة قبل خروجه من دائرة البوليس ثلاثة أبيات حماسية من الشعر جعل يرددها وهو صاعد الى المشنقة (١) ؛ وما يؤسف له أن المؤرخ لم يذكر لنا تلك الأبيات .

ولكن هل نجد من الشعر العربي في تلك الفترة ما يتناسب مع هول هذا الحدث الكبير ويشفي الغليل ؟ الواقع أنه من الصعب كما يقول الأستاذ أنيس المقدسي (٢) « أن يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذ من الهلع والنقمة ، وها نحن نعيد ذكرى تلك الأيام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط والرهبة ، شعور مخيف كان يخيم على البلاد حتى لم يكن أحد يجسر على التكلم أو البحث في الشؤون السياسية وإظهار الأسف على شهداء العربية » . ومن الطبيعي أن يظل الشعر في هذه الفترة حبيساً في النفوس وأن يطأطىء الناس هاماتهم تحت سيف الارهاب المصلت وقوانين الحرب الصارمة ، وأن يلجم الشعراء ألسنتهم على مضض وهم يتميزون من الغيظ . وعلى هذا فان علينا أن نلتمس ما قيل في شهداء العرب من تخليد لذكراهم وتمجيد لبطولتهم بعد أن انجابت الكربة عن الوطن العربي وداعبت نسائم الحرية وجوه الأحرار . وبعد أن استؤصلت شأفة الترك من البلاد .

وتعد القصيدة المطولة « النائحة » التي نظمها شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي في شهداء أيار وتفجع فيها عليهم من أهم ما يسجل مواقف الشهداء الرائعة ويصور بطولتهم الفذة وهم يعتلون أعواد المشانق (٣) :

دنوا فرقوها واحداً بعد واحد وقالوا وجيزاً ليس فيه فضول
فمن سابق كيلا يقال محاذر ومستعجل كيلا يقال كسول

وقد أشار الزهاوي في قصيدته هذه التي عرفت بمعلقه الشهداء الى

---

(١) الثورة العربية الكبرى ٨٨ (٢) الاتجاهات الأدبية ١ : ١٠٨

(٣) انظر القصيدة كاملة في رفائيل بطي : الادب العصري في العراق ١٨ ، والشهداء المشار إليهم عبد الغني العريسي وعارف الشهابي وعبدالكريم الخليل .

كثير من أولئك الشهداء بأسمائهم وأشاد برباطة جأشهم تجاه الموت الزؤام فقال :

وهل (للعريسي) الجريء و(عارف) إذا عد أقطاب اليراع عديل
و(عبدالكريم) الندب ماضاع رشده إذ الدهر يسقيه الردي ويغول
تمثل فوق العود قبل وفاته بيت يؤسي الشعب وهو يقول
« إذا مات منا سيد قام سيد قؤول بما قال الكرام فعول »

أما الشاعر المهجري أبو الفضل الوليد فقد عمد بأسلوبه الحماسي وألفاظه الجزلة الى تخليد ذلك الموقف في قصائده دون أن تبدو منه بادرة ضعف أمام القدر أو استسلام للدموع ، فهو يناجي أرواح أولئك الشهداء بقوله (١) ،

مشيتم باسلين الى المنايا وكان لكم على النطع ابتسام
ليحيي العرب قدصحتم ومتم فصيحتكم لحطتكم دوام
على أعواد مرقية رفعتم منارات بها يهدى الأنام
ورب ضحية أحيت شعوباً فكان لها انعتاق واقتحام

وقد تناول شاعر دمشق خليل مردم بك موضوع شهداء أيار في جملة من تناولوه من الشعراء وحرص على إبراز معنى تضحياتهم وأثرها في تشييد صرح الحرية في بلادهم فقال (٢) :

وطني ، تقدس في الورى استقلاله شهداؤنا ودماؤهم قربانه
فتعطرت بنفوسهم أجواؤه وتخضبت بنجيعهم قيعانه
ولقد عجبت لمن يحاول هدمه وعلى الجماجم وطدت أركانه

وعلى هذا المنوال كان سائر الشعراء ينسجون قصائدهم من نحو قول شاعر العراق محمد رضا الشبيبي مناجياً أولئك الضحايا (٣) :

---

(١) الانفاس الملتهبة ٧٢
(٢) ديوانه ١١٨
(٣) ديوانه ١٨٣

قالوا تكون فداءهم أوطانهم فتجاوبوا كلا نكون فداءها
إن الضمائر والقلوب إذا دجت دخل الأسى أعماقها فأضاءها

وفيما نظمه خير الدين الزركلي وإبراهيم طوقان ومصطفى الغلاييني وشفيق جبري وعمر يحيى وحليم دموس ومحمد العدناني ونصرة سعيد وعشرات الشعراء سواهم خير مثل على ما قدمه الشهداء الاول الى أدبنا الحديث من أسمى معاني البطولة وأروع آيات الفداء مما كان خير زاد قومي للجيل العربي الصاعد .

ولعل أول ما يبدو للباحث من خلال هذه المقطوعات أن هذا الحدث الذي شهدته ساحات دمشق وبيروت في ذلك اليوم الرهيب لم يكن حدثاً محلياً انحصر صداه في هذين البلدين فحسب بل كان مصاب العرب قاطبة أثار قرائح الشعراء إثارة حادة فتناوله - كما تبين لنا آنفاً - من في العراق ومن في الشام واهتز له من كان في مهجره القصي . والظاهرة الاخرى التي تتجلى أمامنا من خلال هذا الشعر وما يماثله في موضوعه أن أكثر من رثوا هذه القافلة من شهداء العرب حرصوا على إبراز عظم التضحية التي قدموها ، وروعة البطولة التي تحلوا بها ، فلم تكن قصائدهم مراثي دامعة ، ولم تجد نغمات اليأس إليها سبيلا ، وربما كان مرد ذلك الى أن أكثر ما قيل في هذا الشأن لم ينظم في إبان المجزرة الرهيبة وإنما صدر بعد حين - كما سبق لنا القول - ولذلك لم تعل في تلك القصائد رنة الحزن ولم تبلل قوافيها بدموع التفجع بقدر ما دوت صيحة اليأس وصرخة الثأر . والحق إن اندلاع الثورة العربية الكبرى بعد تعليق أولئك الاحرار على الاعواد بنحو شهر واحد ، وما طفحت به قصائد الشعراء آنئذ من روح التمرد والاباء يعد دليلا ساطعا على ما بلغته نفسية المجتمع العربي يومذاك من نقمة على الاستبداد والطغيان.

وما شهداء أيار الذين توجوا سفر البطولة والفداء بدمائهم الزكية وأرواحهم الطاهرة إلا طليعة القرابين المقدسة فوق أديم هذا الوطن . إذ ما كاد المستعمر الاجنبي يطأ سائر ارض العرب حتى أخذ الاحرار يتساقطون صرعى أمام

قوات البغي . وكانت معركة ميسلون واستبسال حاميتها مع قائدهم حتى الرمق الاخير مثلا أعلى للبطولة خلد أصحابها في سفر نضال الشعوب وجعل منهم مناراً للنفوس المتحفزة نحو التحرر . وإن ما قيل من شعر في بطل ميسلون وصحبه كان شعرا متمرداً تعبق قوافيه برائحة الكفاح وتهب من ثناياه نفحات البسالة والاقدام . وكم حفز ذلك اليوم من عزائم وخلف من شجون وأثار من قرائح . لقد اهتز الياس فرحات لنبأ تلك البطولات فراح ينشد (١) :

كأن الحق أسكرهم فثاروا ... وساروا بالعصي يقاتلونا
كأنهم راوا في الفر عاراً ... فكروا بالمنية يحتمونا
رأوا في ميسلون الموت مجداً ... فماتوا دونها مستبسلينا

أما (يوسف العظمة) وزير الحربية السورية وقائد المدافعين عن دمشق ضد جحافل (غورو) الفرنسية فقد غدا في نظر الشعراء وسائر الناس بطلا خالداً فتحت له القلوب وانطلقت بتمجيده الحناجر ، فهو أول سد أقيم في وجه الاستعمار ، كما أنه رائد الشهداء في ساحة الجهاد . وما أكثر تلك القصائد التي تصور وقفته الملحمية الخالدة من مثل قصيدة أمير الشعراء شوقي التي يناجي فيها « بطل ميسلون » بقوله (٢) :

شهيد الحق في ثبج الصحارى ... تخاف العاصفات له ذبالا
مقيم ما أقامت ميسلون ... يذكر مصرع الاسد الشبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا ... تجر مطارف الظفر اختيالا
فكفن بالصوارم والعوالى ... وغيب حيث جال وحيث صالا

---

(١) ديوانه ١٧١
(٢) الشوقيات ٣ : ٢٢٧

كما أشار خليل مردم بك الى أن ذلك القائد كان فاتحة شهداء سورية ضد الاحتلال فقال يناجيه (١) :

أيوسف والضحايا اليوم كثر ... ليهنك كنت أول من بداها
غضبت لامة منهـــا معد ... فأرضيت العروبة والالاها

ومما يشير الى المدى الذي أثاره استشهاد بطل ميسلون في قرائح الشعراء أن أبا الفضل الوليد وهو في مهجره القصي صعق بالنبأ فور سماعه بالفاجعة، فانكب على نظم قصيدته المطولة التي أسماها « الشهادية » في جلسة واحدة لم يدع خلالهـا القلم من يده إلا بعد أن أنجزها وكانت قد بلغت ١٦٨ بيتاً(٢) ومما قاله فيها (٣) :

هوى القائد الاعلى فتى العرب الذي ... حكى أنجد القواد بل كان أمهرا
وما بسقت حرية وتأصلت ... بغير الذي يجرى من القلب مهدرا
تمنيت مع فتيان قومي شهادتي ... ولـكنني أهـوى الحيـاة لأثأرا

وهـكذا غدا شهيد ميسلون موضوعاً بطولياً سامياً نسج حـوله الشعراء هالة ملحمية من آيات التضحية والفداء والخلود .

٢

ولم ينجل غبار الثورات القوميـة المتعددة في الشرق العربي الا عن أشلاء الضحايا الممزقة وجثث الشهداء المبعثرة في مصر والعراق وسورية وفلسطين وفي كل شبر من الوطن العربي . وقد تجلى ذلك في أروع الشعر وأصدقه . من ذلك ما نظمه محمد مهدي الجواهري في إحدى البطولات التي تكشفت عنها الثورة العراقية الاولى التي شبت ضد الانكليز عام ١٩٢٠ اذ قال(٤) :

---

(١) ديوانه ١٣١
(٢) روى هذا الخبر الدكتور إسحق موسى الحسيني عن أسعد طعمة أحد أقارب الشاعر
(٣) نفحات الصور ١٢٢ (٤) ديوانه ٣ : ٢١٦

كميٌّ مشى بين الكماة وحوله | نجوم بليل من عجاج طوالع
هم استسلموا للموت والموت جازف | وهم عرضوا للسيف والسيف قاطع

كما وصف محمد جواد العماري بطولة نفر من العراقيين إبان تلك الثورة الدامية في موقعة (الرميثة) حيث أبادوا فيلقاً انكليزياً بعد أن أحكموا محاصرته(١):

وتألفت حول الرميثة فتية | مثل البدور يزينهم اراق
خاضوا المعارك ثائرين وما بهم | إلا الجسور الى الردى سباق
فتلألأت في الرافدين رماحهم | حتى استقل وبنده خفاق

وربما كان موضوع أبطال الثورة السورية وشهدائها من أهم الموضوعات التي حظيت بعناية الشعراء سواء ما كان منهم في الشام نفسها أو في سائر أقطار العرب. وما « ديوان الثورة » الذي ضم كثيراً من هذه القصائد إلا جزء يسير مما قيل في هذا الصدد ، فقد تكشفت الثورة السورية عام ١٩٢٥ عن بطولات فذة اذهلت الاعداء وكانت خير وقود للشعور القومي النازع نحو التحرر. ومما انتزع الاعجاب آنذاك تصدي سلطان الاطرش وجماعتــه من الدروز لمصفحات الفرنسيين بوثبة جريئة شلت حركتها ، وكان ذلك في وقعة (ميشو) المظفرة التي تغنى بها الشعراء . وقد صور إلياس قنصل في مهجره وثبة سلطان العبقرية بقوله (٢):

وأرعد تلك الغاصبين مهدداً | فما زدت الا جرأة حين أرعدا
وقابلته والنار فيه مكافحاً | الى ان غدا سبط الحديد مجعدا

وتناول الشاعر القروي الموقف البطولي الذي وصفه قنصل فاستطاع ان يسمو به الى جو ملحمي رائع ارتسمت حوله هالة من البطولة الخارقة لم يستوح روعتها من خياله وإنما أمده بها الواقع ذاته فراح يخلد موقف « فتى الهيجاء » في

(١) الادب العماري ٣٨ (٢) السهام ٥٧

معركة (ميشو) بوصف رائع يذكر بقصائد المتنبي في معارك سيف الدولة (١) :

خففت لنجدة العاني سريعاً	غضوباً لو رآك الليث ريعا
ألم يلبس عداك التنك درعاً	فسلهم هل وقى لهم ضلوعا
أغرت عليه تلق النار برداً	ويرميها الذي يرمي هلوعا
فطاشت عنك جازعة ولو لم	تهش لما لحاولت الرجوعا
ولما صرت من مهج الاعادي	بحيث تذيقها السم النقيعا
وثبت الى سنام التنك وثباً	عجيباً علم النسر الوقوعا
فخروا فوق ظهر التنك صرعى	وخر التنك تحتهم صريعا

ثم تعددت الوقعات وتساقط معها الشهداء وكان مصرع كل شهيد حافزاً على قول أصدق الشعر وأشده حماسة . وحين سقط (فؤاد سليم) شهيداً في يوم (مجدل شمس) إبان ثورة السوريين على فرنسا أيضاً ، رثاه عدد من الشعراء بينهم خير الدين الزركلي إذ قال (٢) :

آليت ميتة حر	وقد تحمل بندك
قضيتَ حق العوالى	وأنت تقتاد جندك
عملت للمجد حتى	أدركت بالموت مجدك

كما أشاد ببسالته شاعر العراق عبد المحسن الكاظمي في قوله (٣) :

مشى الى الموت لا يبالي	رأى صباً أم رأى سموما
جاهد دون الاوطان حتى	أصبح شلواً بها حطيما

---

(١) ديوان الثورة ٨١
(٢) ديوان الثورة ٦٧
(٣) ديوان الثورة ٥٦

ومن آيات البطولة التي انبثقت من صميم الجماهير في سورية من خلل جمرات تلك الثورة رجل لم يعرفه الناس إلا باستشهاده وهو (حسن الخراط) الذي ضرب لقومه مثلا خالداً في الاقدام ، وقد خصه شاعر دمشق محمد البزم بطولة قال فيها[1]:

يا مؤثر الموت في إنقاذ موطنه ركبت صعباً فلا لاقيت خذلانا
سيرت ذكرك في الآفاق تحمله جوانب الجو افراحاً وأحزانا
وليس عندك من مال ولا عدد إلا العزائم قد مثلن إيمانا

وكان استشهاد أحمد مريود باعثاً على نظم قصائد كثيرة نسجت من واقع ملحمته ، إذ أنه حين بوغت بالجند من حوله وقد احتمى في أحد بيوت « القرية »[2] من جبل الدروز العربي أبى أهلها أن يسلموه ، فما كان من جيش الاحتلال إلا أن هدد القرية كلها بالتدمير فوق أهلها ، وحينئذ لم يجد الأسد بداً من أن يخرج من عرينه مع نفر ضئيل ليلقوا وجه ربهم . ومن عجب أن الفرنسين ازدهاهم هذا النصر فجعلوا يعرضون جثة الشهيد في دمشق ليرهبوا أهلها . وفي ذلك يقول خير الدين الزركلي[3] :

أقبلوا يحملون أحمد وضاح المحيا مضرج السربال
شهد الله أنهم حملوا موئل مستصرخ وليث صيال

ثم يشير الى خروجه لملاقاة الفرنسيين :

شق جنح الظلام يمشي إليهم رابط الجأش مشية الرئبال
قائلا للحياة غيري غري قائلا للنعيم غيريَ والِ

ومن هذا القبيل ما نجده لعمر يحيى في شهيد (حماة) صالح قنباز كما نجد لمحمد الفراتي وبدر الدين الحامد وبدوي الجبل وعمر أبي ريشة قصائد مماثلة

---

(١) ديوان الثورة ٣٠
(٢) إحدى قرى الدروز في جبل العرب
(٣) ديوان الثورة ٨٥

في كثير من الشهداء الذين ضربوا أمثلة البسالة والتضحية في دمشق وحلب وحماة ودير الزور ونذروا أنفسهم لطرد الغزاة. وبهذه البطولات التي قام بها السوريون إبان ثورتهم والضحايا الغالية التي قدموها على مذبح الوطنية أشاد شوقي أمير الشعراء في قصيدته الرائعة إذ قال (١):

دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعلم أنه نور وحق
جرى في أرضها فيه حياة	كمنهل السماء وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتحيا	وزالوا دون قومهم ليبقوا
وللأوطان في دم كل حر	يد سلفت ودين مستحق

وما زالت أبيات شوقي التي تصور آيات التضحية والبطولة في مقاومة المستعمرين على لسان كل سوري وفي طليعة الشعر القومي الحديث.

أما فلسطين مهد عيسى ومسرى محمد ومبعث سائر النبوات فقد كانت أرضها الطاهرة موئل الجهاد الدائب والعراك الدامي. وكم سقط في أتون معاركها من شهداء، ونبت في ثراها المقدس من بطولات. من ذلك ما شهدته تلك الديار في احد ايام حزيران (يونيو) ١٩٣٠ الذي كان يوماً أغر في سفر التضحية والفداء، إذ صدر حكم الاعدام على ثلاثة من احرار فلسطين على اثر ثورة ١٩٢٩ «فكان التكبير على المآذن وقرع النواقيس في الكنائس يتجاوب صداهما في ارجاء فلسطين قاطبة. إذ في ذلك النهار نفذ حكم الاعدام بالشهداء الثلاثة في ثلاث ساعات متوالية، وكان من المقرر رسمياً ان يكون الشهيد (عطا الزير) ثانيهم ولكن (جمجوماً) حطم قيده وزاحم رفيقيه على الدور حتى فاز ببغيته.. وهنا يأخذ الشاعر ابراهيم طوقان ريشته ليصور هذا اليوم المخضب بالدماء اروع تصوير وليسجل في شعره الوطني الخالد مصارع اولئك الشهداء، فتكون قصيدة (الثلاثاء الحمراء) التي القاها في حفل حاشد، فذهل عن الجمهور،

---

(١) الشوقيات ٢ : ٨٨

وشعر كأنما خرج من لحمه ودمه فكان يلقي بروحه واعصابه ، وما انتهى حتى كان بكاء الناس يعلو نشيجه »(١) . وقد انطق الشاعر عن طريق الرمز الساعات الثلاث الرهيبة التي نفذ خلالها اعدام الابطال متتابعين ، فكان مما قالته الساعة الاولى (٢):

انا ساعة النفس الابية ، الفضل لي بالاسبقية
اودعت في مهج الشبيبة نفحة الروح الوفية
لا بد من يوم لهم ، يسقي العدا كأس المنية
عاشت نفوس في سبيل بلادها ذهبت ضحية

اما الساعة الثانية ساعة إعدام محمد جمجوم فقد قالت :

أنا ساعة الرجل العتيد ، أنا ساعة البأس الشديد
بطلي يحطم قيده رمزاً لتحطيم القيود
زاحمت من قبلي لأسبقها الى شرف الخلود
وقدحت في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد

وأما الساعة الثالثة فقد قالت عن بطلها :

أنا ساعة الرجل الصبور ، أنا ساعة القلب الكبير
رمز الثبات الى النهاية في الخطير من الامور
بطلي أشد على لقاء الموت من صم الصخور
جذلان يرتقب الردى فاعجب لموت في سرور

لم تكن قصيدة « الثلاثاء الحمراء » هذه سوى اثر رائع احكم طوقان تخطيطه فجعله في مقدمة وثلاث مراحل ثم خاتمة . إنها من الشعر القصصي الملحمي ، عمد فيها الشاعر الى نوع من الرمز الجلي الموحي ، وهي لم تكن قصيدة

---

(١) انظر مقدمة الديوان بقلم فدوى طوقان ، شقيقة الشاعر ، ص ٢١

٢ ديوانه ٣٨

رثاء وبكاء ، وتفجع ونواح كعهدنا بمألوف الشعر في هذه المناسبات في كثير من الشعر التقليدي ، فالساعات الثلاث رمز الحمية ، اودعت في مهـــج الشباب نفحة الروح الوفية وجزمت بأنه لا بد من يوم يسقي العدا المنية . وفي القصيدة نلمس روح البأس وزى البطل يحطم القيد ، ويلهب في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد، ونجده تجاه الموت اشد من صم الصخور يستقبله في جذل وسرور . وهكـــذا كانت الثلاثاء الحمراء صيحة البطولة المدوية وصرخة الحق المبين وصوت الاحرار الخالد.

ثم يسقط سعيد العاص في تلك الارض الطاهرة ، ويغـــدو استشهاده وقوداً جديداً للعزمات والقرائح في مختلف ديار العرب فاذا هي آية أخرى من آيات البطولة في فلسطين عبر عنها عمر أبو ريشة بقوله (١) :

يا دماء النسور تجري سخاء بغرام البطولة الفضاح
أي برد خلعتيه احمر اللون على كاهل الجهاد الصراح
وكأني اراك في زحمة الهول على سرج ضامر طواح
واخوك الجسور في القمم السود مطل على الروابي الفساح
لوحت كفه بمنديله الأحمر شوقاً الى اللقاء المتاح
فحسبت الأجيال تهتف يا (خالد) جاهد في فيلق الجراح

كما يهتز احمد محرم من ضفاف النيل لمصرع هذا البطل فيقول فيه (٢):

نظم المجد لابطال الحمى ونظمت الشعر ناراً ودما
بطل ابصرت مجرى دمه في جبين الشرق لما وجما
صخرة صماء تحمي صخرة علمتها كيف تشفي الصمما

ولم يكن شعراء الشرق العربي بمعزل عن نضال اخوانهم في المغرب

---

(١) ديوانه ١٩٩
(٢) الدكتور محمد حسين : الأتجاهات الوطنية ٢ : ١٥٥ عن ديوان مخطوط للشاعر

الذي كان يقاوم شر انواع الاستعمار بضراوة ؛ وحين وقع عبدالكريم الريفي في قبضة الغزاة وكان ممن ملأوا الاسماع ببسالته ، ناجاه محمد الفراتي بقوله (١) :

ان يأسروك فانهم لم يأسروا ... الا الهزبر الاغلب المرهوبا
ما كنت أول ثائر متظلم ... بالعسف قيد مكبلا محروبا
لا تأس فالتاريخ يحلف جاهداً ... بالله انك لم تكن مغلوبا

ويقع عمر المختار في قبضة الطليان الفاشيين وكان شيخ السنوسيين ورأس المجاهدين في طرابلس الغرب ، فلم يكن من اعدائه المتمدنين الا ان بادروا الى شنقه بعد تعذيب مرير ، وقد هز مصرعه القاصي والداني وهاج الشعراء في كل مكان ، وكانت قصيدة احمد شوقي فيه درة تلك القصائد ، فهو لم يذرف الدموع عليه ، وانما وجد فيه مثلا اعلى للبطولة ومناراً هادياً للشعوب (٢) :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء ... يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم ... يوحي الى جيل الغد البغضاء
جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحرية الحمـراء
بطل البداوة لم يكن يغزو على ... (تنك) ولم يك يركب الأجواء
لكن اخو خيل حمى صهواتها ... وادار من اعرافها الهيجاء

ومصر التي كانت تغلي كالبركان تثور حيناً وتهـدأ حيناً آخر انتفضت عام ١٩٣٥ في جملة انتفاضاتها وسقط بعض ابنائها شهداء برصاصات زبانيـة الطغيان ، وقد لقي محمد عبدالكريم الجراحي وجه ربه فاذا هو رمز التضحية والفداء في نظر الشعب . وتهتم جماعة (ابولو) من الشعراء بهذا الحدث فتقيم

---

(١) ديوانه ١٥١

(٢) الشوقيات ٣ : ٧١

لذكراه احتفالا تجلت فيه أصدق المشاعر عبرت عنها قصيدة « الشاعر الشهيد» لحسن كامل الصيرفي (١) ، وأخرى لابراهيم ناجي وغيرهما لسائر الشعراء وكان ذلك منهم التفاتة قومية قل أن حفل بها بعضهم بعد أن طغى عليهم تيار الرومانسية وغلبهم شعر الوجدان الذاتي .

وهكذا كانت روح المقاومة قد استشرت في نفوس العرب وأخذت تفجر الثورات العاتية ضد المستعمر من كل فج ، فقد انتشرت عصاباتهم في الجبال يبعثون الرعب في فرائص المستعمرين وينقضون عليهم كالموت من فوق الاشجار ومن تحت الاحجار حتى حرموهم النوم وأشربوهم الغصص ، وما كان الجبل يسكت الا ليتحرك السهل وتثور المدينة ويهدر المتظاهرون ويعم الاضراب، فيسقط الضحايا بالعشرات مع مغرب كل شمس،وتتخضب أرض الوطن بدماء الشهداء ، إنه ثمن الحرية .

٣

على أن شعر البطولة والفداء لم يكن يبقى دائماً في نطاق شهيد بعينه ، أو بطولة فرد في ذاته ، فهناك قصائد كثيرة كان ينزع فيها أصحابها الى التعميم ، كأن يبرزوا ملامح الاقدام وعناصر التضحية في جملة الشهداء المجهولين الذين سقطوا في فلسطين أو سورية أو مصر أو العراق أو المغرب أو في شهداء العرب كافة ، وطبيعي أن تغلب على هذا النمط من القصائد الروح القومية المتمردة وأن تخفت فيها رنة البكاء والاسى ، لان الشاعر يجنح فيها بصورة عامة للتعبير عن عواطف الجماعة قبل عواطفه أو عن عاطفته من خلال عواطف مجتمعه ، وعلى هذا الصعيد الشامل يصور أمجد الطرابلسي بأس قومه وصمودهم كالطود تجاه

(١) انظر ديوانه ، الشروق ٩٢

جور الفرنسيين أثناء الاضراب الخمسيني في سورية (١) :

كل يسير الى الامام مشمرا | وقد استعد لأن يعود شهيدا
وعتاده قطع الصفا لكن في | إيمانه ما يصدع الجلمودا
وفؤاده بين الأضالع شعلة | حرى تشع عزيمة ووقودا
شهداء مثل الزهر في أكمامه | كانوا على ظلم القوي شهودا
سقطوا أمام بيوتهم وسط الحمى | صرعى فما حفلوا لظى وحديدا

فمع أن المناسبة خاصة في حدود الزمان والمكان استطاع الشاعر أن يرتفع بها الى هذا الصعيد الحماسي السامي ويتخذ منها منطلقا الى تمجيد البطولة الفذة التي انبعثت من نفوس اولئك الابطال المجهولين . وثمة أبيات رائعة لشفيق جبري يصور فيها دور الشهداء وأثر تضحياتهم في بناء مجد الأمة فيقول (٢) :

وطن كأن به على أشلائه | دراً على تاج الحمى منضودا
القى الى سود المنايا ربعه | فتقحموا فيه المنايا السودا
ملأت مهادهم الربوع مكارما | واليوم قد ملأوا العراء لحودا
صحف بأحمر قانىء مكتوبة | ضمن الزمان لأهلها التخاليدا
عظة الشعوب على ظلال لحودهم | درجت مع الصبح المبين عمودا
ذكرى الدفين وإن تقادم عهده | تحيي الدفين وتبعث الموءودا

فمن العسير ان تعرف شيئاً من خلال هذه القصيدة عن ظروف نظمها ومناسبتها إن لم يقدم لنا الشاعر نفسه ذلك . ومن الطبيعي أن ترجع بواعث نظم هذه الأبيات الى مناسبة خاصة واحداث محددة ولكن الشاعر استطاع ان يسمو إلى آفاق ابعد واجواء أرحب حين جرد من أحداث طارئة وبسالات فردية نموذجاً للكفاح والبطولة متمثلين في ضمير الامة كلها .

---

(١) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ص ٥٥٠
(٢) صبري الأشتر : المختار من الشعر في سورية ٢٢

وهذه الظاهرة في الشعر القومي الحديث تشير الى أن الشاعر العربي اخذ يجنح لتجريد والنظر الى موضوع البطل أو الشهيد من زاوية شاملة ، وذلك نتيجة ازدياد شأن الجماهير ودور الشعوب الفعال في صنع التاريخ ، ولهذا لم يعد الشاعر يكتفي بما كان يكتفي به قديماً من تفجع على الفقيد وعد لمناقبه وتمجيد لذكره ، فقد ارتبط الفرد بمجتمعه ارتباطاً لا انفصام له ، وغدت بسالته جزءاً من بسالة شعبه ورمزاً لها . ولعل قصيدة « الشهيد » لابراهيم طوقان فريدة في هذا الموضوع فقد حظيت بمكانة لا تدانى في الشعر القومي الحديث ، ومن مقاطعها الملتهبة (١) :

عبس الخطب فابتسم　　وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى　　ثابت القلب والقدم
نفسه طوع همة　　وجمت دونها الهمم
وهي من عنصر الفدا　　ء ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة　　لفحها حرر الامم
سار في منهج العلا　　يطرق الخلد منزلا
لا يبالي مكبلا　　ناله أم مجدلا

فهو رهن بما عزم

ربما غاله الردى　　وهو بالسجن مرتهن
لم يشيع بدمعة　　من حبيب ولا سكن
ربما أدرج الترا　　ب سليبا من الكفن
لا تقل أين جسمه　　واسمه في فم الزمن
إنه كوكب الهدى　　لاح في غيهب المحن

---

(١) ديوانه ٦٣

أي وجـــه تهللا يرد الموت مقبلا
صعّد الروح مرسلا لحنه ينشد الملا

أنا لله والوطن

فالقصيدة رائعة قل أن تجود بمثلها قريحة شاعر . وقد عاش إبراهيم تجربتها حية حارة في فلسطين فكانت كالجذوة الملتهبة قبسها من نضـال قومه الدامي ، ومع أن الديوان يشير الى مناسبة نظمها وأنها كانت بصدد الذكرى الرابعة للشهـداء الثلاثة (حجازي وجمجوم والزير) فان القصيدة بنصها لا تشير الى ذلك من قريب أو بعيد . وكل من أعجب بهذه الابيات ، وترنم بنبراتها القومية لم يحرص كثيراً على ربطها بأصل مناسبتها واكتفى منها بأن تعالـــج موضوع الشهيد ايّ شهيد بهذا الابداع ، وبخاصة إذا كان الشاعر نفسه لم يأبه لهذا الربط في نظمه لابياتها . فهذا النمط من الشعر الذي يرتفع من الخـاص الضيق الى الجو العـام الشامل ليرفرف في عالم المثل الرحيب يذكرنا بدالية (المعري) المشهورة الـتي نظمها في رثاء (ابي حمزة الفقيه) وتخطى فيها نطاق الفرد ليحلق في جو إنساني رفيع قوامه فكرة الوجود والعدم وفلسفة الحياة والموت في الكون . اما ابوحمزة نفسه فلم يكن الا منطلق المعري نحو هذا الافق البعيد كما كان شأن شهداء فلسطين الثلاثة بالنسبة الى طوقان .

ولا يضارع هذه القصيدة في مضمار البطولة والفداء الا قصيدة أخرى للشاعر نفسه تعتبر صنواً لها ، وبلغت من الشهرة ما بلغتها ، تلك هي قصيدة «الفدائي» وفيها يقول (١) :

لا تسل عن سلامته روحه فوق راحته
بدلته همومـــه كفناً من وسادته

(١) ديوانه ٦٥

يرقب الساعة التي بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يرا ه باطراق هامته
بين جنبيه خافق يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجى أضرمت من شرارته
حملته جهنم طرفاً من رسالته
هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف خجلا من شجاعته

صامت لو تكلما لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته خلق الحزم ابكما
وأخو الحزم لم يزل يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى منهج الحق مظلما
وبلاداً احبها ركنها قد تهدما
وخصوما ببغيهم ضجت الارض والسما
مرّ حين فكاد يقتله اليأس إنما
هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف خجلا من شجاعته

وربما تعود مكانة هذه القصيدة المرموقة في الشعر الحديث الى اسباب كثيرة ، في رأسها طرافة موضوعها ، إذ قلما عثرنا على قصائد أخرى عالجت موضوع الفدائي ، ولا ريب ان الشاعر استمد هذا الموضوع ايضاً من بيئة فلسطين ومن واقع احداثها ، فكانت تجربته اصيلة عميقة حية . ومن جهة اخرى نلمس في الفدائي ما لمسناه في الشهيد ايضاً من انطلاق الى الجو البطولي الشامل برغم ان المناسبة نفسها شديدة التخصيص والتفرد ، فهي ترتكز الى أن أحد

أحرار فلسطين المتحمسين آلى على نفسه اغتيال يهودي بريطاني سام العرب الأهوال، فكمن له وأطلق النار عليه . فمن ثنايا هذا الحدث الطارىء الذي يقع ما يشابهه في كل حين استمد طوقان جوهر البطولة والفداء .

وهكذا كانت قوافل الشهداء ومواكب الأبطال تتدافع في كل أرض عربية حيث تنطلق ألسنة الشعراء مع تدفق الدماء الزكية وخفقات القلوب المتحفزة ورفرفة الارواح الطاهرة لتسجيل آيات البطولة والاقدام في سفر التحرر والخلود ، وأصبح تساقط الاحرار صرعى في كل يوم موضوعاً يهز مشاعر الأمة ويفرض نفسه على الادب . ومن هنا كثرت مراثي الشهداء كثرة تفوق الحصر ، كما أضيفت إليها موضوعات البطوله والتضحية عامة منطلقة من نطاق الاحداث ومن حدود الزمان والمكان لتكون رمزاً شاملا ونبراساً وهاجاً للأجيال المتطلعة الى الحرية . ولسنا نطالب الشاعر في هذا الشأن أن يتسم في قصيدته بالاحاطة والتقصى وأن يعرف دائماً اسم الشهيد أو البطل وكيف ومتى كان مصرعه وفي أي أرض سقط ، ولكن عليه ان يستشعر استشهاده وينفعل به ويعيش مغزاه ثم يشيد به على أنه الشهيد المجهول الذي احتسب دمه من أجل تحرير وطنه .

٤

وثمة مظهر آخر لشعر البطولة والفداء في أدبنا الحديث نجده في عدد قليل من القصائد ولكنه يدل على ظاهرة إيجابية إنسانية . فمع أن حياة العرب في حاضرها وماضيها حافلة بالبطولات الفذة والامجاد المخضبة بدماء الضحايا ، فان استغراقهم فيها لم يقعد بهم عن تعشق البطولة واستجلاء آياتها أينما وجدت ولو كانت في قوم غير قومهم وأرض غير أرضهم . فقد لجأ خير الدين الزركلي الى تعريب قصيدة عن الفرنسية تحت اسم (الديدبان) أي الحارس وصور فيها

بطولة جندي يضحي بنفسه خلال الحرب الاولى لينقذ جيش قومـــه . والقصيدة طويلة تمتاز بطابع قصصي شيق ومنها قوله (١) :

بات يرعى الدجى وحيداً فريداً   حاضر القلب مصغياً يتفكر
لم يرعه في ظلمة الليـل إلا   وقـــع أقدام داهم يتحدر
فيلق إثر فيلق جاء يسعـى   في ظلام الليل البهيم تنكر
نبه القوم فاستطاروا خفافا   صـاح فيهم فاستقبلوه فأنذر
قال يا قوم يمموا النهر الاد   نى فان العدو إن حل دمر
فاذا بالخيام لا حيّ فيهـا   وإذا الديدبان لم يتقهقر
ويد كالحديد حلت عليه   ثم قادتـــه صاغراً فتصبر
سألوه عن جمعه أين ولى   فأضل القوم السبيل وحير
كذبوه وأبصروا النهر فانها   لوا عليه ضرباً وجلداً فأنكر
حاولوا خوضه فقالوا هـلم ـ   ـ انزل إليه فالغور بالخوض يسبر
همسوا بينهم لئن فاز خضناه   ـهُ وإلا فنحن بالعود أجدر
وقف الحارس الامين وقد فكر ـ   ـ في أمر قومـــه وتدبر
ثم ألقى بنفسه يوهم القو   م بأن السبوح في النهر يغمر
فاختفى عنهم وقد خفض الرأ   س وظلت آثار كفيه تبصر
خاطب النفس وهو في لجج الما   ء وفي قلبه اللظى يتسعر :
« إن أردت البقاء خاضوا إلينا   وابتغوا معشري بـكل مضمَّر
أو أردت الفناء هالهم الما   ء فكفوا وتابعوا المسير في البر
حبذا الموت في سبيل قبيلي   إنما المرء من يموت فيذكر »

وشبيه بهذا الموقف الايجابي من بطولة سائر الشعوب وتطلع الشعراء

---

(٢) ديوانه ٢٧

العرب الى المثل الاعلى للفداء ما نظمه كل من الشاعرين خليل مردم وبدوي الجبل حول شهيد القدس (إيرلندا) وقد أشرنا إليهما من قبل، وكتاهما تحكي قصة فتى إرلندي مكافح آلى على نفسه ألا يذوق طعاماً أو شراباً ما دام في وطنه احتلال أجنبي، وقد صور بطولته خليل مردم فقال (١) :

أبي رق الحيـاة فمات حراً ... وأبلغ نفسه في ذاك عذرا
وأقسم لا يكون حماه نهباً ... مباحاً أو يموت طوى، فبرّا
بميتته رأى إحيـاء شعب ... فأيقن أن بعـد العسر يسرا
إذا كلحت له زرق المنـايا ... تهلل وجهه وازداد بشرا

كما صور بطولة هذا الارلندي أيضاً بدوي الجبل إذ قال (٢) :

بسطت يديك بسطة أريحي ... فكانت من عطاياك الحيـاة
ولم تبخل بنفسك وهي علق ... متى بخلت بأنفسها الكماة
علوت بها عن الاعراض حتى ... تساوى الموت عندك والحياة

وفي قصيدة عمر أبي ريشة « جان دارك » تصوير أخاذ لآيات البطولة التي رفعت تلك الفتاة الفرنسية الى مصاف القديسين، وجعلت من قصة حرقها ورباطة جأشها وإيمانها بحق وطنها في الحرية أسطورة خالدة بين الشعوب.

وحين وقف البشر يرقبون ما يكون من أمر تلك الحرب الاخيرة الطاحنة وقلوبهم واجفة من الهلع كانت معركة (ستالنغراد) نموذجـاً رائعاً لبطولة الشعوب وصمودها ضد الطغيان، وقد اهتزت نفوس الجماهـير من جميع الشعوب أيما اهتزاز لما انبثق من ارض البـلاشفة من ضروب البسالة والاقدام؛ حتى إن شاعراً مثل علي محمود طه عرف بعزوفه عن كل ما لا يتصل بالغزل ينظم قصيدة في هذا الحدث البطولي ويجعلهـا في ديوانه « زهر وخمر » وفيها يخاطب « المدينة الباسلة » بقوله (٣) :

كم من (أخيل) فيهم لكنه ... رد المغير به وفك حصار
لم تجر ملحمة بوصف كفاحه ... لكن جرت بدمائه الانهار

---

(١) جريدة البرق البيروتية عدد ١١٢٧ وانظر ديوانه ١٥٩
(٢) ديوانه ١٨٥ (٣) زهر وخمر ٦٣

هو مهجةٌ فنيت بأرض معادها | ليتم غرس أو يطيب ثمار
هو موجة ذابت ببحر وجودها | كيما يثور بروحها التيار
إني رفعت بكم مثالا رائعاً | يُومى اليه في العلا ويشار
لشباب مصر وهم بناة حياتها | وحماتها ان حانت الاخطار
هذى مدينتكم وذاك صراعها | رمز لكل بطولة وشعار

ونحن نقع على ما يماثل هـذه الروح في عدد آخر من القصائد المشابهة وفي اشادة خليل مطران ببسالة (فتاة الجبل الاسود) . وكل هذه القصائد التي أوردناها للزركلي ومردم والجبل وعلي طه انما عبرت عن مضمون البطولة والفداء الذي استمده هؤلاء الشعراء من معين ناء عن الوطن العربي . ولهذا الامر دلالته اذ أن معالجة هذا الموضوع في ذاته تنم عن نزوع ملح في ضمير الشعراء نحو استجلاء آيات البطولة وتصويرها مما يصادف هوى في نفوس الشعوب العربية المتطلعة في معركة المصير نحو البطولات المثلى . ومن المرجح أن الزركلى لم يعرّب قصيدته تلك « الديدبان » لمجرد التلهي أو لقصده وجه الفن فحسب ، وأكثر ديوانه في الشعر القومي . كما أنه ليس من قبيل الصدفة أن يقع شاعران معاً على موضوع جزئى واحد ناء عن حياتهما وبيئتهما - وهو شهيد ايرلندا - لولا عامـل القصد والاختيار ، بل إن في ابياتهما ما يشير الى الربط والتجاوب بين كفاح الايرلندي وكفاح العربي . ومن جهة أخرى فان « علي محمود طه » حرص على عرض بطولة (ستالنغراد) وتمنى على قومه التحلي بمثلها ، ولم يفته أن يكبر بسالة فتيان (الفولغا) ليجعل منهم مثلا حياً لشبان النيل ، وليس للبطولة وطن .

أما مفهوم الاستشهاد فهو يتسم في الاصل بطابع ديني كأن يستحقه المرء بجهاده في سبيل الله .. ولكنه اكتسب طابعاً قومياً في العصور الحديثة وأخذ يستحقه كل حر يقضي في سبيل وطنه ، ومن هنا رأينا كلا الشاعرين مردم والبدوي يكبر بطولة ذلك الفتى الايرلندى ويعتبره شهيداً، وكأنهما يريان في تضحيته الرائعة إرضاء لله والوطن والضمير ، وهذا الامر يشير الى أن

النظرة الجديدة التي غلبت على الشعراء المعاصرين إنما هي نظرة القومية الصحيحة المتفتحة التي ترى في كل قومية مناضلة حليفة لها ، وفي كل بطولة أو تضحية تصدر عنها انتصاراً لها وشداً لأزرها .

٥

ولكن هل اقتصر الشعراء في تصويرهم آيات البطولة والفداء على أولئك الأبطال المجهولين والشهداء الأبرار الذين لقوا ربهم أو من كانوا يسعون الى لقائه ؟

الواقع أن ثمة جانباً آخر من الشعر الحديث برزت فيه الروح القومية وتضوعت منه رائحة البطولة ، ذلك هو ما نظمه الشعراء من قصائد الرثاء في عدد من زعماء العرب الذين ماتوا على فراشهم وكان لهم في حياتهم أثر كبير في حياة شعوبهم من أمثال الشريف حسين والملك فيصل وغازي وسعد زغلول وابراهيم هنانو .. وسواهم ممن وجد فيهم الشعراء أبطالا كبارا .

وقد شغلت مراثي الزعماء والعظماء حيزاً كبيراً من دواوين الشعراء . « وإذا كان الشاعر القديم يرثي الفقيد مرة أو مرتين إثر وفاته فان الشاعر الحديث قد اتخذ لنفسه سنة جديدة وهي رثاء الفقيد في يوم ذكراه من كل عام وإنما جاءته هذه السنة من محاكاته للصحف ، فقد كانت الحركة الوطنية بحاجة دائماً الى من يلقي في أتونها الوقود بين الحين والحين ليزداد الأتون لهباً فتزداد الشاعر قوة . وكان موت عظيم أو زعيم يقع من النفوس موقعاً أليماً ويزيدها بالوطن تعلقاً ، وإليه تلهفاً وحنيناً »[1] .

ولهذا كثرت قصائد الرثاء كثرة بالغة لدى الشعراء المعاصرين ذوي النزعة الاجتماعية وفيهم حافظ إبراهيم الذي قال :

إذا تصفحت ديواني لتقرأه   وجدت شعر المراثي نصف ديواني

(١) عبد اللطيف حمزة : الصحافة والادب في مصر ٩٢

وما ازداد شأن هذا النمط من الرثاء إلا نتيجة لارتباط الادب المتزايد بحياة العرب الحديثة ، بحيث أن جانباً كبيراً منه أخذ يشكل ظاهرة قومية بارزة في أدبنا الحديث . وطبيعي أن يبقى كثير من شعر الرثاء الطافح بالنواح بعيداً عن هذا الطابع القومي ، وأن يتحلى أيضا بهذه الروح القومية كثير من الشعر الذي قيل تمجيداً لمآثر الاحياء وبطولاتهم .

وهكذا فان صور الفداء وآيات البطولة لم تلتمع في نضال العرب الحديث الا من ظلال مأساتهم القائمة .

ومما يلاحظ في هذا المجال أن عامل الزمان المتقادم باطراد على أعمال أولئك الأفذاذ كان يساعد على ارتسام هالة واسعة حولهم من البطولة والاجلال والتضحية ربما كان مبعثها الوفاء لذكراهم والاعتراف بفضلهم ، وقد يكون الباعث على ذلك أيضاً ميل الفنان بصورة عامة الى إكمال الصورة الواقعية التي يسعى الى رسم ملامحها من فيض قريحته وذوب مشاعره ، ولعل الشعر من أكثر الفنون قبولا لهذه الظاهرة واتساما بها . كل هذا بالاضافة الى الباعث الأصيل في النفوس على تصوير هذه النماذج المثلى في التضحية والفداء .

٦

وإذا حاولنا أخيراً أن نستقري ما نظمه الشعراء المعاصرون من قصائد في موضوع البطولة والاقدام فاننا نلمس عنايتهم باستيحاء البطولات الخالدة من خلال تاريخ العرب الحافل . ومثلما وجدوا في الشهداء والابطال المعاصرين مادة غزيرة يغذون بها الشعر القومي وجدوا أيضاً في عظمة الأجداد من خلفاء وقواد وفاتحين .. معيناً لا ينضب . فقد نظمت قصائد كثيرة في عظمة الرسول العربي برزت من خلالها ملامح شخصيته الفذة وخصاله المجيدة وبخاصة في ذكرى

مولده الشريف أو هجرته المباركة . وقد نظم محمد عبد المطلب قصيدة مطولة في علي بن أبي طالب أسماها « العلوية » كما نظم حافظ ابراهيم من قبله قصيدة في ابن الخطاب وأسماها « العمرية » . وثمة قصائد أخرى كثيرة قيلت في عظماء العرب والمسلمين وتمجيدهم من نحو قصيدة أنور العطار في أسامة بن زيد وجيشه المظفر ، وقصيدة أحمد شوقي في صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، ومثيلتها في الموضوع نفسه لخير الدين الزركلي ، وكقصيدة « طارق بن زياد » لعلي محمود طه وقصيدة عمر أبي ريشة في خالد بن الوليد ، وسوى ذلك مما نظمه الشعراء المعاصرون في تمجيد بطولات أبي عبيدة وقتيبة وابن القاسم وصلاح الدين . هذه الخصال العظيمة والبطولات العريقة التي لاح وميضها من جديد في قوافي شعرنا الحديث كانت تبدو وسط هالة كبرى من ملامح الجو الملحمي الذي تبعثه في النفوس عظمة الأجداد ، وروعة أعمالهم . لقد كانت سير أعلام التاريخ العربي وأمجادهم أبداً رائد المجاهدين العرب ، ونبراسهم الذي يهتدون بهديه ، ومثلهم الأعلى في نضالهم المرير ضد الطغيان والاستعمار ، كما كان الشعراء يجدون فيما حولهم من طارف البطولات صورة رائعة من جهاد العرب التليد الذي غدا أعلامه رمزاً خالداً في ضمير كل عربي ، فاذا لامست أسماع شاعر عربي معاصر كالشاعر القروي أنباء ضروب البسالة التي أبداها أهل فلسطين استشف وراء كل فتاة من نسائها بنت الأزور ، ولاح له كل مناضل ابن شداد [1] :

فكل فتاة في فلسطين (خولة) وكل غلام في فلسطين (عنتر)

إن لمثل هذا التطلع نحو الاجداد واستيحاء بطولاتهم مغزى بعيد الدلالة في نفسية المجتمع العربي الحديث ؛ فهو يشير بقوة الى أن الجيل العربي ما زال الى اليوم يعي ماضيه وعياً كاملا على بعد العهد بينه وبين جدوده ، وما زال ماثلا في ذهنه كرم حاتم وشجاعة عنترة وحزم عمر وبأس علي وبسالة خالد وجهاد صلاح الدين وعظمة الرشيد ونبوغ المعري .

---

(١) ديوانه ٣٦٣

إن المفاهيم العربية الاولى التي كانت المروءة رائدها والشرف مقياسها والوفاء والكرم والنجدة والشجاعة أجنحتها ، وما أعقبها بظهور الاسلام من مزايا جديدة كاقامة العدل بين عباد الله والمساواة بينهم وحماية الضعيف وتحريرهم من ظلم القوى (١) .. كلها ما زالت ماثلة حتى اليوم في الجيل العربي أصيلة في نفسه ، راسخة في حياته . وإن قولة أبي الطيب قبل ألف عام :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

لا تكاد تختلف عن قولة شوقي في هذا العصر :

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

فالعربي باق على إبائه للضيم وتعشقه للحرية وذوده عن الشرف ، يعتصم بمثله العليا ويقدسها ، وهو بعد ذلك يحيا لها ويفنى في سبيلها .

ولكن هل في نزوع الفرد العربي الى المثل العليا ، وسعيه نحوها واستعداده للفناء في سبيلها ما يبعده عن طبيعة الحياة ؟ وهل في تصوير الشاعر الحديث لسجايا هذا الفرد والدعوة لما يؤمن به ما ينأى به عن الواقع ؟ أما الحياة فليست حياة الدعة ورخي العيش والرضى بالهوان ، وأما الواقع فليس مجرد نقل مألوف لسلوك الناس وما هم فيه من أكل وشرب ونوم ويقظة وغدو ورواح . عندما كان شاعرنا القديم يعجب بممدوحه ويصفيه أشعاره كان يسبغ عليه الخصال التي يؤمن بها العربي ويقدسها ويسعى جاهداً الى التحلي بها من مروءة وشهامة، وبأس وتضحية ، و كرم وشجاعة . وحين ينقم عليه كان يسلبه إياها ويجرده منها ، وحين يرثيه كان يفتقدها بعده ويندبها فيه ، ولم تكن هذه الخصال سوى المثل العليا التي طمح العربي الى بلوغها وذاب في حبها . البطولة ثورة والثورة قلب للواقع الفاسد ،وتمرد على حياة الذل،ونشدان لغد أفضل ، وتطلع الى قيم أسمى .

على أن شاعرنا الحديث لم يكن يسبغ على المناضل العربي ما ليس فيه ،

---

(١) انظر محمد المبارك ، الامة العربية ١٨٧

ويشيد بما لم يبلغه ؛ فلقد كتب العرب تاريخهم الحديث بدمائهم ، وفرش أبطالهم وشهداؤهم درب الحرية بجماجمهم ، ولم يكن من الشعر بعد ذلك إلا أن انفعل بأعمالهم ، وباهى بمآثرهم . ومن هنا حرص كثير من الشعراء على تصدير دواوينهم باهداء حار صادق يزجونه الى تلك الدماء الزكية والارواح الطاهرة والبطولات الرائعة ، وكأنهم في ذلك إنما كانوا يردون ذوب مشاعرهم وزبدة قرائحهم الى من أوحى إليهم أسمى العواطف النبيلة ، ومن ألهمهم آيات الفن الرفيع . ولقد كان وجدان الجيل العربي في فترة ما بين الحربين العالميتين أشد ما يكون تعطشاً الى مثل هذا الوقود الروحي لمشاعره القومية المتنامية ، وتطلعاً في طريقه الوعر ونضاله العاثر الى أروع آيات التضحية والبطولة . والفكرة - كما يقول أوغست كونت - هي التي تدفع الى العمل .

★ ★ ★

وبعد فتلك هي فصول متعددة حاولنا من خلالها في هذا الباب الاخير استجلاء الموضوعات الرئيسية التي كانت مدار الشعر القومي الحديث في فترة ما بين الحربين العالميتين . ولا ريب أن ثمة موضوعات أخرى كانت مدار اهتمام الشعراء ، وكان يمكن أن تندرج في هذا الباب وتتناول بالبحث والتحليل . إلا أنها لا تعدو أن تكون فرعية جزئية تنحصر في نطاق ضيق ولا تغني في رصد الاتجاه العام ، وجلاء التيار السائد .

أما هذه الموضوعات البارزة في الشعر القومي التي عرضنا لها خلال الفصول المنصرمة فقد كانت تتنوع وتختلف بتنوع واختلاف المناسبات والأحداث التي تستدعيها وتبعثها . وربما اختلط عدد من هذه الموضوعات اوكلها في قصيدة واحدة لأن الشعر القومي لا يخرج عن كونه نفثة وجدانية لا تتقيد بوحدة موضوعية

وهذه الموضوعات في الحقيقة لا تعبر عن فنون شعرية كما هو المألوف بين الفنون ، لكنها موضوعات تنصب من منحدر واحد وان تفرعت بعد ذلك شعابه .

لقد حمل الشعر العربي الحديث رسالته بدأب حين لبى حاجات المجتمع العربي ورغائبه ، وعبر عن اهتماماته ونوازعه ، فكان الصوت المدوي في وجه الغزاة المستعمرين ، والشوكة الواخزة في جنب الطغاة المستبدين . كما كان الحافز الفعال على النهوض والثورة والتحرر ، وخير بشير بالاخاء والتسامح ، وداعية الى الاتحاد والتضامن . وهو الى ذلك سفر آيات البطولة والفداء الرائعة خلدها للاجيال ، ومرآة صادقة لنضال العرب المرير في سبيل انتزاع الحق السليب الذي آمنوا به ولم يحيدوا قيد شعرة عن المطالبة به .

الخاتمة

رسالة الشعر القومي

انبثق الشعر القومي بانبثاق فجر النهضة القومية في القرن التاسع عشر ولكنه لم يكن إلا كأول الغيث . ثم أخذ ينهمر منذ اليقظة الدستورية . حتى إذا وقعت بلاد الشرق العربي في قبضة الاستعمار في الحرب العالمية الأولى دخل الشعر في طور جديد حين أخذ يواكب قضية التحرر القومي والمصير العربي . وقد اتسم منذ ذلك الحين بظواهر بارزة عامة نجملها فيما يلي :

ا ـ المضمون

١ ـ اتسم المفهوم القومي بالغموض والاضطراب شأن كل مفهوم اجتماعي في طور نشوئه ، ولم ينبجس صافياً أول الامر . فقد صحبته منذ ولادته في نفوس العرب منازع أخرى ذات جذور تاريخية عميقة أخذت تضفي عليه ألوانها حتى بات من العسير التمييز بينها وبينه في بعض الاحيان .

فالعروبة كانت تعني الاسلام لدى شطر كبير من الشعراء ، وكان هذا الاختلاط طبيعياً في تلك المرحلة حين كانت الدولة العثمانية في تكوينها الامبراطوري تضم شطراً كبيراً من المسلمين على اختلاف قومياتهم ، وكان العامل الديني يطغى على الأفكار القومية .

وكذلك كان المفهوم القومي العربي مغشى بالنزعة الشرقية التي انبثقت أيضاً تجاه أطماع الغرب في بلاد الشرق عامة . إلا أن هذا المفهوم الشرقي كان مترجرجاً في أذهان الشعراء يتسع حيناً ليشمل الشرق بجموع أممه وينحسر حيناً ليعني المسلمين أو يضيق حينا آخر ليقتصر على العرب وحدهم .

ثم أخذ المفهوم القومي الصحيح يتسم بالصفاء ويشق طريقه الى أذهان الشعراء إثر تعاقب الأحداث الجسام في الوطن العربي بعد أن اضمحلت النزعة الشرقية وخفت صوت الجامعة الاسلامية . ومع ذلك استمر المفهوم الشرقي في الشعر الحديث تبعاً لاستمرار المستعمر في تحكمه بالشرق ، كما استمر المفهوم الاسلامي معانقاً للفكرة العربية وداعماً لها .

ومن جهة أخرى تجلت في الشعر القومي خلال فترة عارضة من السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى ـ وبخاصة في مصر ولبنان ـ نزعات وطنية محلية اتسمت بالحرص على إبراز كيان خاص بها نتيجة دوافع سياسية واجتماعية ونفسية ، كانت برغم تطرفها في بعض الاحيان ذات أثر في تعميق المشاعر الوطنية ورفد الاتجاه القومي .

كذلك كانت النزعة الانسانية الحقة التي تجلت في عدد ضئيل من القصائد ـ بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها العرب ـ تتضمن تعاطفاً شاملاً مع آلام الشعوب الاخرى وسمواً بالاحداث القومية الطارئة الى أجواء الانسانية الرحيبة .

وهكذا فان الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية والنزعات الوطنية المحلية والعاطفة الانسانية كانت جميعاً روافد مختلفة الألوان انصبت على التيار القومي فأكسبته قوة وتدفقاً ومضاء .

٢ - وقد تجلت عناصر القومية العربية في الشعر الحديث بالحاح الشعراء على وحدة الأصل العربي ووحدة اللغة وماضي العرب المجيد وتاريخهم الحافل، وعلى آلامهم وآمالهم المشتركة ونزوعهم الشديد نحو وحدة أقطارهم وشعوبهم. فمن حيث وحدة الاصل تجلى في الشعر حرص العرب على اتصال نسبهم المادي أو المعنوي بأجدادهم والمباهاة بقحطان وعدنان وكندة وربيعة واعتبار العروبة رابطة قرابة وشيجة وأن أفراد الشعوب العربية ليسوا إلا أبناء عم أو أشقاء.

وكانت رابطة اللغة العربية أقوى هذه الروابط القومية تبعاً لكونها لغة التراث العريق ولسان القرآن المبين وأداة التفاهم بين شعوب العرب على اختلاف اقطارهم. وقد اتسم شطر من القصائد التي قيلت في هذا الشأن بطابع الجدل بسبب تعرض لغة الضاد لهجمات كثيرة من المتفرنجين ودعاة العامية وبخاصة في مصر والمهجر، كما اتسم الشطر الآخر بكثير من روح الزهو والافتخار.

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يلوذ الناس وفي مقدمتهم الشعراء بماضيهم الحافل في مثل هذه الفترات من البعث القومي وأن يطمحوا الى استعادة أمجادهم السالفة والاعتداد بتاريخهم المجيد جاعلين من ذلك كله حافزا لتقدمهم ونهوضهم. والعرب بطبيعتهم أمة محافظة شديدة الوعي لماضيها. وكم أعرب الشعراء في قصائدهم عن اعتزاز لاحد له بوقائع العرب وانتصاراتهم الحاسمة، وكم تغنوا بعظمة الأمويين والعباسيين معتبرين إياهم مثلهم الأعلى الذي يطمحون الى بعثه. لقد كان هذا الماضي الحافل والتاريخ المجيد بمثابة النسغ الذي حفظ للعرب ثقتهم بأنفسهم وضمن لدوحة العروبة البقاء.

أما حاضر العرب وواقعهم الذي حفل بالآلام والآمال في تلك الفترة من حياتهم بين الحربين العالميتين فقد كان أشبه بأتون مشتعل تلتهب فيه النفوس وتصطرع الاحداث. وبلغت الحياة السياسية والقومية مرحلة من الاضطراب لم يعد بوسع الاديب العربي مهما أن يكون بمعزل عما حوله. وتبين لكل ذي عينين ان

مصاب العرب واحد في ابتلائهم بعدو واحد هو الاستعمار . فقد ألف الجرح بينهم ولم المصاب شعثهم فازدادوا تقارباً وشعروا بقوتهم مجتمعين . وكان شعراء كل قطر يهتمون بأحداث القطر الشقيق الآخر ويحملون من قضيته قضيتهم . ولم يكن هذا الحاضر المشترك بما ينطوي عليه من آلام وآمال إلا رافداً كبيراً يعزز ماضي العرب العريق .

وأما الوحدة العربية فقد كانت أمل العرب عزف الشعراء على قيثارتها أصفى ألحانهم بعد أن أدركوا أن أزهى أيام تاريخهم كانت إبان اتحادهم . وكانت الثورة العربية الكبرى أجرأ محاولة في هذا السبيل وقد قيل فيها شعر كثير ظل يفتقد الوحدة العربية ويدعو إليها باستمرار . ومع أن الحدود بين أقطار العرب اكتسبت الصفة الدوليه وغدت أمراً واقعاً إلا أن الشعراء كانوا بالاجمال في طليعة من أنكروها وتجاهلوا أمرها . وبرغم أن قضية التحرر القومي كانت القضية الأولى التي استأثرت باهتمام العرب فان الشعراء مع ذلك لم يحيدوا عن تعلقهم بالوحدة المنشودة .

٣ ـ وقد تبين لنا من خلال استقراء الشعر القومي أنه كان ينطوي على موضوعات كبرى انبثقت من واقع العرب القومي وحياتهم السياسية ، من مثل ما صدر عنه الشعراء من مناضلة للاستعمار وتنديد بالمحتلين وكشف زيف معاهداتهم ووعودهم والتشهير بفظائعهم ودسائسهم والتهكم بديمقراطيتهم ومدنيتهم . وكان لهذا الشعر دور فعال في معركة التحرر التي خاضتها العرب بقوة خلال تلك المرحلة من حياتهم .

وكان التنديد بالاستبداد وفساد الحكم وجهاً آخر من وجوه النضال الذي خاضه الشعر القومي أيضاً . فقد تصدى الكثيرون من الشعراء بلا هوادة للمتزعمين والحكام وكشفوا عن خبيئة نفوسهم وفضحوا أمر تواطئهم مع الاجنبي . لقد نددوا بالملوك والطغاة والحكام الفاسدين وسخروا بالحكومات التي كانت ظلا للاحتلال والمجالس النيابية المصطنعة والانتخابات المزورة . وبكلمة واحدة

كان الشعر القومي من هذه الزاوية شوكة في جنب الطغاة والمستبدين ومن لاذوا بالاجنبي ورضوا أن يكونوا له أذنابا .

وانصب كثير من الشعر القومي أيضاً على استنهاض الهمم وتنبيه النفوس؛ إذ اتخذ الشعراء مواقف الريادة في الحض على الثورة وقيادة الرأي العام العربي ضد الفساد الداخلي والطغيان الاجنبي ، وكان العنفوان والتمرد والجرأة الطابع الاول في هذا الشعر .

كما كان الحث على التضامن والتبشير بالتسامح موضوعا رئيسياً في الشرق العربي الذي استشرى فيه التعصب الطائفي والتفرقة الحزبية مما كان يفت في عضد العرب . وقد كثر القول حول هذه الادواء وبخاصة في مصر ولبنان . وتغنى الشعراء من جهة أخرى في كل مناسبة بالوئام والاتحاد بين عناصر الشعب وكانوا بحق رسل الاخاء والمحبة والسلام .

وكان طبيعياً في مثل هذه المرحلة من حياة العرب الحافلة بالاحداث والمليئة بالنضال أن يستأثر موضوع البطولات والتضحيات باهتمام الشعراء الى حد كبير وأن يهز مشاعرهم ويلهب قرائحهم استبسال الاحرار وسقوطهم صرعى برصاص الاعداء ذودا عن كرامتهم واستقلال وطنهم ، وقد استطاع بعض القصائد في هذا الشأن أن يسمو الى منزلة رفيعة بفضل الجو الملحمي الذي اتسم به . وكان هذا الشعر خير حافز لمشاعر الامة وهاد لها في طريق الكفاح المرير . وطبيعي أن يكون الرثاء مظهر كثير من هذا الشعر إلا أنه رثاء بعيد عن النوح والبكاء فيه إباء وتجلد ، وفيه ثورة وعزم على الثأر .

وبالاجمال فان الشاعر في معالجته هذه الموضوعات لم يكن يقتصر على شؤون قطره فحسب بل كان يهتم بسائر أجزاء الوطن العربي ، فقد صهرت وحدة القضية مشاعر الشعراء بحيث لم يعد من اليسير التمييز بين ما يقوله شاعر في العراق وما يقوله شاعر في مصر أو آخر في لبنان . وكان هذا الامر أسمى مظاهر الوحدة الفكرية والثقافية بين الشعوب العربية .

ب ـ الشكل

أما من حيث صياغة الشعر القومي وطابع أدائه الفني فقد اتسم بأكثر ما اتسم به الشعر العربي القديم من خصائص من حيث عبارته وتناوله الفني وعناصر مبناه وأوزانه وقوافيه . وكان الشعراء في فترة ما بين الحربين يحرصون على أن يسيروا في الطريق الذي سار فيه أجدادهم من قبل ولم يكادوا يحدثون في الشعر حدثاً جديداً .

لقد كانت مرحلة البعث التي عاشوها والمحن التي لاقوها تشدهم بقوة الى كل ما يتصل بتراثهم وما يذكرهم بأجدادهم . والاسلوب التقليدي بلغته الفصحى لغة القرآن ولغة نبي العرب كان في ذاته ظاهرة قومية اتسمت بالاجلال والتقديس، فلم يكن من الممكن أن يصدر عن الشعراء أي نزوع جاد نحو قطع الصلة أو إضعافها بذلك التراث العريق في مثل هذه المرحلة من حياة العرب .

ومن هنا كانت لغة الشعر والخطابة فصيحة بالاجمال حتى في مخاطبة الجماهير مع أن العامية أقرب الى أذهانهم ، فقد أعرض الشعراء والخطباء في الموضوعات القومية عن اللهجات المحلية ولم يكن للزجل والشعر الشعبي دور كبير في بث المشاعر القومية في حين كان له شأن في مجال الوصف والغزل والوجدان الذاتي .. وهكذا كان بعث الاساليب العربية الصافية والنسج على منوال الاجداد جزءاً من حركة البعث الشاملة .

لقد ظل التيار التقليدي إطاراً حياً للمضمون القومي الجديد لانه يرمز لقومية أصيلة ويمثل ثقافة تقليدية راسخة وذلك بالرغم من اختفاء عمالقته أمثال البارودي وشوقي وحافظ والرصافي والزهاوي . والتقاليد أطول المعنويات عمراً وأشدها مراسا .

وإن التجديد على أساس من القديم أو التعبير عن موضوعات جديدة بعبارات قديمة أو كالقديمة كان خطوة محدودة ومتئدة لكنها منسجمة مع حال العرب في تلك الفترة من حياتهم القومية فترة البعث والتكوين .

ومن الملاحظ ان اكثر الشعراء الذين عاشوا بين الحربين وعالجوا الشعر القومي ينتسبون في الغالب الى مدرسة بلاغية واحدة هي مدرسة الفصاحة والعبارة المشرقةوالافظ الجزل والموسيقى الواضحة . وكان أكثرهم أيضاً بعيدين عن الاتصال المباشر بثقافة الغرب وآدابه وتياراته الفكرية باستثناء ما اطلعوا عليه منقولا فى العربية ، أما الثروات الادبية الحقيقية في اللغات الاجنبية فقد كانت مغلقة عليهم .

لقد كان سلطان القديم على الشعراء قوياً في العبارات وفي الصورة وفي هيكل القصيدة وسمات أسلوبها ، وكان يزداد قوة كلما كانت المرحلة قريبةمن فجر البعث والنهوض القومي . ومما تجدر ملاحظته تبعاً لذلك أن المتصمين بالنهج التقليدي من الشعراء كانوا بالاجمال اقوى عروبة وكأنهم يؤكدون بذلك من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون تعلقهم بهذه الانماط الادبية الاصيلة التي هي في الواقع من أهم مقومات القومية العربية ويحرصون على دوام الصلة بالتراث العربي وبعثه من جديد .

وثمة سبب جوهري آخر حد من تأثر الشعر القومي بالآداب الغربية وهو أن هذه الآداب في الغالب لم تعرف أصلا الشعر القومي من حيث أنه موضوع بارز من موضوعات الادب ، ولم يكن لمثل هذا اللون من الشعر حيز واضح لدى معظم الاوربيين لانهم لم يبتلوا بالاستعمار . إن الشعر القومي نمط من الأدب اقتضته طبيعة الحياة العربية الحديثة وظروفها في فترة معينة من الزمان . وهو نابع من اعماق الذات العربية ومعبر عن المنازع الاصيلة للمجتمع العربي .

على أن المضمون في الشعر القومي كان متسقاً مع مشاعر العرب بل رائداً لها في كثير من الأحيان . إلا أن العبارات القديمة التي آثرها الشعراء للتعبير عن أفكارهم ومنازعهم الجديدة لم تكن في الغالب لتستطيع أن تطابق حقيقة تجاربهم وبالتالي نقلها . وإذا كان بعض الشعراء الكبار قد ورثوا ثورة لغوية كبرى واستطاعوا أن ينموها وأوتوا موهبة وافتناناً ، فان كثيرين غيرهم لم يكن في طاقتهم ذلك فبقوا في حدود ما توارثوه من زاد لغوي يدورون في فلكه ، وهكذا توارت الاصالة تحت ركام التقليد وتضاءل الابداع وافتقد كثير من الشعر القومي الحرارة والصدق الشعوري وقوة الايحاء حتى آل بعضه الى العقم وران عليه جفاف النظم والرتابة والنثرية والتقريرية . وهذه الظاهرة نتيجة طبيعية إذا طالت فترة البعث وغدت حالة مستمرة لا مجرد مرحلة .

ولكن الأمر أخذ يتجه سريعاً نحو التبدل في أعقاب الحرب العالمية الثانية بعد أن خفت وطأة السلبية في أدب العرب وفي حياتهم إثر انحسار الاستعمار عن جزء كبير من أرضهم . وغدا من اليسير بعد ذلك أن تهب رياح التجديد قوية على الشرق العربي الذي أخذ يطل على العالم ويغترف من مختلف ينابيع النشاط الانساني . (١)

★ ★ ★

هل لنا بعد ذلك أن نطرح في خاتمة المطاف على أنفسنا هذا السؤال فنقول : هل أدى الشعر العربي رسالته في هذه المرحلة من حياة العرب الحديثة ؟

لا شك أن الجواب على ذلك أصبح يسيراً بعد كل ما تقدم ، إلا أنه لن يكون على كل حال قاطعاً بنعم أو بلا ، وإنما هو في الواقع بين بين . والحق

(١) سنتبع هذا الكتاب كتاباً آخر «شعرنا القومي في الميزان» نعرض فيه بالنقد والتحليل لجانب الشكل والأسلوب في قصائدنا القومية .

أننا نظلم الشعراء إن قلنا إنهم لم يستطيعوا حمل الرسالة ولم يؤدوا واجبهم تجاه أمتهم . كما أننا نظلم هذا المجتمع العربي إذا ذهبنا الى أن الشعراء فيه قاموا بواجبهم نحوه على أتمه .

وما من شك في أن ما مر بنا خلال هذا البحث يسمح لنا بأن نقول إنه كان للشعر دور فعال في تفتيح النفس العربية وإضاءة زواياها بنور الوعي القومي الصحيح .

لقد كان لتطورات السياسة التي هزت العالم العربي أثر بعيد في حياته الأدبية بل إن الشعر القومي نفسهُ كان وليد تلك المرحلة الحاسمة من حياة العرب، كما انه أثر من جهة أخرى في هذه التطورات وأسهم في خلقها . ولكن علينا أن نعترف أيضاً بأن أحداثاً كبرى ألمت بالشرق العربي كالثورة العربية إبان الحرب الأولى ثم ثورة مصر في أعقابها ثم ثورات فلسطين بعد ذلك ،ولكن ما قيل من شعر في هذه الأحداث التي هزت أعماق المجتمع العربي لم يكن في مستواها .

ولعل السر في أن الشعر العربي لم يستطع أن يؤدي رسالته القومية كاملة نحو المجتمع العربي أنه كان بالاجمال شعراً منفعلاً قبل أن يكون فاعلا ، يستوحي ولا يوحي . صحيح أن التأثير كان متبادلا بحيث أثر الشعر في سير الأحداث وأثرت الأحداث بدورها في طبيعة الشعر ، إلا أنه من الملاحظ أن القصيدة القومية التي تفجرت في نفس الشاعر العربي في هذه الفترة الصاخبة من حياة أمته كانت قصيدة صاخبة أيضاً وتأثرت بصخب تلك الأحداث نفسها ، وهذا طبيعي في مرحلة مضطربة اتسمت بكثير من سمات التوتر والحماسة والانفعال وكان مصير العرب خلالها في كفة القدر . ومن هنا كان الشاعر العربي منفعلا في أكثر الأحيان يتأثر قبل أن يؤثر ، وكانت الاحداث والوقائع هي التي تنبط الشعر من نفوس الشعراء ، وبالتالي هي التي تخلق الادباء وتنضجهم بنارها وتجعلهم ثمرة لها .

وقد يكون في سرعة تتابع الاحداث التي مرت بالشرق العربي في هذه الفترة الوجيزة الواقعة بين الحربين العالميتين ما استبق مبادرة الشعراء الى الاسهام في خلقها والتأثير في مجراها ، فلم يبق آخر الأمر في نفوسهم سوى ردود فعل تجاهها .

وتبعاً لانجراف الشعراء في تيار السياسة انحرف رهط منهم في مضمونه عن وجدان أمته وخرج عن محور مشاعرها وأمانيها وكان شعرهم كالبقعة السوداء في الثوب الناصع . كما وجد شعراء (امّعات) اتخذوا من الشعر سلعة وجعلوه بوقاً لأولي الامر ، فاذا هو صورة شائهة للحياة القومية . كما اتسم كثير من هذا الشعر أيضاً بسمات شعر البلاط القديم وانطوى على استخذاء ممجوج تأباه روح العصر . وقد شاع نظم القصيدة السياسية حتى غدت أشبه بالمقالة الصحفية .

وطبيعي من جهة أخرى أن تكون السلبية طابع أكثر ما مر بنا من شعر قومي إذا لاحظنا أن حياة العرب السياسية كانت كلها مطبوعة بهذا الطابع من مثل مناضلة الاستعمار والتنديد بالاستبداد والحض على الثورة وشجب التفرقة والطعن على الطائفية . فقد كان على الشاعر العربي فى تلك المرحلة أن يجعل من قوافيه سهاماً يصوبها نحو كل ما يراه من فساد ، وأن يتخذ من شعره معولا يهدم به أعشاش الشر . والهدم ضروري للبناء وهو أيضاً طبيعي في معركة التحرر القومي . ومع ذلك كانت الى جانب السلبية الحادة إيجابية بناءة لم تقتصر على وصف البلاء وتشخيص الداء بل تجلت فيها الدعوة الى الوحدة العربية وإشادة صرح الوطن العربي والتبشير بالاخاء والسلام والاتصال بكثير من قيم الحياة المشرقة .

ولكن ما مدى ارتباط الشاعر العربي الحديث بوجدان قومه الجماعي ؟ لا شك أن عدداً متزايداً من الشعراء أخذ يربو على مر السنين ويبشر برسالة التحرر القومي نحو أمته ، ومع ذلك كان ثمة شعراء أشبه بالزهاد والرهبان هم في

واد وأمتهم في واد ، لا يعرفون من أمر رسالة الحياة سوى محراب الفن المجرد . ومنهم أيضاً من كانوا (لا أباليين) تتراقص ألسنة اللهيب في بيوتهم وكأن الامر لا يعنيهم . ومنهم من كانوا انهزاميين تواروا عن المعترك وآثروا السلامة في أشد ساعات الخطر على قومهم ، ومنهم أخيراً من كانوا انتهازيين آثروا الجعجعة والمتاجرة بمشاعر قومهم وتطفلوا على الفن الصحيح فكانوا كخضراء الدمن .

أما شخصية الشاعر العربي ومذهبه في شعره فلم يبد فيهما الوضوح والاستقرار دائماً . ومع أن عدداً من الشعراء اهتدوا الى الطريق السوي الذي اختاروه فساروا فيه قدماً ، فان الى جانبهم أيضاً فئة أخرى وقفت على مفترق الطرق لا تدري الى أين المسير ، أو أنها كانت تحاول السير من هنا حيناً ومن هناك حيناً آخر . وهذا ما أدى الى توزع الشخصية الفنية لبعض الشعراء وتبدد اتجاهاتهم المتباينة حتى إن بعضهم كان في دواوينه الكثيرة أشبه بدائرة معارف شعرية ، فتارة يهوّم في أرجاء الطبيعة والسماء ممتطياً جبال الاولب ، وحيناً يتجه اتجاهاً اجتماعياً أو قومياً وينغمس في حمأة الاصطراع السياسي .

وكما تعايشت هذه الموضوعات المتباينة في قرائح بعض الشعراء تعايشت في حياة العرب الادبية أيضاً مذاهب ومفاهيم شتى ؛ فكان الشعر الوجداني الحالم المسرف في ذاتيته ، وكان الى جانبه الشعر القومي والاجتماعي المغرق في جماعيته . وكما عاش المجون والزهد والهزل والجد في أدب العصر العباسي عاشت في عصرنا هذا الرومانسية الى جانب الواقعية . وقدتبقى هذه الظاهرة الادبية في حياة العرب دون أن تكتب الغلبة لاحداهما لان كلا منها إنما تلبي حاجات نفسية غلابة في ضمير الفرد والجماعة وتستند الى فلسفة راسخة في الحياة .

وليس معنى الشعر أن تقتصر مادته على الدماء والجثث والمدافع والسيوف والثورة والمنفوان لان الشاعر إنسان قبل كل شيء وهو لا يستطيع أن ينسلخ عن أحلام الانسان وأهوائه وميوله ومخاوفه ورغائبه .

قد لا يستسيغ ذوق العصر شطحات الرومانسيين ومع ذلك ليس من حقنا أن ننكر عليهم حريتهم في فنهم لان « الشعر - كما يقول إمرسن - عقيدة ، وأبعد الناس عن الشعر من ينظمون في موضوع ما عن غير عقيدة » ومن الخطل أن نطلب الى أديب أن يفعل كذا وأن نقول له كن شاعراً قومياً أو كن عاطفياً ذاتياً . لان الحياة هي التي تفرض عليه ذلك . وهو إن لم يعبر عن المنازع الحية المتجددة تخلف عن التطور وانعزل عن الحياة .

لندع الازهار جميعاً تتفتح ولندع أمرها بعد ذلك للوجود والعدم ؛ فمنها ما يذبل ويعود الى التراب ومنها ما ينفحنا بعاطر شذاه ويؤدي رسالته التي خلقته من أجلها الحياة .

***

وبعد ما مستقبل الشعر القومي في أدبنا العربي ...؟

قد يكون هذا الشعر طوراً من أطوار حياتنا الادبية ينتهي بانتهاء الظروف التي أسهمت في خلقه ، ولكن الذي لا ريب فيه أنه في ماضيه وحاضره كان غطاً من الادب اقتضته حياة العرب وواقعهم ، إنه فن أصيل انبثق من صميم وجدان العرب وطبيعة حياتهم ، وأخذ مكان الرائد في كفاحهم ومعركة مصيرهم .

ولقد آمن الشعر القومي بمستقبل الحياة العربية وسار في طريق الواقعية ولم يكن ليؤمن في ذلك بأن الاستعمار والاستبداد حكم الاقدار على الشعوب وإنما هو بلاء ينبغي أن يجتث ويجب أن يستأصل ، كما لم يعد يؤمن بأن الشعوب رعية يتصرف بمقدراتها الرعاة وإنما هي سيدة الوجود عليها أن تخط تاريخ حياتها بدمائها لتقرر بنفسها مصيرها وتصنع بيدها قدرها .

إن أمة تسير في طريق التكوين وتشق لنفسها دروب الحياة لتخلق وجودها القومي الصحيح وتبني كيانها الانساني الوطيد لا بد أن يكون

لها أدب ينبثق عن تطورها واضطرابها ويتجاوب مع رغباتها وأمانيها ويكون هو أبرز مظاهر تفتحها وانطلاقها .

وأنى للحياة القومية أن تومض اذا لم يتغن الشعراء بأنداء فجرها ، ويغمس الكتاب أقلامهم بعرق نضالها ، ويستلهم ذوو الفكر والفن مقومات نتاجهم من صميم طبيعتها .

وإن الشعراء ، هذه الصفوة الرائدة في الامة بما حباها الله من إرهاف الحس وصدق الحدس ، أقدر على استبطان ضمير المجتمع والوقوف على دخائل وجدانه وتفهم ما يعتلج في أعماقه من اتجاهات ومنازع . وهي بعد جديرة إذا اتسمت بذلك كله أن تقف على مكامن الداء ومواطن العجز في مجتمعها المتوثب ثم تصدر في نتاجها عن كل ما يحمل اليه من عناصر الخير والفلاح وعوامل التقدم والازدهار .

والاتجاه القومي في الشعر الحديث يدور أيضاً في مساره ضمن فلك أرحب ليسهم إسهاماً فعالا في بناء عالم متحرر من آفات الاستعمار ومآثم العدوان ونزعات الطغيان ، وفي حماية الحضارة الانسانية وتنميتها .

فهذا الشعر إذن يبرىء نفسه من كل ما يشوبه أو يعلق به من وصمة التعصب ولوثة الطائفية وآفة الاقليمية وبدعة العنصرية . إنه في قوميته ينطوي في جوهره على رسالة إنسانية تؤكد وجود العرب وحقهم في الحياة والحرية . وهو إذ يبشر بهذه الرسالة في أمة من الامم انما يجتزىء ذلك من الرسالة الكبرى التي تتكاتف أمم الارض لحملها . وبذلك ينير بشعلته الوهاجة بعض الزوايا المظلمة في المجتمع الانساني الواسع .

وما الشعر القومي الذي كنا بصدد دراسته ورصد مساره الا تعبير جميل وموح عن تجارب الشاعر العربي ممتزجة بتجارب أمته ومستمدة من حياة

مجتمعه . انه اعراب عن عزم ونضال من أجل حرية العرب ووحدتهم، وقطعة تنبض بالحياة من تراثنا القومي الحافل .

أما أولئك الشعراء الذين نزلوا بذلك الفرع المورق من دوحة الادب الى صميم المعركة القومية بعد أن كان حبيساً في بلاط الخلفاء وقصور الامراء يغرد في أقفاص الذهب ويرسل أنغامه من أبراج العاج فقد طووا بين جوانحهم شعور امة وكانوا عنوان نضال الشعوب العربية ورمز كفاحها ولسانها الناطق وقلبها النابض وصوتها المدوي . وان القومية العربية تستوجب على ابنائها البررة حق الوفاء لمن عملوا على رفع شأنها وتحقيق وجودها وتوطيد دعائمها ، ومن كانوا مرآة صادقة لعصرهم ومصدر الهام وتوجيه لمواطنيهم وترجماناً لهم في آمالهم وآلامهم .

وبعد . لقد كانت القومية العربية موجة من موجات التقدم البشري ، ودعوة الى الايمان بالنفس ، والعمل في سبيل الخير والحق والحرية والسلام حملت على اجنحة الشعر والادب والفن .

آراء واصداء

حول الطبعة الأولى من هذا الكتاب

« في المعهد العالي للدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ناقشت لجنة مكونة من الاساتذة الدكتور اسحق موسى الحسيني والدكتور محمد خلف الله احمد والدكتورة سهير القلماوي الاستاذ عمر الدقاق عضو البعثة الدراسية السورية في المعهد في رسالته المقدمة للماجستير عن (الاتجاه القومي في الشعر المعاصر) . وفي النهاية أجازت اللجنة رسالته وأثنت عليه ومنحته الماجستير بدرجة ممتاز وأوصت بنشر رسالته .

ولاهمية هذه الدراسة سجلت (صوت الشرق) تلخيصاً وجيزاً للرسالة لتقريب موضوعها الى القارىء العربي المعنى بشؤون الادب ...»

مجلة « صوت الشرق » القاهرة : (مايو) أيار ١٩٦٠

★★★

« صدرت دراسة جامعية جدية عن (الاتجاه القومي في الشعر المعاصر) بقلم عمر الدقاق مفتش اللغة العربية . والدراسة بحث جامعي نال به صاحبه درجة الماجستير من معهد الدراسات

العربية العالية ، وطبع في جملة مطبوعات المعهد تقديراً لما في البحث من إحاطة وجهد علمي »

مجلة « الجندي » ـ دمشق : ٧ آب ١٩٦٠

***

« صديقي ...

فرغت اليوم من مطالعة كتابك القيم (الاتجاه القومي في الشعر المعاصر) معجباً بجلدك واحاطتك ، مستمتعاً بكثير من الاطايب الشعرية التي دلت باختيارها على رهافة حسك وسلامة ذوقك . ولم يفتني ـ ولساني ينثر الثناء على قلمك الصناع ـ ما رصعت به أبحاثك الشائقة من فقرات ، عدا عن إصابتك بها كبد الحقيقة فهي آية في البساطة والمعنى الجميع بيد أني آسف أن كتابك النفيس لم يسلم من أخطاء مطبعية غير قليلة ، مما يدل على ضعف المسؤولية عند المنضد والطابع واستصغارهما الاثم الأدبي الذي يقترفانه بحق المؤلف ؛ فان تشويه العبارة الجميلة لا يكاد يختلف عن تشويه الوجه الحسن ، أو هو ضرب من تجريم البريء واعدامه الحياة ...

أدعو لك الله تعالى بأن يمنحك الفرص الطويلة السعيدة لتخرج العديد من مثل هذا المصنف المفيد ... والسلام عليك من صديقك المخلص :

الشاعر القروي « رشيد سليم الخوري »
جبيل ٥ تشرين الثاني ١٩٦٢

***

« ... لا أظن أن عصراً من العصور الشعرية في الادب العربي كان أوفر غنىً ، وأكثر قولا من هذا العصر الذي ترك في خزانة الشعر قصائد كثيرة ، ودواوين عدة تسجل هذه الفترة الملأى بالاحداث والوعي القومي والتفتح العربي .

وكما قال في المقدمة صاحب هذه الدراسة (لم يعد المجتمع الحديث بجيله الثائر يرضى للشعر ان يكون كالآنية المرصعة تسحر الناظرين برونقها . فالعربي اليوم بما اتسم به ذوقه وتفكيره من معالم الاصالة والوعي يطمح الى أن يجد في الادب صدى وجدانه وحياته وواقعه . كما لم يعد بوسع الادب العربي أن يستمر في عزلته المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه ، دون ان يساير الحياة وأن يؤثر فيها ويتأثر بها ..)

حقاً ، ان في هذه الدراسة الوافية جهداً مشكوراً عاني فيه المؤلف كثيراً من عناء جمع الشواهد المتفرقة ، وعناية الدراسة ، حتى غدت هذه الدراسة بحق مرجعاً أميناً وافياً ، تتجاوب فيه خفقات الشعر القومي ، وضرباً أميناً من ضروب الدراسة الموضوعية التي تنأى عن التحيز والعصبية ، وهي بذلك تبقى مثلاً من أمثلة الدراسة المتجردة الامين الحقيقة »

من مقالة نقدية : خليل الهنداوي
مجلة « المعرفة » دمشق : أيار ١٩٦٢

آ ـ المصادر (الدواوين)

ابو ريشة ـ عمر	ديوانه	المصر الجديد	حلب	١٩٣٦
ابو ريشة ـ عمر	ديوانه	الكشاف	بيروت	١٩٤٧
ابو شادي ـ احمد زكي	(مصريات)	السلفية	القاهرة	١٩٢٤
ابو شادي ـ احمد زكي	(مفخرة رشيد)	السلفية	القاهرة	١٩٢٦
ابو شادي ـ احمد زكي	(وطن الفراعنة)	السلفية	القاهرة	١٩٢٦
ابو ماضي ـ ايليا	(الجداول)	الزهراء	النجف	؟
ابو ماضي ـ ايليا	(الخمائل)		بيروت	؟
ابو الوفا ـ محمود	(اشواق)	مصر	القاهرة	١٩٤١
الاخطل الصغير	(الهوى والشباب)	المعارف	القاهرة	١٩٥٣
ارسلان ـ شكيب	ديوانه	المنار	القاهرة	١٩٣٥
الاسمر ـ محمد	ديوانه		القاهرة	
الاسمر ـ محمد	(تغريدات الصباح)	دار المعارف	القاهرة	١٩٤٦
الاميري ـ عمر بهاء	(في بلادي)، (رجال واشباه) مخطوطان			
البارودي ـ محمود سامي	ديوانه	جزءان	القاهرة	٥٢ـ١٩٥٣
البارودي ـ وجيه	(بيني وبين الغواني)	الحضارة	طرابلس	؟
بحر العلوم محمد صالح		الراعي	النجف	١٩٣٧
البحيري ـ حسن	(ابتسام الضحى)		القاهرة	١٩٤٦
البستاني ـ وديع	(الفلسطينيات)		بيروت	١٩٤٦
بدوي الجبل ـ (محمد سليمان الاحمد)	ديوانه	العرفان	صيدا	١٩٢٥
التقي ـ اديب	ديوانه	ط ابن زيدون	دمشق	١٩٣٢
التل ـ مصطفى وهبي	(عشيات وادي اليابس)		عمان	١٩٥٤
الجارم ـ على	ديوانه	٤ أجزاء	القاهرة	٣٩ـ١٩٤٧
الجر ـ شكر الله	(الروافد)		ريودوجانيرو	١٩٣٤
الجندي ـ على	(اغاريد السحر)		القاهرة	؟

الجندي ـ علي	(الحان الاصيل)	الاعتماد	القاهرة	١٩٥٠
الجواهري ـ محمد مهدي	ديوانه	٣ اجزاء	بغداد ٤٩ و٥٠ و١٩٥٣	
حافظ ابراهيم	ديوانه	جزءان دار الكتب المصرية	القاهرة	١٩٣٧
الحامد ـ بدر الدين	ديوانه	ط الاصلاح	حماه	١٩٢٨
الحبوبي ـ محمود	ديوانه		النجف	١٩٤٨
الحداد ـ نجيب	(تذكار الصبا)	ط ٢	الاسكندرية	١٩٠٥
حسن ـ محمد عبد الغني	(من نبع الحياة)	طبارة	بيروت	١٩٢٩
حمد ـ عمر	ديوانه	طبارة	بيروت	١٩٢٩
الحمصي ـ قسطاكي	ديوانه	المارونية	حلب	١٩٣٩
الحوماني ـ محمد علي	ديوانه	العرفان	صيدا	١٩٢٧
الخضري ـ عبد الغني	ديوانه		النجف	١٩٤٨
الخطيب ـ فؤاد	ديوانه		القاهرة	١٩٥٩
الخوري ـ اسكندر	(المنقود)		القدس	١٩٣٦
الخوري ـ اسكندر	(المعلوم والمجهول)		القدس	١٩٣٦
دموس ـ حليم	ديوانه		القدس	١٩٢٠
دموس ـ حليم	(المثالث والمثاني)		صيدا	١٩٢٦
الرافعي ـ مصطفى صادق	ديوانه		القاهرة	
الرصافي ـ معروف	ديوانه	ط ٤ الاعتماد	القاهرة	١٩٥٣
الزركلي ـ خير الدين	ديوانه	العربية	القاهرة	١٩٢٥
الزهاوي ـ جميل صدقي	(الاوشال)		بغداد	١٩٣٤
الزهاوي ـ جميل صدقي	(الرباعيات)		بيروت	١٩٢٤
الزهاوي ـ جميل صدقي	(اللباب)	الفرات	بغداد	١٩٢٨
سماحة ـ مسعود	ديوانه	السمير	بروكلين	١٩٣٨
سماكة ـ محمد باقر	(نسمات الفيحاء)		بغداد	١٩٤٠
الشبيبي ـ محمد رضا	ديوانه	الترجمة والتأليف والنشر	القاهرة	١٩٤٠
الشرتوني ـ محبوب الخوري	ديوانه		بروكلين	١٩٣٨

الشرقي ـ علي	(عواطف وعواصف)	المعارف	بغداد	١٩٥٣
شوقي ـ أحمد	(الشوقيات)	٤أجزاء الاستقامة		٥٠،٤٨،٥٠، ١٩٥١
شوقي ـ أحمد	(دول العرب وعظماء الاسلام)	مصر	القاهرة	١٩٣٣
الصافي النجفي ـ أحمد	(ألحان اللهيب)	اليقظة	دمشق	١٩٤٦
الصافي النجفي ـ أحمد	(الهواجس)			
صيدح ـ جورج	(النوافل)		بونس ايرس	١٩٤٧
الصيرفي ـ حسن كامل	(الشروق)	المعارف	القاهرة	١٩٤٨
طه ـ علي محمود	(زهر وخمر)	ط ٣	القاهرة	١٩٤٣
طوقان ـ ابراهيم	ديوانه	دار الكشاف	بيروت	١٩٥٥
العاملي ـ محمد كامل شعيب	(الحماسيات)		صيدا	١٣٤٣هـ
عبد المطلب ـ محمد	ديوانه	الاعتماد	القاهرة	؟
عريضة ـ نسيب	(الارواح الحائرة)		نيويورك	١٩٤٦
العدناني ـ محمد	(اللهيب)		صيدا	١٩٥٤
العطار ـ أنور	(ظلال الايام)	البرهاني	دمشق	١٩٤٨
العقاد ـ عباس محمود	(أعاصير مغرب)		القاهرة	١٩٤٢
العقاد ـ عباس محمود	(عابر سبيل)		القاهرة	١٩٣٧
العقاد ـ عباس محمود	(وحي الاربعين)		مصر	١٩٣٣
عماد ـ محمود	ديوانه	ط شبرا	مصر	١٩٤٩
الغلاييني ـ مصطفى	ديوانه	العباسية	حيفا	١٩٢٥
غنيم ـ محمود	(صرخة في واد)		مصر	١٩٤٧
الفراتي ـ محمد	ديوانه	بابيل	دمشق	١٩٣١
فرحات ـ إلياس	ديوانه	ط مجلة الشرق	سان باولو	١٩٣٢
فهمي ـ عزيز	ديوانه	دار المعارف	مصر	
فياض ـ إلياس	ديوانه	دار الثقافة	بيروت	١٩٥٤
فياض ـ نقولا	(رفيف الاقحوان)	الكاثوليكية	بيروت	١٩٥٠
القروي ـ رشيد سليم الخوري	(الاعاصير)	ط مجلة الشرق	سان باولو	

القروي ـ رشيد سليم الخوري	ديوانه	ط صفدي		سان باولو	١٩٥٢
قنصل ـ إلياس	(السهام)	ط ٣		بيونس ايرس	١٩٣٥
قنصل ـ إلياس	(على مذبح الوطنية)		«	«	١٩٣٣
الكاظمي ـ عبد المحسن	ديوانه ج١	ابن زيدون		دمشق	؟
الكاظمي ـ عبد المحسن	ديوانه ج٢			القاهرة	١٩٤٨
محرم ـ أحمد	ديوانه ج٢	الفتوح		دمنهور	١٩٢٠
مردم بك ـ خليل	ديوانه			دمشق	١٩٦٠
مطران ـ خليل	ديوانه ٤ أجزاء	ط		القاهرة	١٩ ٩
المعلوف ـ رشدي	(أول الربيع)	الكشاف		بيروت	١٩٤٤
المعلوف ـ فوزي	ديوانه	دار الريحاني		بيروت	١٩٥٧
المنصور ـ حسين	(الشاطىء الصخري)	الانجلو المصرية		القاهرة	
ناصر الدين ـ أمين	(صدى الخاطر)				
ناصر الدين ـ أمين	(الالهام)	الصفاء		لبنان	١٩٣١
نعيمة ـ مخائيل	(همس الجفون)	ط٢ صادر		بيروت	١٩٥٣
الهاشمي ـ محمد	(عبرات الغريب)				١٣٣٨ هـ
الوليد ـ أبو الفضل	(الانفاس الملهبة)	ط ٢ الوفاء		بيروت	١٩٣٤
الوليد ـ أبو الفضل	(نفخات الصور)			بيروت	١٩٣٤
وردى ـ مخائيل	(زهر الربى)	الهاشمية		دمشق	١٩٥٤
اليازجي ـ إبراهيم	(العقد)				؟
يحيى ـ عمر	(البراعم)	العلمية		حلب	١٩٣٦
اليعقوبي ـ أبو الاقبال	(النظرات السبع)	الهلال		دمشق	
اليعقوبي ـ محمد علي	ديوانه	النعمان		النجف	
يكن ـ ولي الدين	ديوانه	المقطم		مصر	١٩٢٤

ب ـ المراجع (المؤلفات)

أبو سعد ـ أحمد (الشعر والشعراء في العراق) المعارف بيروت ١٩٥٩

أرسلان ـ شكيب (حاضر العالم الاسلامي) ٤ أجزاء مصر

أرمنازي ـ نجيب (سورية من الاحتلال حتى الجلاء) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤

أسد ـ ناصر الدين (الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن) القاهرة ١٩٥٧

الاشتر ـ صبري (المختار من الشعر في سورية) ملحق برسالة جامعية، مخطوط

الاشتر ـ عبد الكريم (النثر المهجري) جزءان معهد الدراسات القاهرة ١٩٦١

انطونيوس ـ جورج (يقظة العرب) ترجمة حيدر الركابي اليقظة دمشق ١٩٤٦

البدوي ـ الملثم (عرار : عبد الله وهبي التل) الوطنية عمان ١٩٥٨

بطي ـ رفائيل (الشعر العصري في العراق العربي) مصر ١٩٢٣

جبران ـ جبران خليل (المجموعة الكاملة لمؤلفاته) بيروت ١٩٥٥

جبري ـ شفيق (أنا والشعر) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٩

جمعة ـ ابراهيم (القومية المصرية الاسلامية) القاهرة ١٩٤٤

جمعية الرابطة العلمية الادبية بالنجف (الفلسطينيات) بغداد ١٩٣٩

الجندي ـ أدهم (أعلام الادب والفن) دمشق ١٩٥٤

الجندي ـ أنور (نزعات التجديد في الادب المعاصر) القاهرة ١٩٥٧

الحاني ـ ناصر (جميل صدقي الزهاوي) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤

حسين ـ محمد (الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر) جزءان القاهرة ١٩٥٤

الحسيني ـ اسحق موسى (الاخوان المسلمون) بيروت

الحصري ـ ساطع (نشوء الفكرة القومية) ط ٢ القاهرة ١٩٥٥

الحصري ـ ساطع (آراء وأحاديث في القومية العربية) ط ٢ بيروت ١٩٥٦

حمزة ـ عبد اللطيف (الصحافة والادب في مصر) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٥

الحوفي ـ أحمد محمد (وطنية شوقي) القاهرة ١٩٥٥

الخاقاني ـ علي (شعراء الغري) النجف

الخوري ـ رئيف (الفكر العربي الحديث) بيروت ١٩٤٣

داغر ـ أسعد (ثورة العرب) المقطم مصر ١٩١٦

الدجيلي ـ عبد الكريم (الشعر العراقي الحديث) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٩

الدهان ـ سامي (شكيب أرسلان) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٨

الدسوقي ـ عمر (في الادب الحديث) جزءان القاهرة ١٩٥٥

ديب ـ وديع (الشعر العربي في المهجر الامريكي) بيروت ١٩٥٠

الرافعي ـ عبد الرحمن شعراء الوطنية) النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٤

الرافعي ـ عبد الرحمن (ثورة ١٩١٩) جزءان القاهرة ١٩٤٦

الرزاز ـ محمد منيف (معالم الحياة العربية الجديدة) دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٦

رونوفن (تاريخ القرن العشرين) جامعة دمشق ط٢ دمشق ١٩٦٠

زريق ـ قسطنطين (الوعي القومي) بيروت ١٩٤٠

زيدان ـ جرجي (تاريخ آداب اللغة العربية) ح٤ دار الهلال القاهرة ١٩٥٧

زيدان ـ جرجي (تراجم مشاهير الشرق) القاهرة ١٩٣٢

سعادة ـ أنطون (الصراع الفكري في الادب السورى) ط٢ بيروت ١٩٤٧

سعيد ـ أمين (الثورة العربية الكبرى) الباب الحلبي مصر ؟

سعيد ـ جميل (التيارات الادبية في العراق) معهد الدراسات مصر ١٩٥٤

سند الجندي ـ عبد الحميد (حافظ ابراهيم) المعارف القاهرة ١٩٥٩

شهابي ـ مصطفى (محاضرات في القومية العربية) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٨

شيخو ـ لويس (الآداب العربية في القرن التاسع عشر) ح٢ بيروت ١٩٢٦

صليبا ـ جميل (الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٨

صيدح ـ جورج (أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية) ط٢ بيروت ١٩٥٧

ضيف ـ شوقي (الادب العربي المعاصر) المعارف القاهرة ١٩٥٧

ضيف ـ شوقي (شوقي شاعر العصر الحديث) المعارف القاهرة ١٩٥٣

الطاهر ـ أحمد (حافظ ابراهيم) معهد الدراسات القاهرة ١٩٠٤

طبانة ـ بدوي (معروف الرصافي) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤

الطرابلسي ـ أمجد (شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٧
عباس ـ احسان
نجم ـ محمد يوسف (الشعر العربي في المهجر) بيروت ١٩٥٧

عبيد ـ أحمد (ذكرى الشاعرين) الترقي دمشق ١٣٥١هـ
عرفة ـ ياسين (ديوان الثورة العربية) القاهرة ١٩٢٦
عزام ـ عبدالرحمن (الرسالة الخالدة) التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٦
عز الدين ـ نجلاء (العالم العربي) « « « « القاهرة ١٩٥٠
عقل ـ سعيد (قدموس) ط ٢ بيروت ١٩٤٧
علي ـ مصطفى (معروف الرصافي) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤
العمري ـ خير الدين (شخصيات عراقية) بغداد ١٩٥٥
فارس ـ نبيه أمين ومحمد توفيق حسين (هذا العالم العربي) دمشق
فروخ ـ عمر (شاعران معاصران) بيروت ١٩٥٤
قدري ـ أحمد (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى) ابن زيدون دمشق ١٩٥٦
الكيالي ـ سامي (الحركة الادبية في حلب) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٦
ماهر ـ حسن فهمي (شوقي: شعره الاسلامي) المعارف القاهرة ١٩٥٩
المبارك ـ محمد (الامة العربية في معركة تحقيق الذات) دمشق ١٩٥٩
المقدسي ـ أنيس الخوري (الاتجاهات الادبية) جزءان بيروت ١٩٥٠
المقدسي ـ أنيس الخوري (العواطف القومية في الادب العربي) مخطوط
مندور ـ محمد (الشعر المصري بعد شوقي) ٣ أجزاء معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٨
مندور ـ محمد (في الميزان الجديد) ط ٢ نهضة مصر القاهرة
مندور ـ محمد (خليل مطران) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤
مندور ـ محمد (ولي الدين يكن) معهد الدرسات القاهرة ١٩٥٦
ميرزا ـ زهير (إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر) اليقظة دمشق ١٩٥٤
نحاس ـ عبدالله يوسف (الفينيقيون) ط جريدة البصير ؟ ١٩٤٣
مدير الدعاية ببغداد (فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله) بغداد ١٩٤٥
هلال ـ محمد غنيمي (الرومانتيكية) ط نهضة مصر القاهرة ؟

ج ـ المحاضرات

(مجموعة محاضرات دار الكتب الوطنية بحلب) حلب ١٩٥٢
(محاضرات الموسم الثقافي) مطبعة حكومة الكويت
(محاضرات في الشعر المعاصر) أمالٍ مخطوطة الدكتور إسحق موسى الحسيني

د ـ الدوريات

الآداب	مجلة بيروتيـة
ألف باء	جريدة ـ دمشقية
الأهرام	جريدة ـ مصرية
البرق	جريدة ـ بيروتية
دار العلوم	مجلة كلية دار العلوم ـ مصرية
الرابطة الادبية	مجلة ـ دمشقية
الرسالة	مجلة ـ مصرية
السياسة الاسبوعية	مجلة ـ مصرية
العصبة	مجلة ـ برازيلية
القبس	جريدة ـ دمشقية
المجمع العلمي العربي	مجلة ـ دمشقية
المشير	مجلة ـ مصرية
المقتطف	مجلة ـ مصرية
الهلال	مجلة ـ مصرية

(١) أشرنا الى المحاضرة وصاحبها والى أعداد الدوريات في هوامش البحث .

فهرس الشعراء

قصرنا هذا الجدول على الشعراء فأشرنا الى مواضع ورود اسمائهم في الكتاب ، وحرصنا على ذكر موطن الشاعر أو بلده ، وعلى اثبات تاريخ ولادته ووفاته ان تيسر لنا ذلك .

آ

ب

المحتوى

الباب الثالث

موضوعات الشعر القومي